



بَلَاءُ الْيَتَامَى وَفُتُوهُنَا

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة
٣ شارع كامل صدقي "البحر"

لقى الضابط نظرة كئيبة على الردهة الطويلة التي تفتح عليها فصول السنتين الثالثة والرابعة ، وقد شمل المدرسة - التوفيقية - سكون عميق ، ثم مضى الى فصل من فصول السنة الثالثة . ونقر على الباب مستأذنا ، ودخل متجها صوب المدرس وأسر في أذنه بضع كلمات ، فسدد المدرس بصره صوب تلميذ يجلس في الصف الثاني وناداه قائلا :
- حسين كامل على .

فقام التلميذ وهو يردد بين المدرس والضابط نظرة مليئة بالترقب والقلق ، وغمغم :
- افندم ؟

فقال المدرس :

- اذهب مع حضرة الضابط .

فخرج التلميذ عن قمطره ، وتبع الضابط الذي غادر الفصل في خطوات بطيئة . ولم يطمئن قلبه لهذه الدعوة ، وراح يسائل نفسه : ترى أ جاءت بسبب المظاهرات الأخيرة ؟ . وكان قد اشترك في المظاهرات ، وهتف مع الهاتفين : « ليسقط تصريح هور » و « ليسقط هور ابن الثور » ، وقد ظن أنه نجا من الرصاص والعصى والعقوبات المدرسية جميعا ، فهل كان مغاليا في ظنه ؟ . وسار وراء الضابط في الردهة الطويلة متفكرا ، يتوقع بين لحظة وأخرى أن يجبهه بما عنده من تهم . ولكن قطع عليه تفكيره وقوف الرجل حيال فصل من فصول السنة الرابعة ودخوله مستأذنا ، ثم بلغ مسمعه صوت المدرس وهو ينادى قائلا :
- حسين كامل على .

شقيقه أيضا ؟! ولكن كيف يمكن أن توجه إليه تهمة من هذه التهم وهو لا يشترك في المظاهرات بتاتا ؟! وعاد الضابط يتبعه الفتى واجبا ، وما أن وقعت عيناه على شقيقه حتى غمغم في دهشة :
- وانت ؟!.. ماذا حدث ؟!

وتبادلا نظرة حائرة ، ثم تبع الضابط الذي مضى متسما حجرة الناظر . وسأله حسين في لهجة رقيقة مؤدبة :
- ما الذي أوجب استدعاءنا من الفصل ؟
فأجاب الضابط بعد تردد قائلا :
- ستقابلان حضرة الناظر ..

وقطعوا بقية الردهة دون أن ينبس أحدهم بكلمة . وكان الشقيقان متشابهان لدرجة كبيرة ، فكلاهما له هذا الوجه المستطيل ، وعينان عسلتان واسعتان ، وبشرة سمراء ضاربة الى العمق ، الا ان حسين في التاسعة عشرة ، يكبر اخاه بعامين ودونه طولاً ، على حين يمتاز حسين بدقة في قسما ت وجهه أكسبته وضاءة ووسامة . ومضى قلقهما يتزايد وهما يقتربان من حجرة الناظر ، وتخايل لعينيهما منظره الصارم في رهبة وخوف . وزرر الضابط سترته ، ونقر على الباب ، ثم دفعه برقة ودخل وهو يومئ اليهما أن يتبعاه . ودخلا وهما ينظران الى الرجل وقد انكب على مكتبه في صدر الحجرة يقرأ رسالة بعناية دون أن يرفع بصره نحو القادمين كأنه لم يشعر بحضورهم . وحياء الضابط بأدب جم وقال :

- التلميذان حسين كامل على وحسين كامل على .
فرفع الناظر رأسه وهو يطوى الرسالة بيديه ، وأطفا عقب سيجارة في النافضة ، وجعل يردد بصره بينهما ، ثم تساءل :
- في أى سنة أنتما ؟

فقال حسين بصوت متهدج :

- رابعة رابع .

وقال حسنين :

— ثلاثة ثالث .

فنظر الرجل اليهما مليا ثم قال :

— أرجو أن تكونا رجلين كما ينبغي . لقد توفى والدكما كما

أبلغني أخوكما الأكبر ، والبقية في حياتكما ..

ووجما في ذهول وانزعاج ، وهتف حسنين وهو لا يدري قائلا:

— توفى أبي !! .. مستحيل !

وغمغم حسين وكأنه يحدث نفسه :

— كيف ؟! لقد تركناه منذ ساعتين في صحة جيدة وهو

يتأهب للخروج الى الوزارة ..

فصمت الناظر قليلا ثم سألهما برقة :

— ماذا يعمل أخوكما الأكبر ؟

فقال حسين بعقل غائب :

— لا شيء ..

فتساءل الرجل :

— أليس لكما أخ آخر موظف أو شيء من هذا القبيل ؟

فهرز حسين رأسه قائلا :

— كلا ..

فقال الرجل :

— أرجو أن تتحملا الصدمة بقلوب الرجال ، واذهبا الآن

الى البيت كان الله في عونكما ..

٢

وغادرا المدرسة الى شارع شبرا يلتصقان طريقهما خلل

الدموع . وكان حسنين أسرعهما الى البكاء فأراد حسين أن

ينهره في حال عصبية ولكن أفحمه البكاء واختنق صوته فلم

ينبس بكلمة . وعبرا الطريق الى الجانب الآخر ، وحثا خطواتهما
قاصدين عطفة نصر الله على مسير دقائق من المدرسة . وتساءل
حسين وهو ينظر الى شقيقه كالمستغيث :
- كيف مات ؟

فهز حسين رأسه واجما وتمتم :
- لا أدري . لا أستطيع أن أتصور . لقد تناول فطوره معنا .
وتركناه في صحة جيدة . لا أدري كيف وقع هذا ..

وحاول حسين أن يتذكر الصباح القريب بتفاصيله فذكر
أنه رأى أباه أول ما رآه وهو عائد من المرافق فحياه كعادته
قائلا : « صباح الخير يا بابا » فأجابه مبتسما : « صباح الخير ،
ألم يستيقظ أخوك ؟ » واجتمعوا بعد ذلك حول المائدة ، فدعا
الرجل الأم الى مشاركتهم الطعام فاعتذرت بأن نفسها مصدودة ،
فتذمر الرجل قائلا : « اذا جلست معنا انفتحت نفسك » ولكنها
أصرت على الاعتذار . فقال بعدم اكتراث وهو يقشر بيضة :
« على كيفك » . لا يذكر أنه سمعه يتكلم بعد ذلك ، اللهم
الا نحنحة مقتضبة . وكان آخر ما رآه منه ظهره وهو يدخل
حجرته مجففا يديه في منشفته . ثم انتهى ، انتهى ، أبشع
بها من كلمة . واسترق الى حسين نظرة مروعة فوجده محزونا
واجما كأنما كبر وشاخ ، وعاد الى ذكرياته وهو يكابد لوعة
حارة : « لا اصدق انه مات » ، لا أستطيع أن اصدق . ما هذا
الموت ؟ . لا أستطيع أن اصدق . انتهى ؟! لو كنت أعلم أن هذا
آخر ما بقى لنا من عمره ما غادرت البيت . من أين لى أن أعلم ؟ .
أيموت الانسان وهو يأكل ويضحك ؟ لا اصدق . لا أستطيع
أن اصدق . وانتبه على أخيه وهو يجذبه من ذراعه الى عطفة
نصر الله التي كاد يفوتها في ذهوله . وسارا في طريقها الضيق
تصطف على جانبيه البيوت القديمة والخوانيت الصغيرة الى

ما يعترضها من عربات الغاز والخضر والفاكهة . وسبقهما
البصر الى عمارتهما ذات الأدوار الثلاثة والفناء المستطيل التراب،
ثم ترمى الى اذنيهما الصوات فتبيننا صوتي أمهما وأختهما
الكبرى وهزهما حتى الأعماق فأجهشا في البكاء ، وجريا ليلويان
على شيء ، وارتقيا السلم مهرولين الى الدور الثاني فوجدا
باب الشقة مفتوحا فتدافعا الى الداخل ، وقطعا الصالة الى
حجرة الأب في نهايتها ثم دخلا وهما يلهثان . وثبتت عيناها
على الفراش وقد وشى الغطاء بالجسم الممدد تحته ، ثم اقتربا
من حافته وارتميا عليها وأغرقا في نشيج حار . وكفت الأم
والأخت عن الصوات على حين غادرت الحجرة امرأتان غريبتان .
وأرادت الأم أن تتركهما ينفسان عن صدرهما فتماسكت واقفة
في جلبابها الأسود وقد احمرت عيناها وانتفخ خذاها وانفها ،
أما الأخت فقد ارتمت على كنبه وأخفت وجهها في مسندها
وراح جسمها ينتفض من البكاء . وكان حسين يبكي ولسانه
يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة استنزالا للرحمة . وكان
حسين يبكي في جو من الخوف والذهول والانكار . وقف حيال
الموت محتجا ثائرا ولكن في نفس الوقت خائفا يائسا . « ليس
هذا بأبى . لا يمكن أن يسمع أبى هذا البكاء كله دون أن يتحرك .
رباه لماذا يجمد هكذا ؟ انهم سيكون ولكن في تسليم من لا حيلة
له . لم أكن لاتصور هذا ، ولا اتصوره . ألم أراه يمشى في هذه
الحجرة منذ ساعتين ؟ ليس هذا أبى . وليست هذه حياة »
وبدا الانتظار وكأن لا نهاية له فاقتربت الأم من الشابين ومالت
نحوهما قائلة :

— حسبكما . قم يا حسين خذ أخاك خارجا .

وأعادت القول حتى قام حسين وأنهض أخاه ولكنهما لم
يفادرا الحجرة . وقفا يلقيان على الحدث المسجى نظرة طويلة
غائمة بالدموع . ولم يستطع حسين أن يقاوم رغبة حارة غامضة

فألحني على الجثمان وكشف الغطاء عن وجهه دون مبالاة بالحركة التي بدرت من أمه ، فطالعه الوجه الغريب موسوما بميسم الفناء ، تشوبه زرقة مروعة ، ويرين على صفحته سكون غير دنيوى ، فى عمق العدم ولا نهائيته ، فسرت رجفة فى أوصاله . لم يكن أحد منهما قد رأى ميتا قبل هذه المرة فركبهما الخوف والأسى . ونفذ إلى أعماقهما حزن قهار إلى حيث لم تنفذ عاطفة من قبل . ومال حسين نحو الميت ولثم جبينه فعاودته الرجفة . ومال حسنين نحوه كذلك ولثم جبينه فى شبه غيبوبة . وأعادت الأم الغطاء على الرأس الفانى ، وحالت بينهما وبين الفراش ، ثم قالت لهما بلهجة حازمة :
- اخرجا ..

فتراجعا خطوتين ، وتولى حسنين عناد طارىء فتوقف ، وتشجع به حسين فتوقف كذلك . وجال بصرهما بالحجرة فيما يشبه الدهول ، وكأنهما كانا يتوقعان تغيرا شاملا لا يدرىانه ، ولكنهما وجداهما كالعهد بها لم يتغير منها شيء . هذا الفراش على يمين الداخل ، والصوان فى الصدر يليه المشجب ، وإلى اليسار الكنبه التى ارتمت عليها الأخت وقد أسند إلى حافتها عود انفرست ريشته بين أوتاره ، وثبتت عيناهما على العود فى دهشة منزوجة بالحزن . طالما لعبت أنامل الراحل بهذه الأوتار ، وطالما التف حولها الأصدقاء مطرين يستعيدون ويعيدون ، فما أعجب ما بين الطرب والحزن من خيط رقيق ، أرق من هذا الوتر . ثم مر بصرهما الحائر بساعة الراحل على خوان غير بعيد من الفراش ، لاتزال تدور باعثة دقاتها الهامسة ، ولعل الراحل قرأ فيها آخر تأريخ له فى الدنيا وأول عهدهما باليتم . وهذا قميصه على المشجب وقد لاحت آثار عرقه ببنيقته ، فرنوا إليها بحنان عميق ، وقد بدا لهما فى تلك اللحظة أن عرق الإنسان أشد ثباتا من حياته العظيمة . ولبثت الأم تنظر إليهما فى صمت . لم تعبر

لها خواطرهما على بال ولكنها كانت تدرك من هول الكارثة ما لم يدر لهما بخلد . وندت من حسنين تنهدة حارة لفتت اليه شقيقه فوضع يده على كتفه وهمس في أذنه :
- هلم بنا .

والقى الشابان نظرة أخيرة على الجثمان المسجى وهما يعتقدان - بحكم العادة المتوارثة - أن عيني أبيهما تريانهما رغم الموت فلم يولياه ظهرهما أن يسىء اعراضهما الى شعوره ، وبعثا اليه بترحية قلبية وتقهقرا الى الباب ثم غادرا الحجرة . ولاحظ من حسنين نظرة الى أخيه فطالع في وجهه حزنا عميقا مؤثرا فخفق قلبه وأحس نحوه بعطف ، كما أحس بحاجته الشديدة الى عطفه ..

٣

وغادر الشقيقان الشقة الى باب العمارة حيث اصطفت بعض الكراسى فوجدا أخاهما الأكبر - حسن - جالسا في صمت وكآبة . وجلسا الى جانبه يشاركانه صمته وكآبته . لم يكن لديهما فكرة عما ينبغى عمله ، أما حسن فكان ذا تجارب كثيرة . وكان يشبه أخويه الى حد كبير بيد انه اختلف عنهما في نظرة عينيه التي تنم عن جراءة واستهتار ، فضلا عن أن طريقتة في ترجيل شعره الكثيف المنفوخ ، ولبس البدلة ، دلت على عنايته بنفسه من ناحية ، وعلى قدر غير قليل من الابتذال من ناحية أخرى . كان حسن يعلم بما ينبغى عمله ولكنه لم يبد حراكا لأنه كان ينتظر مقدم شخص هام . وقد سأل حسين بتأثر :
- كيف مات والدنا ؟

فأجاب قائلا وهو يقطب :

- مات فجأة فاذهلنا جميعا . كان يرتدى ملابسه وكنت جالسا في الصالة فما أدري الا ووالدتنا تناديني بفزع ، فهرعت

الى الحجرة ، فوجدته ملقى على الكنبه وصدره يعلو وينخفض .
وجعل يومئذ فى ألم الى صدره وقلبه فحملناه الى الفراش .
وقدما له كوب ماء ولكنه لم يستطع أن يشرب . ثم غادرت
الحجرة مسرعا لاستدعاء طبيب ، ولكنى لم أكد أبلغ الفناء حتى
صك مسمعى صوات حاد فعدت فزعا ، ووجدت أن كل شئ
انتهى ..

ورأى وجهى شقيقه يتقلصان من الألم فازداد وجهه كآبة .
كان يشعر بحرج شديد جعله يتوجس خيفة من شقيقه أن يظنا
بحزنه الظنون . كاتا يعلمان بطبيعة الحال بما كان يقع بينه وبين
والديه من شقاق وملاحاة بسبب حياته المضطربة المستهتره .
فخافا أن يحسباه دونهما حزنا وأسفا . والحق أنه يجد لوعة
الحزن والأسى . والحق أنه لم يبغض أباه قط على رغم ما كان .
واذا لم يكن حزنه كحزنهما فمرجع هذا الى تقدمه عنهما فى السن
- كان فى الخامسة والعشرين - والى تمرسه بالحياة حلوها ومرها ،
ومرها على الأكثر ، الأمر الذى يلفط عادة من مرارة الموت . حقا
كان قلبه يحدثه بأنه لن يجد بعد اليوم من يصرخ فى وجهه قائلا :
« لا أستطيع أن أعول رجلا خائبا مثلك الى الأبد ، فما دمت قد
نبذت الحياة المدرسية فشق سبيلك بنفسك ولا تلق بنفسك
على » . حقا لن يجد من يقول له هذا بعد اليوم ، ولكنه لن يجد
كذلك من يؤويه اذا ضاقت به السبل وكثيرا ما تضيق به حتى
لا يوجد بهامنفذ لأمل . انه اعظم ادراكا لحقيقة الكارثة التى وقعت
من هذين الطفلين الكبيرين فكيف تنقصه دواعى الحزن والأسف؟! .
واختلس من الوجهين المحزونين نظرة سريعة من عينيه البراقتين
ثم عض شفتيه . كان يحبهما على رغم الظروف التى تدعوه الى
الحقد عليهما وفى مقدمتها جميعا نجاح حياتهما المدرسية وتمتعهما
بعطف أبيه . ولكنه لم يكن يرى فى المدرسة ميزة يحسد عليها
أحد ، ومن ناحية أخرى كان مقتنعا بأن أباه يحبه كشقيقه وان

ران على حبه السخط والغضب ، وأهم من هذا كله أن الشعور
برابطة الأسرة كان ولا يزال قويا في آل كامل بفضل الأم قبل
كل شيء .

وعند الضحى أقبل عليهم رجل وامرأة في ثياب ريفية فعرفوا
فيهما خالتهم وزوجها عم فرج سليمان ، وقد عزاهم الرجل
وشاركهم جلستهم ، على حين هرولت الخالة الى الداخل وهى
تصرخ « يا خراب بيتك يا اختى » فدوت العبارة في آذانهم دويا
مفجعا وعاود الشابين البكاء . وراح عم فرج سليمان يحدث
حسن بينا خلا الشقيقان الى نفسيهما فى صمت طويل . والتقت
أفكارهما وهما لا يدريان فى مصر ابيهما بعد الموت . وكان
حسين راسخ العقيدة عن وراثته وبعض العلم فلم يداخله شك
فى النهاية ، وسأل الله بقلبه أن يلقي أباه فى ذلك اليوم البعيد
وهما على أحسن حال من رضوان الله . وأما حسنين فكان
فى حيرة من كرب الموت لا يدع للعقل راحة للتأمل والتفكر .
وكان يسلم بالايان تسليما وراثيا لا شأن فيه للفكر ، وقد
حملته أمه يوما على أداء الفرائض فأداها دون وعى ، ثم هجرها
فى شيء من التردد دون تكذيب أو زيغ . ولم تتسلط العقيدة
على فكره . ولم تشغل باله كثيرا ، ولكنه لم يجد نفسه
خارجا على حقائقها قط . وقد دفعه الموت الى التفكير ولكنه
لم يطل به ، وسرعان ما عاوده التسليم تؤيده هذه المرة
عاطفة حادة : « هل الموت هو النهاية ؟ . ألا يبقى من أبى
إلا التراب ولا شيء وراء هذا ؟ . معاذ الله . لن يكون هذا .
ان كلام الله لا يكذب » . ولبث حسن وحده لا يشغله شيء من
هذه الأفكار . ولم يستطع الموت نفسه أن يدعوها الى رأسه .
كأنه كان وثنيا بالفطرة . والحقيقة أنه لم يتأثر بأى نوع من التربية
أو التهذيب . كان ابن الشارع كما كان يدعو أبوه فى ساعات
الغضب . وقد طبع على العبث فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور

العقيدة ، وما انفك يتخذ منها مادة لمزاحه ودعابته ، وحتى الأثر الخفيف الذى علق بقلبه من وحى أمه ضاع فى خضم الحياة التى اكتوى بنارها . لذلك تاه به الفكر فى وديان بعيدة عن الأبدية تتركز حول هذه الحياة وحظه وحظ أسرته منها . بيد أنه لم يطل به المكث مع شقيقه وزوج خالته فقد تراءى عن بعد رجل يهرول قادما ما أن وقع بصر حسن عليه حتى قال بارتياح كأنه كان ينتظره .
- فريد افندى محمد !

وكان القادم يجفف جبينه بمنديل على رغم لطافة الجو الخريفى ، ولكنه كان بدينا مفرطا فى البدانة ، ذا كرش عظيمة ، ووجه مستدير مكتنز لاحت فيه قسماته دقيقة صغيرة ، على أن بدانته وكهولته وأناقته أيضا أضفت عليه وقارا مما يعتز به موظفو الحكومة والكتبة منهم خاصة . وعلقت به أعين الاخوة برجاء يستحقه من كان جارا مثله وصديقا قديما لأبيهم . وأقبل الرجل عليهم معزيا . ثم خاطب حسن قائلا :

- طلبت اجازة اليوم من الوزارة . هلم بنا الى ديوان المرحوم لصرف الدفنة ثم لابتياح اللوازم الضرورية .
وجعل يسأل عما كان وصاه به قبل ذهابه الى الوزارة من اجراءات تستدعيها الوفاة ، ثم تأبط ذراعه وذهبا معا ..

٤

وعند اقتراب موعد الجنازة بلغ الاضطراب بحسنين مداه ، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه . كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو التى يحب أن يظهر بها امام الناس . لم يكن أخواه ليكثرثا كثيرا لهذا الأمر ، أما هو فكان يعد اخفاق الجنازة كارثة كالموت نفسه ، غضبا لأبيه الذى يحبه ،

ولنفسه هو . وقلب عينيه فيمن تجمع من المشيعين فلم ير
أحدا يلا العين الا جارهم الكريم فريد افندى محمد ، أما زوج
خالته فكان في حكم العمال ، وليس عم جابر سليمان البقال بخير
منه ، والحلاق أدهى وأمر ، ونفر غيرهم غيابهم أشرف من
حضورهم . وانقبض صدره وغشيه كدر عميق . ولكنه كان
قليل الصبر فما ولّفت الساعة الرابعة حتى تدفقت جماعات
الموظفين حتى سدوا عطفة نصر الله سدا . وردت اليه الروح
فعاد الى حزنه خالسا من القلق . ثم حدث ما لم يدر له في
حسبان ، فجاءت سيارة فخمة تنطق بالعز والجاه ، ووقفت على
بعد يسير من البيت وغادرها ساع ففتح بابها ثم نزل منها رجل
ينم مظهره على الألقاب والرتب . وتقدم بجسمه الطويل العريض
الذي عقدت عليه الخمسون هالة من وقار فهرع اليه الاخوة
بأدب ، واندس بينهم فريد افندى محمد ليحظى باستقبال
الشخصية الممتازة التي ينبغي أن يقدرها - كموظف - أكثر
من سواه . وتساءل القادم في صوت منخفض :

- اليس هذا بيت المرحوم كامل افندى على ؟

فبادره فريد افندى قائلا باحترام :

- بلى يا سعادة البك ..

ولم يجدوا ما يقدمونه له الا كرسيًا خيزرانا على قارعة
الطريق فشمروا بحرج غير قليل . وكان حسنين قد امتلأ ارتياحا
لمقدمه ولكنه وجد ضيقا لسؤاله عن بيت المرحوم مما دل على
أنه لم يكن يعرف البيت ، واقترب من أخيه حسن وسأله :

- من يكون هذا الرجل ؟

فقال حسن :

- أحمد بك يسرى ، مفتش عظيم بالداخلية ، وصديق

حميم للمرحوم ..

فسأله بغرابة :

— لماذا سأل عن البيت كأنه لا يعرفه ؟

فحدّجه حسن بنظرة غريبة وقال :

— كان والدنا كثير التردد على بيته ، أما هو .. أنه رجل

عظيم كما ترى .. !

وصمت الشاب لحظة ثم استدرك قائلا :

— كان المرحوم يحبه ويعده أعز صديق .

وناسى حسنين هذا ، ولم يشأ أن يفسد على نفسه زهوها .

وود لو يراه — ذلك المفتش — المشيعون جميعا ثم حلت اللحظة

المفجعة فخرج النعش من البيت وعلا الصوات من الشرفة

والنوافذ . انتظمت الجنازة بالمشيعين جميعا يتقدمهم النعش .

وعلقت أعين الشقيقين بالنعش في ذهول وانكار ، وتساقطدمعهما

طوال الطريق . وبلغوا المسجد فأخذوا في توديع المشيعين

وشكرهم . وأظهر البعض استعدادا لمراقبة النعش حتى

مستقره الأخير ، ولكن حسنين همس في أذن أخيه الأكبر قائلا :

— لا تسمح لأحد بالذهاب مهما كلفك الأمر .

كان حريصا على ألا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الأسرة .

ووقفوا إلى صرف المشيعين ، وركبوا سيارة الموتى وليس في

ركابهم إلا عم فرج سليمان وفريد أفندى محمد الذى أبى الرجوع

إباء لم ينفع فيه الرجاء . وانطلقت السيارة بهم إلى باب النصر ،

ووقفت بهم ناحية قامت بها القبور في العراء ثم وورى جثمان

كامل أفندى في قبر غير بعيد من الطريق الملتوى الذى يشق

المدافن كأنه من قبور الصدقة . ووقف حسنين غارقا في الحزن

والبكاء ، ولكنه على حزنه كان يسترق النظرات إلى محمد أفندى

فريد فى خجل واستياء « لو علم التلاميذ بالوفاة لجاءونى معزين ،

ولرافقنى بعضهم حتما إلى هذا القبر . الحمد لله الذى لا يحمد

على مكروهه سواء . لا مقبرة ولا يحزنون . لماذا لم يبن والدنا

مقبرة تليق بأسرتنا ؟! » .

انتصف الليل أو كاد ، وخلت الشقة الا من اهلها . وآوت الأسرة الى الصالة ومعهم الخالة وزوجها . وراحت الأم تعيد قصة الوفاة للمرة العشرين في ذاك اليوم الحزين ، وانصت اليها حسين وحسين باهتمام ، على حين وجم حسن متفكرا .

وتحدث حسين عن أحمد بك يسرى متحاشيا مسألة جهله للبيت ، لوجود خالته وزوجها من ناحية ، ولأنه لم يكن يحب أن يذكرها من ناحية أخرى . وكان شعور العطف نحو والده يملأ عليه نفسه فجعل يرنو الى باب حجرتة المغلقة بطرف حزين ، ويتخيل فراشه الخالي بانكار وأسف . ثم نظرت الأم الى الأبناء وقالت :

— قوموا للنوم ...

واذعنوا لمشيئتها بلا اعتراض بعد يوم شاق اليم ، ومضوا الى حجرتهم . وكان بالحجرة ثلاثة أسرة صغيرة فأخلوا واحدا لزوج خالتهم الذى لحق بهم على الأثر ، وشارك حسين حسين فى فراشه . ولكنهم لم يستسلموا للنوم ، أو تأبى النوم عليهم ، فراحوا يتحدثون عن أبيهم بحزن وحنان ، ويذكرون أيامه الأخيرة ، وميتته المفاجئة . ثم قال حسين :

— كانت جنازته تليق بمقامه حقاً ..

فقال عم فرج سليمان مؤمناً على قوله :

— كان رحمه الله رحمة واسعة رجلاً عظيماً ، فلا عجب أن تكون جنازته عظيمة مثله . ولقد امتلأت عطفة نصر الله بالمشيعين من البيت الى شارع شبرا ..

ولم يرتج حسنين لصوت الرجل ، وكان يشعر لوجوده بضيق ، ثم ذكر حائقا انه رأى القبر العارى ، فقال :
- العجيب ان والدنا وقد افنى مالا كثيرا لم يفكر فى بناء مقبرة تليق بالأسرة .

فعاد الصوت الذى لم يرتج اليه يقول :
- وهل كان يظن انه سيهلك فى مثل هذه السن ؟ . ان والدك فى الخمسين . وعندنا فى الريف كثيرون يتزوجون للمرة الثانية او الثالثة فى هذه السن .

وصمت الرجل مليا ثم استدرك قائلا :
- ولا تنس ان والدك قد هاجر مع جدته من دمياط الى القاهرة وهو فى مثل سنك يا سى حسنين ، فلستم من أهل القاهرة الذين يتوارثون المقابر جيلا بعد جيل .
فقال حسنين بامتعاض :
- حقا لسنا من أهل القاهرة وان كانت أسبابنا بآلنا فى دمياط قد انقطعت .

وذكر فى حزن انه لا يعرف لنفسه اقارب غير خالته هذه .
وسيبقى هذا القبر المغمور فى العراء رمزا لضياعهم المخجل فى هذه المدينة الكبيرة . وازداد ضيقا بوجود هذا الرجل الذى احتل فراشه ، فآثر الصمت حتى يقطع عليه سبيل الكلام . وساد الصمت حتى رنق النوم بأجفانهم . وفى الصالة لم تبارح الأم وأختها وابنتها مجلسهن ، ولم يتعين من الحديث عن الفقيد العزيز . وكان الشعور بالفاجعة هنا أعمق من الحجرة الأخرى . وقد ارتسمت أماراته على وجه الأم النحيل البضاوى وعينيها الملتهبتين . وكانت بأنفها القصير الغليظ وذقنها المدب وجسمها النحيل القصير توحى بأنها وهبت الأسرة خير ما فيها ، فلم يبق من حيويتها الا نظرة قوية تنم عن الصبر والعزم .

وكان التغير الطارئ عليها من العمق بحيث يتعذر تصور ما كانت

عليه أيام شبابها ، إلا أن ابنتها نفيسة كانت تعيد حياتها وصورتها بدقة كبيرة . كان لها هذا الوجه البيضاء والنحيل والأنف القصير الغليظ والذقن المدب ، إلى شحوب في البشرة ، وأحديداب قليل في أعلى الظهر ، فلم تكن تختلف عن أمها إلا في طولها المائل لطول شقيقها حسنين . كانت بعيدة عن الوسامة ، وأدنى إلى الدمامة . وكان من سوء الحظ أن خلقت على مثال أمها ، على حين ورث الأخوة خلقة أبيهم . وكان الحزن قد أتى عليها فبدت في صورة بشعة واستغرقت فكرها ذكريات والدها الحبيب . أما الأم فعلى حزنها الشديد دارت برأسها خواطر أخرى . كان يداخلها نحو اختها شعور بعدم الارتياح . ولم تستطع أن تنسى أنها كانت تنقص عليها حياتها ، وأنها كان يحاول لها كثيرا أن تقارن بين حظيها فتقول : أن اختها تزوجت من موظف أما زوجها هي فعامل في محلج قطن ، وأن اختها تقيم في القاهرة وهي مقضى عليها بالحياة في الريف ، وأن أبناء اختها تلاميذ وأبناءها هي لا حظ لهم إلا حظ العمال ، وأن كرار اختها لا ينضب معينه أما بيتها فلا يعرف السعة إلا في المواسم . لعلها لا تجد الآن ما تحسدها عليه . وامتلات نفسها امتعاضا إلى ما بها من حزن . أنها تدرك من هول الكارثة ما لا يدركه أحد . انتهى زوجها ، وأنها لتتلفت يئسرة ويسرة فلا تجد أحدا تعرفه إلا هذه الأخت التي لا يعقد بها رجاء . لا قريب ولا نسيب . ولم يخلف الراحل شيئا . وهيهات أن تأمل في معاش مناسب وقد كان مرتبه كله يستنفد في ضرورات الأسرة . وقد وجدت في محفظته جنيهين وسبعين قرشا هي كل ما تملك من نقود حتى تنتظم الأمور . ورنأ بصرها إلى حجرة الأبناء في سهوم . انان في المدرسة ، معفيان من المصاريف حقا ، ولكن هيهات أن يغنى هذا عنهما شيئا . أما الثالث ففي حكم الصعاليك ! . وتنهدت من الأعماق . ثم حولت عينيها إلى نفيسة فتقطع قلبها ألما . فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب . وهذه

هى الأسرة التى باتت مسئولة عنها بلا معين . بيد انها لم تكن من النساء اللاتى يفضضن همومهن بالدموع . وان حياتها الماضية وان امست حلما سعيدا موليا الا انها لم تكن يسيرة خصوصا فى مطلعها حين كان المرحوم موظفا صغيرا ذا جنيهات معدودات ، وقد علمتها الصبر والجلد والكفاح . كانت دائما قوية ، وكانت محور البيت الاول ، بل كانت على الأرجح تقوم بدور الأب ، على حين كان المرحوم ادنى الى حنان الأمهات وضعفهن . والأبناء انفسهم مثال حى على التباين بين الأب والأم ، فكان حسن شاهداً تقيساً على رخاوة الأب وتدليله ، وكان حسن وحسنين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتها . أجل كانت أرملة قوية . ولكنها لم تملك فى تلك اللحظة من الليل الا اجترار الحزن والقلق ..

٦

فى مساء اليوم التالى لم يبق فى الدار احد غير اهلها . وقد كوم اثاث حجرة الراحل فى ركن منها وأغلق بابها . واجتمع الأبناء حول أمهم وهم يشعرون بأنه آن لهم أن يسمعوا لها . وكانت الأم تعلم بأنه ينبغى لها أن تتكلم . ولم يختلط عليها الأمر فيما يجب قوله ، فقد كانت فكرت فأطالت التفكير ، ولعله لم يكن يحيرها شئ مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدال على الحزم والقوة ، وباطنها الذى يندى رحمة وعطفا على أسرتها البائسة . وخفضت عينيها متحامية النظرات المصوبة نحوها وقالت :

— مصيبتنا افادحة ، ليس لنا الا الله ، والله لا ينسى عباده ..

لم يكن بوسعها ان تتساءل « ما عسى أن تفعل ؟ » ، وهيهات ان تنتظر جوابا من احد من المحيطين بها ، حتى كبيرهم حسن .

وليس في الدنيا أحد تستطيع أن تلقى اليه بهذه الاستغاثة
فتشركه في بعض همها .

شعرت بالخلاء يكتنفها ، ولكنها أبت أن تستسلم لليأس .
واستدركت تقول :

— ليس لنا من قريب نعتمد عليه . وقد رحل العزيز الغالى
دون أن يترك شيئاً الا معاشه ، ولا شك انه دون المرتب الذى
كان لا يكاد يكفينا . فالحياة تبدو كالحلة الوجه ، ولكن الله لا ينسى
عباده . وكم من أسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها
فشقت طريقها الى بر الأمان ..

واختنق صوت نفيسة بالبكاء وهى تقول :

— لا أحد يموت جوعاً في هذه الدنيا ، وسيأخذ الله بيدنا ، أما
المصيبة التى تجل عن العزاء فهى موته هو . أسفى عليك يا بابا .
ولم تحدث هذه الدموع أثراً عميقاً لأن كلام الأم أنذر بأمور
خطيرة استأثرت بجل اهتمامهم ، فثبتت أعينهم على أمهم التى
عادت تقول :

— لا يجوز اذن أن نياس من رحمة الله ، ولكن ينبغى أن
نعرف رأسنا من قدمنا والا هلكنا . وأن نوطن نفوسنا على تحمل
ما قدر لنا من حظ بصبر وكرامة ، وربنا معنا .

وأحست بأن معين الكلام العام قد نفذ ، وأنه ينبغى أن تخاطب
الأبناء ، كل بما يعنيه . وراى عن حكمة أن تبدأ بمن هو اقل
خطورة ، تمهد به لمن هو أشد خطورة ، فنظرت صوب حسين
وحسين ، وقالت بصوت هادىء أن تكشف عما لحق قلبها من تأثر :
— لن يكون فى الامكان اعطاؤكما اى مصروف يومية ، ومن
حسن الحظ أن المصروف ينفق عادة فى وجوه تافهة ..

وجوه تافهة ! . اشتراك نادى الكرة ، السينما ، الروايات ،
أهذه وجوه تافهة ؟! . وقد تلقى حسين الحكم فى وجوم ، وتاه
عقله متخيلاً الحياة بلا مصروف ، ولكن دون أن ينبس بكلمة .

أما حسنين فقد اتقضى الحكم عليه كالصاعقة ، وسرعان ما قال معترضاً ، وبلا وعى تقريباً :

— كل المصروف؟! .. ولا ملیم؟!!

فحدجته أمه بنظرة طويلة ثم قالت بحزم :

— ولا ملیم ..

أحزنها اعتراضه ، ولكنها رحبت به لأنه أتاح لها أن تؤكد قولها بما لا يدع سبيلاً إلى الشك فيه ، ولكي يسمعه شخص آخر تخشى متاعبه أكثر من شقيقه . وفتح حسنين شفتيه ، وهمهم دون أن يبين ، ثم قال بصوت منخفض :

— سنكون التلميذين الوحيدین اللذین تخلو جیوبهما من

مصروف ..

فقالت أمه بحدة :

— انك واهم ، المصائب كثيرة ، والتلاميذ المصابون لا حصر

لهم . ولو أنك فتشت جيوب التلاميذ جميعاً لوجدت أكثرها

فارغاً . وهبكما الوحيدین الفقیرین فما فی هذا من عیب ،

ولست المسئولة عما وقع ..

ولاذ حسنین بالصمت متذكراً أنه يخاطب أمه . كان دائماً

يجد عند أبيه من التسامح ما لا يجده عندها ، وكان الرجل يحبه

كثيراً فلم ينزل من نفسه هذه المنزلة إلا ابنته نفيسة . أما الأم

فلم تكن تتخلى عن حزمها قط . ولما فرغت من الرد على

اعتراضه استطردت قائلة :

— كذلك أحذركما من ترك نصيبكما من الغداء المدرسي كما

تفعلان عادة .

وكان الشقيقان يقنعان من غذائهما المدرسي بلقمت معدودات

كى يتناولوا وجبتهما الرئيسية في البيت . وكان التلاميذ الذين

يأكلون في المدرسة حتى الشبع موضع غمز عادة ، فتساءل

حسنيين برقة :

— لماذا لا نأكل فى بيتنا كعادتنا ؟

فقلت الأم بامتعاض :

— من يدري فلهه لى يتاح للبيت الطعام الذى تحب !

وارتسمت على شفتى حسن — الذى أصفى الى الحديث كله فى صمت عميق — شبه ابتسامة ، أخفاها بتقطيعة مصطنعة ، ولكنها لم تخف على الأم ، فصمتت على أن تواجهه بالحقيقة — ان كان حقا فى حاجة الى ذلك — بعد هذا التمهيد الطويل .
فتساءلت بلهجة حزينة :
— وانت يا حسن ؟!

هذا اكبر الأبناء ، أول من ايقظ أمومتها ، الحبيب الأول ! .
ولكنه دليل ملموس على أن الأمومة قد تتأثر بأمور لا تمت للفترة بسبب . لا يعنى هذا بطبيعة الحال أنها كرهته . انها أبعد ما يكون عن هذا . ولكنها أسقطته من حسابها فتوارى من مرموق آمالها فى حيرة بالغة . انزوى فى ركن مظلم ، ولم يعد حبه يتحرك فى فؤادها الا مصحوبا بالأسف والحزن وقاتم الذكريات . وقد كان ولا يزال المشكلة المستعصية لهذه الأسرة . كان فى البدء ضحية لفقر أبيه وتدليله ، فلم يبعث به الى المدرسة الا فى سن متأخرة . وسرعان ما ظهر تمرده على الحياة المدرسية ، وتكرر هروبه من المدرسة ، وتوالى سقوطه عاما بعد عام ، حتى انقطع عنها ولم يجاوز السنة الثالثة . واستحال ما بينه وبين أبيه الى تقار وشجار ثم الى ما يشبه العداوة الحقة ، فكان يطرده أحيانا من البيت فيقضى أياما متسكعا ثم يعود الى البيت وقد اكتسب شرورا جديدة من مخادنة الأشقياء والفصوص فى الائم والادمان وهو دون العشرين . ولما بلغ اليأس من أبيه مداه الحقه بجانوت يقال فمكث به شهرا ثم طرده صاحبه بعد معركة كاد يذهب الجانوت ضحية لها . ثم عمل فى شركة سيارات وطرد منها اثر عراك أيضا . ولم يعد يأبه لا بغضب أبيه ولا بحزم أمه ففرض

نفسه على البيت فرضا ، يلقي سخطهم باستهانة أو بدعابة
أو بشجار ولكنه لا يتزحزح ولا يبحث جادا عن عمل . وبدا وكأنه
لا يعمل للمستقبل حسابا ، وظل سادرا مستهترا حتى فاجأه
موت الأب . انه يدرك خطورة الحال ، فهو الوحيد الذى عرف
مرتب أبيه . وقدر على وجه التقريب معاشه . وفهم ما تعنى
الأم بتساؤلها « وأنت يا حسن ؟ » . « أنت تقولين ان الله لا ينسى
عباده . وأنا عبد من عباده . فلننظر كيف يذكرنا . لماذا أخذ
وولدنا ؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب أمثالنا من الضحايا ؟ »
ولكنه طالعها بابتسامة مؤدبة ، وشعوره ممتلىء عطفًا وتقديرا
للمسئولية . ثم قال :

— انى أدرك كل شيء ..

فقالت المرأة فى ضيق متسائلة :

— ساعنى ان يجدى الإدراك وحده ؟

— لا بد من عمل شيء .

فقالت فى انفعال :

— هذا ما نسمعه كثيرا .

— الآن تغير الحال .

— أليس ثمة أمل ان تتغير أنت ؟!

فقال حسن فى نبرات قوية :

— مثلى لا يضيع فى الحياة ، انى أستطيع ان أشق سبيلى .

والفرص كثيرة والأسلحة فى يدي لا حصر لها . اصغ الى يا امه
لن اطالبك بغير المأوى واللقمة !..

هذا أسلوبه !. يبدأ وكأنه يسلم بكل شيء ، ثم ينتهى وكأنه

يطالب بحقوق جديدة . المأوى واللقمة ، وماذا يبقى بعد ذلك ؟!
ورمقته باستياء وقالت :

— ان حالنا لا يحتمل هذا الهذر ..

— الهذر ؟!

— أجل . نحن فى حاجة الى من يطعمنا فكيف نهىء لك اللقمة ؟! لماذا تضطرنى الى مصارحتك بهذا ؟

فابتسم ابتسامة باهتة وقال :

— أعنى الى حين . حتى تفرج . لن يضيق البيت بى . أم تريدن أن تطردينى ؟! . وسوف التقط رزقى ما وجدت اليه سبيلا . ولكن هبى أياها انقضت دون أن أجد عملا فلا أحسبك ترضين أن أموت جوعا . وعلى أية حال سأقاسمك رغيفك حتى أجد عملا !

وتنهدت فى يأس . انها حيال مشكلة حقا ولا تدري ماذا تفعل . وأخوف ما تخاف أن يستسلم لحياة البطالة والكسل والتسكع خاصة اذا فتر تأثيره بموت أبيه فقالت برجاء :

— أرجو أن تبحث بجد واخلاص عن عمل ..

فقال بلهجة تنم عن الصدق :

— أعدك بهذا ، وأقسم لك بقبر والدنا .

وثار قسمه عاصفة حزن فى الصدور لموقعه الأليم .. وهزتهم « قبر والدنا » هزة عنيفة ، فأجهشت نفيسة فى البكاء ، وغاص قلب حسنين فى صدره ، على حين رمق حسين أخاه بنظرة حيرة وعتاب . ولبشت الأم صامتا مليا تكابد جرحا عميقا ، ولكنها لم تنس — حتى فى هذه اللحظة — انها لم تفرغ بعد من قول ما تريد قوله ، فرددت عينيها اللتين انتفخ جفناهما واحمرت اشقارهما بين أبنائها ثم قالت :

— أما نفيسة فتحسن الخياطة ، وهى تخطط كثيرا لجارتنا محبة ومجاملة ، ولست أرى بأسا فى أن تتقاضى على تعبها مكافأة .

وهتف حسن بحماس :

— عين الصواب ..

ولكن حسنين صاح بغضب وقد اصفر وجهه غضبا :

— خياطة ؟!

فأجابه حسن معترضا :

— ما عيب الا العيب ، فلتكن ..

فقال حسنين بحدة :

— لن تكون أختى خياطة ، كلا ، ولن اكون أبا لخياطة .

وقطبت الأم فى غضب وصاحت به :

— أنت ثور ، تاكل وتنام ، ولا تدري عن الدنيا شيئا ،

وهيهات أن يفهم عقلك الغبى حقيقة حالنا !

وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به :

— اخرس ..

فنقح دون أن ينبس بكلمة . ورات الأم انها فرغت من

معارضته فالتفتت الى حسين ، فالتقت عيناها برهة قصيرة ،

ثم خفض الفتى عينيه وتمتم على مضض :

— اذا لم يكن من هذا بد فالأمر لله .. !

فقالت الأم بتأثر :

— ما عيب الا العيب كما يقول حسن . لست احب لأحد

منكم المهانة ولكن للضرورة احكام ، ولا حيلة لى ..

وساد صمت مؤلم . وكان حسين اشبه الأبناء بأخلاق أمه

فى صبرها وعقلها واخلاصها للأسرة . وقد تألم كثيرا لمصير أخته

ولكنه استسخف الاعتراض على اقتراح أوحى به الضرورة .

وشعر فى اله بأنه تعلم فى هذين اليومين ما لم يتعلم فى حياته

كلها . أما نفيسة فسكتت مغلوبة على أمرها . ولم تكن تسمع

الاقتراح لأول مرة فقد أقنعتها أمها بضرورته ووجاهته معا .

وكانت الخياطة هويتها وملهاتها ، فلم يبق الا أن توطن النفس

لقبول الأجر . لهذا كله تضاعف حزنها على أبيها الذى لم تعد

بعده شيئا . ثم قطع حسن الصمت قائلا بلهجة تنم عن الحسرة :

— من المؤسف حقا أن المرحوم أبى على نفيسة أن تواصل

تعليمها فى المدرسة . تصوروا لو كانت أختنا مدرسة الآن !

وحدجوه بغرابة فأدرك أنه تورط فيما يشبه الدعابة وهو لا يدري . أفلم يكن الأولى به أن يعرف للتعليم قيمته فيواصل حياته المدرسية ؟! . وقطب مغيظا . وقال :
- التعليم ينفع أمثالها ممن لا حيلة لهم ..

٧

وفي صباح اليوم التالي مضت الأم الى وزارة المعارف مصطحبة معها حسن أكبر الأبناء . ولما علم هنالك أنها أرملة المرحوم كامل على أفندى أظهر كثير من زملائه استعدادهم لأن يكونوا في خدمتها . وطلبت المرأة صرف المستحق من مرتبه فدلها بعضهم على اجراءات اثبات الوراثة . وسألت عن معاشه فذهب معها أحد الزملاء الى ادارة المستخدمين . وتبين أن المرحوم خدم الحكومة حوالي الثلاثين عاما فبلغ مرتبه ١٧ جنيها واستحق معاشا قدره خمسة جنيهات لورثته . لم تكن المرأة تتصور هذا ، ولا كانت تعلم شيئا عن نصيب الحكومة من معاش المتوفى ، ولكن الذي أفرعها حقا هو ما قيل عن الاجراءات الطويلة التي تسبق صرف المعاش ، والتي تستغرق أشهرا طوالا . هالها الأمر فلم تملك أن قالت :

- وكيف يتيسر لنا الانتظار طوال فترة الانتظار ؟

وقال حسن مسوغا قلق أمه :

- نحن لا نملك الا هذا المعاش المنتظر ؟

وندم حسن على قوله عقب القائه مباشرة لانه بدأ غريبا من شخص في مثل طوله ورجولته ، ولكن الموظف قال دون أن يلقي بالا الى هذا :

— أعدك يا سيدتى بالان نضع دقيقة واحدة بلا عمل . أما
اجراءات وزارة المالية فلا حيلة لنا فيها ..
ما جدوى هذا الكلام الطيب ؟. ولكن أية فائدة تنتظرها من
التذمر والشكوى ؟!. وغادرا الوزارة فى شبه ظلام من القلق
والياس . وهتفت المرأة :
— كيف تلقى الحياة هذه الأشهر ؟!.. وكيف نعيش بخمسة
جنيهاً بعد ذلك ؟!

وخفض الشاب بصره فى وجوم وضيق . ولاح لعينى المرأة
المكدودتين بصيص من نور فقالت :
— سأزور أحمد بك يسرى . انه مفتش عظيم نافذ الكلمة ،
وكان صديقا عزيزا لايك ..

فقال حسن بأمل :

— رأى حسن . ان كلمة منه تغير اجراءات الحكومة .
فنظرت اليه باهتمام وقالت :

— لا تضع وقتك معى . لعلك تدرك حالنا على حقيقتها
فاذهب وابحث لك عن عمل مهما كلفك الأمر ..

وعادت الى شبرا بمفردها ، ولبثت فى البيت حتى العصر ثم
قصدت شارع طاهر أو حى الأعيان كما يسمونه . وكان يقع
شمال عطفة نصر الله بثلاث محطات ، متفرعا من الطريق العام ،
تقوم على جانبه الفيلاات الأنيقة والعمارات الحديثة . واسترشدت
ببعض السابلة حتى استدلت على فيلا البك . وكانت بناء جميلا
مكونا من دورين تحيط به حديقة موتقة . وذكرت للبواب صفتها
« حرم المرحوم كامل افندى على » فعاد اليها مسرعا وقادها الى
بهو استقبال فاخر موصول بفراندة كبيرة ، ثم أخبرها أن البك
قادم بعد ارتداء ملابس . وخيل اليها أن فترة الانتظار قد
طالت ، ولكنها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسود عن
وجهها . وقد شغلت بأفكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس

الذى يكتنفها . بيد أنها كانت كبيرة الرجاء فى هذا الصديق العظيم . طالما ذكره المرحوم أمامها بالحب والفخر . وطالما لمست بنفسها أنعم هذه الصداقة فى أقفاص العنب والمناجى تهدى اليهم فى المواسم ، وكان المرحوم يقضى أكثر سهراته فى هذه الفيلا ، وربما فى هذا الموضع منها حيث تجلس الآن - وقد ألفت على ما حولها نظرة حزينة - يلعب بأوتار عوده . ويسمر هزيعا طويلا من الليل . فليس بعيدا أن تغادر هذه الفيلا مجبورة الخاطر . وأنها لمفرقة فى أفكارها إذ فتح الباب الداخلى للبهو وجاء البك بجسمه الطويل العريض ، وشاربه المفتول بعناية بالغة ، فقامت المرأة فى أدب ، وسلم عليها البك وهو يقول برقة :

- تفضلى يا ست بالجلوس . شرفتنا . رحمة الله على زوجك . كان صديقا عزيزا أحزننى فقده ، وسوف يحزننى طوال العمر ..

فاستبشرت المرأة خيرا بهذا اللقاء ، وشكرت له عطفه . وراح البك يحدثها عن الفقيده حتى اغرورقت عينها بالدموع ، وزادها الموقف استفاضة فلم تحاول منعها مدفوعة برغبة غريزية فى استشارة عطفه . ثم ساد الصمت حينما فأدركت رغم حزنها واضطرابها أن شارب البك وسوالفه مصبوغة ، وأنه يغالى فى العناية بمظهره ، الى ما تطيب به من رائحة زكية عميقة الأثر . ولما تكرم بسؤالها عن طلبتها قالت :

- جئت مستشفعة بسعادتك لاستعجال صرف معاش المرحوم . قالوا لى يا سعادة البك ان اجراءات صرفه تستنفد اشهرا .

فتفكر الرجل مليا . ثم قال :

- لن أدخر وسيلة فى سبيل ذلك ، وسأقابل وكيل المالية بنفسى .

فأثلج صدرها ارتياحا ، وشكرته ، ثم ترددت لحظات وقالت :

— الحال يا بك تستدعى السرعة ، والله المطلع .

فقال الرجل باهتمام :

— طبعاً ، طبعاً . انى فاهم كل شيء . هل أنت فى حاجة الى

مساعدة ؟!

يا له من سؤال !. انها لا تملك الا جنيهين هما ما تبقيها من المبلغ الذى وجدته بمحفظة المرحوم ، ولن تجد سواهما حتى يصرف لها ما استحق من مرتبه حتى تاريخ الوفاة . ولكن كيف تفصح له عن هذه الحقيقة ؟ لم تتعرض لمثل هذا الموقف من قبل ، وانه لموقف يستوجب ان يألفه المرء حتى يخرج منه بطائل . وعقل الحياء لسانها فسكتت قليلا ثم قالت بصوت منخفض : — احمد الله على الستر . بوسعى ان انتظر قليلا . .

وارتاح البك للجواب . لقد انزلق الى السؤال متأثرا بالحياء والدوق . ولم يكن ارتياحه لبخل مركب فى طبعه ، ولا لأنه يكره ان يمد يد المساعدة الى أرملة صديقه ، ولكن لأنه كان على ثرائه لا يكاد يبقى على شيء لكثرة نفقاته على نفسه وافراد أسرته . كان يضايقه ان يأخذ بيد هذه الأسرة حتى تبلغ بر السلامة . ولكنه كان على استعداد للبذل لو سألتها المرأة اياه . وقد غاب عن المرأة ان زوجها لم يكن صديقا للبك بالمعنى الذى يفهمه البك من الصداقة . ولعله كان صديقا من أصدقاء الدرجة الثالثة . كان يحبه ويقربه ويود سمره وفنه دون ان يعده ندا له ، او صديقا كسائر البكوات والباشوات . ولكن نيته صدقت على السعى لخدمة هذه المرأة حتى يصرف لها المعاش ، اكراما لذكرى الراحل ، وتفاديا من التورط فى مساعدتها ، ونهضت المرأة مستأذنة فى الانصراف فودعها بالاحترام . ولما خلصت الى الطريق تنهدت فى أمل ، ولكنها قالت لنفسها فى شبه ندم : « لو أوتيت قدرا من الشجاعة لما ضيعت على نفسى معونة انا فى امس حاجة اليها . . » .

وخلا حسين وحسين لنفسيهما أول مرة بعد الوفاة . كانت نفيسة في المطبخ والام في وزارة المعارف سعيًا وراء همومها الجديدة ، وحسن لا يعلم بمكانه الا الله ، وكان حسين متربعا على فراشه ، والآخر جالسا الى مكتب المذاكرة بركن الحجرة يرعش بين أصابعه قلما في نرفزة ويقول :

— يبدو أن الحياة لم تعد تطاق ..

وانتظر أن يتكلم حسين ، ولكنه تجاهل ملاحظته فرفع اليه بصره في حنق . كان حسين آخر عنقود الأسرة فلم يكن غريبا أن يبحث لمشكلاته عن حلول عند الآخرين . وضاق صدره بصمت أخيه فسأل :

— ما رأيك ؟

فتساءل حسين متجاهلا :

— فيمه ؟

— فيما قالت ! أتصيب حقا أن حالنا بهذا السوء ؟

فهز منكبيه قائلا :

— ولماذا تكذبنا ؟

فتألمت عينا الفتى ببريق أمل وقال :

— كي تكسر من حدثنا . كي نخاف ونتند . وليس هذا عجيبا

فالشدة مركبة في طبيعتها ، ولولا المرحوم والدنا ما عرفنا المرح !

فقال حسين بحزن :

— ليتنا ما عرفناه قط !

— ماذا تقول ؟

— اقول ليتنا ما عرفنا التدلل ابدا ، اذن لهنأت علينا الحياة الجديدة المقضى علينا بها !

فقال حسنين وقد ساوره الخوف :

— اذن فانت تصدق ما قالت !. احقا لم يترك والدنا شيئا ؟

الا يسد المعاش نفقاتنا ؟

فتنهذ حسين قائلا :

— انى مؤمن بكل كلمة نطقت بها . هذه هى الحقيقة .

فتساءل حسنين فى جزع :

— كيف نطبق هذه الحياة ؟

فارتسمت على شففى حسين ابتسامة حزينة . كان يشارك

اخاه حزنه وقلقه ولكنه رأى من الحكمة أن يقف منه موقف

المعارضة فقال :

— كما يطبقها الكثيرون . ام حسبت الناس جميعا يحفظون

باب كريم ورزق موفور؟! . ومع ذلك فهم يعيشون ولا ينتحرون .

فامتلا حسنين غيظا وهو يحدق فى وجه أخيه وهتف به :

— لشد ما يحنقنى برودك ..

فقال حسين مبتسما :

— لو جاريتك فى عواطفك لركبك اليأس وأجهشت باكيا .

فقال حسنين بسخط :

— ان من يستسلم للأقدار يشجعها على التمدادى فى طغيانها !

فابتسم الآخر ابتسامة ساخرة وقال فى شبه دعاية :

— هلم نشر عليها . دعنا نهتف لتسقط الأقدار كما هتفنا

ليسقط هور .

— ألم تفدنا ليسقط هور؟! .

— هيهات أن تفيدنا الأخرى !

وقطب حسنين فى كدر وتساءل :

— من لنا الآن ؟

فابتسم حسين ابتسامة عريضة فرطحت انفه الذي بدا في تلك اللحظة شبيها بأنف امه الغليظ ، وقال باقتضاب :
— الله .. !

وزاد الجواب من حنقه ! انه لا يشك في هذا ولكنه لا يقنع به .
الله للجميع حقا ولكن كم في الدنيا من جائع ومصاب !.. لم يتنكر يوما لعقيدته ولكنه يتلهف في خوفه على سبيل محسوس للطمانينة .
وتوهم أن أخاه يخرجه ليتخلص منه فتشبث بعناده وقال :
— لقد شاء أن يأخذ والدنا ويتركنا بلا معين !

فقال حسين وكأنه يمعن في اثارته :

— هو المعين ...

فانفجر حسنين قائلًا :

— ان هدوتك الكاذب لا يجوز على .. أنت مطمئن حقا ؟!
فأصغى حسين اليه في امتعاض والم ، ثم قال ولعله كان يدارى عواطفه :

— المؤمن لا تخونه طمانينته ...

— انى مؤمن وقلق معا !

فقال حسين في غير ايمان بما يقول :

— هذا من ضعف الايمان .

فقال حسنين بحنق :

— أوه ، ليكن انى أعرف تلاميذ يجاهرون بالشك !

— أعلم هذا .

— هم اذكياء ومطلعون .

— اتحب أن تفعل مثلهم ؟

فقال في خوف :

— كلا . لست من هواة الاطلاع . انت نفسك تقرأ كثيرا !

فقال حسين مبتسما :

— هذا حق ولكنى لم أنتزع الله من قلبى . والحق اننا نغالى

في تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة . الا ترى ان الله اذا كان مسئولاً عن موت والدنا فليس مسئولاً بحال عن قلة المعاش الذى تركه ...

وشعر حسنين أن تطور الحديث نأى به عن مخاوفه الحقيقية فقال بضيق :

- دعنا من هذا وخبرنى كيف نعيش بلا مصروف ؟ اى بلا سينما ولا كرة . والأدهى من هذا كله أنى كنت شارعاً فى تعلم الملاكمة !

فقطب حسين قائلاً :

- تحام منا يؤلم أمنا ، اذا لم يكن فى وسعنا أن نساعدنا فلا أقل من أن نريحها من منقصات لا داعى لها . واذكر أنها وحيدة فلا أعمام لنا ولا أخوال !

- لا أعمام ولا أخوال ! كان هذا يهون لى لم تصبح أختنا خياطة ! . رباه ما عسى أن يقول الناس عنا ؟!

وضاق صدر حسنين ، وغلبه الحزن ، ووقعت لفظة «خياطة» من نفسه موقعاً مؤلماً ، فقال بغضب :

- نستطيع أن نعيش دون مبالاة بما يقول الناس .
وأراد أن يقطع الحديث فنهض قائماً وغادر الحجرة .

٩

شعرا بخرج وهما يدخلان فناء المدرسة لأول مرة بعد الوفاة . لن يستطيعا مواصلة الحياة الأولى وسيتغير كل شيء ، وهيهات أن تخفى خافية على أعين التلاميذ . وكانا يعانيان من هذا شعوراً مؤلماً وان تباينت درجة المهما . ولم يكن قد علم بالوفاة الا قليل

فسرعان ما ذاع الخبر بين الأصدقاء وأقبلوا عليهما معزين . وقال
أحدهم محذرا :

— يجمل بدويكما أن يحسنا اختيار الوصى عليكما ، فأننى
لم أدرك حقيقة الفاجعة بموت أبى حتى ابتليت بوصاية عمى !
الوصى ! وتظاهر حسين بالأصفاء الى نفر يتحدثون عن
المظاهرات الأخيرة والمساعى المبذولة لضم الصفوف ، ولكنه سمع
حسنيين وهو يجيب صاحبه قائلا :

— نحن مطمئنون الى الوصى كل الاطمئنان ..
فقال محدثه :

— انى أغبطكما على حظكما ، بيد أن الأمر يتوقف على نوع
التركة ، فاذا كانت أراضى زراعية تيسرت سبل الخداع ، واذا
كانت عقارا ضاقت السبل على الوصى ببعض الشيء ، أو هذا
ما تقول أُمى ..

فقال حسنيين بهلموء :

— من حسن الحظ أن تركتنا عقارا !

وأصفى اليه حسين فى غيظ . لم يحنقه الكذب فحسب
ولكنه أشفق من عواقبه . « كيف نواجه الحال الجديدة اذا ظن
بنا الإخوان اليسار ؟ ماذا نفعل وماذا نقول ؟ .. انه يكذب بلا
مبالاة . سحقا له ! » وصوب عينيه نحو أخيه محذرا فتحاشاه
الفتى فى تذمر . ثم تساءل تلميذ كيف مات والدهما فأجاب
حسنيين فى تأثر قائلا :

— قيل لنا انه مات فجأة . ومن عجب انه لما رآنى خارجا
الى المدرسة صباح اليوم الذى توفى فيه ، وقبل أن يتوفى بساعة
واحدة ، وضع يده على منكبى ورنا الى فى حنان وقال لى بلا داع
ظاهر « مع السلامة .. مع السلامة ! » ..

فمن كان يدرينى أنه يودعنى !؟

لم يكن شىء من هذا قد حصل ، ولا يدرى كيف قاله ،

والأعجب من هذا كله أنه قاله بتأثر صادق كما لو كان وقع حقا .
وقد نطق به ارتجالا مدفوعا برغبة غامضة في تبجيل والده .
وعجب حسين لوصفه ثم دهش لتأثره فكاد يغلبه الابتسام ، ونحى
وجهه جانبا فرأى عن بعد قريب رئيس فرقة كرة القدم فأراد أن
ينفس عن ضيقه بمواجهة الحقائق فمضى اليه وحياه ثم قال :
- أرجو أن تعفينى وأخى من الاشتراك فى نادى شبرا ..
ولاحت الدهشة فى وجه الرئيس ، وأزعجه الطلب خاصة
فيما يتعلق بحسينين - جناح الفريق الأيمن - فقال معترضا :
- لعل أمرا ضايكما !

فقال حسين بتأثر :

- توفى والدنا !

فوجم الرئيس مليا ، ثم عزاه برقة ، وصمت لحظات ثم قال :
- ألا ترى أن هذا لا يدعو الى حرمان النادى من عضوين
بارعين مثلكما ؟

فقال حسين بلهجة خاطفة :

- ان الحداد يقضى بهذا !

فقال الفتى باشفاق :

- ان الحداد لا يتعارض مع الرياضة !

فقال حسين باشأ :

- ان ظروفنا تقضى بهذا . انى آسف !

ثم حياه مرة أخرى وغادره متحاميا النظر الى عينيه ،
وانضم الى أصدقائه . ووجدهم يتحدثون فى السياسة ، وكان
أحدهم يقول :

- رحمة الله على شهداء الآداب والزراعة ودار العلوم !

فقال آخر :

- لا بد من التضحية فالدم هو اللغة الوحيدة التى يفهمها

الانجليز ..

فقال ثالث :

— لم يضع الدم الطاهر عبثا ، ألم تسمعوا عن الدعوة الى الاتحاد ؟

— وهذه التيمس تلمح الى المفاوضة ..
ودق الجرس فاتجهوا الى الفصول وهم يتناقشون ...

١٠

قطعا فناء البيت في صمت حاملين كتبهما ، ثم قال حسنين
وهما يرتقيان السلم :

— عما قليل يبدأ فريق نادى شبرا في التمرين استعدادا
للمباراة القادمة !

فلاذ حسين بالصمت . وجعل يتخيل الملعب واللاعبين ، فكأنه
يسمع الرئيس وهو ينبئ الآخرين بانفصالهما « لظروف الأسرة
الجديدة ! » . لا لعب ولا مسرة ولا رحمة من شكوى حسنين
المتواصلة . وطرقا الباب ثم دخلا . وتسمرت اقدامهما وراء
الباب لمنظر غريب لم يتوقعاه . رأيا اثاث البيت مكوما في الصالة
في اضطراب شامل وقد رصت المقاعد فوق الكنبات ولفت الأبسطة
وفكت الدواليب ، ولاحت الأم ونفيسة مشمرتين يعلوهما التراب
ويتصبيان عرقا على لطافة الجو . وهتف حسنين :

— ماذا حصل ؟

فقالت الأم :

— سنترك الشقة .

— الى أين ؟!

— الى الدور التحتاني . سنبادل السكن مع صاحبة البيت :
شقة ارضية بمستوى الفناء الترابي ، لا شرفة لها ، ونوافذها

مطلّة على عطفة جانبية تكاد تبدو منها رعوس المارة ، وطبعاً محرومة من الشمس والهواء ، وتسائل حسنين فى امتعاض ولو أنه كان يعرف الجواب مقدماً :

— لماذا ؟!

فقال الأم بصوت واضح :

— لأن أيجارها ١٥٠ قرشاً !

فقال الشاب متذمراً :

— فرق الإيجار أقل من ٥٠ قرشاً لا يتناسب مع الفرق بين

الشقتين !

فسأله الأم ساخطة :

— هل تتعهد بدفع هذا الفرق التافه ؟

— لماذا رضىنا إذن بأن تشتغل نفيسة خياطة ؟

فالتهمته الأم بنظرة من نار وصاحت به :

— كى ناكل ، كيلا تموتوا جوعاً !

وحافظ حسين على طلاقة وجهه أن يفتضح امتعاضه وسأل

أمه بلهجة لا أثر فيها للاعتراض :

— متى تم هذا يا أمّاه ؟

فقالت المرأة وهى تمسح جبينها بكم ثوبها الأسود :

— عرضت الأمر على صاحبة البيت غير مخفية شيئاً من

حالنا ، فأظهرت روحاً طيباً ووافقت بلا تردد .

فقال حسنين فى استيلاء :

— لو كانت ذات روح طيب حقاً لنزلت لنا عن فرق الإيجار مع

إبقائنا فى شقتنا !

فقال الأم فى حدة :

— للناس أعمال أخرى غير العناية برفاهيتك !

— وكيف ننام ليلتنا ؟

فقالت نفيسة بصوت كسير دل على أنها لم تفق بعد من صدمة الوفاة :

— سننام في الشقة الجديدة .

وخرج في تلك اللحظة حسن من حجرة المرحوم حاملا بين يديه المشجب وهي آخر ما بقى من الأثاث في الحجرات وقال بسرعة :
— كفاكم نقارا وهلموا نرفع الأثاث الى الدور التحتاني فليس بيننا وبين الليل الا ساعتان . . وأراد أن يضرب لهم مثلا عمليا فرفع كنبه من جانب وخاطب حسين قائلا :

— ارفع . . .

وفتحت نفيسة الباب على مصراعيه وسار الشقيقان بحملهما الثقيل ، وجعل حسين يتساءل وهو يهبط في السلم بحذر : ترى هل يراهما أحد من أسرة فريد افندى محمد جارهم الكريم بالدور الثالث ؟! . « ليس الفراق شر ما في الموت . ان الفراق حزن المطمئن . متاعبنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتا للتفكير في الحزن . لشد ما نتغير ونتدهور » ولكن ينبغي أن نصبر أو في الأقل أن نظاهر بالصبر . أكبر جريمة في نظري أن نضاعف بجزعنا شقاء أمتنا . سأخاطب حسنين بحزم أكثر ! » ثم تبعتهما الأم والأخت يحملان ما يقدران على حمله من قطع الأثاث . ولم يستطع حسنين أن يقف متفرجا فانضم للعاملين . وما زالت الأسرة في نزول وصعود والأثاث يتحول من فوق لتحت . وكانت صاحبة البيت قد أخلت الشقة وجمع أثاثها في القناء الى جانب الحمالين الذين وقفوا ينتظرون دورهم في العمل . وكانت الأسرة جميعا — الصامت منهم والساخط — سواء في الحزن والألم . ولم يكن وجه الأم مما تسهل قراءته ، أما نفيسة فابتلت عيناها بالدموع . واشتغل حسن بهمة كأنه يتملق بجهد أمه فلا تلحف في تأنيه على تعطله . وكان أقل الأخوة تأثرا للتغير الذي قلب الأسرة كما

ينبغي لرجل ذاق التشريد والاف التسكع . وهمس حسنين في
اذن حسين وهو يلهث من الجهد :
- الا ترى أن خسارتنا بموت ابينا لا تعوض أبدا ؟!
وانسابت من عينيه دمعتان .

١١

غادر حسن البيت مبكرا ، عقب خروج شقيقه للمدرسة .
لم يكن ثمة داع ضرورى لهذا الخروج المبكر ، ولكنه أراد ان يتفادى
من الاصطدام بوالدته أن يصبحها بنقار هي في غنى عنه بما تكابد
من تغير الزمن وتجهم الحظ . انطلق من عطفة نصر الله بلا غاية ولا
أمل . « ابحث لك عن عمل ! لا تفتأ تردد على مسمى هذه الجملة .
اين يوجد هذا العمل ؟ صبي يقال ؟! . هذا معناه الاسعاف ثم
البوليس . » ولكنه لم يكن يائسا للحد الذى توجبه حاله . كان
كبير الثقة بنفسه ، وكان في طبعه تفاؤل لا يدري من اين يأتيه .
ولكنه لم يستطع أن يتجاهل دقة موقفه وراح يخاطب نفسه قائلا
« يا أبا على ، مات الوالد رحمه الله ففقدت الركن الذى كنت تأوى
اليه . حقا كنت تلتقط رزقك بالشجار والنقار ، وتحمل في سبيله
السب واللعن ، ولكنه كان على أى حال رزقا مضمونا . هذه البدلة
التي تجعل منك أفنديا لابس به من نقوده رحمة الله عليه . أجل
أبى ان يتناهما لك بادىء الأمر ولكنك هددته بأن تمشى في الطرق
باللباس والفانلة وأن تقتحم عليه مجلسه بقصر احمد بك يسرى
شبه عار ، فأذعن على مضض وكلف الخياط بأن يفصلها لك .
الآن لو مشيت عاريا بلا لباس ولا فانلة فلن تجد من يسأل عن
صحتك الا الشرطى ! » . كانت البدلة حسنة وان لم تخل من بقع
باهتة عند ثنية الركبة . وكان يربط رقبتة بياييون فبدا القميص

فى حال لا يحسد عليها . وكان شعره أعجب ما فيه فقد تركه حتى غزر واسترسل ، وتصاعد فى جعودة جعلت منه رأسا مستقلا فوق الرأس الأصلى . أما وجهه فكان حسن كشقيقه الى جسم طويل مفتول العضلات عريض العظام . سار متفكرا فيما خاطب به نفسه ، ثم وافته ثقته بنفسه فجأة فقال « يا سيدى لا تسمح اللهم بأن يركبك فما يجوز أن يركب الا البهائم من عباد الله . سوف تعيش طويلا وتلقى الحياة بخيرها وشرها . لم أسمع عن انسان مات جوعا . الأغذية تسد الطرق سدا . ولست طماعا فما تريد الا اللقمة والسترة وكم كأسا من الكونياك ، وكم نفسا من الحشيش ، وكم امرأة من النساء ، وكل أولئك متوفرة بكثرة ، أكثر من الهم على القلب . توكل على الله ولا تحمل هما » ولم يكن خلو الجيب فقد أشرف على جنازة أبيه ، وخرج منها بأربعين قرشا لم يعلم بها أحد . وقد تساءل ألم يكن الأخلق به أن يعطيها لوالدته؟ « كلا لو نزلت عنها ما أفادت أمى منها نفعا مذكورا » ولكن ضياعها يضرنى ضررا لا شك فيه . لا أدرى متى يتاح لى الحصول على مثلها ! » وأخذت قهوة الجمال تلوح لعينيه الحادثتين فحث خطاه حتى انتهى اليها . هى قهوة صغيرة لم تؤت من ميزة الا وجودها على الطريق العام . ولم يوجد بها فى هذه الساعة المبكرة الا زبونان جلسا الى مائدة على الطوار يتشمسان ويحتسيان القهوة ، على حين قبع فى ركن بالداخل شبان ثلاثة يدل مظهرهم ونظرات أعينهم الحائرة على الفراغ واليأس ، فلم يكن عجيبا أن يقصدهم الشاب وينضم الى مجلسهم . وما لبث أن طلب أحدهم الورق فتهيئوا للعب الكومى . وكان كل منهم يبنى نفسه بأن يربح رزق يومه - خمسة قروش فوق الكفاية - من رفقائه . بيد أن حسن كثيرا ما يكون الصائد لمهارته من ناحية ولحفة يده وعينيه من ناحية أخرى . لهذا قال أحدهم قبل البدء فى اللعب :

- لا نريد غشا .

فقال حسن :

- طبعاً .

فقال الشاب :

- فلنقرأ الفاتحة ..

وقرأوا الفاتحة جميعاً بصوت مسموع ، ولعل حسن تعلم حفظها حول هذه المائدة ، ثم لعبوا مقدار ساعة فربح أحدهم دوراً ، وربح حسن دورين . فكان صافي ربحه أربعة قروش ونصف بعد خصم نصف قرش ثمن فنجان القهوة ، واقترح بعضهم أن يبدؤا وقت اللعب ، ولكن دخل القهوة شاب ما أن رآه حسن حتى نهض قائماً ، وأقبل نحوه في احترام وسرور وهو يقول :

- صباح الخير يا أستاذ على صبرى .

فمد له القدام يده في حركة تشي بشعوره بقدر ذاته ، وقال :

- صباح الخير ...

وجلسا الى مائدة متقابلين . واجتاحت نفس حسن موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ على صبرى قهوة ، ثم قال الأستاذ للنادل قبل أن يذهب :

- ونارجيلة ...

ونحاص قلب حسن في صدره أن يلزم بدفع ثمن النارجيلة أيضاً فيضيع عليه ما ربح باللعب والحظ واليد والعين . ولكنه سرعان ما تناسى قلقه ليفرغ الى استطلاع وجه الأستاذ . وكان على صبرى في منتصف عقده الثالث ، متوسط القامة نحيل العود ، صغير القسمات ، أما شعره فأشبه ما يكون بشعر حسن ، الى سوائف تزحف حتى منتصف خده . وكان مظهره بوجه عام يدل على سوء الحال ولكنه يغطيه بثفخة كاذبة وغرور غير محدود . قال حسن بأسف وهو يستطلع وجهه :

- لم نسمع صوتك من زمان !

وكان أذاع مرات من المحطات الأهلية وبدا وكأن الحظ يبتسم

له ، فلما ألغيت المحطات الأهلية وأنشئت محطة الاذاعة الرسمية حيل بينه وبين احياء الحفلات ، وضاعت مساعيه وراء هذا الأمل هباء . وكان حسن احد افراد تخته المعطل ، وطبيعى أن العمل لم يكن يدر عليه أكثر من قروش فى الحفلة ، ولكنه كان يحبه ويؤثره على العمل الجدى الذى لم يصادف فيه توفيقا على مشقته و « حقارته » ! وقال الأستاذ :

— سأبدأ نشاطا جديدا عما قريب .

فخفق قلب حسن وقال برجاء :

— نحن رجالك ، وفى الخدمة دائما ..

فهز الأستاذ رأسه فى رضى لأنه لم يكن يشعر بالعزة الا اذا خاطبه أحد افراد تخته المتسكعين ، خصوصا حسن ، ذلك الشرس الجبار ، الذى ينقلب بين يديه وديعا متملقا ، ثم قال :

— طبعاً . انك تردد ترديدا حسنا ، وصوتك لا بأس به ..

فانطلقت أسارير حسن فى بشر وقال :

— ولقد حفظت كثيرا من الطقايق ...

— مثل ماذا ؟!

— اللى حبك ، ظالمانى ليه ، لما انكويت بالنار .

فهز الأستاذ منكبيه استهانة وقال :

— ان محك الفن الدور والليالى . ماذا يسمع الآن فى الراديو؟ .

لا شىء . هذا زعيق فارغ وليس بغناء . ولو كانت المحطة تراعى وجه الفن وحده لكنت المذيع الأول بعد أم كلثوم وعبد الوهاب . وعبد الوهاب نفسه ، يخاف كثيرا أن تخونه حنجرته فتراه يتحامى النفس الطويل ، ويشطره أجزاء قصيرة متواريا وراء ما يسميه بالتجديد ، ثم يغطى ضعفه بضجيج الآلات . اليك كيف غنى « يا ليل » فى الحفلة الأخيرة ...

وتنحنع ثم راح يغنى يا ليل مقلدا عبد الوهاب . وجاء النادل بالنارجيلة والقهوة وهو يغنى فتناول الخرطوم دون أن يمسك عن

الفناء حتى انتهى ، وحينذاك هتف رفاق حسن « الله . الله . » ،
فأخذ نفسا من النارجيلة دون أن يلتفت اليهم ، ثم قال لحسن
همسا :

- هذا اعجاب بالصوت لا بالفن . اسمع هذه الليالى فى نفس
واحد كما كان ينبغى أن تغنى ..

وانشد بصوت ملا القهوة الصغيرة حتى رفع صاحب القهوة
رأسه عن صندوق الماركات وأسارير وجهه تراوح بين الابتسام
والاعتراض . وانتهى الأستاذ على صبرى ، وعاد الى النارجيلة
وفى نيته أن يشكر فى هذه المرة للرفاق استحسنهم اذا أبدوه ،
ولكن ساد الصمت فلم يسمع الا قرقرة الماء فى قنينة النارجيلة،
وقطب الأستاذ وقال فى ثقة :

- هذه أصول الفن ..

فقال حسن بحماس :

- لا شك فى هذا ..

فقال بلهجة الناصح :

- مرن صوتك . لا تكف عن التمرين . أكثر من الليالى .

ولا تن عن مص السكر النبات ..

- يا سلام !

- مفيد جدا . ويا حبذا لو اسيقظت حين الفجر وأذنت

للصلاة فهو خير مران للحنجرة ، وهو ما كان يفعله سلامة
حجازى ..

فضحك حسن وقال :

- ولكنى أنام عادة قبيل الفجر ..

- أذن قبل النوم .

- فى مسجد ؟!

- المهم الأذان نفسه فى هذه الساعة المبكرة . فى مسجد ، فى

حانة ، كيفما اتفق !

- وإذا كان الانسان من غير مؤاخذه سكران أو مسطولا ؟
- يكون افضل . فما تستطيعه وانت غائب عن وعيك
- تستطيع اضعافه وانت صاح ..
- عظيم ..
- ينبغي أن نتقابل كثيرا حتى يفتح الله علينا ..
- ثم التفت صوب الرفاق الثلاثة وسأله :
- ماذا كنتم تفعلون ؟
- كنا نلعب الكومى ..
- فقال الأستاذ على صبرى باهتمام :
- هلم نجرب حظنا ..

ونفض الرفاق وأقبلوا نحوهما بلا تردد ، ثم تحلقوا المائدة والطمع يلعب بقلوبهم جميعا ، بيد أن حسن كان قلقا مشفقاً من مغبة هذا اللعب . « ما عسى أن أصنع مع ابن القديعة هذا ؟ اذا كسبت أغضبته واذا خسرت ضاع اليوم هدرا ؟! » .

١٢

- لا ادفع مليما واحدا اكثر من الثلاثة الجنيهات .
- قالها تاجر الأثاث وهو يلقي نظرة على فراش المرحوم .
- ولم تعد تجدى مساومة الأم . وكانت قد أجمعت على بيع الفراش ولوازمه لما يشيره وجوده من الأحزان ، ولأنها باتت فى مسيس الحاجة الى نقود . وكانت ترجو له ثمنا أكثر من هذا لعله يسد بعض عوزها الملح الى النقود ، ولكنها لم تجد بدا من الإذعان فقالت للتاجر :
- غلبتنا ساحك الله ولكننى مضطرة للقبول ..

ودفع الرجل اليها بالجنيهات الثلاثة وهو يشهد الله أنه المفلوب ، ثم أمر تابعين بحمل الفراش .
 واجتمعت الأسرة في الصالة تلقى نظرة الوداع على فراش فقيدها المحبوب . وتمثل الراحل لهم فكأنهم يرونه رؤية العين ، وغلب الحزن نفيسة فأجهشت في البكاء واطبقت الأم شفيتها كاتمة آلامها . كانت تحرم على نفسها البكاء أمام ابنائها أن تعاودهم حدة الحزن . لم يكن لهم من أحد يعتمد عليه سواها فوجب أن تظهر بمظهر الرجولة . ولو وجد هذا الشخص للاذت بالدموع كسائر النساء ولكن لم يكن لها محيد عن التصبر والتجلد . وفضلا عن هذا كله فلم تواتها فرصة للتنفيس عن حزنها بما جبهها من هموم العيش وأثقاله ، ووجدت نفسها في الغالب مضطرة الى تناسي أحزان القلب لتناضل ما يتهدد أسرتها من الضراء . « يحزن في نفسى إلا أجد فراغا للحزن عليك يا سيدى وفقيدى . ولكن ما الحيلة ؟ . حتى الحزن نفسه محرم على أمثالنا من الفقراء » .
 ولم يكن حسنين يتصور أن يفرطوا في مخلفات أبيه ولكنه لم يفكر في الاعتراض . والواقع أن حال الأسرة لم تعد تخفى على أحد . ومضى التاجر بالفراش وأغلق الباب فساد الوجوم حيناً ، وأرادت الأم أن تبدد سحابة الحزن التى اظلتهم فقالت مخاطبة حسين وحسين :

- هيا الى حجر تكما للمذاكرة ..

وقبل أن تبدأ حركة قالت نفيسة بانفعال :

- لن أسمع لمخلوق بأن يمس ثياب أبى ..

فقال حسن مؤمناً على قولها :

- وما من فائدة ترجى من بيعها ..

وساد الصمت حيناً ، ثم قال حسن مستدركا وكأنه يواصل

حديثه :

– وفضلا عن هذا قلن ينقضى وقت طويل حتى تشتد حاجتنا الى الملابس !

فتساءلت نفيسة في ارتياح :

– أيمكن أن تستعملوا ملابس أبى ؟!

ولم يجرؤ احد على الاعتراض ، ولكن الرقة مست قلب الأم فقالت :

– ما فى ذلك من ذنب . وليس فيه ما يسىء الى المرحوم ، بل لعله مما يطيب ثراه . ولكنى سأحتفظ بها بنفسى حتى تمس الحاجة اليها حقا ..

وتشجع حسن بقولها فقال فى ارتياح :

– نطقت عن حكمة . وانى اذكرك بأنى الوحيد الذى لا اكاد

أختلف طولا أو عرضا عن المرحوم أبى .

وتناسى الشقيقان الحزن الذى ران على صدريهما فقال حسنين محتجا :

– انى وان كنت اطول منك قليلا الا أنه يمكن مد ثنية البنطلون!

وقال حسين بلهجة ذات معنى :

– أو ثنيها مرة أخرى ..

فقالت الأم فى ضيق :

– لا داعى للنزاع . توجد أكثر من بدلة فى حال لا بأس بها

وسأوزعها تبعا للحاجة اليها ..

ثم بلغ المسامع طرق على الباب فقطع عليهم الحديث ، وخفت نفيسة اليه ففتحتة ، فدخلت خادم فريد افندى محمد حاملة سلة مغطاة بغطاء أبيض وضعتها على السفرة وهى تقول :

– ستى تسلم عليك يا ستى وتقول ان هذا فطير القرافة .

فحملتها الأم السلام والشكر وذهبت الخادم من حيث أتت .

واقترب حسن من السلة وحسر عنها الغطاء فبدت الفطائر بألوانها الوردية وطار عرفها الشهى الى الأنوف . ولم يكن تهيأ للأسرة طوال

الاسبوعين المتصرمين طعام شهى لما اخذت به الام نفسها من الحذر والتقنير . ولاحت الرغبة فى اعين الاخوة . ولكن الام كانت تتجهم لها الخواطر ، والحقيقة ان تلك الايام لم تكن تضر لها خيرا ، وحتى خيرا لم يخل من نكد ، وبدأ التفكير فى تجاعيد وجهها وهى تقول :
- هدية مشكورة ولكن الواجب ان نهدي ما يماثلها عقب العودة من القرافة ، فما العمل ؟!

وجد الاخوة خيبة ، وأراد حسين أن يخفف عن أمه فقال :
- فلنعد الهدية الى أصحابها شاكرين !
فقالت الأم فى حيرة :

- يعد مثل هذا العمل معيبا لا اثر للمودة فيه ..
فقال حسن متحمسا لقول أمه :
- بل يعد سلوكا عادائيا ..

وتناول فطيرة ، وشمها ثم قال باستهانة :
- لا تحملوا هما . انما ترد هذه الهدايا فى أوقاتها ، فاذا مات فريد أفندى بعد عمر طويل أهدينا الى أسرته سلة فطائر ، ولن يعجزنا صنعه وقتئذ باذن الله .
وراح يلتهم الفطيرة . وتبادل الشقيقان نظرة ثم مدا يديهما الى السلة ، حتى نفيسة سمعت تمطقهم فلم تعد تقاوم ..

١٣

جلست نفيسة على الكنبه فى الحجرة التى تنام فيها مع أمها مكبة على ماكينة الخياطة ، وقد نثرت على أرض الحجرة قصاصات من الأقمشة . كانت الأم فى المطبخ ، والشقيقان فى المدرسة ، أما حسن فحيث لا يدرى أحد . وقد باتت الفتاة تضرر لشقيقها الأكبر من اللوم ، فلو أنه وجد لنفسه عملا لما وجدت نفسها فى

الوضع التى هى فيه . لا يؤمن أحد بأنه جاد - كما يقول - فى البحث عن عمل . ولكنه يغيب النهار ونصف الليل ثم يعود كما خرج صفر اليدين . ولم تعد الأيام تطالعهم إلا بما يسوء ، فاليوم اضطرت الأم الى الاستغناء عن الخادم الصغيرة لتوفر أجرتها فأصبح عليها - هى واجبان يوميان أن تبتاع حوائج البيت من الطريق لتسد الفراغ الذى تركته الخادم وأن تعكف سحابة يومها بعد ذلك على ماكينة الخياطة . وقد مهدت لها الأم سبيل العمل بنفسها منذ يومين فقالت لصاحبة البيت التى جاءت بقطعة من القماش لتفصيلها :

- هل عندك مانع من مكافأة نفيسة على عملها ؟

فقالت المرأة بلا تردد :

- أبدا يا ست أم حسن . هذا حق وعدل . وهيهات أن

نوفى ما علينا من دين لست نفيسة .

ما زال سمعها يرجع هاتين الجملتين . وما تذكر أنها وجدت نفسها فى مثل هذا الموقف طوال عمرها . لقد تصاعد الدم الى وجهها الشاحب فكاد ينضح به ، وشعرت بأنها تهوى من عل ، وأنها أمست فتاة أخرى . ليس بين الكرامة والضعفة الا كلمة . كانت فتاة محترمة فانقلبت خياطة . وأعجب شيء أنه لم يستجد جديد بالنسبة الى العمل نفسه ، فظالما خلطت ثياب صاحبة البيت ، وامرأة فريد افندى وابنتها وغيرهن من الجيران . فالخياطة هوايتها ، ولها فيها من البراعة ما يجعلها قبلة الجيران والصديقات ، لشد ما تغير شعورها . أحست بالخزى والهوان والضعفة ، وتضاعف حزنها على أبيها ، فبكته بكاء حارا ، وبكت نفسها فيه . مات الفقيد المحبوب فمات بموته أعز ما فيها .

كانت تخطط منقبضة الصدر ، لا ضاحكة الثغر ولا مترنمة كعاداتها فيما ولى من أيام . وكانت تنتظر حضور صاحبة البيت بين آونة وأخرى لتفصل لها بعض ثياب داخلية بعثت بها اليها

هذا الصباح . أجل بعثت بها هذا الصباح فحسب ، عقب حديث أمها بيومين ، مما جعلها تظن انها أرسلتها على سبيل الاحسان ! وقد أفضت بأفكارها الى أمها فانتهرتها قائلة :

— لا تسلطى هذه الأوهام على نفسك والا خاب مسعانا جميعا .
ولم تكن تجرؤ على معارضة أمها الى ما باتت تكنه لها من الرثاء فى هذه الايام الأخيرة . « ما أغبانى . هل حسبتها راضية عن حالى ؟ انها تكابد حيرة قاتلة وهى أحقنا بالعطف . ان التعاسة تنفذ فى لحمنا كما تنفذ هذه الابرة فى قطعة القماش . ما كان أبى ليسمح بشيء من هذا ولكن أين هو ؟ . ان حزنى عليه يتضاعف يوما بعد يوم لا للضر الذى مسنا بعده فحسب ولكن لأن هذا الضر نزل بمن يحبهم ويحب لهم الخير . انى ألم لألمه . لا بد أنه يتألم لنا ، لشدة ما كان يحبنى . كأنه يتحدث ما يرصدنى من شقاء . اضحكى ، ما احب ضحكك الى نفسى ، هكذا كان يقول لى كلما تعالت ضحكى الرنانة . وكان يقول لى أيضا الخفة النفس من الجمال كأنه يعزىنى على دمامتى . لله ما الطفه وما أعذبه ، لم يكن مثله أحد فى الرجال . مات . مات . لن انسى ما حييت ايماءته الى صدره وهو ملقى على الكنبه : أبى يستغيث ولا مغيث . لتندك الجبال على الأرض . حياة بغيضة مفجعة لا خير فيها . أبى ميت وأنا خياطة . عما قليل تجيء صاحبة البيت لا ضيفة كما كانت ولكن زبونة . كيف ألقاها ؟ بأى عين تنظر الى ؟ . حسبى ، حسبى ، داخ رأسى » . وسمعت أمها تخاطب شخصا فى الصالة فكفت يدها عن الماكينة وأرهفت السمع فقرع أذنيها صوت تاجر الأثاث وهو آخذ فى مساوماته التى لا تنتهى وأمها تحاوره بصوت ملئه الاشفاق واللوم . « ليست أمى بلهاء ، وما كانت لتغلب فى مثل هذا الموقف ، ولكنها الحاجة القاسية التى تركبها ، متى يصرف لنا المعاش ؟ لا أدرى ، ولا أحمد يسرى يدرى . هيهات أن يكفينا المعاش . خمسة جنيهات ؟! كارثة . جاء الرجل ليحمل المرأة الكبيرة بحجرة

الاستقبال ولما يمض أسبوعان على بيع الفراش العزيز . وسيأتى غدا وبعد غد حتى يترك الشقة أرضا عارية . لماذا خلقنا أسرى اذلاء للغذاء والكساء والمسكن ؟ هذا سر متاعبنا » . وخفت الى باب الحجرة ففتحته ورأت التاجر ومعاونيه يحملون المرأة الطويلة الى الخارج وقد فتح باب حجرة الاستقبال على مصراعيه ووقفت امها على عتبته . وكان الرجل الذى يحمل مؤخرة المرأة قصيرا فحملت المرأة فى وضع مائل ورأت سطحها ينعكس عليه ركن سقف الصالة متأرجحا بحركة الرجلين كأنما سرى بأوصال البيت زلزال . وذكرت وهى لا تدري نعش أبيها . واشتد انقباض صدرها وهى تلقى نظرة الوداع على المرأة التى عاشرتها منذ رأت النور . وعادت الى مجلسها . « ينبغى أن تكون المرأة آخر ما احزن عليه . لن تعكس لى وجهها أسرى به . الخفة انفس من الجمال ! ، هذا قولك يا أبى وحلك ، ولولاى ما قلته أبدا . لاجمال ولا مال ولا اب . كان يوجد قلبان يساورهما القلق على مستقبلى ، مات أحدهما ، وشغلت الهموم الآخر . وحيدة ، وحيدة ، وحيدة ، فى يأسى وألمى ، ثلاثة وعشرون عاما ! ما أبشع هذا . لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا فكيف يأتى اليوم أو غدا ؟ ! وهبه جاء راضيا بالزواج من خياطة فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج ؟ . لماذا أفكر فى هذا ؟ لا فائدة ، لا فائدة . سوف أظل هكذا ما حييت » . وودق الباب ، ثم جاءت صاحبة البيت متهلة كعادتها ، واحتضنتها وقبلتها . ثم جلستا جنبا الى جنب وتحدثت المرأة برقة ومودة ، ولعلها حرصت على الرقة والمودة أكثر من ذى قبل . وتظاهرت نفيسة بالرضا والارتياح تدارى بهما ارتباكها وخجلها . ولكن من المؤكد أن مبالغة المرأة فى اظهار مودتها ألمها وآذاها وضاعف من ارتباكها وخجلها . وقد جربت المرأة الفستان الذى انتهت نفيسة من خيطه ، وقاست الشياى الداخلية ، ثم جلست لصقها وغمرت يدها بنقود فضية وهى تقول :

— هيهات أن نوفي دينك السابق .

ومكثت معها ردحا من الزمن ثم ودعتها وانصرفت . وبسطت
نفيسة يدها فرأت قطعتين من ذوات العشرة القروش . وثبتت ،
عيناها عليهما وصدرها جياش وقلبها خافق . ثم قهرها الحياء
والهوان « شيء مؤلم ، ولكن لا ينبغي أن أفكر في هذا . ما جدوى
وجع الدماغ ؟ روضي نفسك على قبول ما لا بد منه . هذه حياتي
ولا حياة لى غيرها . . » وجاءت الأم وهي لا تزال تنظر الى النقود
فأخذتها من يدها وسألتها :

— أجرة الثياب كلها أم الفستان وحده ؟

فغمضت الفتاة :

— لا أدري . .

فقالت ، الأم وهي تزدرد ريقها بصعوبة :

— أجرة حسنة على أية حال .

وتحاشت الأم أن ينم وجهها على شيء مما يقوم في نفسها . .

١٤

ومضت أسابيع . وكان الليل قد أرخى سدوله وشملت
الشقة كآبة وما يشبه الصمت . وكان الشقيقان يجلسان الى
المكتب متقابلين ، منهمكين في المذاكرة ، على حين جلست الأم
ونفيسة في الصالة في شبه ظلام قانعتين من النور — على سبيل
الاقتصاد — بما ينبعث من حجرة الأبناء . وتناجيتا في صوت
منخفض شأنهما كل مساء ، وكانت هموم العيش أكثر ما يستأثر
بحديثهما . لم تنزل الحاجة همهما الأكبر ، وما انفك الخوف يقض
مضجع الأم ويجعلها ترمق المستقبل بقلق وحزن عميقين . بيد أن
العادة كانت تحدث أثرها اللطيف في تهوين الخطب وإساعته ، فلم

بعد التقشف فى الغذاء مزعجا كما كان بادىء الأمر ، وأخذت
نفسه تألف مهنتها الجديدة ، وتتطلع الى زبائن جدد ، فى شيء
من الانكسار وكثير من الرجاء . حتى الشقيقان ، تعودوا أن
يجعلا من غذاء المدرسة وجبتهما الرئيسية ، وأن يبيتا بلا عشاء
فى صبر وجلد . كانت العادة تحدث أثرها ، وكان حزم الأم
يسيطر على ضبط أعصاب الأسرة المنكوبة . وفى ذاك المساء جاء
فريد افندى محمد وزوجه يزوران الأسرة فاستقبلتهما الأم
ونفيسة بترحاب وقاداهما الى حجرة الاستقبال .

وكان فريد افندى يرتدى جلبابا ومعطفا ، أما حرمة فقد
التفت بالروب ، وكأنهما فى شقتهما بغير ما كلفة . وجلس الرجل
على الكنبه ليفسح المجال لجسمه المكتنز وراح يحدث حديثه
الودود فى لطف وايناس . وكانت زوجه - ست أم بهية - بدينة
مثله مع ميل الى القصر ، الا أنها كانت تعد اجمل امرأة فى العمارة
لبياض بشرتها وزرقة عينيها . وقد قالت تخطب أم حسن
متسائلة فى لهجة تنم عن العتاب :

- لماذا تلزمان البيت هكذا ؟ لماذا لا تروحان عن نفسيكما
بزيارتنا كما كنتما تفعلان ؟
ف قالت الأم :

- هجم برد الشتاء وما ان يأتى المساء حتى يركبنا الكسل .
أما نهارنا فلا يخلو ساعة من هموم البيت ..
فقال فريد افندى :

- نحن أسرة واحدة ، وينبغى أن نمضى جل فراغنا معا .
كان فريد افندى ممن لا يبرحون بيوتهم بغير داع قهار .
ويرى طيلة فراغه متربعا على الكنبه ومن حوله زوجه وبهية ابنته
وسالم ابنه الصغير ، يسمرون ، ويمصون القصب أو يشوون
أبا فروة . وكانت الأم تكن مودة صادقة لعطفه ومروءته ، ولا
تنسى له ما تجشم من تعب يوم وفاة زوجها . وفضلا عن هذا

كله فقد أقرضها بعض المال لحين صرف المعاش ، ولم يكن ينى عن الذهاب الى وزارة المالية للاستعلام والاستعجال . بيد انه كان موظفا تافه الشأن وهو ما غاب عن تقدير المرأة . ولم يرق الى الدرجة السادسة الا حديثا على بلوغه الخمسين . وكانت جирته للأسرة ترجع الى عهد بعيد . وتوثقت أوامر الصداقة بينهما لطيب معشرهما وقرب اسباب المعيشة بين الأسرتين . وكانت حياة لا بأس بها ، ولا تخلو من ألوان الترفيه . ثم نعمت أسرة كامل افندى برفاهية جديدة حين رقى المرحوم الى الدرجة السادسة قبل وفاته بخمسة أعوام . واستقبل فريد افندى عهدا جديدا منذ عامين ، فورث بيتا بالسيدة زينب يدر ايجاره عشرة جنيهات شهريا ، وبلغ به دخله ثمانية وعشرين جنيها أو ما يعد ثروة في عام ١٩٣٣ . وبات فريد افندى سيد عطفة نصر الله ، وزاد ترهلا على ترهل ، ولولا حرص زوجته على الاقتصاد لمواجهة مستقبل فتاتهما وابنتهما الصغير لنفذ الرجل ما أراد يوم من الانتقال الى شقة بشارع شبرا .

وتنقل بهم الحديث من واد لواد ، ثم قال فريد افندى مفصحا عن رغبة لعلها كانت أول ما بعثه الى هذه الزيارة :

— يا ست أم حسن ، انى قاصدك فى رجاء ..

ف قالت الأم :

— مر يا سيدى ..

— ابنى سالم ، وهو فى السنة الثالثة الابتدائية ، ضعيف فى الانجليزى والحساب . وقد رأيت على سبيل الاقتصاد — لأن المدرسين طماعون كما تعلمين — أن أعهد الى حسين وحسين بالقيام بهذه المهمة ، ساعة كل يوم أو يوما بعد يوم ، هذا رجائى يا ست أم حسن .

وأدركت المرأة أن الرجل يهين سبيلا غير ماس بالكرامة لنفخ

ابنيها بمصروف شهري يرفه عنهما . هذا واضح كالنهار ويتفق مع ما طبع الرجل عليه من دمثة ورقة . وقالت برقة وحياء :
- ان حسين وحسين ابنك ، وهما طوع أمرك .. !
فقال الرجل بسرور :

- فليسعفاني بسرعة اذن ، وليبدءا يوم الجمعة القادم ..
وعادوا الى حديثهم الطويل ، ثم غادر الرجل وزوجه الشقة حوالى التاسعة . وهرعت نفيسة الى حجرة اخويها حامله خبرا سارا لأول مرة منذ عهد ليس بالقصير ، وقالت بمرح وقد استردت شيئا من طبيعتها الاولى :
- مفاجأة !

فرقا رأسيهما اليها فى استطلاع فقالت :
- فريد افندى راغب فى اختيار مدرس لسالم ..
- وما شأننا فى ذلك ؟
- منكما ؟

- لآى مادة ؟
- الانجليزى ..
فصاح حسين :
- أنا طبعا !
فقالت مبتسمة :
- والحساب أيضا .

فقال حسين وهو يتنهد :
- أنا . . .

فقالت فى مكر :
- يريدكما معا ، وطبعا بالمجان !
فهتفا معا فى سرور وقد أدركا ما وراء كلامها :
- طبعا !

لم يكن ثمة ما يدعو الى ارتداء البدلة في ذهابهما الى شقة في نفس العمارة فارتديا معطفيهما على البيجامتين . والى هذا كانت أمهما تحرم عليهما ارتداء البدلة - أن يلبيا طول الاستعمال - الا للضرورة القصوى . وكان الضحى بسام الشمس فلطفت حرارتها من برودة الجو . وارتقيا السلم يملأهما السرور والامل . ومرا في صعودهما بباب شقتهما القديمة فالتقيا عليها نظرة صامتة ، وانتهيا الى الشقة العليا فوجدا الباب مواربا ووقفا لحظات مترددين . ثم اقترب حسنين من الباب ورفع يده لينقر عليه ولكن يده جمدت في الهواء ورنت عيناه الى الداخل على رغمه . رأى فتاة مولية الباب ظهرها ومنحنية على شيء بين يديها - لعلها تبحث في درج من أدراج البوفيه - وقد برز ردفاها اللطيفان ، وانحسر الفستان عن ساقها وباطن ركبتيها ، ساقان مدمجتان يكسوهما بياض ضاحك تكاد العين تحس طراوتهما . وثبتت عيناه على المنظر فلم يبد حراكا . وعجب حسين لموقفه فدنا منه في اهتمام وألقى ببصره من فوق كتفه وهو يشرب بعنقه فغمزته دهشة ، ولكن سرعان ما ارتد عن فرجة الباب كالهارب وجذب أخاه من ذراعه وهو يرميه بنظرة حادة كأنما يقول له « أمجنون أنت ؟ » . ولبثا حيناً وقد ركبهما ما يشبه الشعور بالذنب ، وكان المنظر ذر في شقوق صدريهما الشطة . ومال حسنين على أذن حسين وهمس :

- بهية . . .

فغمغم الآخر متظاهرا بعدم الاكتراث :

- لعلها . .

فتردد حسنين وفي عينيه بسمة شيطانية ثم قال :
- الا تسرق نظرة اخرى ؟

فلكزه في كتفه ونحاه جانبا ثم اقترب من الباب وطرقه ،
وسمعا وقع اقدام آتية ، وفتح الباب عن وجه جميل ،
مستدير ، ممتلىء ابيض مشوب بشحوب خفيف ، تزيينه
عينان زرقاوان صافيتان . وما ان رأت القادمين حتى تراجعت
في خفر . ثم جاء من بعيد صوت فريد افندى وهو يهتف :
- تفضلا يا حضرتى الأستاذين الكبيرين !

ودخلا الى الصالة - حجرة السفارة أيضا - فرأيا فريد
افندى جالسا على كنية في مواجهة البوفيه ، في جلباب فضفاض ،
جعل منه كهيئة المنطاد . وسلمما عليه وهو يتصفح وجهيهما
باهتمام وترحيب ، ثم نادى سالم ، فجاء الغلام ووقف في حياء
وارتباك ، فقال فريد افندى :

- سلم على أستاذيك . أنت تعرفهما طبعاً ولكنهما من الآن
فصاعدا شخصان جديدان . هما أستاذك فتأدب في محضرهما
كما تتأدب أمام معلميك ..

فاقترب منهما الغلام في الأدب وهو يغالب ابتسامة حيال
الشابين اللذين لم يألف احترامهما بعد ، وأشار الابد الى
حجرة الى يسار الداخل وقال :

- حجرة الاستقبال اوفق حجرة للدرس ، وبها الشرفة اذا
أراد احدكما أن يتشمس ..

ومضى الأستاذان الى الحجرة يسبقهما التلميذ ، وبادر الغلام
الى الشرفة ففتح بابها ، ثم أغلق باب الحجرة . وكانا يدخلان
الشقة لأول مرة لأنه لم يكن لفريد افندى ابن في سنهما فتدعوهما
صداقته الى التردد عليها . ووجدوا حجرة الاستقبال بمنزلة
حجرتهمما بوجه عام فهي مكونة من طاقم قديم ذى كنبتين
افرنجيتين وستة كراسي ، ومراة كبيرة ذات حوض مذهب يحوى

وردا اصطناعيا بيد أن حجرتهما بقيت على قدمها وبيعت
مرآتها ، أما هذه فيبدو أن يد النجار قد جددت حشوها
وكساءها . وجلس حسين على كنية فجاء سالم بكرسى
وجلس قبالة واضعا بينهما خوانا صفت عليه الكتب والكراسات ،
على حين خرج حسنين الى الشرفة في انتظار دوره . وجعل
حسين يتصفح كراسات الغلام وكتبه ، ثم قال له :
- ساعيد الدروس من الاول شارحا ما يغمض عليك على أن
نبدأ في الدرس التالى بتسميع ما تم شرحه .
وبدا الدرس فى اهتمام جدى .

ووقف حسنين فى الشرفة مرتفقا حافتها كما كان يفعل أيام
كان لهم شرفة . وكان المنظر الذى أثاره لا يزال ناشبا فى مخيلته .
الساقان البديعتان ، والوجه البدرى ذو العينين الزرقاوين .
نظرة هادئة رزينة توحى بالثبات لا بالخفة . جمال يبهى وان
شابه شئ من ثقل الدم ولكنه لم يترك أثرا سيئا فى نفسه .
لا يزال دمه يتدفق حارا فى عروقه ، وقلبه يخفق بنشوة المنظر ،
ورأسه لا يمسك عن خلق الصور والأحلام . هذه أسطح البيوت
المحدقة به وهذه عطفة نصر الله فى أسفل ، وهؤلاء خلق كثيرون
ذاهبون آلبون ، كل أولئك يلوح وراء غلالة حمراء نشرها خياله
المحتقن بالدم ، متى تعود السكينة الى نفسه ؟ انه يذكر بهية .
كان يراها كثيرا وهى صغيرة تحجل فى فناء العمارة . ولكنها
اختفت منذ الثانية عشرة ، وانقطعت عن المدرسة أيضا قبل
أن تلتحق بالمدرسة الثانوية . ولعلها فى الخامسة عشرة ، ولكن كان
كانه يراها لأول مرة . « انى بحاجة الى مثل هذه الفتاة . نذهب
الى السينما معا ، ونلعب معا ، ونتحدث كثيرا . وما من
بأس فى أن أقبلها وأهانقها . ليس فى حياتى وجه جميل يجذبنى
اليه . وحسبى ما صادقت من فتیان المدرسة ونادى شبرا .
أريد فتاة . أريد هذه الفتاة . فى أوروبا وأمريكا ينشأ الفتیان

والفتيات معا كما نرى في السينما . هذه هي الحياة . أما هذه
فما أن رأينا حتى توارت عن الباب كأننا وحوش نروم التهامها .
وكان أجدادنا يقتنون الجوارى . لو نشأت في بيت ملء بالجوارى
لعرفت حياة أخرى على رغم أمى وانذاراتها ولكماتها . حتى
الخادمة الصغيرة طردت لفقرنا . ماذا يخبىء لنا المستقبل ؟
أظن أكبر ذنب يؤخذ به في الآخرة هو أن نترك هذه الدنيا دون
أن نستمتع بحلاوتها . أجمل منظر حقا هو بطن ركبته . في وسطه
عضلة رقيقة مشدودة تشف بشرتها عن زرقة العروق .
لو انحسر الفستان قليلا لرأيت مطلع الفخذ . أجمل منظر في
الدنيا منظر امرأة تخلع ثيابها . أجمل من المرأة العارية نفسها .
يقولون أن مدرس التاريخ زير نساء . متى أجد نفسى رجلا حرا ؟!
عندنا غدا حصّة تاريخ ويجب أن أحفظ هذه الليلة القبائل
الجرمانية . انكحوا ما طاب لكم من النساء ، هذا أمر يا رب
ولكن هذا البلد لم يعد يحترم الاسلام . « وتابع أحلامه في نشاط
حتى ترامى إليه صوت حسين يدعوّه الى درس الانجليزى
ففادر موقفه ..

وعند أنصرافهما بدت لهما الفتاة جالسة في الحجرة المقابلة
لحجرتيهما ، أما حسين فقد غض بصره في وقاره المعهود ، وأما هو
فقد رنا اليها بنظرة قوية فخفضت عينيها في حياء .

١٦

- كم تظن أن يكون أجرنا ؟
- فقال حسين متظاهرا بعدم الاكتراث :
- لا تكن شحاذا ثقيلا ..
- فقال حسين بأمل :
- نحن ندرس لسالم يوما بعد يوم وقد مضى زمن لا بأس به

فلعله ينقدنا أجرنا أول الشهر ، نينة لا تستبعد أن يعطى كلا منا نصف جنيه وهو مصروف عال ! ستعود أيام الكرة والسينما وشيكولاتة المقصف في الفسحة ..

كانا يرتقيان السلم وقد غاب نهار الشتاء القصير في ظلمة المساء المبكرة . وطرقا الباب كعادتهما وانتظرا أن يجيء من يفتحه وهما يطويان في صدرهما أملا يتجدد مساء بعد مساء دون أن يتحقق . وجاءت الخادم وقادتهما الى حجرة الاستقبال . كانت الصلاة خالية والضوء ينبعث من حجرة نوم الوالدين في نهاية الصلاة فسار حسنين وهو يلحظ المكان بجانب عينيه دون جدوى ثم جاء سالم وأغلق وراءه الباب وجلس أمام حسين وبدأ الدرس . وشعر حسنين بخيبة وملل . وكان احضر معه كتابا يذاكره حتى يجيء موعد درسه فراح ينظر فيه بعينين غائبتين . وجعل يرفع بصره الى الباب المغلق بحرق شديد ، ثم تساءل بمكر :

— ألا يحسن بنا أن نغلق الشرفة اتقاء للبرد ونفتح الباب ؟

وهم سالم بالنهوض ولكن حسين أشار له بالجلوس وقال :

— أغلق الشرفة اذا أردت على أن يبقى باب الحجرة مغلقا .

ورمقه بنظرة ذات معنى فتلقاها حسنين باستياء مكتوم .

وضاق بمجلسه فقام الى الشرفة متناسيا أنه كان يقترح اغلاقها

منذ لحظات . ووجد حيال الظلمة كآبة مثل تلك السحب التي

كانت مرتقة بصفحة السماء تزيد الظلمة عمقا ووحشة ، لم يكن

بالأفاق نجم واحد ، ولاحت أضواء المصابيح خافتة تحت غاشية

من الضباب ، وخيم على الكون سكون ثقيل وبرودة صامتة كأنما

كتمت أنفاسه . « حنبلى ، حنبلى . يجب أن يكون رجلا وقورا

قبل الألوان . ولا يبدوا أنه يريد أن يعاوننى . من يدري لعلها

لو كانت لها أخت لتغير سلوكه . انه كأمة جاد صارم . ينبغي

أن أفض هذه المشكلة بالحل الموفق » وراح يتفكر باهتمام حتى

سمع صوت سالم يناديه فغادر موقفه الى الحجرة . وقال له الغلام:

— تفضل شايًا .

ورأى قدحين من الشاي على الخوان فتناول أحدهما وقد خفف منظر الشاي من توتر أعصابه . وقبل مضي دقيقة سمعا صرير الأكرّة فنظرا صوب الباب ففتح قليلا وبدت بهية ! . كانت تحمل السكرية فأعطتها لسالم وهي تقول :

— خذ هذه فربما لم يكف ما بالشاي من سكر . .

كانت ترتدى فستانا بنيا تكاد تمس أهدابه أعلى القدم فأضفى طوله على قامتها المائلة للقصر ملاحظة . وحملق الشقيقان في وجهها وهي لا تحول عينيها عن الغلام . ثم غض حسين بصره ولما يفق من وقع المفاجأة بينا ظل حسنين يحملق في وجهها كأنه عجز عن استرداد بصره . ورأى الغلام يجيء بالسكرية ، وأخذت الفتاة ترد الباب فملأ الجزع قلبه الخافق ، وعز عليه أن تختفي وهو غارق في ذهوله وجموده ، وطفرت من أعماقه رغبة في الإفصاح لا تقاوم ، فقال بعجلة :

— شكرا . الشاي به الكفاية . . !

وتحولت عينها إليه في ارتباك ، ثم اختفت دون أن تنبس بكلمة ، ولعل عينيها نمتا عن ابتسامة مكتومة . وتحاشى النظر صوب أخيه فحصر بصره في قدح الشاي . « مفاجأة لم أكن أنتظرها . حلم سعيد . على الرغم من الباب المغلق ! » ورشف رشفة كبيرة من السائل الساخن فلسعت لسانه وسقف حلقة وجعلته ينفخ في جزع . ولكن سخونة الشاي لم تغيبه طويلا عما يعاني من أغراء . « جسم لدن . عيان جذابتان . هيهات أن يخفى هذا الفستان الطويل ما انطبع في حسي من صورة الساقين . وبطن الركبة خاصة . لا الفستان ولا الباب ولا الظلام . أعظم واجب في هذه الدنيا أن تلاعب فتاة جميلة تحبها . انى أعجب كيف أن فتاة يمنعها الحياء من التحديق في وجه حبيبها تستطيع يوما أن تنزع ثيابها بين يديه دون مبالاة ! . هذا التطور

خاصة خليك بأن يبعث بهيج الأمل فى موات النفوس . أو لعلها العادة ؟! . يجوز . هذه العادة التى جعلتنا نألف المبيت على الطوى ! كيف يحق لى أن أفكر فى الحب على ما نكابذ من قساوة الحياة ! . شكرا ، الشاى به الكفاية ! . أحسنت بشكرها صنعا . لا يحب طبعى الجبن والتردد . وبذلك يمكن أن أقتنص فرص الحب وسط برودة الفقر . الفقر ! . لو كان الفقر رجلا لقتلته ! . ولكنه امرأة . تقتلنا ونحن راضون . ترى هل يتألم أبى لحالنا ؟ ترى ما هيئته الآن ؟ لهفى عليك يا أبى . حقا ان الحياة أكذوبة ضخمة . ولكنها جاءت بنفسها بالسكرية ! . جاءت لى أنا فى الواقع . أريد أن أكون شارلمان عصرى . لو عدت يوما الى عطفة نصر الله محاطا بعظمة فروسيته لألقت بنفسها على من الشرفة . . » وما يدرى الا وحسين يقول له :

- دورك . . .

اللغة الانجليزية ! . وحل محل أخيه ، وألقى درسا ممتلئا عطفا وحباً للغلام الذى يجرى فى عروقه الدم الذى يجرى فى عروقها . ذلك الدم الذى استشفه فى بطن ركبتها . وانتهى بعد زمن لم يدرك له طولا ، ثم غادرا الشقة معا الى السلم المظلم . ولم يعد يطبق صبرا فقال :

- كان ظهورها اليوم مفاجأة بديعة !

فقال حسين بلهجة تنم عن الانتقاد :

- حاذر لا تكن واقحا . هذا بيت محترم !

- ماذا فعلت فأستحق هذا التأنيب ؟

- لا تفعل شيئا لا تقدم على فعله اذا كان فريد افندى معنا .

وغلبه السرور فقال وكأنه يناجى نفسه :

- جاءت بنفسها ! . لله ما أطفها !

- ليس فى هذا ما يعيب . .

- ترى أكلفها أبوها باحضار السكرية ؟

فقال حسين بملل :
 - من أدراني بذلك !
 - أم جاءت من تلقاء نفسها ؟
 - ليكن هذا أو ذاك .
 - وإذا كان من تلقاء نفسها فهل جاءت تحت بصر والديها ؟
 فلم يجبه الآخر وان ظل منتبها لما يقول في اهتمام شديد ،
 فعاد حسنين يتساءل :
 - أو جاءت خفية ؟!
 فهتف حسين :
 - خفية ؟!
 فضغط الشاب على ذراع أخيه وقال وهما يغادران آخر
 درجات السلم :
 - ألا يقولون « من القلب للقلب رسول » ؟!

١٧

- جئت الآن وحدي ، وسيجيء حسين بعدى ، حتى
 لا يضيع وقتنا بلا ضرورة !
 فقال سالم بأدب :
 - هذا أفضل ...
 واتخذ كلاهما مجلسه ، ولكن حسنين قال قبل أن يبدأ درسه:
 الأوافق أن تغلق الشرفة وتفتح الباب !
 ونهض سالم فحقق رغبة أستاذه . ورأى الصالة مظلمة صامتة
 ولكن لم يفتّر أمله ، فلا يزال في الوقت متسع للشاي ، ثم للسكّر !
 وأراد سالم أن يتوودد إلى مدرسه بأن يفضي إليه بما في نفسه فقال:
 - بابا وماما عند ستي ..

فخفق قلبه بعنف ، ونظر الى الغلام طويلا ، ثم سألته :

- متى ذهبا ؟

- بعد العصر ...

وساوره القلق أن تكون قد ذهبت معها فتسائل :

- وكيف تبقى وحدك في البيت ؟

فقال الغلام :

- معى ابلة بهية ..

وابترد صدره بلذة الارتياح والأمل . « الشاى والسكر . السكر خاصة . بل السكرية . سأتحقق اليوم مما اذا كانت تعتمد الظهور أمامى ! » . وأمر الغلام أن يطالع وبدأ الدرس ، وأصغى اليه دقائق ثم مضى يغيب عنه . « هل اطلب شايا ؟ . قلة ذوق ! . ولكن اذا تأخر الشاى فلا بد من طلبه . انى مضطرب أكثر مما ينبغى . اننا وحيدان في الشقة انا وهى . لا يخدش هذه الوحدة سالم أو الخادم الصغير ، فنحن وحيدان . افلا نعم طويلا بهذه الوحدة الخيالية . لو كانت الدنيا بسيطة كبساطتها الحلوة الأولى لقمتم اليها وأخذتها بين ذراعى ، وسألتها باطمئنان كامل أن تكشف لى عن ساقها . ما الذى يجعلنى أحجم عن رغبة كهذه . هذا سخف الدنيا الذى قتل أبى وأنزل بنا مانحن فيه » . وانتبه الى سالم وهو يسأله عن معنى كلمة فذكر له معناها ، وأمره أن يواصل المطالعة . وقبل أن يغيب عنه صوت الغلام سمع وقع أقدام تقترب فاتجه بصره ناحية الباب المفتوح ، ثم رأى صينية الشاى تتقدم حاملها . ووقع بصره على الساعدين اللتين تحملانها فخفق قلبه خفقة عنيفة ونهض قائما كمن به مس . وجاءه صوت رقيق وهو يخطو نحو الباب يقول بصوت كالهمس :

- سالم ...

فظهر حيالها وهو يتفحصها بنظرة غارمة ثم همس :

- ألف شكر ...

وتورد الوجه الأبيض المائل للشحوب ولعله لم يتوقع ظهوره ،
ثم غضت بصرها في ارتباك . ومد حسنين يديه فتناول الصينية ،
فأطبقت يده اليمنى على أصابع يسراها ، وسرى مسها في يده ،
وذراعه ، وجسمه ، وروحه ، في أقل من الثانية . ولم تقف به
جراته عند حد الضغط على أصابعها ضغطة غير خافية ،
فاستخلصت يدها في استياء ، وفي وجهها عبوسة ، وتحولت عن
الباب في حدة الغضب . وعاد الى الحوان بالصينية شديد التأثير ،
ثم جلس على مقعده وهو يقول للغلام في ارتباك :
- أستم ...

« ترى هل تعجلت الأمر قبل أن ينضج ؟ . ما أقل صبرى ،
هكذا أنا دائما . يا لها من عبوسة ! . عبست وتولت . ان يكن حياء
فهو عز المنى ، وأن يكن حنقا فلعله الختام . هيهات أن أتراجع .
هيهات أن يطيب لى التردد أبدا ، لماذا جاءت بنفسها ؟ لماذا لم
تكلف الخادم بحمل الصينية ؟ . جاءت لى انا . هذا واضح .
لا داعى للخوف . » . وكان ينتبه الى سالم فى أويقات متقطعة .
ويلقى عليه بعض الأسئلة ، ثم يغيب عنه فى قلق يراوح بين الاشفاق
والسرور . ولما ان انتهى الدرس خطرت له فكرة فصمم على
تنفيذها دون تردد . ونهض قائما ، وغادر سالم الحجرة ليوسع
له الطريق فأخرج مندبيله من جيب معطفه وتركه على المقعد ، ثم
غادر الشقة . ولكنه لم يبرح مكانه بعد اغلاق الباب . وقف يرهف
السمع الى خطوات الفلام حتى ضاعت ، وتريث لحظة ثم نقر على
الباب . وانتظر وقلبه يشب وثبا من شدة الحفقان . « اذا جاءت
الخادم ضاع تدبيرى هباء . ولكن من المحتمل أن تأتى هى . أمرى
لله . » . وأضاء نور الصالة وسمع وقع أقدام قادمة ثم فتح
الباب . هى . ولم يبال ما أرسم على وجهها من آى الدهشة ،
ولم يضع وقته سدى فتساءل فى رقة واشفاق :
- أخاف أن أكون أغضبتك !

فتراجعت خطوة دون أن تفتح فاما فقال بعجلة :
 - لا أطيع أن تفضي أبدا ..
 فغمغمت في استنكار كأنها لا تحتمل أن يوجه إليها خطابا :
 - لا ، لا ، لا ، هذا كثير !
 ولم يستطع أن يتكلم لأن سالم ظهر على عتبة الغرفة اليسرى
 وهو يتسائل :
 - جاءت ماما ؟
 فقال حسنين بصوت مرتفع :
 - نسيت منديلى فى الحجرة ! ..
 وجرى سالم الى الحجرة ، وسارعت الفتاة بالعودة الى الداخل ،
 ثم جاءه الفلام بالمنديل فتناوله ومضى وقد نسي أن يشكره ..

١٨

ورفع حسين رأسه عن المكتب وتفحصه بدهشة ثم سأل :
 - مالك ؟
 فضحك حسنين ضحكة قصيرة دون أن يجيب ، فسأله
 الآخر بلهجة ذات معنى :
 - أعطيت درسك ؟
 فأرتمى حسنين على فراشه وتساءل :
 - هل أبدو متغيرا ؟
 - بلا ريب .
 فتنهد الشاب قائلا :
 - يحق لى أن أحمد الله على أن أمنا تجلس فيما يشبه الظلام .
 - ماذا حدث ؟
 هل يخبره بما حدث ؟ . ولكن هل يلقى منه الا زجرا ؟ . قال :

— لم يحدث شيء ؟

— واطرباك ؟! انك اذا اضطربت توتر أنفك كالحمار .

قال حسين ذلك ثم تساءل في نفسه هل يتوتر انف الحمار حقا ، كيف اختار هذا التشبيه ؟ ولكن الآخر تضاحك قائلا :

— هيجان شعور ، هذا كل ما هنالك ...

— وبعد ؟

— ولا قبل !

فقال حسين بجذ واهتمام :

— أريد أن أعرف مقصدك .

— لا أفهم ما تقول .

— لا تتجاهل ما أعنى أنت تفهم كل شيء . لماذا لا تتركها

وشأنها ؟ ألا تخاف أن يفطن فريد أفندي الى عبثك أو أن يبلغه

أمرك عن طريق الفتاة نفسها ؟. سترمى بنا الى مركز حرج ..

فقال حسنين مبتسما :

— والله يا أخى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى

على أن أتركها ما تركتها أو أهلك دونها ..

فضحك حسين على رغبته ، ثم قال وهو يستعيد مظهر الجد

والرزانة :

— ماذا تريد منها ؟

يا له من سؤال !. يبدو غاية فى البساطة ولكن من له بأن

يجيب عليه ، ولم يكن طرح على نفسه هذا السؤال فلم يدر له

جوابا . كان اندفاعه بوحى من عواطفه وغرائزه دون حاجة الى

تفكير . ثم قال فى حيرة :

— فى مثل حالتى لا تفريق بين الباعث والغاية .

— لا أفهم ما تقول .

— ولا أنا بفاهم !

— اذن دعها وشأنها كما قلت لك .

- لن أزال وراءها حتى ...
 فتفحصه حسين بنظرة كئيبة وتمتم متسائلا :
 - حتى ماذا ؟
 - حتى تقع كما وقعت .
 - ثم ؟!
 فقال الشاب الحائر :
 - حسبى هذا !
 فهز حسين رأسه فى حدة وقال :
 - أنت مخطيء . انها فتاة مهذبة ، ومن أسرة طيبة . ولن
 ترضى عن سلوكك ..
 - هى ما قلت وأكثر ولكنى لن اتخلى عن أملى ..
 وقام الى المكتب فأخذ كتبه وكراساته وعاد الى الفراش ثم
 وضعها على حافة النافذة المغلقة التى تلى فراشه مباشرة ، وجلس
 متربعا حياها كأنه جالس الى مكتب ، فسأله حسين متعجبا :
 - لم لا تجلس الى المكتب ؟
 - أريد ان أتربع لأدق ساقى .
 وكان يفكر فى أمر ذى بال ففتح كراسة واقتطع منها صفحة
 وامسك بالقلم وراح يعمل ذهنه فى اهتمام ووجد راضطراب .
 « سأكتب لها كلمة . لن تتاح لى فرصة لمخاطبتها فلا حيلة لى
 الا هذه . ولكن ماذا أكتب ؟ » . وركز فكره مستعينا بالسكون
 الذى يفشى الحجرة لا يחדشه شئ الا خشخشة أوراق الكراسة
 اذا قلبها حسين ، ولكن أخذت أذناه تستبين صوت راديو
 يتسلل من النافذة المغلقة وانيا من بيت من بيوت العطفة . وقطب
 متظاهرا بالضجر ولكنه ارتاح الى سماعه هربا من حيرة أفكاره .
 وأصغى الى « عادت ليالى الهنا » فسلم سريعا بمجامع نفسه
 وجاش صدره بالحنان وندى بالعطف وهفا قلبه نشوة للحب
 والحياة . وغمرته موجة حماس فامتلا نشاطا وتمنى لو ينطلق

الى الخلاء متلفعا بالظلماء . وجعل يغيب عن النغم رويدا بعد ان
فتح لروحه ابواب جنة عامرة بالأحلام والرؤى . « يجب أن أكتب
كلمتين . جميلتين فحسب ، حتى لا أسود ألا ورقة صغيرة اذا
رميت بها عند قدميها لم يستبها أحد » . وحرك القلم كاتبا :
عزيزتى بهية انى آسف جدا لأنى أغضبتك . « اليس الأفضل
أن أقول : لا تفضبنى يا عزيزتى ؟ .. سيان . ثم ماذا ؟ ينبغى أن
أعترف لها بحبى . أريد جملة غير مبتذلة . اللهم عونك . » .
وقطع حسين عليه تفكيره متسائلا :

— ماذا تكتب ؟

— موضوع انشاء .

— ما هو ؟

فقال بلا تردد :

— اثر الموسيقى فى نهضة الأمم ..

عزيزتى بهية ، انى آسف جدا لأنى أغضبتك . ايقظ لك
الغضب لأنى احبك ؟ . « يكفى هذا فخير الكلام ما قل ودل .
كلا لا يكفى . النعمة ناقصة . استشهد بيت من الشعر . كلا
فهذا يثير الضحك عادة . وضحكة واحدة خليقة بأن تفوت على
الفرض . جملة أخرى مؤثرة . يا رب يا معين ! » ووثبت الى
ذهنه عبارة لا بأس بها فشرع يكتب : والله ما فعلت ما فعلت ..
ولكن حسين قاطعه مرة أخرى قائلا :

— هل انتهيت من نقط الموضوع ؟

فانزعج حسنين وقال فى غيظ مكثوم :

— تقريبا .. عن اذنك لحظة واحدة !

وعاد الى الخطاب فى تصميم من يريد الفراغ منه فكتب : والله
ما فعلت ما فعلت الا لأنى احبك . وسأحبك ما حييت ، ولا حياة
لى الا برضاك عنى .

وأعاد قراءتها بعناية ، ثم تنهد فى ارتياح عميق ، وطواها وثنى

طرفيها ثم أودعها جيبه . « سأنتهز فرصة اقترابها من الباب ،
أو مروري بها في الصلاة ، ثم أرمي بها اليها ، وليكن ما يكون » .

١٩

وجدت نفيسة نفسها في حجرة متوسطة الحجم ، قامت على
جانبيها كنبتان كبيرتان وبضعة مقاعد ، أما أرضها ففرشت
ببساط اسيوطي ، وفي جدارها المواجه لمدخلها شرفة تطل من
الدور الرابع على شارع شبرا . كان الأثاث قديما والظاهر ان
الحجرة كانت معدة لجلوس الأسرة في أوقات الفراغ كما يمكن ان
يستدل عليه من وجود الراديو بداخلها على كنب من الباب .
وقد لاحظت الفتاة مذ وطئت قدميها الشقة انها على قدر وافر
من الجاه يبدو في الصلاة الصغرى التي اثت كمدخل للبيت ،
والصلاة الكبرى الفاخرة المعدة للسفرة ، فحق لها ان تصدق
صاحبة بيتهم بعطفة نصر الله حين قالت لها « جئت لك بربونة
ملانة ، عروس ومن اسرة كريمة ، فأرجو ان تخطي ثيابها بما
تستحق من عناية عليها تفتح لك معلق الأبواب » . وكانت نفيسة
مضطربة لدخولها بيتا غريبا للعمل اول مرة . وجلست على مقعد
قريب من الباب تنتظر . وكانت ترتدى ثوب الحداد وقد ارسلت
شعرها الاسود في ضفيرة قصيرة فبدأ وجهها العاطل من الزواق
والحسن شاحبا بأثسا . « بيت غريب وأناس غرباء . خطوة
جديدة في سبيل المهنة . لست الا خياطة . ليست كرامتي التي
تعز على ولكن كرامتك انت يا أبى » . ولم يطل بها الانتظار اذ
جاءت الحجرة فتاة في العشرين على حسن ورشاقة ، فقامت
تستقبلها ، وسلمت عليها القادمة وهي تلقى نظرة متفحصة
ثم قالت :

— أهلا وسهلا . حضرتك الست نفيسة التي أرسلتك ست زينب ؟

فقالت الفتاة في حياء :

— نعم يا هانم . وحضرتك العروس ؟

فأومأت بالإيجاب مبتسمة ، ثم جلستا ، وهي تقول :

— ست زينب تثني عليك جميل الثناء . واني اتوسم فيك الخير ..

فابتسمت نفيسة ابتسامة باهتة وانفرجت شفتاها دون أن تنبس بكلمة . « لعلها قالت اني خياطة ماهرة . هذا حسن . أمدح أم ذم ، لا أدري . ترى هل قصت عليك نبأ اسرتنا ؟ . كان أبى كأيك . وكنت سيدة مثلك . وطالما انتظرت العريس ولكنه لم يأت . ولن يأتى » . وسألت العروس في رقة وهي تعلم الجواب :

— لماذا ترتدين السواد ؟

فأجابتها في حزن :

— توفي والدى منذ شهرين . وكان رحمه الله موظفا في وزارة المعارف .

— حدثتنا بذلك ست زينب . البقية في حياتك .

— حياتك الباقية . نحن من بنها ، وخالتي تقيم هناك مع زوجها الذى يملك محلجا للقطن .

ودخلت عند ذاك خادم حاملة بقجة فوضعتها الى جانب سيدتها وذهبت . وحلت العروس عقدتها فانحسرت عن كوم من الحرائر مختلفة ألوانها . وأدركت نفيسة من النظرة الأولى انها أقمشة للثياب الداخلية . ولعلها أرسلت بالفساتين الى خياطة كبيرة ، وارتاحت لهذا لأنها كانت تشفق من أن تعرض سمعتها لتجربة شاقة لا قبل لها بها ، عمل في حدود طاقتها وربح

مضمون . وقامت الى مجلس العروس وراحت تتفحص الأقمشة
وتتجسسها قائلة :

— مبارك عليك . يا له من حرير نفيس .

فاقتر ثغر العروس عن ابتسامة سعيدة وقالت :

— نبدأ الآن بالقياس . وعلى فكرة أعندك مانع من مباشرة
العمل هنا في بيتنا ؟ عندنا ما تحتاجين اليه من الأدوات كلها ،
وليس ثمة اطفال في البيت ، وفضلا عن هذا كله فبيتنا غير بعيد
من عطفتكم فتستطيعين الحضور كل يوم في غير مشقة .

ولم تر نفيسة بدا من أن تقول :

— لك ما تشائين يا هانم . .

وقامت الفتاة ووقفت أمامها ، وجعلت نفيسة تقيس الأقمشة
عليها . امتلأ أنفها الغليظ برائحة الحرير الجديد ، وشعرت لمسه
وهو ينزلق بين أصابعها باحساس غريب ، فيه اشتهاؤه وفيه ألم .
بيد أنها احست كذلك ، حيال استسلام الفتاة وما تعقده على
مهارة يديها من رجاء بنوع من السيادة ، فكانها ظفرت بأمل في
العزاء ، ولكنه سرعان ما فتر واخلف وراءه يأسا قائما « عروس
وحرير . أحقا أخطط هذه الثياب لهذه العروس ؟ . كلا هذه
الثياب الداخلية تهيأ للعريس قبل العروس ! . ستداعب أنامله
أهدابها الناعسة ومادتها اللطيفة . انى أشارك في هذا الزواج .
وسأشارك في زيجات كثيرة دون أن أتزوج ، قاتعة من هذا كله
بأحلامي المحرقة . يا لها من فتاة مليحة وسعيدة . تكاد السعادة
تنوهج في عينيها ، اليوم تجهز الحرير ، وغدا تنتظر الحبيب ،
وتتنسم أنفاس الأمومة الحارة تهفو عليها من أفق وردى . طالما
حلمت بهذا وأبى يقول لى ان الخفة أنفس من الجمال ، ثم بلغت
الثالثة والعشرين بين الأشفاق والرجاء ، وبموته مات الرجاء . لماذا
خلقت هكذا دميمة ؟ . لماذا لم أخلق كاخوتى الذكور ؟ ما أجمل

حسين . وحسين ، حتى حسن ، انى ميتة كأبى ، وهو فى باب
النصر وأنا فى شبرا » وسمعت العروس تسألها :

— أتحبين أن تتسلمى بعض أجرك مقدما ؟

فقلت بعجلة :

— لا داعى لذلك مطلقا .

ثم عضها الندم على ما قالت فتضاعف حنقها ويأسها .
وسمعت أطيظ حذاء يقترب فرفعت رأسها نحو الباب فرات
شابا يدخل الحجرة هاشا ، وأقبل على العروس فالتحمت
يداهما ، وتبادلا ابتسامة سعيدة ، ثم سألهما :

— أين والدتك ؟

— فى حجرتها .

ثم التفتت الى نفيسة وقالت تقدم لها الشاب :

— حسان خطيبى .

ثم عطفت رأسها اليه قائلة :

— ست نفيسة الخياطة ...

٢٠

وغادرت بيت العروس قبيل الأصيل متعبة . وكانت عطوفة
نصر الله تبعد عن البيت محطتين فشقت طريقها بين السابلة على
مهل وتراخ . وأنعشها الهواء البارد فحثت خطاها . ووجدت
ذكريات مما مر بها فى بيت العروس تنثال على مخيلتها فى لذة والم
معا : كانت تجلس على كنية وقد جلس الخطيبان على الكنية
المقابلة . كانا ملتصقين . وكانا يتحدثان فى صوت مسموع حيناً .
وينخفض حيناً فيصير مناجاة وهمسا . وكم ودت وقتذاك أن
ترفع رأسها عن الماكينة اليهما ولكنها خافت وعقلها الحياء أن

تلتقى عيناها بعينيها . ومرة رفعت عينيها من تحت رأسها المنحنى فوق ظهرها على ساقين ملتصقتين، ثم انتبهت على العروس وهى تضربه على يده قائلة فى لهجة تنم على الدلال والوعيد :
- حذار !

استفرقها الخيال حتى كادت تصطدم بالمارة ، ثم دخلها احساس نهم بالتحرق الى الحب . لم تحظ طوال حياتها بقلب يحبها ويعطف عليها ، ولم تجد من متنفس عن توتر أعصابها إلا فى الضحك والسخرية من نفسها وأخواتها والناس ، فاشتهرت بالعبث الضاحك الذى تتوارى خلفه مرارة فى الأعماق . ولم تكن لها حيلة فى احساسها فالواقع أن غريزتها الأنثوية كانت الشئ الوحيد بها الذى سلم من النقص والضعف واستوى ناضجا حارا، فلم يخل صدرها من عذاب سجين وقفت له تربيتها وكرامتها وأسرتها بالمرصاد . ولكن منظرا كالذى رآته اليوم بيت العروس كان خليقا بأن يهزها هزة عنيفة قاسية . ولما تخاللت لعينيها عطفة نصر الله عابثها أمل جديد داعبها كثيرا فى الايام الأخيرة . هنالك بقالة عم جابر سلمان التى تقع قبل عمارتهم بقليل ، أو هناك سلمان جابر سلمان ابن عم جابر وصبيه . ولقد اعتادت التردد على البقالة بعد طرد الخادم لابتياح مايلزمهم فعرفت الفتى معرفة أخذت تزداد بمرور الايام . واستحضرت صورة الفتى بقامته الطويلة المائلة للامتلاء ووجهه البضاوى الأسمر ، وعينيهِ الضيقتين ، وتساءلت ترى هل حقا يبدى نحوها اهتماما أو أنها واهمة ؟ . خيل اليها كثيرا أنه يبتسم اليها فى تردد ولعله لم يستطع أن ينسى بعد أنها كريمة كامل أفندى على . وكانت على جفوة طلعتها تحظى بمظهر الفتيات المحترمات ، أما سلمان فما هو إلا ابن بقال بسيط ، ولا تعلو منزلته فى دكان أبيه عن صبي . وكانت تعلم بهذا كله ولكن لم يكن بوسعها أن تنفر من انسان أيا كان اذا أبدى نحوها ميلا . لا يسعها إلا أن تحب من يحبها . بيد

انها ردت فجأة الى فتور وامتعاض واطبق عليها شبح اليأس القديم ؟ وكان قلبها يقول لها : لا تغررى بنفسك ولا تسمحى لكواذب الآمال أن تعبت بعقلك . ارتضى اليأس ، واقتضى منه بالراحة وهى السلوى الوحيدة لفتاة مثلك لا مال ولا جمال ولا أب لها . ولكنها كانت تعلم أنها لن تطيع قلبها أو - على الأصح - صوت مخاوفها . وكانت تزداد استسلاما كلما قربت من عطفة نصر الله ، وعاودها الأمل والحنان . « الله قادر على كل شيء . وكما يقضى عليها بالأحزان يهب إذا شاء الأمل والعزاء ، ما لى من رجاء سواه . ولن يخيب عنده الرجاء . لم أجن ذنبا استحق عليه الهوان . ولم تجن أسرتنا ذنبا . فلا بد ان تنكشف هذه الغمة . ولكن من سلمان ؟ هل يرضى به حسنين ؟ انهم جميعا ذوو كبرياء ولا أظن الفقر يغالب على كبريائهم . وحسن ليس له من الأمر شيء . حسن !! ليتته يغير من طبعه وينتشلنا مما نحن فيه . لا معاش أبى ولا علمى بكافيين فماذا صنع هو ؟ . لن يرضى أحد بسلمان ولن يأتى من هو خير منه . ومن ادراى انه يفكر فى حقا ؟ » ومالت الى العطفة تسبقها عينها الى بقالة عم جابر سلمان حتى بلغتها . وخطر لها أن تمضى اليها لتبتاع شيئا ، أى شيء ، ومضت اليها دون تردد . كان عم جابر سلمان العجوز جالسا الى مكتبه الصغير عاكفا على دفتر الحسابات ، بينا وقف ابنه الشاب جابر سلمان وراء الطاولة التى تعترض مدخل الدكان . وانتبه الفتى اليها حال وقوفها امامه فنظر اليها متهلل الوجه وقد لمعت عيناه الضيقتان . كانت قسماته تشى بالغباء والحيوانية والجبن ، وكان شارب الصغير الشيء الوحيد الذى يمكن ان يتصف بالجمال فى وجهه . وأبى الا ان يبادرها بالكلام فقال :

- أى خدمة يا ست نفيسة ؟

فقالت الفتاة وهى ترمش ارتباكاً :

- حلاوة طحينية بقرش .

فتناول السكين وقطع لها قطعة وافية ، ثم قشط قطعة صغيرة وهو يقول بصوت منخفض :

— هذه الزيادة اكراما لك يا ست نفيسة .

ولف الخلاوة في ورقة وقدمها لها ، ثم اخذ القرش وهو يلحظ أباد بطرف خفى ، ولما وجدته مكبا على الدفتر ، تشجع وقال همسا :

— سأحتفظ بقرشك بركة !

فابتسمت ابتسامة خفيفة وذهبت . ابتسمت عمدا كأنها تشجعه وترحب به . وقد كلفها هذا جهدا كبيرا . « لم يعد يقنع بلغة العيون فتكلم ، وحسنا فعل » . وعلى رغم ضآلة شأنه ومنظره اهتز قلبها سرورا ، وجاش صدرها بالانفعال . وكانت تخيلت هذا الموقف — قبل ان يحدث — وهى عاكفة على عملها بيت العروس فلم يفترق الواقع عن الخيال الا قليلا . تخيلت نفسها واقفة امامه لتبتاع الخلاوة فجعل يلتهمها بعينيه ثم قال لها وهو يتناول القرش « انت احلى من الخلاوة » . حقا لم يقل هذا ولكنه قال قولاً يضاهيه . وتنهدت بارتياح ثم طار خيالها الى ذكريات عشاقها الغابرين ! . كان أولهم وزيرا . وقد رآته فى صفحة من مجلة المصور ثم راحت تنسج حول صورته وشيا من أحلامها حتى أنجبت له غلاما فريدا . وكان فريد أفندى محمد نفسه العاشق الثانى ، وبسببه خاضعت فى الخيال زوجته وأسرته . اما سلمان فهو أسوأهم حالا ولكنه العاشق الوحيد الحقيقى . ولما بلغت منتصف الفناء خافت أن تلومها أمها على قضاء النهار خارج البيت فضاق صدرها وقالت كأنما ترد عليها :

— كفى عن لومك فما عدت أحمل أكثر مما بى .

وعلا صوتها ورن فى بئر السلم فنظرت فيما حولها بحذر ، وكتمت بأصابعها ضحكة كادت تفلت من شفيتها !!

غادر حسين شقة فريد افندى محمد ، وأغلق الباب وراءه .
كان من الكآبة في غاية ، واتجه نحو السلم طاويا صدره على اليأس
والقهر ولكنه توقف ويده على الدرازين ، ورفع رأسه متتبعا
حفيف ثوب . فرأى طرف بستان أو معطف وقد عبر صاحبه
بسطة السلم الأخيرة المفضية الى سطح العمارة . من ؟ من
عسى أن يرتدى هذا اللون الأحمر من سكان العمارة الذين يعرفهم
حق المعرفة ؟ . ودق قلبه بعنف وشعر بقوة تدفعه الى أعلى
فألقي على الباب المغلق نظرة حذرة وانصت في انتباه وقلق ، ثم
تحول عن موقعه وقطع الردهة أمام الشقة على أطراف مشطه
متجها صوب السلم الأخير الصاعد الى السطح : لعلها هي . لم
يعد يراها منذ ألقى برسالته المطوية تحت قدميها ، لا في الحجرة
ولا في الصالة . اختفت غاضبة ولاشك غير عابئة برسالته
وعواطفه ، ولم تعد ساعات الدرس بعدها الا عذابا وضجرا .
وقد ارتقى السلم دون أن يحدث صوتا حتى بلغ البسطة الأخيرة
فرأى شعاع الشمس المائلة للغروب في مستوي عينيهِ ، ونسمت
على جبينه موجات لطيفة من الهواء ، وألقى على السطح نظرة
شاملة ما بين سوره المثل على عطفة نصر الله وسوره الخلفى
فلم يجد أثرا لانسان ، ولم يكن به من قائم الا حجرتان خشبيتان
للدجاج ، أحدهما في مواجهة باب السطح ، والأخرى في ركن
السطح عند طرف السور الخلفى وهى الخاصة بأسرة فريد
افندى ، واقترب من الحجرة البعيدة في سكون ووقف قريبا
من بابها مرهف السمع ولم يسمع بادىء الأمر الا قوقأة الدجاج ،
ثم سمع صوتا يدعو الدجاج «ك ك ك ك» فلم يستطع أن يتبين
حقيقة صاحبه ، وخاف أن تكون الأم التى بالداخل فتراجع

خطوة مضطربا ، وهم بالهرب ، ولكن فتح الباب وبدأت على عتبة بهية فى معطف أحمر . واتسعت عيناها الزرقاوان دهشة ، وثبت بصرها عليه فى ذهول ، ثم تخرج وجهها بحمرة شديدة كأن صفحته استحالت رقعة من مخمل المعطف . ولكن لم يدم هذا الا لحظات ، ثم تماكنت نفسها فجازت العتبة وأغلقت الباب ، وابتعدت عن موقفه متجهة الى الباب . ولم يسمح لها بالافلات فوثب خطوتين ووقف معترضا سبيلها ، فحدجته بنظرة غضبى واستقام رأسها فى حدة وقالت مستنكرة :
- هذا كثير !

فقال الشاب بجراحة ورقة معا :

- دائما غضبى ! .. انى أعجب لحظى فما أجد منك غير الغضب !
فلاح فى وجهها الضجر وقالت باستياء :
- دعنى امر من فضلك ..

فبسط ذراعيه كأنه يريد سد الفراغ كله وقال :

- هذه فرصة لم يكن يوسعى أن أحلم بها فلا يمكن أن ادعها تفلت من يدي . ويحق لى أن استبقيك بعض الوقت بعد اختفائك المتعمد الذى عذبنى أشد العذاب ، لماذا تختفين ؟
أو دعينى أسألك ماذا وجدت برسالتى ؟

فقطبت فى استياء وقالت بحدة :

- أتذكر هذه الورقة !. يا لها من جراحة غير محموددة
لا أوافق عليها .. !

وكان يرنو اليها بين الأمل والخوف . «هل أصدق هذا الغضب الظاهر ؟ .. قلبى يحدثنى بأنه مبالغ فيه . لعله عرض من أعراض الحياء . أنه كذلك حتما . لو أرادت أن تشق طريقها ما وسعنى منعها . لا أريد أن أصدق . ولكن لماذا أصرت على الاختفاء ؟ » . وقال باستعطاف :

- جراحة حملت عليها بعد أن أعيانى الصبر !

فهزت رأسها متبرمة وتمتمت :

— الصبر ! لا تعبت بهذه الألفاظ ، ودعنى أذهب من فضلك .

فقال فى صدق وحرارة :

— ما قلت الا الصدق . والصدق وحده كان محرضى على كتابة

رسالتى الصغيرة ، فكل ما بها صدق . وانه ليسوءنى كل الاساءة

الا تلقى عواطفى منك الا الغضب والنفور !

وازدرد ريقه وهو يلث ثم استدرك قائلا بصوت متهدج :

— أجل انى احبك ..

وأدارت وجهها جانبا وهى لا تزال مقطبة كما بدا من انقباض

حاجبها وزمة شفيتها ، ولكنها لا ذات بالصمت قليلا — مما

بعث فيه روحا جديدا من الأمل — ثم قالت بصوت بدا الطف

موقعا مما سبقه :

— دعنى أذهب . الا تخشى أن يقتحم السطح علينا أحد ؟!

رباه ! ألم يعد يضايقها شيء الا أن يقتحم السطح عليهما

أحد ؟! وتمشت فى جوارحه نشوة سرور ، فقال بحماس

وعيناه العسلتان تضيئان بنور بهيج :

— دعينى أفصح لك عن شعورى . انى احبك . احبك اكثر

من الحياة نفسها . بل ليس فى الحياة من خير الا أنى احبك .

هذا ما كتبته . وما أقوله وما أعيده . صدقينى ولا تلزمى

السكوت فما اطبق هذا السكوت ..

فعطفت وجهها نحوه فطالع فى صفحته النقية الرزانة والجد

ولكن خيل اليه أنه يرى نوعا من التأثير لعلها بالفت فى كتمانها .

ثم سمعها تقول بصوت منخفض كالهمس :

— حسبك !.. هلا تركتنى اذهب ؟!

تأبى أن تجلو هذا القناع !. لشد ما تستكين لحياها .

وتنهد بصوت مسموع وتمتم :

— لا أريد أن أعود لعذابى بغير نفحة أمل . لقد فتحت لك

صدرى وأريتك قلبى ولا أطمع فى أكثر من كلمة طيبة ترد الى
روحى . . .

ولكنها بدت أعجز من أن تقول هذه الكلمة ، واشتدت عليها
وطأة الارتباك فندت عنها هذه العبارة :
- رباه !.. كيف اغادر هذا المكان !

فغلبه التأثر ، ولكن زاده التعلق بالأمل عنادا والخاصا فقال
بحرارة :

- لا تجزعى هكذا ؛ انى أحبك . الا يشير هذا الاعتراف فى
نفسك الا الضيق ؟! لن اعود يائسا الى العذاب . لن . لن . .
- وبعد ؟ !

وتفحص وجهها المورده فى سمرة المغيب الهادئة فاستفزته
عاطفة هيام جامحة فشعر بأن الهلاك أهون من التراجع وقال
باستعطاف منبعث من الأعماق :

- كلمة واحدة !. اذا لم تستطيعى فايماة . واذا تعذر
هذا فحسبى صمت أستشف منه الرضى !

فتحركت شفتاها دون أن تنبسى ، ثم التصقتا ، ثم عطفت
عنه وجهها وقد اشتد تورده عمقا . ووثب قلبه فى صدره من
حرارة النشوة ، وهتف فى طمع متزايد :

- أهذا الصمت الذى أريده ؟!.. انى أحبك ، وأعاهدك أن
أكون لك حتى الموت . .

ومال وجهها الى الوراء أكثر دون أن تخرج عن صمتها المحبوب
فسرت فى جسده هزة سرور طاغية حتى سكر بصره ، وما يدرى
الا وهو يهفو اليها ، ولكنها تراجعته فى جفول كمن يستيقظ من
حلم عميق على هزة عنيفة ، وتفادت منه فيما يشبه الوثب ،
ثم ولت مسرعة . وتسمر فى مكانه مرسلا وراءها بصرا هائما
حنونا حتى غيبها الباب . وتنهد من القلب وأطلق بصره بعيدا
فى سمرة المغيب ، والأفق أطياف وشيآت ، فأحس بروحه

تذوب في الكون وتفنى في بهائه . ثم تحرك في بطن مخمورا متوهجا حتى شارف الباب ، ولكنه شعر وهو يمر بالحجرة الخشبية الأخرى بشيء يجذب احساسه فلاحته منه التفاتة الى يساره فرأى أخاه حسين واقفا وراء جدار الحجرة ..

٢٢

وقال بدهشة :

— حسين !

وسرعان ما لاحظ تغير لونه . كان الشاب غاضبا مكفهر الوجه . وكان يبذل غاية جهده ليضبط اعصابه ويتمالك نفسه . وتساءل حسنين عما جاء به الى السطح ورجح ان يكون — حين صعد لاعطاء درسه — لمحبه وهو يرتقى السلم محاذرا الى السطح فشك في الأمر وتبعه !.. هذا هو التفسير المعقول . بيد أن التوارى وراء الجدران لاستراق النظر والسمع ليس من شيمه !.. ولم يدر له بخلد أن يسأله عما جعله يقف هذا الموقف ، وعلى العكس من هذا تولاه الحياء والارتباك . ولم يكن الآخر — على تغيره — بأقل منه حياء وارتباكا . ولعله أراد أن يدارى حياءه وارتباكه بالتمادى في الغضب فقال :

— رايت أمورا ساءتني كثيرا . كيف تطارد الفتاة هذه المطاردة الوقحة ؟! هذا سلوك شائن لا يليق بجار يحترم واجبات الجيرة ! ووجد حسنين في لهجة أخيه القاسية ما أنفذه من حيائه وارتباكه فقال عابسا :

— ما أتيت منكرا !! . ولعلك سمعت ما قلت !

فأغضى حسين عن ملاحظته الأخيرة وقال بجدة اشد :

— وهل من منكر وراء اعتراضك لسبيلها على هذا النحو

غير اللائق ؟!

— لا احسبها تعده كذلك !

فقال حسين :

— ستخبر أباهما ..

— لن تخبره .. !

فتناهى الحق بحسين وقال بحدة :

— لشد ما خفت ان تتهجم عليها ، ولو فعلت لأدبتك تأديبا

قاسيا ! . . .

ودهش حسنين لهذا الوعيد المتأخر فكاد يطيح الغضب براسه ، ووثبت كلمات شديدة الى طرف لسانه ولكنه نجح بأعجوبة فى القبض عليها . وصمت مليا حتى ذهبت عنه وقدة الغضب ثم قال :

— ما كان لك ان تخاف حدوث شيء كهذا ..

فتفكر حسين قليلا ثم قال متراجعا :

— يسرنى على اية حال ان اسمع هذا القول . واذا حق لى

ان النصحك انصيحتى اليك ان تلزم دائما جادة الشرف .

فقال الآخر ببرود :

— لست فى حاجة الى مثل هذه النصيحة ..

وغادر موقفه فتبعه حسين ، ونزلا معا دون ان ينبس أحدهما بكلمة . ولم يذهب حسين الى شقة فريد افندى ، ولاحظ حسنين هذا دون تعليق . أما الأم فقالت لحسين متسائلة :

— ما الذى عاد بك سريعا ؟

فقال حسين :

— لم يحفظ سالم درسه السابق وسأعود اليه غدا ..

وذهبا الى حجرتهما فجلس حسين الى كرسيه من المكتب ، ومضى حسنين الى النافذة ففتحها وجلس على حافة الفراش . « أسوأ نهاية لأحسن بداية : ما أحمقه ! كيف سولت له نفسه

التجسس على . أفسد على شاعرية الموقف السعيد . كلا لا يمكن
أن يفسدها شيء . سيزول كل شيء وتبقى هي وضيئة سعيدة
باهرة . هيهات أن أنسى لحظة الصمت الناطق . قالت كل شيء
دون أن تنبس بكلمة ... » .

— أغلق النافذة هل أنت مجنون ؟!

أفزعتة صيحة أخيه ، ثم ركبته الحنق والعناد فقال :

— الجو محتمل ولطيف ..

فصاح به حسين :

— أغلق النافذة بلا مكابرة ..

فحملته لهجة أخيه على التماذى فى العناد فقال :

— انتقل الى الكرسي الآخر تباعد عن تيار الهواء أن كان ثمة تيار!

فنفخ حسين متغيظا وقام الى النافذة فأغلقها بشدة

ففرقت في السكون طقطقة مزعجة وتحطم لوح من الزجاج .

وساد صمت ورعب ، وسرعان ما أعماه الغضب فلطم حسنين

صارخا :

— أنت السبب !.

وجن جنون حسنين فضربه بقبضة يده فى رأسه ، ثم اشتبكا

فى عراك . وما لبثت الأم ونفيسة أن هرولتا الى الداخل ،

وبحضور الأم كف كلاهما وهو يدمدم ويهينم . ووقفت الأم

حيالهما تردد بينهما بصرا غاضبا ، ثم استقرت عيناها على

الزجاج المحطم . وتساءلت فى هدوء ينذر بالعاصفة :

— ما خطبكما ؟

فقال حسنين بعجلة ولهوجة :

— كان يغلق النافذة بقوة فتحطم الزجاج ثم لطمنى ..

وقال حسين بصوت متهدج :

— فتح النافذة فى هذا الجو البارد فطلبت اليه أن يغلقها

فأبى بوقاحة فقامت لأغلقها بنفسى وحصل ما حصل ..

فزفرت الأم قائلة :

— رحماك يا ربى إلا يكفينى ما بى !
وقبضت بيديها على منكبيهما وجذبتهما الى وسط الحجرة ،
وصاحت فى وجه حسين قائلة :

— ألا تخجل من نفسك وأنت فى سن الرجال .
ودفعته فى صدره بقبضة يدها مرتين ، ثم لطمته ، وانقضت
على حسين الذى تراجع وهو يصيح :

— هو البادىء بالضرب ، وهو الذى حطم الزجاج ..
ولكنها هوت بكفها على فمه ، ثم كملت له الضربات على
رأسه ووجهه حتى حالت بينهما نفيسة . وصاحت المرأة :
— حذار أن اسمع لأحدكما صوتا . أما النافذة فستبقى
مكسورة حتى تصلحها بنفسكما ..

وغادرت الحجرة منكفة الوجه تملأها تعاسة لا حد لها .
ولبثت نفيسة بينهما برهة محزونة ثم تمتت :
— زمن العراك انتهى . أنتما رجلان الآن !

ثم خاطبت حسين مبتسمة :

— ضقت بالهواء لحظة فماذا أنت فاعل الآن وقد فتحتها الى
الأبد ؟! الصقا جريدة مكان الزجاج والا فعليه العوض فيكما ..

ولما لم تجد لقولها الاثر الذى انتظرت غادرت الحجرة . وعاد
حسين الى كرسيه صامتا على حين ارمى حسين على الفراش
منفعلا . كثيرا ما ينتهى الشجار بينهما بتدخل الأم على هذا
النحو . ولم تكن حياتهما تخلو من ملاحاة وشجار على صداقتهما
الوطيدة ، وصحبتهم التى لا غنى لأحدهما عنها . وكانت الغيرة
كثيرا ما تعكر عليهما صفوهما ولكنهما ظلا رغم هذا صديقين
يتبادلان الأخوة والحب ولا يستغنى أحدهما عن صاحبه . وكان
حسين أعقل الأخوين وحسين أقواهما ، فكان الأول يقوم بمهمة
الارشاد والتوجيه فيما يعرض لهما من مشكلات يتعلق أغلبها

باللعب والمسائل الاقتصادية الصغيرة ، وكان الآخر يحمل عبء الدفاع الأكبر فيما يشتجر بينهما وبين الآخرين من عراق ، خصوصا وانهما كانا يتفاديان من الاستعانة بحسن اذا اشتد الخصم عليهما أن يتحول النزاع من عراق بين تلاميذ متخاصمين الى معركة حقيقية دامية وخيمة العواقب . بيد أنه أصبح من النادر جدا أن يتشاجرا في الأعوام الأخيرة ، ونذر بالتالي أن تؤديهما الأم بالضرب ، وقد سبقت المعركة الأخيرة بفترة سلام طويلة كادت تقارب العام . ومهما يكن من أمر فلم يكن لأثر الخصام ليحول بينهما أكثر من يوم ، ثم يبدأ المعتدى بمخاطبة أخيه في شيء قليل من الارتباك ، ولا يلبث أن يتناسيا العراق كأنه لم يكن . شخص آخر كان يعاني من شجارهما أكثر مما يعانيان ، هي الأم ، فكان يترك في نفسها ألما عميقا ونكدا متغلغلا . ولم تجد من وسيلة لتأديبهما خيرا من الضرب لعله يصلح ما افسد الأب بتدليله لهما . ولم يكن أبغض لنفسها من أن يشذ أحد ابنائها عن حدوده ، أو أن يبدو منه ما يعد افتئاتا على رابطة الأسرة المقدسة . وكان لها من حسن عبرة بذل الحياة أهون عليها من أن تتكرر . وحسن نفسه لم ينبج من لكلماتها ولكن بعد فوات الأوان وضياع الفرصة . وكانت لا تفتأ تلوم نفسها وإباه على تلفه ، ويعذبها اشد العذاب أنه كان ضحية للتهاون والفقر . ومر شطر من الليل والشقيقان صامتان جامدان ، واشتد السكون بعد أن آوت الأم ونفيسة الى حجرتهما . ثم بدأ حسين يطالع في كتاب محاولا أن يركز انتباهه المشتت . وراح حسنين يراقبه اختلاسا وهو يتساءل ترى ماذا يجد نحوه؟ وكان يحظى بذكريات جميلة خليقة بأن تعزيه عما أصابه ، وبأن تشبه الى طمأنينته . وسرعان ما رقت على شفثيه ابتسامة . « كل شيء حسن . لاذت بالصمت ، ومعناه انها تحبني . حقا ! » . لشد ما يشوقني أن أسمعها قولا تتحرك به الشفتان الشهيتان .

رويدك . كل آت قريب . الصمت بداية أما النهاية ؟! . . »
ولاحت منه التفاتة نحو أخيه فعاوده الابتسام . « ما كان ضرني
لو اغلقت النافذة ؟! . يبدو انه لا يستطيع متابعة القراءة .
لو وهب مثل حظي السعيد لما اعياه النسيان ! » وداخله نحوه
شيء من العطف .

٢٣

عادت نفيسة الى عطفة نصر الله عند الغروب ، كعادتها في هذه
الأيام الأخيرة . وكان يبدو عليها انها أخذت تعير نفسها اهتماما
وعناية ، وهو ما أهملته طويلا حدادا على وفاة والدها ، فكحلت
عينها وصبغت خديها وشفتيها بحمرة خفيفة . شيء خير من
لا شيء . بل ان دأبه على التودد اليها ومغازلتها خلق بها بعض
الثقة بنفسها ، والطمأنينة والأمل . ولم تعد تذكر أنه ابن بقال
وانها ابنة موظف فاهتمامه بها انزله من نفسها منزلة اثيرة رفعتة
فوق مقام افضل الناس في نظرها . وانساقا الى تشجيعه بدافع
من عواطفها المشبوبة المكبوتة ، وبأسها الخائق ، والرغبة في الحياة
التي لا تموت الا بالموت . وبات مع الأيام صورة مألوفة ، بل
محبوبة ، أنبت لها في جذب الحياة زهرة مترعة بالأمل ، فلم تعد
تستقبل يومها بعين خابية لا تنتظر جديدا . وها هي تنقل خطاها
في عطفة نصر الله بعد نهار حافل بالعمل فيهنزها سرور حار دافق
يسرى من القلب وينتشر مع دمها في الأعصاب والأعضاء . قال
لها مرة « تريدن حلاوة ؟ ما الحلاوة الا أنت ! » . وغزا قوله
نفسها فابتسمت في بهجة ومرح . وقد حدثتها نفسها أن تقول
له « لا تكذب ، لست من الحلاوة في شيء » ولكنها أمسكت في حيرة
وشك ، وذكرت نفسها بقول القائل « لكل فولة كيال » من يدري
فلعلها ليست بالقبح الذي تظن . وجعلت تطوى الطريق وعيناها

الى الدكان حتى وقفت امامه وجها لوجه . ولاح السرور في وجه سلمان فقال :

— أهلا وسهلا كنت اتساءل متى تأتيين ؟

ورمت بنظرة الى مقعد الأب فوجدته خاليا ، ثم لمحتة يصلى وراء العمود القائم وسط الدكان محملا بالعلب والبطرمانات فلأختلها طمأنينة وقالت في دلال :

— ولماذا تتساءل ؟

فضيق عينيه الضيقتين وقال مبتسما :

— حزرى !.. اسألى قلبى ..

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت :

— أسأل قلبك ؟؟ .. ماذا وراءك يا قلبه ؟!

فقال الشاب همسا :

— يقول قلبى انه يسر لرؤياك وينتظره على لهفة !

— حقا ؟!

فاستدرك فى جد اكثر من ذى قبل :

— ويقول ايضا انه يرغب فى ان يلقاك الآن فى الشارع ليفضى

اليك بأشياء هامة ..

والتفت صوب أبيه فسمعه يقرأ التحيات فقال لها بعجلة :

— فى وسعنى أن أغيب عن الدكان دقائق فاسبقينى الى

الشارع العام !

ونظرت اليه فى اضطراب وحيرة . وجدت فى نفسها رغبة الى

ملاقاته ، ولكنها ابت أن تدعن دون ممانعة من جانبها والحاح من

جانبه فقالت :

— أخاف أن أتأخر ...

فقال بجزع وهو يومئ صوب أبيه محذرا :

— دقائق معدودات . اسبقينى قبل أن يختم الرجل صلاته .

ولم تجد فى الوقت متسعا للتمنع والدلال فتحولت عن موقفها

وقلبها يدق ثم اتجهت بعد لحظة تردد الى شارع شبرا . ركبها الاضطراب والقلق والخوف ، ولكنها امعنت في السير دون أن تفكر في العدول . خطوة جديدة هون من وقعها طول ما حلمت بها . وما لبثت أن تغلبت على الخواف فارغة للأمل الحلو الذي يتخايل لعينيها في نهاية الطريق . ولما انتهت الى الشارع نظرت ورائها فرائه يحث خطاه وقد ارتدى جاكته على جلبابه ، فمالت الى اليمين وأوسعت خطاها مبتعدة عن حياها . ولحق بها مهرولا فقال بسرورة :
— استأذنت من أبي دقائق ...

والقت على زيه نظرة لم يخف عنه معناها فقال كالمعتذر :
— لا يمكن أن ارتدى البدلة الا ساعات العطلة !

وكان يبدو فرحا مسرورا . لم تكن عينه العاشقة من العمى بحيث تراها جميلة ولكنه كان من أبيه المستبد في ضيق وحرمان فرحب بهذه الفرصة التي تتيح له الممكن من الحب . فتى في مثل حالها من اليأس والدمامة والعجز ، ووجد فيها — مهما تكن — أنثى تناسب للجنس المحبوب العزيز المال . وخاف أن تمضي الدقائق دون أن يقول ما يريد قوله فقال بعجلة :

— الدكان يغلق عادة عقب ظهر الجمعة ، فقابليني عصر الجمعة ومن ثم نذهب معا الى روض الفرج .

ف قالت باستنكار :

— نذهب معا ؟! .. هذه طريقة لا أرضاها .

— ماذا علينا لو فعلنا ؟

— لست من أولئك الفتيات !

— حاشاي أن أظن بك السوء . ولكن ينبغي أن نجد مكانا

آمنا للحديث .

— أخاف أن يرانا أحد من أخوتي .

— من السهل أن نتفادي من هذا !

فهزت رأسها وقالت في حيرة :

- لا أحب هذه الحياة المليئة بالمخاوف .
- ولكن ينبغي أن نتقابل .
- فتفكرت ملياً ثم تساءلت :
- لماذا ؟
- فنظر إليها فى دهشة ثم قال :
- كى .. كى نتقابل !
- فقالت بقلق :
- لا .. لا .. لست لهذا !
- أليس لدينا ما نقوله ؟
- لا أدرى .
- لدى الكثير .
- فما هو ؟
- ستعلمينه فى حينه . ليس لدى الآن متسع من الوقت .
- فساورها الشك حيناً ثم قالت وقد تورد وجهها :
- قلت لك انى لست من أولئك الفتيات !
- فقال الشاب بلهجة تنم عن الأسف :
- يا سلام يا ست نفيسة ! أنا رجل سوق وافهم الناس !
- فداخلها الارتياح ، وان تساءلت لماذا لا يقول الكلمة التى
- تلهف على سماعها ويريح قلبها ؟ وعاد وهو يسأل :
- هل نتقابل اذن يوم الجمعة القادم ؟
- فترددت قليلاً ثم غمغمت :
- ان شاء الله ..
- وعادت الى البيت كثيرة الفكر . هذا بدء الحب الذى طالما
- تلهفت عليه . تفض قلبها القبار عن جوهره ودبت فيه حياة
- مفعمة بالنشوة والحرارة والأمل . كل هذا حق . بيد أنها قلقة
- متحيرة لا تدري شيئاً عما يمكن أن يتمخض عنه ، ولا عما يمكن
- أن يقابل به نبأه فى أسرتها !

انتهى حسنين الى باب السطح ثم تنهد بصوت مسموع
ليبلغها صوته ولكنها تجاهلته وسارت متمهلة صوب الحجرة
الخشبية ، فتنحنح ، ثم اندفع نحوها بجسارة والشمس تلقى
عليها اشعة الوداع ، فدارت على عقبيها وطالعت بوجه كتوم
يابى أن يعلن عن غضب أو رضى ، ثم تمتمت :

— أما لهذا من آخر ؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

— انك تؤدبيننى أدبا لن أنساه ..

فقلت وهى تحافظ على سكون وجهها :

— ليتك تزدرج .

ففرقع بأصبعه وهتف :

— هيهات !

ثم تنهد بصوت مسموع وكان يتطاير من الفرح لما أنسه من
رغبتها فى محادثته .

— هيهات أن أنشنى عن حبك .

فتورد وجهها : وعيست قائلة :

— لا تردد هذه الكلمة .

فقال بعناد وهدوء وتوكيد :

— احبك !

— أنروم انماظتى ؟

— لا أروم إلا حبك .

فقلت بحدة :

— سأصم أذننى .

فرغ صوته قليلا قائلا :

- أحبك . أحبك . أحبك !

فلاذت بالصمت ، وجعل يلتهم وجهها بعينيه في شوق
وانجذاب حتى لم تعد تحتمل وقع نظراته فولته ظهرها مبتعدة
ولكن اندفع وراءها فالتفت نحوه مقطبة ، وقالت :

- أرجو أن تدعنى وتذهب .

فقال بدهشة :

- لا محل لهذا القول الآن . مضى زمنه وبات قديما . نحن

الآن في « أحبك » !

- وماذا تريد ؟

- أن أحبك !

وهمت بانتهاره فغلبها الابتسام الذى أعيها كتمانها ، ثم
ضحكت ضحكة مقتضبة مكتومة خرجت من أنفها نفخة لطيفة ،
ولم تملك أن خفضت رأسها فى حياء . وهزته هذه الحركة
فهاجت صوته وأقبل نحوها متشجعا طامحا ومد يده ليمسك
يدها ، ولكنها تراجعت فيما يشبه الرعب ، وخاطبته بلهجة
جادة لا تترك ريبة فى جديتها :

- لا تمسنى !

ففاضت ابتسامة الظفر فى شفثيه ولكنها لم تباله واستطردت
قائلة بنفس اللهجة الجدية :

- لا تحاول أن تمسنى أبدا . لا أسمع بهذا ولا أتصوره !

فوجم قليلا ثم قال بدهشة :

- انى آسف . ما قصدت سوءا . انى أحبك بكل ما تحمل

هذه الكلمة من معنى صحيح ..

فقالت وهى تنظر الى قدميها وقد نم مظهرها على شعورها
بخطورة ما تقدم على قوله :

— انى شاكراً لك هذا ، ولكن ليس « أنا » الذى أملك الرد عليه ! ! ..

ووقع قولها من نفسه موقع المفاجأة والدهشة . كان يجرى وراء عاطفته مستغرقاً فيها دون أن يفكر فيما عداها . كان يحب ولا يرى إلا الحب ، فأعاده قولها الى رشاده . وفهم ما فاتته فهمه ، وأدرك أن الأمر جد لا لهو ولعب . ولم يأسف على هذا بل زاد سروراً ولكن غشيته غاشية خوف وقلق لم تخف عليه دواعيها . وخرج من حيرته بأن قال :

— انى أدرك وجهة رأيك ، وأوافق عليه ، ولكن ليس هذا كل شيء . انى أسأل قلبك أولاً .. ؟

ولانت ملامحها ولكنها لم تفقد السيطرة على ارادتها ، فقالت :

— أرجو ألا تستدرجنى لحديث لا أحبه !

— لا تحبينه !

ولم تكن تعنى ما قالت بالضبط ولكنها لم تر بدا من أن تغفم قائلة بصوت ضعيف :

— أجل ...

فقال حسنين بارتياح :

— هذه طعنة دامية فى قلبى !

فقالت بحيرة وارتيباك وحياء :

— لا أحب أن أسلك سلوكاً أو أقول قولاً يستوجب الإخفاء !

فلم يملك أن ابتسم قائلاً :

— ولكن هذه ضرورة لا بد منها ، وما فيها من عيب !

فلم ترتج لقلوبه ولا لابتسامته واشتد تورده وجهها فقالت

بشيء من الحدة :

— كلا ! لا أحب المداعبات ولا الغزل !

— ولكنى أحبك حباً صادقاً ..

— أف . لا تقسرنى على سماع ما لا أطيق سماعه !

فتساءل مبتسما :

— هل أقتل نفسي ؟

فابتسمت أفكارها دون أن يبدو شيء على وجهها وقالت :

— لا داعي مطلقا لقتل نفسك . لقد قلت ما عندي !

وأعادته العبارة الأخيرة الى حيرته وخوفه . فقال بعد تردد :

— لست الا شابا في السابعة عشرة ، وتلميذا بالسنة الثالثة

الثانوية ، فكيف أفتح هذا الحديث ؟

فنحت عنه وجهها قائلة ببرود :

— انتظر حتى تصير رجلا !

فقال في دهشة ممزوجة بالاستنكار :

— بهية !

فقالت في هدوء :

— ما من سبيل الا هذا ..

شعر بغيظ ، وضاق بما تلقاه به من حزم ، ولكنه أحس في

الوقت نفسه بحبها يغلبه على امره ويطيح بخوفه وقلقه ،

فقال باستسلام :

— لك ما تشائين . سأحدث من بيدهم الأمر ..

فرفعت اليه عينيها لحظة ثم خفضتهما ، وبدت حينئذ كأنها

تهم بالكلام ولكن غلبها الصمت فقال :

— سأحدث فريد أفندي .

— أنت !

— نعم .

فلاح في وجهها الاعتراض دون أن تنبس ، فتساءل :

— هل من الضروري أن تقوم أُمي بهذه المهمة ؟

فترددت قليلا ثم قالت بصعوبة ووجهها يتضرج بالأحمرار :

— اظن هذا !

وضاق صدره بهذا القول الصريح الذي يساوي الاعتراف

فى قلقه . تخايلت لعينيه صورة أمه الحزينة وهى قابعة فى الصلاة التى لا يضاء مصباحها توفيراً للنفقات فاضطرب صدره ، وقال بصوت منخفض :

— سأحدثه وأقنعه بمفاتيح أمى فى الأمر ..

فتساءلت الفتاة فى دهشة :

— ولماذا لا تحدثها بنفسك ؟!

أوشك أن يقول « لا أستطيع » ولكنه أطبق فاه ، ثم قال متجاهلاً سؤالها :

— لشد ما أخاف أن يسخر منى ، أو أن يعترض على

استبقائك فى الانتظار حتى أتم مرحلة التعليم الطويلة .

وقالت بصبر نافذ وبلا وعى تقريباً :

— سيوافق على الانتظار ما دمت أوافق عليه !

وعضت على شفتيها فى حياء والم فتطلع اليها فى لهفة وشغف،

ومد اليها ذراعيه وقلبه يضطرم اضطراماً ، ولكنها تراجعته

عنه ، مقبضة لتخفى تأثيرها ، وتمتعت :

— كلا ، كلا ، انسي ما قلت لك ؟!

٢٥

كان الشقيقان يجلسان حول المكتب كعادتهما كل مساء .

وكان حسين يعتمد وجهه بيده غائباً فى أفكاره تنم نظراته

وقضمه لأظافره من أن لأن على قلقه وتوتر أعصابه . وحسين

نفسه لم يبد عليه أنه يجنى ثمرة تذكر من نظره فى كتاب مفتوح

أمامه . وكان يختلس من وجه أخيه نظرات متقطعة فلا يتمالك

نفسه من التبسم ، وعواطف شتى تتناوب قلبه . وضاق

بالصمت فقال بلهجة ذات معنى :

— طالت المفاوضات !

فانتبه اليه حسنين في فزع ثم تنهد قائلاً :

— مرت ساعة ، بل أكثر . ترى ماذا هناك ؟

فقال حسين ساخراً :

— انقلبت الآية ، فالتبع ان يذهب آل الشاب لطلب يد الفتاة ،

ولكن في حالتك يجيء والد الفتاة لطلب يد الفتى !

فقال حسنين بنرفزة وحنق :

— يحق لك أن تسخر مني فلا خوف عليك . ترى ماذا يقال

الآن في حجرة الاستقبال ؟ ماذا تقول أمي ؟ !

فقال حسين في هدوء :

— عما قليل ستعلم بكل شيء !

— أظنها ترفض رجاء رجل كفريد أفندى ؟

— من يدري ؟ الذي أعلمه علم اليقين أننا سنخسر — في حالة

الرفض — مرتبنا الشهري الذي لم تكن نحلم به !

فرماه حسنين بطرف حائر ثم تساءل :

— الام يطول هذا الانتظار المجمع !

وعادا الى الصمت وكانا قلبا المسألة على جميع وجوها ، وطال

حديثهما عنها في اوقات متقطعة منذ أفضى حسنين الى شقيقه

بما كان من حديث بينه وبين فريد أفندى محمد . وقد رحب

الرجل بطلب الشاب ترحيبا وقع من نفسه موقع الدهشة ، فلم

يكن ينتظره ، ولم يكن ينتظر بعضه ، ثم وعد بمخاطبة الأم ،

وتذليل أية عقبة مهما تكن خطورتها ! ولح حسين — تفسيرا لهذا

— الى أزمة الزواج من ناحية ، وطيبة فريد أفندى وحبه المأثور

لأسرتهم من ناحية أخرى . ولم يبق الآن الا أن ينتظرا النتيجة

الوشيجة الظهور ! وجعل قلق حسنين يتزايد بمرور الوقت .

« بعد دقائق أعلم كل شيء . هل تكون بهية لى أو أدفن هذا الأمل

الوليد ؟ . لا سبيل اليها الا بهذا . انى أريدها ولا غنى لى عنها .

ترى فيم تفكر هي في هذه اللحظة ؟. الا يتوزعها القلق على مصيرنا ؟. انها تحبني بلا ريب . حسبى هذا من الدنيا جميعا .
تبا له انه يطالع في هدوء ، ويستمتع بمراقبة المعركة من بعيد
لاحب ولا قلق . لشد ما تسومنا هذه العاطفة الطاغية من عناء .
من قال انها تقيم في القلب ؟ الأرجح انها تعشش في العقل ؟! وهذا
سر الجنون !. « واستيقظ على صوت حسين وهو يقول :
- انهما خارجان !

وأرهف حسنين السمع فبلغه ما يتبادل الرجل وزوجه وأمه
من عبارات المجاملة المألوفة . ومضوا الى الباب الخارجى
الا نفيسة قد جاءت الى باب الحجرة ووقفت تنظر الى أخيها
بغربة ثم قالت :

- يا ما تحت الساهى دواهى ! أتريد حقا ان تتزوج ؟ !
وغمغم حسين :
- اول الفيث قطر !

وانتقل حسنين مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس من كرسيه
الى فراشه فى أقصى الحجرة لصق النافذة التى حل ورق الصحف
محل زجاجها المفقود . ثم سمعوا وقع أقدام الأم وهى قادمة ،
ودخلت تسير فى خطا ثقيلة صلبة القسماات جامدة النظرة ،
وبحثت عيناها عن حسنين حتى استقرتا عليه فى آخر الحجرة
ولبثت تنظر اليه حيناً ثم مضت الى الكرسي الذى تركه وجلست
عليه فى شبه اعياء . وساد الصمت مليا فلم يجرؤ أحد على
خرقه حتى نظرت المرأة الى حسين وسألته فى هدوء :

- الا تلدى فيم كان يحادثنى فريد افندى وزوجه ؟

فارتبك الشاب الذى لم يكن يتوقع استجوابا وظن أنه
بالنسبة للسؤال كلها - من المتفرجين ، فلم يجر جوابا ، حتى
قالت له الأم بخشونة :

- اجب ...

فتحول بصره صوب حسنين في حيرة واستغاثة ، فاقنعت
الأم بهذه الحركة وسألته :

— متى علمت ؟

فقال في اشفاق :

— أول أمس !

— ولماذا أخفيت عني ؟

فلاذ بالصمت لاعنا أخاه وحظه اللذين الأورطاه في المسؤولية
بلا ذنب جناه . وتنهدت عند ذاك وقالت بأسى :

— الأمر لله فان شقائي بكما فاق ما لاقي من زمانى الأسود !

وكانت نفيسة تكره جو الشقاق بطبعها فأرادت أن تلتطف من
حدثه . ولا يعنى هذا أنها كانت تشجع أخاها على رغبته ، ولعلها
كانت أشد غضبا من أمها ، بل أنها عدت الأمر كله تدبيرا دنيئا
لاختطاف شقيقها ، ولكنها رغبت صادقة في تحامى نزاع لم يعد
يجدى ، فقالت مخاطبة أمها :

— لا تهيجى دمك . ما كان كان ، فارحمونا من وجع الدماغ .

فانتهرتها أمها بحدة قائلة :

— اخرسى !

والتفتت الى حسنين قائلة بازدرأ :

— لعلك ملهوف على معرفة ما انتهى اليه مسعاك الذى

دبرته بليل ؟...

وهزت رأسها فى أسى ثم قالت :

— لك قلب تحسد عليه ، فانه يستطيع رغم فجيعتنا وتعاستنا

أن يعشق . وأن يستهين بنا جميعا فى سبيل سعادته ، والحق انى

ذهلت حين حدثنى فريد أفندى عن آمالك الواسعة ، وهيامك

العجيب . ولكنى حدثته بدورى عن كفاحنا وتعاستنا . حدثته عن

اثاثنا الذى نبيعه قطعة قطعة لنحصل على الضرورى من القوت ،

وعن شقاء اختك التى تمتهن الحياطة وتقطع النهار بين هذا البيت

وذاك ثم صارحته بأن احدا من أبنائي لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة .

وسكتت المرأة وعيناها لا تتحولان عن وجهه وهو خافض العينين تعلوه كآبة وقنوط ، ثم استطردت قائلة بحزن :
- ومهما يكن من أمر فلا يسعنى الا أن أشكر لك عطفك وإنسانيتك !

وقامت المرأة وغادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الغضب والحزن وخلفت وراءها صمتا ثقيلا . وبلغ التأثير من نفيسة فتناست غضبها اللدفين واقتربت من حسنين وقالت متظاهرة بالمرح :

- نينة لم تقل كل شيء . وأؤكد لك أن ثمة ما يدعو حقا لحزنك . وما كان بوسعها الا أن تبقى على صداقة فريد افندى ومودته ، ومنذا يستطيع أن ينسى جميله ومروءته ؟! . قالت له انها تعد موافقته على طلبك شرفا كبيرا بيد أنها ذكرت له حالنا الذى يعرفه حق المعرفة وسألته أن ينتظر حتى تنهض أسرتنا من عثرتها مكتفيا بكلمتها على أن تعلن الخطبة فى حينها اذ أنت رجل مسئول . وقالت له أيضا انه يسعدها أن تختار بهية زوجا لابنها ، فلا داعى للحزن على الإطلاق . . .

ونظرت الفتاة الى وجه أخيها والاشراق يعاوده فدخلها غيظ مفاجئ ولكنها أحسنت كتمانها وقالت بلهجة لم تخل من حدة :
- اعذر نينة فهى مسكينة حزينة ، ومما يعزيبها ولا شك أن نشاركها همومها أما اذا وجدت منا ، . . . ما علينا ! لا أحب أن أعود الى هذا . وحسبى أن أقول لك ان الأمور ستسير كما تحب (ثم ضاحكة) لعنة الله عليك وعلى الحب معا . . !

قال سلمان جابر سلمان :

— فلا يداخلك شك في هذا . سنتزوج كما قلت لك . وهذا عهد منى أمام الله .

فأنصتت نفيسة باهتمام وقلبها يتابع ضرباته ، لم يعد جديدا أن تسير متأبطة ذراعه في شارع من الشوارع المتفرعة عن شارع شبرا حيث يغلب الظلام على جنباتها ويقل المارة . وكان يبدو لها دائما ، على دمامته وحقارته ، فتى رائعا لحرارة عاطفته وشدة انكبابه عليها ، وكانت لهذا تحبه من أعماقها ، بل باتت مجنونة به . واعتقدت أنه الحبيب الأول والآخر ، ليس لها سواه ، ولن يكون لها سواه ، فتعلقت به بقوة الأمل ، وبقوة اليأس ، وأحبته بأعصابها ولحمها ودمها . ووجدت فيه غرائزها المشبوبة العارمة أداة نجاة تنتشلها من الأعماق .

كان أول رجل بعث فيها الثقة ، وطمانها إلى أنها امرأة كبقية النساء ، وكان إذا قال لها « أحبك » تخلق خلقا جديدا فتري الدنيا — على كثافة الظلام المحيط — نورا وبهاء . بيد أنها لم تقنع بكلمات الحب ، تلهفت إلى شيء آخر ليس دون الحب منزلة ، أو لعلهما شيء واحد في نظرها ، فلم تفتأ تستدرجه حتى قال ما قال ثم تشجعت بالظلمة وتساءلت :

— وماذا أنت فاعل ؟!

فقال بلا تردد :

— كان من الطبيعي أن أعلن أبى برأى ثم نذهب معا إلى والدتك لنطلب يدك ، اليس كذلك ؟

— أظن هذا ..

فتنهذ بصوت مسموع وقال :

— يا ليت ! هذا امل بعيد المنال فى الوقت الراهن . .

فانقبض قلبها وتساءلت فى انزعاج :

— لماذا ؟

فقال بغيظ :

— أبى !... لعنة الله عليه . رجل عجوز أحمق عنيد .

ويطمع أن يزوجنى من ابنة جبران التونى البقال عند تقاطع شبرا
بشارع الوليد . ولست فى حاجة الى أن أقول لك اننى لم أوافق ،
ولن أوافق ، ولكننى لا أستطيع أن أقترح عليه الزواج من أخرى
فى الوقت الحاضر ، والا كان جزائى الطرد ...

وأحسنت جفافا فى حلقها ، ورمقته بازدراء ، ثم تساءلت

فى قلق :

— والعمل ؟!

— نصبر ، ثم نصبر . ولن تحولنى قوة فى الأرض عن غايتى ،

بيد أنه يجب أن نأخذ حذرنا أن يفطن الرجل الى علاقتنا . .

— والام نصبر ؟

فتردد فى حيرة ثم تتمم :

— حتى يموت !

فهتفت بانزعاج :

— يموت ؟! هبنا متنا قبله !

فضحك ضحكة جافة فى ارتباك وقال :

— دعى هذا لى وللزمن . لم تضق بنا الحيل بعد !

كلام عائم لا يروى غلة . « لا أستطيع أن أقول له اننى أخاف

أن يتقدم لى أحد فى أثناء الانتظار لطلب يدى . هذه حجة وجيهة

فى يد غيرى ممن يحظين بقسط من الجمال أو المال . أما أنا فمن

عسى أن يتقدم لى فى هذه الأيام التى لا يتزوج فيها أحد . وضيت

بالهم ولكن الهم لا يرضى بى . ابن بقال !. أن البدلة تبدو على

جسمه قلقة نابية » . وشعرت بيد القهر تقبض على عنقها .

وزادها الخوف تعلقا به فلو وزن في هذه اللحظة بالدنيا كلها
لرجح بها في قلبها . انها لا تدري على وجه الوضوح كيف يمكن
أن تتزوج منه حتى ولو ذلل ما يعترضه من عقبات ، فان أمها
لا تستطيع أن تقدم لها شيئا ، فضلا عن أن الأسرة باتت لا تستغنى
عن القروش التي تربحها لها ، ولكنها تريده ، تريده من الأعماق ،
وبأى ثمن . وتجهم وجهها ، وفتحت فاهها لتتكلم ولكن لاحت منها
التفاته الى شبح قادم فجمد الدم في عروقها ؛ وشهقت شهقة
قزعة وكادت تطلق ساقها هاربة لولا أن مر القادم تحت المصباح
فتنور وجهه وتنهدت تنهد الأمان بعد الرعب ، وعجب سلمان
لشأنها فسألها :

— مالك ؟

فقالت وهي تلهث :

— حسبته أخى حسن !

وانتهز الشاب الفرصة ليفصح عن رغبة طال احتضانه لها
فقال :

— لن نأمن الخوف ما دمنا نخط على وجوهنا في هذه
الطرق . اصفى الى ، لماذا لا نذهب الى بيتنا فنمكث فيه قليلا
بعيدا عن الأنظار ؟

فصاحت به في دهشة :

— بيتك ؟!

— نعم . أبى يقضى مساء الجمعة حتى منتصف الليل عند
شيخ الطريقة الشاذلية ، وأمى في الزقازيق عند أختى التى جاءها
المخاض اليوم ، وليس فى البيت أحد !

فقالت فى ذهول وقلبها يدق بعنف :

— كيف اذهب معك الى بيتك ؟.. أجننت يا هذا ؟!

فقال بضراعة حارة :

— أبى الشمس مكانا آمنا . بيتى آمن ودعوتى بريئة . أريد أن

اخلو اليك في أمان فنعالج همومنا في روية بعيدا عن المخاوف والعيون ..

كان يتكلم وكانت تصفى مقطبة . وكانت تتخيل على رغمها البيت الخالى في قلق وخوف ، وحاولت أن تطمس خياله بالتمادى في الغضب ولكنه ظل قائما في رأسها . وقالت في حدة :
- ليس في بيتك ...

فقال الشاب باستعطاف وهو يشد على راحتها :
- لم لا ؟! ظننتك ترحبين بدعوتي . اليس لك ثقة في ؟ اليس لك ثقة في نفسك ؟ أريد أن نخلو لذاتنا ، وأن نتحدث ، وأن أطلعك على مدى حبي وآمالى وخططى . ليس فيما أدعوك إليه من عيب ولن يدري بنا أحد .

فهزت رأسها في عناد وقلبها يوالى ضرباته الشديدة . ودت لو تستطيع أن تخلو الى نفسها لتتفكر طويلا ، وشعرت برغبة في الهروب . ولكنها لم تبد حراكا ، وسارت الى جانبه وراحتها في يده وعبثا حاولت أن تبعد خيالها عن البيت الخالى المنتظر . ثم جاءت لحظة فشعرت بأن باطنها ينقلب رأسا على عقب وانها تغوص في أعماق ما لها من قرار . وازدادت اضطرابا وقلقا فقالت في ضيق :

- ليس في بيتك !

فشد على يدها بيد مرتجفة وقال :

- بل في بيتى . فكرى قليلا . ماذا تخافين ؟ انى احبك وانت تحبيننى ونريد أن نتحدث عن حبا ومستقبلنا فى أمن من العيون . هذه فرصة وهيئات أن نجد البيت خاليا مرة أخرى . انى أعجب لترددك ...

وانها تشاركه عجه من ناحية أخرى . أنها تتردد حقا . ولو أرادت أن ترفض رفضا حاسما لما أعيها البيان . ولكنها يبدو أنها تدأب على الرفض المتردد الذى لا يحكم اغلاق الباب . انها

فى الغالب خائفة وخجلة ولكن لم تعد تستطيع تجاهل الانقلاب
الذى حدث فى باطنها . وفاضت نفسها بالقلق والاضطراب
والتوتر ، ثم قالت بصوت ضعيف :
- الافضل ان نواصل المشى ..
فجذبها باغراء وهو يقول :
- قد تنشق الأرض فى أى موضع وفى أية لحظة عن أخيك
حسن !

فوجدت نفسها تجاريه فى تخوفه قائلة فى استسلام :
- انى اخاف هذا !
نقال وهو يتنهد فى ارتياح زافرا من صدره شواظا من نار :
- لنذهب الى البيت ..
فقاومت يده فى وهن وهى تقول :
- كلا .. لن اذهب .
- دقائق معدودات . عطفتنا معتمة ولن يرانا أحد .
وسار بها وهى تتبعه فى تشاقل قائلة :
- كلا ..
وكان قلبها يدق بعنف يكاد تصدع له الضلوع ..

٢٧

وفتح الباب بمفتاح معه وهمس فى أذنها « تفضلى » فقالت
بتوسل :
- لنعد ..
فدفعها برقة وهو يقول :
- لابد أن تشرقى البيت ..
ودخل وراءها وأغلق الباب فوجدت نفسها فى ظلام دامس ،
وارتفع وجهها الى السقف فى انتظار النور ، ولكنها شعرت بيده
تتحسس منكبها فسرت بها قشعريرة وهمست فى خوف :

— النور .

فقال معتذرا :

— مصباح الصالة تالف ..

فقلت بضيق :

— أشعل أى مصباح نستضىء بنوره .

فأحاط خاصرتها بذرعه وجذبها معه وهو يقول :

— انى أعرف الطريق الى حجرتى ..

وحاولت أن تتخلص من ذراعه ولكنه شد على خاصرتها فلم يتخل عنها وسار بها ببطء وجنباهما ملتصقان ، فجثم على صدرها ضيق خائق وجعلت تتساءل فى نفسها « ماذا فعلت بنفسى ؟ » ثم اخذت تألف الظلمة رويدا فلاحت لها فى الظلام اشباح كراسى وصوان واشياء اخرى لم تتبينها . وقطعا الصالة فى بطء وحذر ، ثم مد يده الأخرى ففتح بابا مزق صريره الصمت المخيف ، ودفعها امامه من خاصرتها ثم رد الباب بقدمه ، وسرعان ما تخلصت من يديه وقالت بحدة :

— أشعل المصباح فقد ضقت بالظلمة ..

فجاءها صوته يقول برقة وحذر فى لهجة تنم عن الاعتذار :

— آسف يا ستى فان شقة عمى ملاصقة لشقتنا ولا آمن

اذا رأوا نورا بها أن يطرق أحد منهم بابنا !

فسأله فى دهشة واستنكار :

— هل نبقى فى الظلام ؟

فقال متوددا :

— فى نورك الكفاية ..

فقلت فى توسل :

— دعنى أخرج ...

فتلمس يدها فى الظلام حتى عثر بها ورفعها الى فمه فقبلها

مرة مرة ثم قال بصوت مضطرب :

— بل تجلسين لستريحى ، وستألفين الظلمة فلا تزعجك .
ومال نحوها — فيما يشبه الانقضاى — فرفعها بين يديه ،
وسار بها الى نهاية الحجرة وأجلسها على كنية . وجلس لصقتها وهى
مستسلمة من شدة الاضطراب والذهول ، ثم قال :

— دعينا من الأخذ والرد . ينبغى أن نجلس فى هدوء وأن
نتحدث . لقد تجشمتنا مشقة كبيرة فى سبيل المجرىء الى هنا
وسيان أن نمكث فى الظلام أو النور . ليس هذا بذى بال ولا
يصح أن يكدر صفونا ..

وتناول ساعدها وامطره قبلاى من شففيه الفليظتين وهى
ترتجف وتحاول عبثا أن تجمع شتات أفكارها . ثم تزحزحت
بعيد عن جنبه الملتصق بها لتسترد انفاسها فمال نحوها ولكنها
حالت دونه بيديها وهى تقول لاهثة :

— دعنى وحلى ، انى تعبئة ..

فاسترد انفاسه وقال ضاحكا :

— تشجعى . مالك خائفة مرتجفة !! . أنت فى بيتك فى بيت
زوجك .

وكانت نبضات قلبها تدق فى أذنيها وتقرع رأسها ، فتنفست
من الأعماق . وشعرت بيده تتناول يدها فهمت بجذبها ولكنها
عدلت عنه وكأنها استسخرت نفسها ، فأبقاها بين يديه وقال
بصوت تغيرت نبراته :

— كل شىء هادىء ولطيف . انى أرى جمالك رغم هذه الظلمة .

فقالت بلا وعى تقريبا :

— لست جميلة ..

فدلك يدها براحتيه وقال :

— دعى تقدير هذا لى ، انى لا أجن للشىء ...

وساد الصمت مليا فتركز انتباهها وهى لا تدري فى راحتها
التي تلتهمها كفاه ، وسرت فيها دغلغة بثت فى ساعديها وذراعيها

وصلرها تخديرا فاقشعر بدنها وهمست :

- حسبك ..

فقال بصوت متهدج :

- أعطني شفتيك أقبلهما ، سأقبلهما كثيرا مائة قبلة أو ألفا ،

سأقبلهما حتى أموت ..

واندلق عليها وقبل شفتيها قبلة طويلة شرهة حتى مال رأسها الى مسند الكنبه ثم أمطرها قبلا نهمة حامية ، ورفع وجهه عن وجهها أنملة وهمس :

- قبليني .. أريد أن أشعر بشفتيك تأكلان شفتي .. هه .

وكانت بحال من الاعياء لم تدع لها قدرة على العصيان فرفعت

وجهها قليلا وقبلته ، ثم غمغمت :

- لم نجىء هنا لهذا ..

- اذن لماذا ؟

- لنجس ونتحدث !

فأطبق شفتيه على شفتيها ، ثم عطف وجهه فجعل يده على

فيها وهمس في أذنها :

- هذا أفضل . لقد تكلمنا كثيرا . واعيد عليك أنك زوجي .

زوجي ولو ناصبتني الدنيا العدا . هي مسألة وقت لن يطول ..

لعله يظن انها جزعة متعجلة . فلندعه في وهمه . ولعل

الانتظار أوفق لحال أسرتها التي لا ترحب بزواجها الآن ، ولا

تستطيع أن تعد العدة له . ليس في الانتظار ضرر ولكنها لن تعلن

عما في ضميرها . وعاد سلمان يقول :

- مسألة وقت . ولكن ما أحوجنا في فترة الانتظار الى الترفيه .

ومد يسراه وراء ظهرها ، ويمناه حول صدرها ، فشعر بشدييها

تحت ساعده ناهدين صليين ، فغلى دمه وضمها اليه بوحشية ،

وانهمرت أنفاسه على خدها وعنقها . وعادوها الذهول والتخدير

والرغبة والخوف ، وامتزج في صدرها القلق واللذة واليأس ، ثم

اشتدت الظلمة ، ظلمة عميقة غريبة ، كأنما تنشر اجنحتها على
فضاء لا نهائى ، فلا مكان ولا زمان ..

قالت لها أمها :

— تأخرت أكثر من كل يوم .

فقالت واجمة :

— أردت أن انتهى من عملى وقد انتهيت ..

ثم وضعت فى يد الأم خمسة وسبعين قرشا واستطردت قائلة:

— أعطونى الحساب كله وسأحتفظ لنفسى ببقية الجنيه .

وسكتت الأم فمضت الفتاة الى حجرتها وأخذت تخلع ملابسها.

وفى السكون الشامل ترمى اليها صوت حسنين وهو يطالع فترك

فى نفسها أثرا عجيبا لم تدر ان كان خوفا أم حزنا خالصا ..

٢٨

— بهية ولطافة المغيب هما شىء واحد فى نفسى ..

قالها وهو يومئ الى الشمس الغاربة ، رانيا الى وجهها

الأبيض البدرى ، وقد افتر ثغرها عن در ، فقالت :

— لن تفتأ تتبعنى الى هنا حتى يرانا أحد !

فقال حسنين بزهو :

— انى خطيبك ، ولى الحق فى كل شىء !

— لاحق لك على الاطلاق !

فضحك من قلب جذل ضحكة من لا يصدق قولها ، وملا

عينيه العاشقتين من منظرها . كانت ملتفة فى معطفها الأحمر ،

ينحسر جيبه فى أعلى الصدر عن فستان رمادى ، وتنهدل على

ظهره صفيرتان مكتنزتان . وكان عمق حمرة يصفى على بشرتها

البيضاء وعينيها الزرقاوين نقاء وبهاء . « هى مبالاة الى القصر ،

فلو التصقت بها لمس مفرق شعرها ذقنى . ولكنها بضة ربانة

فتبنا للمعطف الذى يخفى قسمت هذا الجسم وثناياه ، حريصة
محافظة . تعجبتي بقدر ما تفيظني ! » . وقال متعجبا :

— لا حق لى على الاطلاق !!

فقلت فى هدوء ينم عن القوة :

— طبعاً ..

أتعنى ما تقول حقاً؟! . يا لها من جميلة . لقد سما بها هذا
السطح عن الدنيا وجعل من آفاق السماء اطاراً لصورتها . وما
من شيء يشابهها كهذا الاطار فى هدوئه وحشمته وتنائيه . تقول
نفيسة عنها انها ثقيلة الدم ، وما هى بالخفيفة ، ولكن هيهات أن
يقلل هذا من قيمتها . انه يحبها بعقله وجسمه ، او لعل احساسه
غالب عما عداه . أتعنى حقاً الا حق له؟! عجباً ، لقد حسب ان
الخطبة ستملكه حقوقاً وحقوقاً! . قال بدهشة :

— يخيل الى فى بعض الأحيان انه لا قلب لك !

فتورد وجهها ، وخفضت عينيها فى حياء ، ثم رفعتهمما قائلة
فى خشونة :

— ما دليل القلب عندك ؟

فقال فى حماس :

— أن تصرحى لى بأنك تحبيننى ، .. وأن ..

— وأن ...

— وأن نتبادل قبلة ..

فقلت بحدة :

— اذن حقاً لا قلب لى .

— يا عجباً الا تحبيننى يا بهية !!

فلاذت بالصمت فى ارتباك وضيق .

— الا تحبيننى ؟

فتنهدت قائلة :

— اذن لماذا تم ما تم؟! .

فابتل صدره المحترق وهتف برجاء :

- أحب أن اسمعها بأذنى ..

- لا تكلفنى ما لا أطيق !

فتنهذ بدوره فى شبه يأس ، ثم قال بلين :

- إذا أعياك الكلام فلن تعييك قبلة .

- يا خبر أسود ..

- يا خبر وردى كالشهد ! من غير هذه القبلة أموت كمدا .

- أذن فليرحمك الله !

- لا تطيقينها أيضا ؟! لن تكلفك شيئا . أبقى كما أنت ثم

اتقدم خطوة واضع شفتى على شفتيك فتكون الحياة التى
ما بعدها حياة ..

- أو الفراق الذى ليس بعده تلاق !

- بهية !

- أفندم !

- أنت لا تعنين ماتقولين ..

- أعنى ما أقول تماما .

- ولكنها قبلة وليست جريمة !

- جريمة فى نظرى ..

- ما سمعت هذا قبل الآن ..

فتفكرت قليلا ثم تمتمت :

- ولكنى سمعته كثيرا ..

- أين ؟

فعاودها التفكير ، وترددت مليا ، ثم قالت بصراحة وسذاجة :

- ألم تقرأ ما تنشره الصباح عن فتيات مهجورات

لاستهتارهن ؟ ألا تسمع الراديو ؟

فففر فاه ، وندت عنه ضحكة ، ثم صاح :

- من يقول ان القبلة استهتار ؟ ألم تقرئى ما قال المنفلوطى

فى القبله وهو الشيخ المعم ؟ انك تحرمين على نفسك ما احل
الحب الطاهر لنا . الصباح ؟ . الراديو ؟ . كلام فارغ !
فرمقته بريبه وحذر وقالت :

— لا تضحك منى . هو الحق . قالت امى لى مرة « ان الفتاة
التي تتشبه بالعشاق كما يظهرون فى السينما فتاة ساقطة خائبة
الامل » ...

بنت الكلب !.. اهى التي قالت لك هذا ؟ . القصيرة الماكرة .
افسدتها على وافسدت حياتنا . ان الفيظ يقتلنى . ماذا افدت
من الخطبة التي تجرعت بسببها تقريبا ولوما مرا ؟! لا شئ .
فتاتى عنيدة مجنونة . السبب امها بنت الكلب « حمالة الخطب ! »
وتساعل فى يأس :

— اتاخذين نفسك بهذا التقشف حقا ؟

— طبعا .

— اذن هو حب اسمى فحسب ؟

— ليكن .

وتفحصها بنظرة طويلة فراها ثابتة عنيدة قوية . وجرى
بصره مع عنقها الرقيق ، وتخيل أصله المتوارى تحت الفستان ،
والمنكبين ، والصدر الناهد ، فركبته عاطفة جامحة حارة ، وافلت
زمامه من يده ، فانقض عليها وهو يسدد ثغره صوب شفيتها .
ولم تكن تتوقع انقضاضه فتقهقرت فزعة وتلقته براحتيها ثم
هتفت به لاهثة :

— حسنين ، اياك ...

لمح فى عينيها غضبا يتقد فخمدت حدته ، وارتد خجلا
مرتبكا ، فغمغمت :

— احذر ان اغير راىي فيك ...

ثم استدركت فى جزع :

— اظن ان لك ان تعود ..

ودارى ارتبأكه بضحكة قصيرة وتمتم :
- على شرط الا تكونى غاضبة ... ؟
فسكتت هنيهة قبل ان تقول بلهجة رقيقة :
- وعلى شرط الا تعود لهذا مرة أخرى ...
وتحول فى خطوات ثقيلة ، يلوح فى مظهره الارتباك واليأس ،
فرق قلبها له وقالت وهى لا تدرى :
- ان سعادتى فى ان اصون لك ...
وكأنما تنبعت الى نفسها فعضت على شفتها ولم تنبس بكلمة .

٢٩

وجاء عيد الأضحى فجذب افكار الأسرة وعواطفها الى واد
واحد تلتقى فيه ذكريات الأمس واليوم ، واجتمعت الأسرة ليلة
الوقوف فى الصلاة حتى حسن كان بينهم ، واستعرت فى الصدور
رغبة كظيمة فى الاحتفال بالعيد . وطافت بروءسهم ذكريات الأعياد
الماضية فى حنين دافق لم تعلن عنه السنتهم . كان الحروف - فى
مثل هذه الليلة - بمربطه فى شرفة شقتهم الأولى يشرئب بعنقه بين
قضبانه نائجا ، مديعا بثواجه فى عطفة نصر الله احتفال الأسرة
بالعيد . ولم يكن الشقيقان ليفارقانه ، فهما اما يعلقانه ويستقيانه ،
او يناطحانه او يحلمان بالغد القريب فى أمل وفرح .

وفى الصباح وعقب ذبح الضحية يبدأ سباق الى شئ اللحوم
والتهامها ، والأم مشغولة بهذا . ويتوزع الصدقات على بعض الفقراء
كالكناس وصبي الفران وغيرهما ، اما الأب فيتناول فطوره من
الشواء على السفرة ثم يأوى الى حجرته فى انبساط فيضم عوده
الى صدره ويمضى فى مداعبة أوتاره . وهناك - غير هذا - العيديات
والملابس الجديدة ونزهة الصباح فى الخلوات وفسحة الليل فى
السينما وما بين هذا وذاك من ألوان الحلوى واللعب والمفرقات .

وهاهى الأسرة مجتمعة ولكن بلا أب . وانهم لينظرون فيما حولهم فلا يجدون بشيرا بمقدم العيد ولا أملا فى بهجته ، ثم يسترقون النظر الى أمهم المتلفعة بالسواد باعين مستطلعة والسنة قلقة مشفقة . كلا ، لا عيد ، ولا بشيرا به . وتساعل حسنين فى سره « ترى هل يمكن أن يمضى العيد كما كان يمضى غيره من الأيام ؟! » . وقال حسنين لنفسه « لا عيد . انى أعلم ذلك . انتهى ، انتهى » . حسن وحده كان أدناهم الى التفاؤل . ولعل كثرة تغيبه عن البيت جعلته بمنأى بعض الشيء عن نوع الحياة التى يحياها أهله . وكان الى هذا - شأنه شأن بقية الاخوة - يعد أمه قادرة على كل شيء ، وكثيرا ما يتعزى عن كسله وتلفه فيقول لنفسه « لديهم المعاش وأرباح نفيسة ! » . وقد اعتاد دائما اذا رجع الى البيت أن يخلو الى نفيسة فيسألها « كيف الحال ؟ » فكانت تجيبه بالشكوى المرة ولكن قلبها لم يكن يطاوعها على تجاهل يده اذا مدها لها طامعا فى بضعة قروش . كان متفائلا رغم ما يحدث به من تجهم ، ومنته نفسه بنصيب هائل من اللحم يعوض عليه أياما طويلا انقضت دون أن يذوق اللحم طعما ، وضاق بالجو الكئيب الصامت فمال على أذن نفيسة وسألها همسا :

- ماذا أعددت للعيد ؟!

وفطنت الأم الى همسه فعاجلته متسائلة :

- ماذا أعددت للعيد يا رجل الأسرة ؟

فضحك قلائلا ،

- لنا أم نحسد عليها ! خفيفة الروح وبنت نكتة ولطيفة .

ماذا أقول يا أمه ؟ لم يأمر الله بالرزق بعد . وحسبكم أنى كفيتم شرى فلم آكل لقمة فى بيتكم منذ وفاة أبى الامرات معدودة . . .

وكانت يؤست من نصيحة ولومه معا فتنهدت صامتا ،

وتشجع حسنين بفتح باب الكلام فتساعل :

- ماذا سنأكل فى العيد ؟

فتطوع حسن بالاجابة قائلا :

- لحما طبعاً . هذا أمر ربنا ولا حيلة لنا فيه !
 وندت عن نفيسة ضحكة ولكنها لم تسترسل خشية أن تتهم
 بتشجيعه وقالت الأم بحزن :
 - هذا أمر ربنا حقاً ولكن كيف لنا بتحقيقه ؟
 فقال حسن في ملق بارع :
 - نحققه بفضلك أنت . أنت الخير والبركة . أنت الحزم
 والتدبير . ثم أنك أعظم طاهية في الدنيا . كيف يمضي العيد دون
 أن نشبع من المشوى والسلوق والمحمر والكفتة والكستلية
 والمبار والموزة ؟ . سفرة الست أم حسن ، أنعم بها وأكرم ..
 وسرى في الجو القاتم نسيم مرح لطيف ، وجرت على فم الأم
 الجاف بسمة خفيفة ، ولكنها قالت بأسف :
 - طاهية ماهرة ولكنها مقطوعة اليدين !
 ونظرت نفيسة إلى أمها نظرة ذات معنى ثم قالت لاختوتها :
 - اسمعوا ، علمنا أن فريد أفندي سيهدى إلينا نصف خروفاً !
 وتطلعت إليها الأبصار في دهشة ووجوم . ولم يعد في وسع
 المرأة السكوت فقصت عليهم كيف حادثها فريد أفندي في الأمر
 بلباقة وكيف رفضت شاكراً فتأثر الرجل لحد الغضب وذكرها
 بأنهم أسرة واحدة . الخ . وكانت تلوح في عيني حسن نظرة
 كئيبة ، وبدأ حسنين وهو يزدد ريقه بصعوبة أما حسن فقال :
 - ياله من رجل فاضل وفي !
 فهتف حسنين في ضيق والم :
 - مستحيل .. لن يقع هذا ..
 فبادره حسن قائلاً :
 - ليس في الأمر ما يمس الكرامة ، إن هي إلا تقاليد مرعية ،
 وليس فريد أفندي بالرجل الغريب ..
 وخافت نفيسة أن يفضي تصريحها إلى فتنة فقالت :

— لا داعى للنزاع ، فاذا أبيتم قبول الهدية فلنشتري بضعة
ارطال من الضان .

فتساءل حسن فى حدة :

— كم رطلا ؟

— ما يسعنا شراؤه . عشرة ارطال مثلا !

فصاح حسن فى انزعاج :

— عشرة ارطال على أربعة ايام !. اياكم وان ترفضوا الهدية .

النبي قبل الهدية يا هوه . ام تريدون أن تغضبوا أسرة تود
مصاهرتكم !

فصاح به حسنين :

— هذه شحاذة !

فقال حسن بيقين :

— كلا . الشحاذة شىء آخر اسألنى انا عنه . أما هذه

فهدية ، هدية ، هدية !

وتكلم حسين لأول مرة فقال :

— هدية من النوع الذى كنا نهديه فى الأعياد الى الكناس

وصبى الفران ..

وغضب حسن لانه كان يطمع أن يضم حسين الى رأيه أو أن

يبقى على الحياد فى الأقل ، وقال محتدا :

— لا تخط بين الهدية والصدقة ، اذا أعطيت الكناس فهى

صدقة ، أما اذا أعطيت صديقا فهى هدية ..

وكان حسنين يعلم بأن مناقشة حسن هذر غير مجد فخفض

عينيه وقال فى حياء والم :

— الواجب أن يكون المهدي هو الخطيب لا الخطيبة ..

فقال حسن ساخرا :

— هذا اذا كان هو الذى طلب يد الخطيبة ، أما اذا كانت

هى التى طلبت يده ..

— حسن ! ..

— أرحنا من الفلسفة التي لا تشبع من جوع . لا عيب في قبول هذه الهدية . كانت هدايا أحمد بك يسرى تحمل الينا في المواسم ، على فكرة ما باله قد نسينا هذا العام ابن الكلب ؟! . هذا رجل غير وفي . فريد افندى رجل الوفاء حقا . من حسن الخلق ان تقبل هديته . ثق بأنه اذا كان في القبول ما يمس الكرامة لكنت أول الرافضين .

فقال حسين بكآبة :

— تصور ماذا يقولون عنا !

— تصور الشواء وأنت تقلبه على النار والرائحة الشهية تملأ البيت .

والتفت حسين الى أمه وسألها :

— علام نويت ! ؟

فقالت المرأة دون أن تنظر اليه :

— لم يسعنى الا القبول ..

وساد الصمت ، لا لأن أحدا لم يجرؤ على الاحتجاج فحسب ولكن لأن هذا القبول أنقذهم من النزاع القائم في صدورهم بين غضبة ضمائرهم ورغبتهم في الاستمتاع ببهجة العيد ولذائذه . وهم الى هذا كله كانوا يؤمنون بأهمهم أيما كبرا ، كأنها لا يمكن أن تخطيء ، فاذا كانت قد ارتضت قبول الهدية فلا ضرر من قبولها . هذا ما قالوه لأنفسهم ، أو هذا ما قاله لنفسه الحائر منهم لينجو من حيرته . وكانت الأم أسوأ حالا منهم . ولم تجد من عزاء الا في هذه الحقيقة وهي أن فريد افندى اضطرها الى القبول بالحاح وحرارة صداقته وقد رحبت بآثاره نفيسة للموضوع لعلها تجد في قبول الأبناء عزاء ، فلما أنست من الابنين المهمين معارضة تضاعف ألمها وصرحت بالحقيقة فيما يشبه الاعتراف بالذنب ، وضاعف من آلامها أنهم باتوا لا يشبعون الا في الأعياد شأن المساكين

الذين كانوا يقصدونهم فيمن يقصدون من اهل الخير . انحدار
يعقبه انحدار ولا تدرى أين يقف . اما حسن فقد اطمأن . ولم
يرب باسا من ان يتفلسف فقال بلهجة الوعظ :
- قبل النبى مرة هدية اهداها اليه يهودى فهل يكون فريد
افندى شرا من اليهود ؟!

فتساءل حسين فى دهشة :

- من قال هذا ؟

- التاريخ !

- اى تاريخ !

فصاح به حسن :

- احسبت أنهم يقولون لك كل شىء فى المدرسة ؟

فقال حسنين بحدة :

- حدثنا عن التاريخ الذى تعلمه الشوارع . . !

فتظاهر حسن بالفضب وقال :

- قسما برب العزة لولا أنك سبب هذه الهدية لكسرت رأسك .

ثم استدرك قائلا :

- وعلى هذا كله كان الواجب يقضى بأن يهدوا الينا خروفا

كاملا لا نصف خروف (ثم ملتفتا الى نفيسة) احذرى أن تقبلى

الهدية الا اذا كان فيها نصف الكبد أيضا . .

٣٠

وقفا متقابلين ينتظران الترام . هى فى معطفها القديم الذى

تود أن تستبدل به أحسن منه ولو نصف عمر ، وهو فى البذلة

التي تبدو عليه قلقه جافية . وكان يلوح فى وجهه التردد ،

والرغبة المعذبة فى الافصاح عن شىء يثقل عليه الافصاح عنه ،

ثم خاف أن يجىء الترام قبل أن يتكلم فقال فى ارتباك :

— نفيسة .. يخجلنى جدا أن أصرح لك بأمر ..
فتساءلت الفتاة :

— ماذا بك ؟

فقال همسا :

— أمرنى أبى أن أصحبه اليوم الى حضرة شيخ الشاذلية
فرفضت حتى أثرت غضبه ..

وشعرت بخوف لم تدر كنهه ، لعل ذكر أبيه الذى هيجه ،
وتوقعت خيرا غير سار ، فرمقته بعين متسائلة دون ان تنبس ،
فقال بصوته الهامس :

— ثار غضبه لعنادى وحرمنى أجرة يومى !

وحلت الدهشة محل الخوف وسألته :

— أليس معك نقود ؟

— كلا . أبى رجل جبار ، ربنا يأخذه ..

فقالت لنفسها « آمين » ثم تمتمت :

— معى بعض النقود ..

فسكت لحظات فى قلق ثم سألها فى خجل :

— هل تدفعين ثمن التذكرتين أمام الجالسين ؟

وافطنت الى ما يريد ، فرقت له ، وفتحت حقيبتها وتناولت
شلتا واعطته آياه فأخذه وهو يلحظ الواقفين بحذر ثم قال :

— شكرا لك . سأرده اليك فى اللقاء الآتى ..

ثم قال مستطردا بعد تردد :

— أو خذى اذا شئت به حلاوة أو جينا .

فتساءلت مدفوعة بغريزة الحرص :

— ألا تخاف أن يلاحظ أبوك اننى لا أدفع ثمن ما أخذه ؟

فضحك قائلا :

— انه لا يرى أبعد من موضع قدميه ..

وجاء ترام روض الفرج فصعدا اليه وجلسا متجاورين .

«كيف أبذر نقودي على هذا النحو؟. البيت في شديد الحاجة الى كل ملين مما أجنى من عملى الطويل . أمى لا تفتأ تبيع قطع الأثاث . حتى أخى حسن أحق بهذا الشلن من هذا المفلس . ماذا أفعل بنفسى؟. انى أبعثر نقودا أخرى لابتياح البودرة والأحمر . أو اه . انه ليس رجلا . لو كان رجلا لما تعلق بأبيه هذا التعلق المضحك ، ولما خافه هذا الخوف . حرمة الرجل يوميته كما يحرم الطفل مصروفه . بيد انى أحبه وأريده . انى له نفسا وجسدا . ليس لى سواه . من أين لى هذه النفس التى تسيمنى هذا كله؟! » وسمعته يهمس فى أذنها :

— من المؤسف حقا أن أمى عادت من بلدة أختى فلم يعد البيت خاليا ..

ليست بحاجة الى من يذكرها بهذا . فهى تعلمه حق العلم . بيد أنها سرت فى أعماقها بفتحه هذا الباب . ودبت فى جسمها يقظة فنشط خيالها وتذكرت الظلمة الشاملة والأصوات الهامسة ، تذكرت هذا فى حرارة مشوبة بخوف . ولم تشأ أن تعلق على قوله فتجاهلته عن حياء ، وتورد وجهها الذى جعله الزواق مثيرا للنظر . أمى عادت ، وأبى لا يرضى ؛ متى ينتهى هذا كله؟! . متى تملكه بلا خوف ، وبشرع الله؟! . آه ثم آه ، لشد ما يركبها الخوف أحيانا فتود الموت نفسه والراحة من الحياة جميعا . وعاد صوته الهامس يقول :

— ولكنى سأخلق الفرص بنفسى . لا بد أن تعاد الفرصة ، وأن يخلو البيت ..

فقالت بصوت بارد :

— لا .. لا .. لا داعى لهذا ..

— الله يسامحك .. أنسيته؟. .. أنسيته حقا؟! . لا يجوز

أن نموت فى فترة الانتظار . لا أحب الانتظار ..

اليس الانتظار خيرا مما فعلت بنفسها؟. بلى . كلا . بلى .

كلا . بلى بلى . كلا كلا . بلى بلى بلى . كلا كلا كلا . وتنهدت
في حيرة ، وعاودها شعور اليأس الذى ألفته ، ولكنها قالت :
- لا أحب الانتظار مثلك ، ولكنى لا أحب هذا أيضا ..
فقال بعكر :
- كاذبة . تحببته وتحببته . هل نسيت .. ؟ محال ..
- لا أذكر شيئا ..
- لن أنسى ما حييت ! .. أنت غاية فى الحرارة والحياة كأن
حرارتك لا تزال تلفحنى ..
- هس . أنت مجنون ولا شك !
- مهما يكن من أمر فسنجد حتما طرقا خالية مظلمة ..
- حذار . بصرك ضعيف كأبيك ، وقد تحسب الطريق خاليا
والشرطى أمامك !
- البركة فى عينيك أنت ..
ثم قال متنهدا بعد لحظة صمت :
- متى يتاح لنا الزواج ؟!
فألما تساؤله وأغاظها ، وأخجلها فى الوقت نفسه ، ولازمها
فتور ووجوم بقية الطريق .

٣١

انصف الليل ولم يكذ يبقى فى قهوة الجمال إلا نفر قليل ، وكان
حسن يجلس الى مائدة خالية بعد أن فارقها أصحابه تاركين فى
جيبه ما استطاع أن يظفر به من قروشهم . كان يجلس كالمفكر
ملقيا على المقهى نظرة جامدة من عينيه المتعبتين . هذا صاحب
القهوة وقد أخذ يراجع حساب اليوم مكوما الماركات فى طبق صاج
كبير ، على حين وقف النادل مستندا الى إحدى ضلف الباب

واضعاً إحدى يديه في جيب المريضة يعبت بالقروش فيتصاعد
وسواسها في اغراق شهى . « رحمك الله يا أبى ، ألا تعلم باتى
تعبت كثيراً بعد موتك ؟ . كان نزعنا لا يهدأ ، وكنت أشعر أحياناً
باتى أمقتك ، ولكن أين أيامك ؟ فيما عدا أيام العيد لم اتناول لقمة
في بيتنا . وماذا ياكلون ؟ . الفول غذائى الوحيد ، فول ، فول .
الحمير تجد شيئاً من التنوع . » لماذا لا يبحث جادا عن عمل ؟ .
جرب حظه مرتين فانتهى فى كل مرة بمعركة كادت تودى به الى
السجن : كلا ليست هذه الأعمال التافهة بمبتغاه . ولا يزال
يؤثر عليها حياة التسكع والمقامرة الحقيرة . الواقع أنه يتعيش
من السرقة ، انه ورفاقه يعلمون ذلك حق العلم . انهم يتصيدون
الزبائن الأغراب ويوهمونهم بأنهم يلعبونهم على حين انهم
يسرقونهم . حياة شاقة محفوفة بالمخاطر فى سبيل قروش ، كيف
يستقيم الى هذه الحياة ! . لم يكن لا سعيداً ولا راضياً ، وكأنه
كان ينتظر معجزة تنتشله من وهدته الى حلم من الأحلام .
كانت حياته عادة ضارية كالمخدر المهلك ، اعتاد أن يعيش
بلا عمل حقيقى حائزاً - رغم هذا - مركزاً مرموقاً مرجعه
الرغبة والخوف فلم يحتمل أن يبدأ من جديد صانعاً بسيطاً
أو عاملاً مطيعاً ولم يكن يغيب عنه مدى حاجة أمه الى جده ،
ولا تزال تطن فى أذنيه شكاتها المكروبة ، تطارده كلما أفاق الى
نفسه . انه يحب أمه ويحب أسرته ، ولكنه ينتظر ، وينتظر ،
دون أن يحرك ساكناً . لا تزال فى البداية . عمل حيوانى طويل
بقروش . حماقة خير منها . .

— مساء الخير يا سى حسن .

ورفع رأسه منفتلاً من سحابات أفكاره فرأى الأستاذ على
صبرى يجلس قبالة فى هدوء وكبرياء فاهتز صدره فرحاً
وهتف به :

— مساء الخير يا أستاذ .

ونادى الأستاذ النادل وطلب نارجيلة ثم التفت الى حسن وقال دون تريث :

— قررت أن نعمل معا!.. أعنى أن أضمك الى تختى!..
واتسعت عينا حسن ولاح فيهما بريق خاطف . ان التخت
هو العمل الوحيد الذى يحبه ، لا لميل فنى مركب فى طبعه ،
ولكن لأنه يسير ولذيد وينسم جوه عادة بأريج الخمر والمخدرات
والنساء . ومع أن أمله فى على صبرى كان دائما محدودا إلا أنه
كان يراه شيئا خيرا من لا شيء ، ولعله عتبه لما بعده ، أجل من
يدرى؟! قال :

— حقا يا أستاذ؟

— بدون شك .

— هل نعمل فى صالة أو قهوة؟

فتخلل الأستاذ شعره الثائر بأصابعه الطويلة النحيلة وقال :

— سترسى الى هذا يوما قريبا . وربما غزونا الراديو نفسه .

ولكننا سنقتصر بادئ الأمر على الأفراح ..

وسرعان ما خمد الحماس . ولو كان على صبرى شخصا

لا يعقد به رجاء ولو ضئيلا لصعقه بضربة تجعل عليه سافله .

لقد عمل معه بالفعل فى بعض الحفلات العائلية نظير ريال والعشاء ،

وما كان هذا ليحدث إلا مرات فى العام ، فما الجديد فى هذا؟!..

وشعر بأن وراء هذه الدعوة أمرا ، وداعبه أمل جديد ، فتظاهر

بالسرور وقال :

— ستحتل المكانة التى تليق بك يوما بلا شك . أنت لك بحة

ليست لعبد الوهاب نفسه .

فانبسطت أسارير وجهه ، ثم سأله :

— ماذا تختار من آلات التخت؟ .. كنت حدثتني عن

المرحوم والدك كعواد بارع؟

— لم أتعلم آلة على الإطلاق ..

— ولا الدف ؟

فقال حسن بقلق :

— سبق أن جربتني كسنيـد ، واظنني أنفع « سنيـدا » ..

فهز الأستاذ رأسه قائلا :

— كما تشاء . هل تحفظ أدوارا كثيرة ؟

— مواويل وأدوار وطاقيق ..

— أحب أن أسمعك منفردا ..

وشعر حسن في أعماقه بسخرية . نفخة كذابة وامتحان
لحساب أمل ضعيف !. ولكنه كان مصمما على مجاراته الى
النهاية . كان يحلم بأن يغنى لحسابه الخاص يوما ولو في المقاهى
البلدية . وانتظر حتى جاء النادل بالنارجيلة واستمتع الأستاذ
بالأنفاس الأولى ، وتنحنح ثم سأل الأستاذ :

— ما رايتك في موال : يا عيني ليه بتبكي ؟

— عال ..

وراح حسن ينشد الموال في صوت غير مرتفع ، مجيدا
ما وسعته الاجادة ، والآخر يذهب معه برأسه ويجيء متظاهرا
بالاستغراق ، حتى انتهى حسن ، فقال :

— هذا فوق الكفاية بالنسبة لسنيـد . أحب أن أسمعك في

الهنك أيضا ، هل تحفظ « في البعد يا ما كنت أنوح ؟ » .

فتنحنح الشاب مرة أخرى وقد حميت حنجرتـه واشتعل
حماسه واندفع يغنى الدور حتى أتى عليه ، فقال الأستاذ :

— عال ، عال ، هل تعرف أصول النغم ، السيكا والبياتي

والحجاز وغيرها ؟

وكان لا يداخله شك في جهل الأستاذ بهذه الأصول فقال

بجراحة ندر أن توجد في غيره :

— طبعا .

— أسمعني ليالى رست ..

فأنشد بعض الليالى كيفما أتفق ، فhez على صبرى رأسه قائلا :
- برافو .. هات أخرى نهاوند ..

وانطلق يغنى وهو يغالب سخريته القلقة فى صدره والآخر يتابعه باهتمام ظاهرى ، ثم لاح فى وجهه التفكير فجأة وبدا كأنه يريد الإفصاح عن شىء هام . وكان حسن ينتظر هذه اللحظة بغيرزته فتساءل متحيرا ترى هل يريد أن يندبنى الى معركة ؟ .. ماذا يريد على وجه التحقيق ؟ .. وقال الأستاذ :

- صوتك حسن . بيد أن العمل فى التخت يتطلب مهارة أخرى . ينبغى أن نتفاهم تماما . وعلى سبيل المثال أقول لك انك يجب أن تأخذ بقسط وافر من أساليب الدعاية ..
- الدعاية ؟!

- نعم . كأن تنوه بغنى فى المناسبات . أن تسمى لاغراء البعض بطلبى لاهياء الأفراح ولك جزاء طبعاً . ان تكون فى حفلة يحييها مغن ما فتعلن نقدك لصوته وتقول لمن حولك آه لو كان على صبرى فى مكان هذا المغنى . وهكذا ..
فابتسم حسن قائلا :

- هذا هين ، وأكثر منه ..

فقال على صبرى بعد فترة تفكر :

- ثم انك شاب قوى وجرىء وينبغى أن تستغل مواهبك الى أقصى حد . ولكن دعنى أسالك سؤالا قبل كل شىء : أى المخدرات أحب اليك ؟

ما الذى يدعو به الى هذا التحقيق ؟ أيريد أن ينفحه بهدية ؟! انه يجيد قبول الهدايا ، أما الجود بها فهذه عادة لم يمارسها . أم يرمى الى اشراكه فى عمل هام ؟ ودق قلبه لهذا الخاطر . طالما حلم بتجارة المخدرات . على انه أثر الحرص والحذر فقال بمكر :
- أظن أن المخدرات تؤذى الحنجرة ..

فضحك على صبرى ، ثم انطلق يغنى من الليالى ما شاء فى

صوت كالرعد وفي نفس طويل قوى ، ثم تساءل :

— ما رأيك في هذا ؟

— لم أسمع له مثيلا !

فقال ساخرا :

— هذا نتيجة خمسة عشر عاما من تعاطى الحشيش والأفيون

والمنزول ، منها خمسة أعوام أدمنت فيها الكوكايين ..

— يا سلام !

— المخدرات دم الغناء ، وما من مغن يستحق هذا الاسم الا

وقد تعاطى من المخدرات مثلما اتهم من الملاوخية والفول المدمس .

فضحك حسن وقال بلهجة تنم عن التسليم :

— هذا لو تيسرت ..

— صدقت ، وهذا ما خمنت . انك لا تكره المخدرات ولكنك

لا تستطيعها . واذن فاعلم انه من اليسر أن نجعل الانهار

خمورا والجبال حشيشا . انك جرىء قوى ولكنى لا اخفى

عليك بانى خفت كثيرا ..

— خفت ماذا ؟

فضحك على صبرى ضحكة قصيرة كشفت عن أسنانه

الصففر وقال :

— اكره الناس الى من يقول « اخلاقى لا تسمح لى بكيت

وكيت » او من يقول « اتق الله » او من يتسائل فى خوف

« والبوليس ؟! » .. فهل أنت أحد هؤلاء ؟

فقال حسن مبتسما وهو يشعره بان صبره الطويل يوشك

أن يظفر بحسن الجزاء ؛

— انى أعيش فى هذه الدنيا على افتراض انه لا يوجد بها

أخلاق ولا رب ولا بوليس ..

فضحك على صبرى بقوة زلزلت القهوة كفنائه وقال :

— فلنقض بقية الليل فى بيتى فما زال فى الحديث بقية ..

ولبت حسن متفكرا دون أن تخونه ثقته بنفسه لحظة واحدة .
كان قليل الثقة في محدثه ولكنه لم يكن يائسا منه كل اليأس .
وكان يشعر في أعماقه بأن ثمة انتظار طويل لا يزال أمامه قبل
أن تثبت الأرض القلقة تحت قدميه .

٣٢

كانت الأم ونفيسة جالستين بالصالة قانعتين من النور بما
يشع من حجرة الاخوة حين زارتهما صديقتهما صاحبة البيت .
ورحبا بها ترحيبا يليق بأياديها البيض على نفيسة . وجلست
المرأة بينهما على الكنبة ، وأبت حتى أن يضيئا مصباح الصالة ،
وجعلت هي والأم تتسليان بالحديث على حين ذهبت نفيسة الى
المطبخ لاعداد القهوة . وكانت الأم تنتظر دائما من وراء زيارة
صديقتها عملا مربحا لنفيسة ، وقل أن خيبت لها رجاء . لم يكن
عقلها يخلو ابدا من هموم العيش ، خاصة بعد أن استدار العام
واقتربت العطلة المدرسية ، وبات من المتوقع قريبا أن يضاف الى
واجباتها واجب جديد هو تغذية ابنها بدلا من المدرسة . كانت
تشكو الى صاحبته ما عانت من حياتها في الأشهر المنقضية
والمرأة تواسيها وتشجعها ، حتى عادت نفيسة بالقهوة . وأرادت
المرأة أن تعلن عما دعاها الى هذه الزيارة فقالت وهي تبتسم
ابتسامة حلوة تنم عن طيبة قلبها :

— جئت بك بعروس جديدة ..

فضحكت نفيسة ضحكة سرور وقالت :

— يحق لى أن أطلق على نفسى خياطة العرائس !

— أسأل الله أن تعدى ثياب عرسك بنفسك قريبا .

فتمتمت الأم قائلة :

— آمين .

وامنت نفيسة على الدعاء بقلبها ، على ما اثار في نفسها من قاتم الذكريات . « متى يمكن ان اكون عروسا ؟ ليس قبل ان يموت عم جابر سليمان . يا للسخرية . امل كلفنى نفسى وجسدى . هل يدور هذا لأمى فى خلد ؟! . انها تحسب ان هموم المعيشة اكبر الرزايا . يا لها من جاهلة بائسة . » . وتساءلت الأم :

— من تكون الزبونة الجديدة ؟

— العروس الجديدة هى كريمة عم جبران التونى البقال .. وتنبهت حواس نفيسة لهذا الاسم الذى لا يمكن ان تنساه فدفق قلبها بعنف وقالت متسائلة :

— دكانه عند تقاطع شارعى شبرا والوليد ؟

— بالضبط .

وضحكت الأم قائلة :

— أصبحت جواله يا نفيسة كشيخ الحارة ..

فضحكت الفتاة ضحكة آلية وقالت لنفسها « هى دون غيرها » . هى الفتاة التى كان عم جابر سليمان يرغب فى أن يزوجه لسلمان كما قال لها الفتى . فلتزوج ولترفع عن صدرها كابوس ذكراها . وتساءلت الأم :

— وهل جبران التونى هذا غنى ؟

— على جانب من اليسار لا بأس به ..

— ومن العريس ؟

فضحكت المرأة وقالت :

— انه اقرب مما تتصورين . هو سلمان ابن عم جابر

سلمان البقال .

— سلمان !

ندت عن نفيسة كالصرخة ، فالتفتت المرأتان صوبها فى

دهشة . وظنت الضيفة انه كبر على الفتاة أن يحظى بمثل هذه العروس شاب تافه كسلمان فقالت :

- نعم سلمان . والظاهر أن عم جبران لم يمانع لصداقته لعم جابر سلمان . وربك يعطى الأرزاق بلا حساب ..

أدركت رغم هول الصدمة أنها كادت تفضح نفسها فتماسكت في جهد شديد . لقد انفجرت الصرخة في صدرها بلا وعى وانطلقت من فيها دامية . ولم تعد تستطيع أن تتابع حديث المراتين وشعرت بأنها تموت موتا سريعا منقضا . وساعدتها الظلمة على اخفاء معالم وجهها فشدت على أصابعها حتى لاتصرخ مرة أخرى . ماذا قالت المرأة ! . ليس ما بها كابوس أو جنون ، انه حقيقة بلا ريب ، سلمان جابر سلمان ، دون غيره . وعادتها ذكرى مخاوف قديمة كانت تتنابها من حين لآخر في ساعات انفرادها ، مخاوف غامضة أحيانا كقلق ينشب أظافره في صدرها ، أو واضحة أحيانا أخرى تتبدى في صورة بشعة يقشعر لها البدن . وخالت في ذهولها لحظة أن ما بها ليس إلا حالة مرعبة من هذه الحالات ، ولكن لم تكن إلا لحظة واحدة ثم عاودها هذا الشعور الثقيل الرهيب بأنها تموت . لقد ذاققت قساوة الدنيا مع أسرتها جميعا ولكنها لم تصدق أنها قاسية الى هذا الحد ، وعضت على شفتها وهي لاتدرى كيف تقاوم هذا الانحلال والتهدم ، السارين في روحها وجسدها . ما هي بخيبة الحب ، هي خيبة الحياة كلها ، ولكن يجب أن تتمالك نفسها ، وعسى أن تدعوها الضيفة الى الحديث لاية مناسبة فلا يصح أن ترتعش نبرات صوتها ، أو تختنق من شدة التأثير . ولعله من الخير أن تلوذ بالفرار الى حين . ولم تن عن تحقيق نيتها فتناولت قدح القهوة ومضت الى المطبخ . هنالك زفرت من الأعماق ، وشدت بيديها على ضفيريها القصيرتين بشدة وهي تحملق في سقف المطبخ الملوث بالهباب وقد عشنش العنكبوت بأركانه ، ولبثت في جمود كالذاهلة . ولم يكن أملا ، ولكن خدعة ،

كذبة مفزعة ، ضربة قاضية ، سرقة ، لطفة ، جرحا لا يندمل ، وحلا ، لقد انتهت . انتهت بلا أدنى ريب . لا يمكن أن تتخيل أمها هذا ، أما حسين وحسين فهيئات . رباه كيف استطاع خداعها الى هذا الحد ؟ كانا معا يوم الجمعة الماضى فأى مجرم هذا وأى اجرام . ماذا يجدى الغضب أو الحقد ، أو الكراهية ؟ . . شعرت نحوه بالكراهية تقتل أى أثر للخير فى النفس . ما أشد حاجتها الى التفكير والتدبر ، أنها تتلف على مكان قصى خال ينأى بها عن هذا المحيط الذى باتت تضر له البغض أشد البغض ، مكان تستطيع أن تسأل فيه نفسها كيف هوت بمثل هذه السهولة ، وبمثل هذه السرعة ، وبمثل هذا الهوان . .

— نفيسة . . !

بلغ نداء أمها مسامعها فانتفضت فى ذعر ، ثم حنقت عليها حنقا شديدا كأنه المقت ، ولم تأت حراكا فأعادت الأم النداء فذهبت وهى تعض على نواجذها ، ووجدت الضيفة متأهبة للذهاب وأمها تودعها عند الباب الخارجى . وقالت لها وهى تسلم عليها :

— تعالى الى بعد غد فنذهب معا الى بيت العروس . .

فأومات برأسها بدلالة الإيجاب دون أن تنبس ، ولما أغلق الباب قالت الأم :

— سلمان !. والله ما يستاهل هذا الحظ . .

فشعرت بخنجر ينغرس فى شفاف قلبها ، ولم تعلق بكلمة . وضاق صدرها بالمكان والجو وأيقنت بأنها أعجز من أن تتحمل المكث الى جانب أمها ، وخطر لها خاطر كلسان من لهب انشق عنه صدرها فمضت بقدم ثابتة الى حجرتها ، ثم عادت وقد ارتدت معطفها فسألتها أمها بدهشة :

— أذهابة الى الخارج ؟

فقالت وهى تتوجه صوب الباب :

— نعم سأشتري شيئاً للعشاء وربما ذهبت الى شقة فريد
افندى ساعة ...

٣٣

ومالت نحو فناء البيت وأنفاسها تتردد في ثقل وصعوبة ،
كانت السماء صافية مرصعة بالنجوم ، والجو بارداً بعض الشيء
تتخلله نسيمات لطيفة من طلائع الربيع . وسارت الى الباب الخارجى
ثم عرجت غير هيابة الى دكان عم جابر . كان الرجل العجوز
عاكفاً على مراجعة الحساب الختامى لليوم ، على حين وقف سلمان
مرتفقا الطاولة ناظراً فيما بين يديه في شرورد . واقتربت منه وهى
تلقى عليه نظرة حادة ملتبهة فرفع اليها عينيه الصغيرتين ولم
تلبث أن لاحت فيهما نظرة جفول وارتيباك ثم قال ببلاهة :
— أى خدمة يا ست نفيسة ؟

ف قالت بعزم وثبات :

— الحق بى فى الحال ...

فأوماً لها بالإيجاب وهو يتظاهر بأنه يقدم لها شيئاً من الدكان .
ومضت الى الشارع ووقفت تنتظر عند رأس عطفة نصر الله وهى
تتفحص ما حولها بعناية وحذر . وطابت نفسها بما فعلت ، فما
كان فى وسعها أن تصبر دون حراك حتى مطلع الصباح . وجعلت
تنتظر داخل العطفة حتى رآته قادماً بجلبابه وجاكتته مسرعاً فى
خطاه الملهوكة . حقير تافه ، شئ تعافه النفس ، مخادع مخاتل
كذاب . ما أحقر هذا . ماذا هى فاعلة به ؟ . اترقى على قدميه
باكية مستعطفة ! هل تضرع اليه أن يظل لها وحدها ؟ بدا أن هذا
كله شئ فظيع مستنكر ، وعلى هذا فقد وشى بمشاعر عميقة
صادقة لا تدرى كيف تفصح عن نفسها ، فقبل ساعة واحدة كانت

تعدده رجلها وتعد نفسها امرأته ، والهلاك أهون من أن تنقسم
هذه العروة بين يديها . كانت شيئا وليست الآن شيئا على
الاطلاق . عدم مخيف ويأس قاتل . واقترب منها في حذر وغمغم
دون أن يلتفت إليها :

— خير ؟

واثار صوته حنقا ولكنها كظمت نفسها وقالت وهى تسير :
— اتبعنى الى شارع الألفى .

ومضت الى الشارع الجانبى بعيدا عن الأعين المستطلعة ، ثم
أبطأت الخطو حتى لحق بها ، وبادرتة قائلة وقد نفذ صبرها :

— أليس عندك ما ترى اخبارى به ؟

فتساءل متجاهلا فى قلق وخوف :

— عم تسألين ؟

افغاضها للدرجة الجنون وقالت بحدة مخيفة :

— ألا تدري حقا عما أسأل !! . هات ما عندك وكفاك خداعا !

فتنهذ فى تسليم وغمغم فى خوف :

— تقصدين مسألة الزواج ...

فقالت فى سخرية مريرة :

— أظن هذا . ألا تراها مسألة تستحق السؤال !؟

فقال بصوت شاك :

— أبى ... !

فصاحت بحدة وجسمها ينتفض غضبا وهياجا :

— أبى ، أبى ، أرجل أنت أم امرأة ؟!

فقال بذل وخنوع وتسليم :

— رجل ولكن كعدمه !

— يعنى امرأة !

— سألحك الله . لا أسمع إلا نهرا وتقريرا سواء منك أو

منه . ماذا أصنع ؟

ورمته بنظرة حامية وصدرها يستعر حنقا وغيظا . امرأة ،
جبان ، حقير . كيف أحبته ، كيف هانت عليها نفسها فسلمت
له ! ان سعيها اليه ، وتعلقها اليأس به ، وحرصها الدليل على
استرجاعه . هى شر ما تسيمها الدنيا من بؤس وعذاب .
وصاحت به :

— يا لك من شاك بأك حقير . كيف سولت لك نفسك الفدر
بعدها كان . كيف أخفيت عنى الأمر ؟ أجب ...
نفخ قائلا :

— مضى أبى الى هدنه على رغمى ، غير مقيم لرأى وزنا حتى
وجدت نفسى بين أمرين لا ثالث لهما : فاما النزول عند ارادته ،
واما الموت جوعا .

— لماذا لا تبحث عن عمل فى غير دكان أبيك ؟
فتمتم فى نبرات يائسة :

— لا أستطيع ، لا أستطيع ..

فاحتدم الفيظ فى صدرها وقالت :

— يا لك من جبان حقير . ألا تعرف ماذا يعنى هذا
بالنسبة الى ؟! ...

فقال بلهجة تقطر أسفا وحزنا :

— أعرف واأسفاه . الله وحده يعلم بحزننى وأسفى ..

فألقت عليه نظرة حامية وقد أثارتها لهجته الأسيفة لحد
الكراهية القاتلة وقالت بصوت مرتعش :

— حزين وآسف ، يا لك من مسكين ! وماذا تظننى صانعة
بحزنك وآسفك ؟! ان الحزن وحده لا يصلح الخطأ ، فماذا تظننى
صانعة بحزنك ؟ لقد أوقعتنى فى ورطة قاتلة . فلا يجوز أن تدعنى
وحدى وتهرب . الا تفهم هذا ؟

وبدا وكأن الحيرة تمسك بلسانه ، ونظر صوبها فى خوف دون

أن يحرق جواباً . وأثارها صمته كما أثارها تظاهره — كانت متأكدة من هذا — بالأسف ، فقالت بحدة :

— ما عسى أن أصنع ؟!

فازدرد ريقه وقال بصوت متقطع منخفض :

— وا أسفاه ... أنى أدرك حرج موقفك ... لشد ما يؤلمنى

هذا ... ولكن ... أعنى .. ما عسى أن أصنع أنا ؟!

فقالت بحقد وهى تكظم عواطفها الشائرة :

— ارفض هذا الزواج . لا نجاة لى إلا بهذا ..

فقالت بعجلة ضاعفت حنقها :

— ارفضه ؟! .. فات الوقت ...

— يجب أن ترفضه . لم يفت الوقت بعد . يجب أن تفكر

فى .. لا نجاة لى إلا بأن ترفضه ...

وقال بلهجة اليأس وهو يشعر بخوف :

— ليس فى وسعى هذا ...

وتولاها القنوط ، ولم يوح لها الشخص الخائر المائل أمامها

بأقل رجاء . وصاحت بانفعال :

— كان فى وسعك أن تفعل ما فعلت . وكان بوسعك أن تقبل

الزواج من هذه الفتاة . ولكن ليس بوسعك أن تصلح الخطأ ،

ليس بوسعك أن تمد يداً لانقاذى ...

— ما أشد ضيقى . ان أسفى لا حد له ...

— ماذا يفيدنى هذا الأسف ؟

ولما وجدته صامتا صرخت فى وجهه :

— ما يفيدنى أسفك ؟

فغمغم :

— ماذا عسى أن أصنع ؟

وركبها شيطان الغضب واليأس فالتفت نحوه ، وانقضت

عليه بسرعة البرق وأمسكت بتلابيبه وهي لا تدري ماذا تفعل ،
وصاحت في وجهه :

— أتسألني عما تصنع !. هل حسبتني لعبة تلهو بها حين
تشاء وتحطمها حين تشاء ؟!

فقال وهو يحاول عبثا أن يخلص سترته من يديها :

— نفيسة ، اعقلي ، نحن في شارع ...

فصاحت به وقد فقدت وعيها :

— جبان ، سافل ، وغد ، غادر ...

وسحبت يدها بسرعة وهوت بقبضتها على وجهه بقسوة
جنونية ، مرة ، وأخرى ، حتى رأت الدم يسيل من أنفه ، وجعلت
تلهث وصدرها يضطرب في عنف وعدم انتظام . وتحسّس سلمان
أنفه بيده وبسطها أمام ناظرية في صمت ، ثم أخرج مندياله من
جيبه ووضعها على فمه وأنفه . وبدأ هادئا ساكنا على غير ما كانت
تنتظر . شعر بادئ الأمر بخوف ، ثم حل محل الخوف ارتياح
غريب . كأنه جاز منطقة الخطر ، ولم يعد ثمة ما يخافه . انفرجت
الأزمة ، وزال الخطر ، وسقط ما كان لها من شبه حق عليه بعد
هذا الدم المسفوح ، وقال في هدوء وصبر :

— ساحك الله يا نفيسة ، أنا عاذرك .

وهيجها حديثه فجأة فعاودها الجنون ، وانقضت عليه مرة
أخرى بدافع غريزي ، ثم أمسكت بتلابيبه كشيء يريد الإفلات
وتأبى عليه — بكل قواها — أن يقلت . وركبه الذعر فانحل
تماسكه ، وفتش سترته فجأة فخلصها من يدها وتراجع صارخا :
— اياك وأن تلمسيني . ابعدي عني . ابعدي لاحق لك على . .
وهجمت عليه ولكنه دفعها في صدرها وصاح بها في هياج
أحدثه الذعر :

— لا تلمسيني . لم أجبرك على شيء . لقد ذهبت معي الى

البيت راضية . لا تلمسيني والا ناديت الشرطي !

وواصل تراجعته حتى ابتعد عنها مسافة غير قصيرة ثم دار
على عقبه ومضى مهرولاً كأنه يفر فراراً . . .
وتسمرت في مكانها وجسمها ينتفض انتفاضاً . فقدت سلطان
الارادة على جسدها وروحها وعواطفها . وبدأ لها الأمر كحلم .
أو هذيان مرض ، أو حال لا تمت بصلة الى عالم الحقيقة . هذا
شارع وهذه شجرة وهذا مصباح وهؤلاء بعض السابلة ، أشياء
هذه أم اشباح ؟! انها لا تدري . بدا كل شيء بعيداً عن الواقع
والحقيقة . ولعلها لم تثب الى وعيها الا حين انفجرت باكية بدموع
حارة ملتهبة صاعدة من اعماق صدرها . . .

٣٤

كان سلمان يسمح الطاولة حين رأى ظل شخص ينعكس
عليها فرفع رأسه فرأى حسن واقفاً حياله . وسرت في جسده
قشعريرة رعب فكأن ساعة انقضت على رأسه . وكان حسن
يقف بقامته الطويلة ، منفوش الشعر ، وقد حال لون بدلتته من
كثرة الاستعمال ، ينبعث من عينيه نور حاد ينم عن العنف
والجراة . وقال سلمان لنفسه « انى هالك . اذا كانت نفيسة قد
افضت اليه بسرها فساعتى قد دنت ولاشك » ونظر اليه كما
ينظر الفأر الى القط دون أن ينبس . وقال حسن بصوت مرتفع
رن في اذنيه رنيناً مؤلماً مخيفاً :

— السلام عليكم . . .

ورد عم جابر سلمان من وراء مكتبه قائلاً :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . كيف حالك يا سي

حسن ؟ . . .

وذهل سلمان في خوف عن رد التحية وقال لنفسه « ما هذه

بتحية ، هي نذير . رباه كيف تعرضت لفتاة لها مثل هذا الأخ؟» .
وقال حسن :

— الحمد لله . لقد جئتم لأحدثكم في أمر هام جدا . . .
انه يعلم بهذا الأمر . وعما قليل يعلم أبوه بالفضيحة . هاهو
الشیطان يقترب . لقد رفع طرف الطاولة ومرق الى الدكان .
لا يفصله عن قبضة يده شبر . أية حماقة جعلته يعتدى على
نفسه؟! ليتة يمله حتى يرفض الزواج ويصلح خطاه . ومال
حسن على المكتب معتمدا حافته بكلتا يديه ، وردد بصره بين
الأب والابن ، وسلمان مطرق في توقع مروع للضربة المتجمعة .
وقال حسن .

— علمت أن زواج سلمان قريب ؟

فقال عم جابر :

— ان شاء الله . العقبى لك . . .

— ليلة الفرح ؟

— قريبة جدا ان شاء الله .

فنقر حسن بأصابعه على المكتب وقال بجراة :

— نحن جيران يا عم جابر واحسبني خير من يحيى هذه الليلة! .
واتسعت عينا سلمان الصغيرتين . انه لا يصدق اذنيه . .
الهذا الغرض جاء؟! كيف غاب عنه أن نفيسة تفضل الموت نفسه
على البوح بسرها لهذا الأخ الجبار! وندت عنه ضحكة . وأردفها
بأخرى . ثم انفجر ضاحكا ضحكا عصبيا لم يتمالك معه نفسه
حتى التفت حسن وأبوه نحوه في دهشة وانكار ، وسرعان
ما أمسك . ثم خاطب حسن قائلا في أريحية وسرور :

— لا كانت الليلة ان لم تحيها أنت . . .

وابتسم حسن في رضا وخاف الأب عواقب هذا الوعد
الأحمق فقال :

- على العين والراس يا سى حسن . لا يمكن أن يوجد مانع من ناحيتنا ، ولكننى أخشى أن يكون لوالد العروس رأى آخر . .
فرمقه حسن بريبة ثم قال :
- الرأى رأى والد العريس .

فقال عم جابر برقة :
- انت من نفضل يا سى حسن ، ولكن أمهلنى حتى أشاور عم جبران التونى . . .

فتفكر حسن مليا وقد اخذ دم الغيظ يجرى فى عروقه ، ثم قال بلهجة ذات معنى :

- شكرا لك يا عم جابر . ولكننى أحب أن اذكرك بالفوائد التى تقترن باحيائى ليلة الفرح . وأهم هذه الفوائد فى نظرى أن شخصا مهما بلغ من القوة والشر لن تحدثه نفسه بالاعتداء على الحفلة كما يحدث كثيرا .

فلاح الاهتمام فى وجه الرجل العجوز ، وأدرك بسهولة ما وراء هذا الكلام الطيب من الوعيد ، ونظر فى وجه الشاب المخيف مبتسما وتساعل فى لين ورقة وابنه يتابعه فاغرا فاه :
- لا تخلو ليلة من حفلة فرح تمر بأمن وسلام .

فضحك حسن ضحكة غريبة وقال :
- يوجد كثيرون لا هم لهم الا الشر والاعتداء ، وهم يتصيدون الأفراح عادة للذهب والاعتداء . .

فقال العجوز بحذر :
- كان هذا فى الزمن الغابر ، أما الآن فلعلهم يخافون الشرطة .
فقال حسن وهو يهز رأسه مبتسما :

- انهم لا يحسبون للشرطة حسابا . وينتهون من عدوانهم عادة قبل حضور الشرطة . وما أيسر عملهم الذى يتوجه بادىء الأمر الى تحطيم المصابيح ، فاذا انقلب الفرح ظلما وركب الخوف

النفوس أتم المدعوون عملهم وهى يتخبطون فى الظلام لا يدرون أين تقع أرجلهم ، فتنهار الزينات وتنقلب المقاعد ويندلق الطعام وتسرق الملابس ويصاب أهل العروسين بجروح خطيرة . وإذا انجابت موجة الشر يجد القوم أنفسهم أشد حاجة الى رجال الاسعاف منهم الى رجال الشرطة . وأين الفاعل ؟ .. مجهول .. وإذا ارشد اليه أحد عرض نفسه لخطر أكبر يحول القضية من محكمة الجنح الى محكمة الجنايات . واعطنى عقلك ما جدوى العقاب على فرض نزوله بالجاني بعد ضياع الأنفس والأموال؟! وأتصت عم جابر بانتباه ، وفى تشاؤم ثقيل ، وشعر بعجزه حيال الشر المائل أمامه الذى يعرف من سيرته ما يعرف الجميع . ولم يدر كيف يدفعه فتعزى قائلا انه على أية حال يحسن الغناء لدرجة لا بأس بها ، وابتسم الرجل ابتسامة باهتة وقال :

— مهما يكن من أمر هؤلاء الأشرار فلن تسول لهم نفوسهم الاعتداء علينا وانت مطرب ليلتنا !

فابتسم حسن فى ارتياح وقال :

— أنك رجل كريم يا عم جابر ، ولعل الأيام تسعدنى بأحياء فرحك انت اذا نويت الزواج مرة اخرى .

فضحك سلمان ضحكة من ينعم بلذة النجاة بعد الخطر المحقق . اما الأب فابتسم ابتسامة صفراء وغمغم :

— عفا الله عنك ..

وسئل حسن سعالا مصطنعا وقال بأهجة جديدة ودون تلعثم:

— لا احب أن أطيل عليك . أن لى ان اذهب شاكرا بعد

قبض مقدم الأتعاب ..

فقال العجوز بجزع:

— الآن .. ؟!

— خير البر عاجله . لست الا مغنيا متواضعا لا تتعدى أتعابه

— هو وتخته — الخمسة جنيهاً ، واقنع الآن بجنيه واحد ..

وصمت الرجل متحيرا حيناً . ثم قال لنفسه « الأمر لله من قبل ومن بعد » وفتح درج المكتب وتناول جنيها ووضعها على المكتب فأخذه حسن وذهب وهو يقول :
- ربنا يتم بالخير ...

٣٥

جاء الترام فركبت نفيسة وتبعته على الأثر صاحبة البيت .
أرادت المرأة أن تصحبها الى بيت عم جبران التونى لتقدمها الى آله بنفسها وقد أخذت نفيسة زينتها وصنعت من وجهها خير ما يمكن أن يصنع منه وارتدت أحسن ما عندها من الثياب . ولم يكن يغيب عن شعورها لحظة واحدة ما فى رحلتها من غرابة .
وقد قالت لنفسها كثيرا انه من الجنون أن تذهب الى هذا البيت ولكنها لم تدر كيف تنبذ هذه الفرصة السعيدة التى فرحت بها امها أيما فرح . والحق الذى لا مرية فيه أن حديثها لنفسها هذا لم يعبر عن حقيقة رغباتها . أو أنه دارى هذه الرغبات مداراة لم تخف عنها . كانت تود رؤية العروس مهما كلفها هذا من عناء ، وكانت رغبتها من القوة والتغلغل بحيث لا يمكن مقاومتها . وليس يمكن القول بأنها كانت تريد أن تقيس جمالها بجمالها ، فهى تعلم بالبداهة أنها - العروس - أجمل منها ، وليس فى هذا من جديد ، ولكن على رغم وضوح هذه الحقيقة ظلت رغبتها فى رؤية الفتاة مشتتة لا تقاوم ، وكأن رباطا وثيقا يصل أسبابها بأسبابها ، ويقرن مصيرها بمصيرها . ولم تكن آفاق من اثر الصدمة العنيفة التى هزتها نفسها وجسدها هرسا ، ولكن انقضاء أيام اخمد الثورة الهائجة ، فى ظاهرها على الأقل ، وأحل محلها مرارة سامة وبأسا مميتا ، وشعورا معذبا بالوحشة ، كأنها غريبة بين أهلها ،

شاذة عن المخلوقات ، الى احساس بالظلم طاغ يبعث في نفسها رغبتين متناقضتين تناوبتاها تناوبا متواصلا ، رغبة في التمرد والجموح ورغبة في الاستزادة من الظلم والتعذيب حتى الموت ، وقد ركبت الترام وهى على هذه الحال ، وتلهفت على اللقاء القريب وهاتان الرغبتان المتناقضتان تتعاورانهما . وغادرتا الترام بعد محطات أربع ، واتجهتا الى شارع الوليد ، ثم مالتا الى عمارة كبيرة تقوم فى أسفلها بقالة عم جبران التونى . وصعدتا الى الدور الثانى ودخلتا شقة به . واستقبلتهما سيدة فى الخمسين متوسطة القامة مفرطة فى السمنة ، بيضاء البشرة ، فدخلن جميعا حجرة الاستقبال ، وما أن استقر بهن المجلس حتى قالت الست زينب - صاحبة بيت نفيسة :

- هذه ست نفيسة ، وستشهادين لها بالمهارة والذوق .
فقالت السيدة :

- حدثنا ست زينب عنك كثيرا . أهلا وسهلا ...

وآلها الشناء كأنه سب وهجاء ، واغاظها وأحنقها لسبب لا تدريه ، وتزعزعت ثقتها فى أعصابها ان يفلت زمامها من يدها . أما السيدة فمالت نحو باب الحجرة ونادت بصوت مرتفع «عديلة» ودق قلب نفيسة ، ورجحت انها تنادى العروس وخيل اليها انها تسمع سلمان وهو يهتف بهذا الاسم ، وخالته يضمها الى صدره وقد أذهلته حرارة العاطفة وراح يقول لها بصوته المتهدج « عديلة .. أحبك ، أحبك أكثر من الدنيا والآخرة معا » ، فهذا قوله عادة اذا أذهلته حرارة الاحساس . وهو قول كاذب ، او هكذا كان بالنسبة اليها ، والغالب ان الدنيا كذبة كبيرة . وتوجه رأسها نحو الباب ، متألمة قانطة حائقة ، وعندما سمعت وقع أقدام آتية داخلها احساس آخر بالخوف فودت لو كان يوسعها أن تختفى ، ولعله كان احساسا عارضا سطحيا . وجاءت فتاة فى مقتبل العمر ، متوسطة القامة كامها بيضاء البشرة ، بيضاوية

الوجه ، كبيرة القسمات ولكن فى تناسق حسن . بيد انها سمينة لحد الافراط . وتساءلت نفيسة فى نفسها كيف تصير اذن اذا تزوجت ! واضطربت فى اعماقها ضحكة ساخرة متوترة لم يتح لها التنفس . وذهب عنها الخوف العارض وشعرت باضطراب عصبى بذلت جهدا شديدا للتغلب عليه . وتم التعارف وتبادل السلام دون ان تنبس خشية ان تخونها نبرات صوتها . ولدغتها الغيرة بغتة فمزقت قلبها شر ممزق . هذه التى سلبتها رجلها ، رجلها دون غيرها بعد ما كان ، فلا توجد امرأة لها مثل ما لها عليه من حقوق ، فكيف تكون هذه الجاموسة عروسة وتكون هى الحياطة التى تعد لها ثياب العروس ؟! . من اجل هذا تستحق الدنيا ان تكون طعمة للنيران ، ولن تكون احمى من النيران التى تلتهم قلبها . رباه كيف تستطيع العمل بهذه الأعصاب المريضة ؟! . وغادرت المرأتان الحجرة تاركتين الفتاتين معا . وجاءت خادم بالأقمشة ووضعتها الى جانب نفيسة على الكنبه فوجدت فيها مهربا من افكارها وراحت تتفحصها باهتمام ظاهرى وعيناها المنكستان تسترقان النظر الى قدمى العروس . وسألته العروس قائلة :

— هل سبق ان خطت ثياب عرائس ؟

ورفعت اليها عينيها فيما يشبه الدهشة كأنها لم تكن تتوقع ان توجه اليها خطابا وقالت باستهانة :

— كثيرا جدا ...

— أظن هذا يجعل العمل يسيرا عليك .

— لا اجد فيه اثرا لصعوبة ..

كانت اجابته تعبيراً عن احساس بالتمرد والثورة يتجمع فى اعماقها لم تعبأ معه بالحقيقة والواقع . وصمتت العروس هنيهة ثم عادت تسألها قائلة :

— هل تسكنين فى عمارة ست زيب ؟

فقالت مدفوعة بالاحساس نفسه :

— نعم . منذ أعوام طويلة . كان المرحوم أبى موظفا بوزارة المعارف ..

— أخبرتنا بهذا ست زينب . ألا تعرفين أن بقالة العريس قريبة من عمارتكم ؟

ووجدت شكة دامية في قلبها ، وخفضت عينيها أن ترى الأخرى ما ارتسم فيهما ، ثم تمنت :

— تعنين عم جابر سلمان ؟

— هو نفسه . العريس ابنه . ألا تعرفونه ؟

« أعرفه أكثر منك !.. لن تعرفيه مثلى قبل أشهر !.. وستجدينه حيوانا وغدا » . قالت :

— نعرفه حق المعرفة . ألم تريه ؟

— قابلته هنا مرة واحدة ..

— وسألته بدافع لم تستطع مغالبته :

— هل أعجبك ؟

فضحكت ضحكة كرهتها على أثر سماعها أضعافا ، وقالت :

— كانت الحجرة مزحومة بالمدعوين ، وأنت تعرفين هذا

الموقف طبعاً !

فقالت بلهجة باردة :

— لست أعرفه ..

فضحكت العروس قائلة :

— دعيني أسألك أنت التي تعرفينه حق المعرفة ، مارأيك فيه؟

ودهمها السؤال . لم تكن تتوقعه . وانهارت القوة التي

تغالب بها أعصابها . انهارت بغتة كأنما انفجرت فيها قنبلة خفية .

واجتاحتها موجة طاغية من التمرد والجموح والجنون ، فقالت

بصوت غريب :

— ليس هو من النوع الذى يعجبني ..

وغاضت آثار الضحكة في عيني العروس ، واتسعت عيناها

في دهشة وانكار ، وجعلت تنظر الى نفيسة لحظة ساهمة واجمة
كانها لا تصدق أذنيها ، ثم تساءلت بغرابة :

— حقا؟! ترى ما النوع الذى يعجبك ؟

فقالت ببرود دون أن تفارقها هذه الروح الجنونية :

— دعك من هذا . المهم أن يعجبك أنت . أليس كذلك ؟

فقالت ولما تفق من دهشتها :

— اظن هذا ..

— مبارك عليك ..

ولكن الفتاة لم تقبل أن ينتهى الحديث عند هذا الحد . افاقت
من دهشتها وكبر عليها قول الأخرى فثار بها الغيظ وقالت
متسائلة فى تهكم :

— وزبوناتك الأخريات من العرائس الم يكن أزواجهن من
النوع الذى يعجبك ؟

وأدركت نفيسة ما فى قولها من التهكم والتحدى فتمادت بها
روح الشر التى ركبتهـا واندفعت قائلة وكأنها تلقى عبثا ثقـيلا عن
كاهلها :

— جميعهم جديرون بالاعجاب حقا ، فهم موظفون محترمون !
فاستنكرت العروس هذه الوقاحة التى لم تكن تتوقعها
وتساءلت بغضب :

— الا يكون الانسان محترما الا اذا كان موظفا ؟

فقالت نفيسة بصوت مرتعش النبـرات أعيـاها التحكم فيه :

— اعتقد هذا ..

فصرخت العروس قائلة :

— واذا كان خياطة ؟

فقالت نفيسة بحقد وغضب :

— لا على أن اكون خياطة . اخوتى طلبة مشقفون ، وكان أبى

موظفا محترما ..

— حقاً لا يستاهل الرحمة كل المساكين ما دام يوجد بينهم من هو في قلة أدبك !

— لا يدهشنى هذا السباب من ابنة بقال ..

نهبت العروس واقفة وهى تنتفض غضبا وصاحت :

— يا مجرمة . يا قليلة الأدب ، اغربى عن وجهى قبل أن أدعو الخدم ليرموك خارجا ..

ونفضت نفيسة فاقدة الوعي ، وتناولت بقجة الأقمشة وقذفتها فى وجهها فانتشرت الحرائر على كتفى العروس وتحت قدميها . وتلوت على الأرض فى الوانها الزاهية ، ثم غادرت الحجرة مهرولة وصراخ الفتاة ينطلق وراءها بأقذع أنواع السباب ، وتركت الشقة فى لهوجة الفرار . وتراخت أعصابها المتوترة وداخلها ارتياح غريب . وكاد يغلبها الضحك ولكن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما انقلبت واجمة متفكرة وبدأ لها سلوكها على حقيقته . « ما هذا الذى فعلت ؟ . سيقولون كل شيء لست زينب وستقول هذه بدورها كل شيء لأمى . لا بد أن تغضب أمى ، وستحزن كثيرا على الربح الذى أضعت بحماقتى . ولكننى أقول لها ان العروس خاطبتنى بعجرفة ، وأهانتنى بلا سبب حتى ثرت لكرامتى . وإذا لم تقبل عذرى أبث شكواى بصوت مرتفع ليبلغ مسمى حسنين فيغضب لغضبي ويشور لكرامتنا وينتهى كل شيء . هذا حسن . ولكن كيف اندفعت الى هذا ! . اى جنون ! . لم يكن فى لىتى شيء من هذا فكيف حدث ؟ . وضاع عمل مريح . ولكن لا داعى للأسف . لى عمل لا بأس به فى هذا الشارع نفسه . لست آسفة على ما وقع » . وانتهت الى شارع شبرا ولم يعد يرى من شعاع الشمس الا اثر خفيف فى أعلى الدور . وسارت على الطوار فى اتجاه المحطة فمرت فى طريقها بجراج لاصلاح السيارات ، وكانت غائبة عما حولها فى تيار افكارها ، فما تدري الا وشخص يعترض سبيلها وهو يقول

« أهلا وسهلا » ورفعت رأسها فرأت شابا ذا بنطلون وقميص خاكين ، مشمرا عن ساعديه ، يدل ظهره على أنه من عمال الجراج ، فألقت عليه نظرة شذراء وتنحت عن موقفه ، ولكنه اعترض سبيلها مرة أخرى وقال :

— حلمك يا ست هانم ، انظري الى يسارك ، هذه السيارة ملك العبد لله . وهى على قدمها تستطيع أن تحملنا الى أى مكان شئت ، محسوبك محمد الفل صاحب هذا الجراج ولا فخر ! فصاحت به :

— ابعد والا ناديت العسكري ..

فضحك الشاب وقال :

— لا داعى لذلك . انا أحب النسوان ولا أحب العساكر ..

٣٦

فى الأسابيع التالية ادى الشقيقان امتحان النقل فى ختام العام الدراسى ، وكلل اجتهادهما بالنجاح فانتقل حسين الى السنة الخامسة ، وحسين الى السنة الرابعة . كانا يعلمان انه لا بد لهما من النجاح ، وأن حال الأسرة لم يعد يحتمل العشرات ، فواصلوا العمل بعزيمة صادقة وجاءت النتيجة كما يحبان . وبدأت العطلة الصيفية التى تمتد حوالى الخمسة الأشهر فاستجذت متاعب جديدة للأم تتعلق بغداء الشابين . وكانت الأم وابنتها تقنعان عادة بأبسط الطعام ، وتعتمدان فى الغالب على ما تجلبان من السوق من طعام جاهز اقتصادا لنفقات اللحم والسمن والوقود ، فوجدت المرأة نفسها مضطرة الى تعديل هذا النظام القاسى مهما كلفها الأمر من عناء وتدبير . وهكذا لم يسر أحد بالنجاح الا قليلا، وبدأت الحياة وكأنها تزداد مع الأيام تجهما وتطالعهن بعبوس بعد

عبوس . وفي ذات مساء جاء حسن بعد انقطاع دام ثلاثة أسابيع متواصلة ، وأقبل على أسرته ضاحكا ، كعادته ، وكثيرا ما يدارى بضحكه حرجه وارتيبাকে ، وقال :

— مساء الخير يا أمي ، مساء الخير يا أولاد . اوحشتموني كثيرا ..

ورد اخوته التحية وهم يرمقونه بدهشة . أما امه فلبثت تنظر فيما بين يديها معلنة على سخطها بالصمت والتجاهل . بيد أنها عدلت عما كانت تلقاه به من التعنيف والحساب أو الحث على العمل . هيهات أن يجدى الكلام بعد ما كان . وألح عليها الحزن الذي يغشى نفسها كلما فكرت في أمره أو وقعت عليه عيناها . حتى السؤال عن غيابه الطويل لم يخطر لها على بال ، وإنها لتعلم سلفا بما أعد — طبعا — من جواب ، سيقول بصوت مؤثر انه يختفى حتى يوفر عليها نفقة اطعامه وايوائه ، وأنه لا ينى عن البحث عن عمل الخ . أما اخوته فالحق أنهم سروا برؤيته بعد اختفائه الطويل . كانوا يحبونه كما كان يحبهم . وسألته نفيسة : — حمدا لله على السلامة أين كنت طوال هذه الأسابيع ؟ وخلع الشاب سترته وطرحها على المكتب ، ثم جلس على الفراش وقال باسمه :

— اكل العيش يحب التعب ! (ثم ملتفتا الى أمه) .. أبشرى يا ست أم حسن . أخذت تفرج !

فرفعت الأم رأسها ونظرت صوبه بريية واهتمام معا ، ثم تمت في شيء من الأمل :

— حقا ؟!

فضحك سرورا بآثارته لاهتمامها بعدما لاقى من تجاهلها وقال :

— سبق أن أخبرتكم بأن الأستاذ على صبرى ضمنى الى تخته ..

فتنهدت الأم في جزع وقالت :

— لا اعتقد أن هذا عمل جدى ..

— لقد دعى الأستاذ منذ أسبوع الى احياء ليلة فرح ببولاق
وذهبت معه لقاء ريال غير العشاء طبعاً . انى أعلم انه مبلغ تافه
ولكن الرزق دأبه التمتع بادىء الأمر ..
فقالت الأم فى ضيق :

— اتوسل اليك للمرة الألف أن تبحث لك عن عمل جدى لخير
نفسك ان لم يكن لخيرنا نحن . ماعسى أن اقول يا حسن ؟ ألا تعلم
بأننا لا نكاد نشبع ابدا ؟

وخفض عينيه فى ارتباك . كان حب أسرته العاطفة الشريفة
الوحيدة التى يخفق بها قلبه ، ولعلها الأثر الوحيد الذى تركته
أمه فى خلقه . وغمغم قائلاً :

— صبرك ، لم أفرغ من كلامى بعد ..
وهنا قاطعه حسنين قائلاً :

— اتظن أن على صبرى هذا يمكن أن يكون يوماً مغنياً حقاً ؟!
فرفع حسن حاجبيه الكشيفين فى انكار ، وأراد أن يزيل اثر
حديث أمه فقال فى مرح :

— سفخص على هذا البلد الذى لا يقدر ! الأستاذ على صبرى
فنان كبير . ان « يا ليل » منه شفاء ودواء . هل سمعته وهو
ينتقل من البياتى الى الحجاز ثم يعود الى البياتى ؟ لم يفعل هذا
الا الحمولى ، وسلامة حجازى مرة أو مرتين . أما محمد عبدالوهاب
فاذا خرج من البياتى فقل أن يعود اليه الا فى حفلة تالية .
وليس يعيبه انه أحيأ ليلة بجنيهاً معدودات فلا يزال فى أول
الطريق ، والتاريخ يحدثنا بأن من كبار الفنانين من أحيأ أولى
لياليه لقاء بضعة أرغفة .. !!

وضحك أخوته لهزله أما الأم فتنهدت قائلة :

— سلمت أمرك لله !

فألقي عليها نظرة من عل وقال :

- لندع حديث الفن جانبا . المهم أن تعلمى انى سأحيى
حفلة عرس غدا ..
- فى تخت على صبرى ؟
- وحدى !. سأحييها بنفسى !
- ونظرت الأم نحوه بانكار . وسألته نفيسة :
- "أصبحت مطربا حقا ؟
- يحدث أحيانا أن يختار أحد أفراد التخت من المشهود لهم
لأحياء حفلة كمطرب . خطوة لها ما بعدها ...!
- وسألته أمه بلهجة لا تخلو من تهكم :
- ومن الذى دعاك لأحياء ليلته ؟!
- عم جابر سلمان لأحياء ليلة زفاف ابنه سلمان .
- وخفضت نفيسة عينيها وقد خبا حماسها ، وران على نفسها
كدر خائق ...
- ودهشت الأم وخاطبت حسن متسائلة وهى تومىء الى نفيسة :
- بعدما حدث ؟!
- فضحك حسن قائلا :
- تم الاتفاق بيننا قبل معركة ست نفيسة فى بيت العروس ،
ولم يجرؤ الرجل على خرقه !
- وساد الصمت قليلا والأعين تحدق فيه فى غير تصديق ، كان
فى صوته حلاوة ولكن ليس للدرجة التى تجعل منه مطربا .
- وأخيرا سألته أمه فى حيرة :
- أحقا ما تقول ؟
- نعم ورحمة أبى ...
- اجر ؟!
- خمسة جنيهات ، لك منها جنيه كامل .
- وسكت حتى يتغلغل اثر كلامه فى النفوس ثم ردد عينييه بين
شقيقه وتساءل :

— ما رأيكما في أن تعملنا معى سنندين فى التخت وكلاكما
ذو صوت لا بأس به ؟!

وانفجر الشقيقان ضاحكين ، وواصلوا ضحكهما ، حتى قال :
— يا لكما من غبيين . هذه فرصة نادرة للاشتراك فى البوفيه
الحافل بما لذ وطاب من المأكول والمشرب .
ولم يكف الشابان عن الضحك فى استهزاء ، ولكن تمثل لعينيهما
منظر المائدة وقد صفت عليها الأطباق . وراح خيالهما يشب من
طبق الى طبق ، فى عجلة ، وبلا رحمة ، حتى صاحت به نفيسة
بحدة وغيظ :

— اتريد أن تجعل من شقيقك متسولين فى بيوت البقالين ؟
فقهقه الشاب قائلا لأخته :

— انى أدرك سر تغيظك يا ست نفيسة فان اعتداءك على
العروس حرمك حق الدعوة الى هذه الليلة ، ولكن ما ذنب هذين
المسكينين ؟! ليس الأمر لهوا ولعبا ولكن طيورا ولحوما وفطائر
وخضرا وفاكهة وحاوى ... ففكرا ثم فكرا ...

ولم يجد لدعوته من صدى فهز منكبيه استهانة ولم يعد
الكرة . كان حسن النية واراد لأخويه خيرا ولكن حماقتهمما ضيقت
عليهما هذا الخير ، هكذا قال لنفسه فى أسف . ولم يشاركه
الشقيقان أسفه ولكن نفسيهما اهتزتا فى حنان لذكر الطيور
واللحوم والفطائر والخضر والفواكه والحلوى . ونشط خيالهما فى
حسرة والم زاد من شدتهما اقتراب وقت العشاء الذى يندر أن
تعترف به أمهما . لم يكن للأسرة عشاء عادة ، وكانوا يتحامون أن
يجهروا بالجوع أن يضاعفوا من تعاسة أمهم وسخطها ، فلاذ الشابان
بالتخيل دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، على حين عكفت نفيسة على
أفكارها ، وهى أبعد ما تكون عن لذة الطعام ، ولذة الحياة عامة .
ردها حديث حسن الى أشجانها ويأسها ومخاوفها ، وتساءلت فى
دهشة أحقا يحيى حسن — شقيقها — ليلة الزفاف . . ؟!

وحوالى التاسعة من صباح اليوم التالى لليلة الزفاف كان حسن يسير فى ميدان الخازندار متجها الى كاوت بك حيث دعاه الأستاذ على صبرى الى مقابلته . وكان متعبا عقب سهرة الأمس التى لا زالت ذكرياتها تدور برأسه . كانت ليلة . وكان جريئا ليس كمثلى جراته شىء . وقد شق طريقه فى السراى الذى اقيم على سطح بيت عم جابر سلمان بتقديم ثابتين حتى بلغ المنصة بين ايد تصفق وحناجر تهتف للمغنى الجديد . ورد تحياتهم برزانه وجلس وسط تخته المكون من عواد وقانونجى وكمانجى عملوا معه كعازفين وسنيده معا . ثم غنى « قد ما احبك زعلان منك » وما لبث أن لمس بنفسه الفتور الذى استحوذ على الجميع ، ولكنه واصل الغناء دون مبالة ، وأكثر من الشراب . وعند بدء الوصلة الثانية تصايح كثيرون يطلبون « فى الليل لما خلى » ولم يكن يحفظها فغنى « بستان جمالك » وسرعان ما انقطعت الأسباب بين المدعوين والمطرب ، هذا يذبح صوته بغناء لا غناء فيه وأولئك يشربون ويضحكون ثم بلغ الحرج غايته حين وقف سكران مترنحا وقال بلسان ثقيل موجه خطابه للمطرب :

— والله لو لم تكن فتوة لقلت لك اسكت .

وعرفه حسن ، كان حداذا فى أول عطفة نصر الله ، وتوعده شرا ولكنه واصل غناؤه « والله زمان ، زمان والله ، والله زمان ، زمان » ذكر هذا ضاحكا وهو يحث خطاه ثم قال لنفسه : « ما كان كان . ولا داعى للأسف ما دمت قد انتزعت الخمسة جنيهاً » . وليس هذا فحسب ، وهل يمكن ان ينسى البوفيه ؟ ، لشد ما أبلى فيه بلاء حسنا وقد بلغ القمة حين ازدد حمامة

بعظامها . لم يكن اكلا ولكن كان التهاما وخطفا وسلبا وعراكا ،
وبلغت المعركة ذروتها حين فرغت صحيفة اللحم البقرى فما كان
منه الا ان قبض على يد المدعو الذى يليه واستصفى ما فيها من
شرائح . اما حسن الختام فكان عقب انتهاء الحفلة وفد التف
حوله افراد التخت يطالبونه بأجورهم فقال لهم ببساطة :
- أليس حسبكم ما التهمتم من طعام ؟!

- والأجرة ؟!

فقال بوحشية :

- خذوها بالقوة ان استطعتم !

وانفصلوا عنه ساخطين غاضبين يائسين . شىء واحد أسف
له اشد الأسف هو ان أسرته لم تشاركه طعامه الشهى ، أمه
ونفيسة وحسين وحسين . وكان بوده ان يعطى أمه فوق ما أعطى
ولكن تشرده الطويل علمه الحرص . على الأقل ما دامت هذه
الحال . وها هو يقصد كلوت بك ، بل درب طياب بالذات حيث
ينتظره على صبرى الذى مناه بضروب من العيش توافق مزاجه
وتلهب حماسه . . وكان على صبرى قد أخبره بأنه ينتظره فى قهوة
وسط الدرب امام بيت زينب الختفاء ، فارتقى السلم المفضى الى
الدرب وحث خطاه بين بيوت مغلقة لم تستيقظ بعد . وجد
الدرب كالمقفر حتى المقاهى الصغيرة كان عمالها ينفضون عنها رماد
سهرة الأمس . وبلغ وسط الدرب ورأى الأستاذ على صبرى
جالسا امام باب القهوة فاتجه اليه وسلم وجلس على كرسى الى
جانبه . لم تعد قهوة كما كانت يوما ما ، ولكنها باتت مشروع
قهوة جديدة اذا صدق ظنه ، فبعض العمال يعكفون على تبييض
الجدران واعدادها للحال الجديدة . قال على صبرى مزهوا :
- هنا حيث ترانى جالسا سنبدا حياة جديدة . . .

فتولت حسن الدهشة لأنه لم يكن سمع عن هذا المشروع على
كثرة ما سمع عن مشاريعه وتساءل :

– والتخت والأفراح ؟

فبصق الأستاذ بصقة أصابت جدران بيت زينب الخنفاء
أمامهما – وكان لا يزال مقلقا – ثم قال :

– سيعمل التخت فى هذه القهوة . أما الأفراح فربنا يجعلها
مآتم . انتهى زمان الأفراح ، ولا نسمع الآن الا عن « حفل عائلى
اقتصر على آل العروسين » والراديو احتكرته أم كلثوم
وعبد الوهاب وشرذمة من المطربين المختصين بالنشاز . وهيهات
أن يكون لنا عيش فى هذا البلد ..

فقال حسن متظاهرا بالاستياء :

– صدقت يا أستاذ (وسكت لحظة ثم تساءل) ولكن ماذا
يفعل التخت هنا ؟

فمد الأستاذ ساقيه فبلغتا منتصف الطريق الضيق وقال
مشيرا الى القهوة التى يعدها العمال :

– اليك قهوة بالنهار ، وحانة بالليل وسيرقص فيها نسوان
الست زينب الخنفاء – وهى على فكرة شريكى – وبين ساعة
وأخرى أغنى ، مجال العمل واسع ، والرزق مضمون . ولكن
عليك بحفظ اغانى عبد الوهاب يا حلو ..

– لا اكاد احفظ منها شيئا !

– لا بد مما ليس منه بد . وطقاطيق ام كلثوم أيضا ، هذا
حكم الزمان !

فقال حسن ضاحكا :

– ربنا معنا .

فقال على صبرى باطمئنان :

– انى متفائل خيرا . هذا المكان مبارك ، وهو اصل ثروة
محمد العربى نفسه .

وتساءل حسن من أين للأستاذ الثروة التى يبدأ بها هذه
الحياة الجديدة ؟ .. زينب الخنفاء ؟ .. هى فوق الأربعين على

أحسن الفروض ، وليس بها من جمال فيما عدا جسمها البقرى ،
ولكنها لقية وذات ساعدين مثقلتين بالذهب . لا داعى للحسد
ما دام سيحظى بنصيبه من هذه الثروة . فرجت . ولعل ليالى
التسكع والجوع قد غارت الى غير رجعة . ثم سمع الأستاذ يقول :
- ولكن عملك كسنيذ ثانوى بالقياس الى ما ينتظر منك !

- وماذا ينتظر منى ؟

لقى سؤاله بثقة وزهو كأنه عالم حقا بما ينتظر منه ، فقال
الأستاذ :

- انك ادري الناس بهذه الاحياء ، ففى كل متر مربع بلطجى
أو برمجبى أو سكير عربيد فمن لهؤلاء ؟ .. أنت ! وهناك المخدرات
وتجارتها فن هائل يتطلب مهارة وقوة وجراة فمن لها ؟ .. أنت !
وابتسم حسن ابتسامة عريضة ، ظلت مرتسمة على شفثيه
طويلا . وداخله سرور وحماس وفخار . هذه هى الحياة حقا ،
حياة تدب تحت مهاوى النبايت ومساقط الكراسى وفى دهاليز
الغرز ، حيث السماء ذهب والأرض اشواك والطريق مسارب
شتى يفضى بعضها الى اللذة والعزة وبعضها الى السجن والموت
فها هنا وطنه ومراحه ، وما هو بالغريب فى هذا الدرب المتعرج
المنلاطم الشرفات ، حيث تختلط آهات الدلال بهواء العريضة ،
وأريج البخور بعرف الخمور ، وسباب المتعارفين بقاء
المخمورين ، الى غناء وعزف وقصف . بوسعه أن يقضى بين
أحضانها اعمارا دون ملل ، يأكل ويشرب ويربح ويسكر
ويحشش ويفنى . واشرق وجهه بنور الأمل وألقى على ما حوله
نظرة . كان السكون يتبدد تحت وقع أقدام القادمين ، فهذه
ضحكات ممطوطة ، واردة متأرجحة ، ونظرات فاجرة عارمة .
وفتحت الابواب وأحرق البخور ، وصفت المقاعد ، وطققت
ضحكة ولعلت أخرى .. صباح الخير ..

قال حسنين بتأثر :

— شكرا للصيف !

فتساءلت في حياء وهي تدرى ما يعنى :

— لماذا تشكر الصيف ؟

— لأنه جردك من معطفك السميك فتبديت في فستان يجلو
محاسنك ومفاتنك ..

فتورد وجهها ، وقطبت تذارى لمعة السرور الذى يبعثها
الثناء ، وقالت :

— ألم انهك عن هذا ؟! .. لا تفتأ تتماذى فيما يضايقنى ..
وأصغى اليها وعلى شفثيه ابتسامة حائرة ، وعيناه تلتهمان
جسمها البض بارتياح . فستان مؤدب محتشم ولكنه على
تحفظه يكشف عن الساعدين وأسفل الساقين والعنق الرقيق
الشفاف ، ويشى بقسمات الجسم اللدن المدملج . ثم علق
بصره بالمشربية الدقيقة المكورة فوق الصدر صورتها الخياطة
حقا لثديين ناهدين تكادان لشدة نهوضهما تطيران لولا ما يسكهما
من صدر ابيض صاف ، تخيل أنه يدغدغهما بأنامله فانبعثت
في جسده قشعريرة الرغبة ، وتخيل أنه يشد عليهما وانهما
يقاومان الشد بصلابتهما فازدرد ريقه في ظمأ . ولكنها لا تريد
ولا تتسامح وتصر على عنادها بغير هوادة . وكان يظنها تلين
مع الزمن ولكن لم يعد ثمة أمل وقال بحزن :

— بهية ، انك تتكلمين بقسوة شأن من لم يذق قلبه الحب ..

ولاحت في عينيها نظرة اعتراض وقالت :

— انى انكر الحب الذى تريد ، وانك تسيء فهمى عمدا ..

— ولكن الحب واحد لا يتجزأ ..

فقلت باصرار وحدة :

— كلا ، كلا ، لا اوافقك على هذا الراى ..

فتنهد فى قهر والقى بنظره الى الأفق البعيد . كانت الشمس قد توارت مخلفة وراءها هالة حمراء مترامية ، أقصاها حمرة دامية ، تخف عند الوسط كأنها تقطر من ورد مصفى ، ثم تشحب عند أطرافها الدانية حتى تبتلعها زرقة عميقة صافية تنمونها هنا وهناك سحائب رقاق كتهدات وانية . وارتد بصره الى وجهها وقال برجاء :

— انى أحبك ، وانى خطيبك ، وما أريد الا ان يحظى حبنا بحقه من الحياة البريئة ..

فتجلت فى عينيها الحيرة . وبدت حيناً وكأنها تتعذب ، ثم قالت :

— لا استطيع ولا أريد ..

فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال :

— انك تدفعيننى الى احضان وحشة غريبة لا اطيعها . انى اتحرق الى ان اطبع قبلة على شفتيك وأن أضمك الى قلبى . هذا حقى ، وحق حبنا ..

— كلا ، كلا انك تخيفنى .

— الا تحبيننى ؟

— لا تسأل عما تعلم ..

— انى اعجب الا تودين حقا ان تنطبع شفتاى على شفتيك ؟
فنفخت فى غيظ قائلة :

— يترك بلا شك أن تغيظنى !

— وأن تستنمى الى دقات قلبى وذراعى تشدان على خاصرتك ؟
فأعرضت عنه عابسة ، فقال فى ضيق :

— اذا لم يكن هذا هو الحب فما هو ؟

فغمغمت فى توصل :

— كما كنا طوال العهد الماضي ..

— لقاء وحديث واحترق ؟!

— لقاء وحديث فحسب .

— تكذبين على نفسك .

— سامحك الله .

— أو تحبين بلا قلب !

— سامحك الله .

فضرب الأرض مغيظا محنقا وجعل يذهب ويجيء أمامها
في حيرة وعبوس ، فبدأ في وجهها القلق وقالت :

— أعتقد أنك تناسيت طلباتك المزعجة وطبت نفسا بحياتنا
الوديدة اللطيفة فما الذى ينزع بك اليوم الى الحاحك المخيف
القديم ؟ . كن طفلا مهذبا وأمسك عن الإلحاح والطمع . الحب
الحقيقى لا يعرف هذا العبث ..

فهز رأسه فى قهر ويأس وعجب . وما أدراها بالحب الحقيقى ؟!
أى لغز ؟! اتحبه حقا ؟ لا يسعه أن يشك فى هذا ، ولكنه حب
لا يفهمه ، أو أنه لا يستطيع فهمها هى . يا لها من شابة رزينة
هادئة . عيان زرقاوان صافيتان ، ليس فيهما ذرة من شيطنة
أو خفة ، ولا حرارة ، باردتان . ومن عجب أن يكون هذا الجسم
الفتان لصاحبة هاتين العينين الهادئتين الباردتين . ان نار الحب
لا تروى بالماء ولكن بنار مثلها أو أشد منها . وهكذا يمضى اليوم
كما مضى الأمس وكما يمضى الغد ، بلا أمل . وكثيرا ما يبدو له
أن حديث الحب يزعجها ويقلقها ، وانها لاتسترد طمأنينتها حتى
يثوبا الى الصمت ، أو الى حديث آمالهما البعيدة ، وهى لا تمل
الحديث عن هذه الآمال ، وبه تنسى نفسها والزمان والمكان ،
فتشع عيناها نورا بهيجا ، وتتدفق فى أطرافها حيوية
جديدة . وفى هذه الساعة يحبها بمجامع قلبه بيد أنه حب
لا يخلو من كدر ، أو من غيظ وحنق فى بعض الأحيان ، وينقلب

متسائلا لماذا لا ينشرح صدرها ايضا بالحب نفسه ؟ لماذا تخافه
وتجفل من ذكره واشارته ؟ والام يبقى هذا الحجاب قائما بينه
وبينها ؟ . وتفرس في وجهها طويلا فيما يشبه الحنق ثم تساءل :
— هل اكابد هذا الحرمان الى الأبد ؟

وابتسمت — على رغمها — وقد زادت الابتسامة من حقد —
وقالت :

— ليس الى الأبد ... !

وشعر برجفة في قلبه ، ورثا اليها لا يحول عنها عينيه ثم
قال باقتضاب :

— الزواج ؟!

فخفضت عينيها حتى لم يعد يرى الا جفنين مسدلين
وخدين موردين . وحينذاك شبت بنفسه رغبة في الانتقام
والايذاء ولو باللسان فقال :

— واذا تم الزواج بذلت لى ما تتمنعين عنه بنفس راضية
أليس كذلك ؟ تهبيننى شفتيك وصدرك وجسدك وتنزعين عنك
ثوبك فتبدلين عارية كالبللور ..

ولكنها كانت قد غادرت كأنها تفر وحثت خطاها نحو باب
السطح . وكانت الكلمات تقذف من فيه بحرارة وحنق وتشف.

٣٩

« أصبحت قهوة على صبرى ملهى صغيرا بما تحفل به من غناء
ورقص وخمر ، وقد ركبت على هامتها لافتة كبيرة سطر عليها
بالخط العريض « على صبرى » . وأقيمت فى نهايتها من الداخل
منصة للتخت ، ونضدت الموائد والكراسى على الجانبين وبحذاء
مدخلها . وكان الأستاذ على صبرى قد انتهى من الوصلة الأولى

وأنس الجلوس بكنوسهم وسمرهم ، حين جاء زنجى - طويل
رشيقي مفتول العضلات يتطاير الشرر من عينيه - فوقف على
عتبة القهوة وصاح بصوت وقح مرتفع :
- أين صاحب القهوة ؟

فجاءه الأستاذ على صبرى مداريا دهشته بابتسامة باهتة
وتساءل :
- أفندم ؟

فقال الزنجى بتحد :
- سمعت أن لديك أقدر خمر توجد في هذه الناحية ، ولما
كانت الخمر الجيدة لم تعد تؤثر في . فقد قصدتك لأسكر .. !
وأزاحه عن سبيله بحركة غليظة واتجه صوب مائدة يجلس
إليها نفر من الأفندية فألقى عليهم نظرة وحشية وقال بلهجة أمرية :
- اخلوا هذه المائدة !

ولم يسع الأفندية إلا أن نهضوا صامتين وغادروا القهوة ،
فجلس الزنجى على كرسى وطرح ساقيه على كرسى آخر وهو
يتفرس في الوجوه بتحد وقحة . واقترب صبي القهوة من
الأستاذ على صبرى وهمس في أذنه قائلا :

- محروس الزنجى : فتوة رهيب يعرفه الحى كله ..
فسأله الأستاذ بقلق :

- ترى هل يمكث طويلا ؟

- انه يرتاد ما يشاء من القهوةات فيأكل ويشرب دون أن
يجرؤ أحد على مطالبة بشئ مما يلتهمه ، ولعله جاء
ليعرفك بنفسه ، أو لعل ..

وتردد الغلام قليلا فحشه الأستاذ قائلا :

- تكلم ..

- لعل أحد أصحاب المقاهى في الدرب اتفق معه على تخريب
قهوتنا ! ..

واختلس على صبرى نظرة من الزنجى فراه كالتائم : آمنا
مطمئنا كأنه فى بيته ، وقد اخلى الزبائن الموائد القريبة منه ،
فانقبض قلبه خوفا واشفاقا . ثم تراجع فى سكون الى منصة
التخت حيث يجلس حسن مع بقية الأفراد ، وأومأ اليه ثم
انتحى به وراء المقصف ، وأسر اليه ما قال الغلام ثم سأله :
- ألا يحسن بنا أن نستدعى المعلمة زينب الخنفاء لتعالج
هذه المصيبة بحكمتها ؟

فقال حسن وهو يتفحص عن بعد الزنجى محروس :
- لا أوافق على أن نستغيث بامرأة . لن تجدى هذه
السياسة فى هذا الدرب ، دع الأمر لى ..
- يقولون انه فتوة شديد البأس .
فابتسم حسن قائلا :

- هذا ما يقال عنى أيضا ولكن أهل الدرب لا يعلمون ، دع
الأمر لى ..

وخطر له خاطر فقال لنفسه ساخرا « ليست أمى وحدها
التي تكابد من حياتها المر فى سبيل العيش ! » ثم قال للأستاذ :
- ستكون معركة شديدة ، ولكن هيهات أن يكون لنا عيش
هنا بلا معركة ظافرة !

- وإذا لم تكن ظافرة !

- اعتمد على الله وعلى ..

لن يفر من المعركة مهما تكن النتيجة ، وهل من سبيل الى رفع
مكانته عند الأستاذ وفى الحى كله اذا تفادى من هذه المعركة ؟ .
ولعل على صبرى على حق فى تخوفه . فالفهوة قهوته والمال ماله ،
ولكن مستقبله هو يتوقف على نتيجة هذه المعركة ، وفى سبيل
هذا فليذهب على صبرى نفسه الى الجحيم . ولا ينبغى أن
ينسى الى هذا كله فتيات زينب الخنفاء فما من سبيل اليهن
الا بنصر ان أجلا أو عاجلا ، فحظه فى الحياة ، وربما حظ

أسرته المنهارة - خطرت له هذه الخاطرة كالمعنى المتداعى -
يتوقفان على خوض المعركة .

وتحرك الزنجى محروس وهو يتمطى ويتجشأ ثم صاح بوحشية:
- أين الكونياك القذر الذى حدثونا عنه كثيرا !!

وغادر حسن موقفه فى ثبات وهدوء واقترب من الزنجى
بخطو وثيد حتى وقف أمامه ، ثم قال بهدوء :
- سلام عليكم !

فرفع الزنجى عينيه الملهتهتين صوبه فى تكبر ، وتفحص
جسمه الصلب وعينيه البراقتين بريبة وشر . ثم عبس فى حلق
فأستحال وجهه هيئة غير آدمية وصاح به :
- وعليك وعلى أمك اللعنة ، ماذا تريد ؟

وحافظ حسن على هدوئه الظاهرى ، وقال بنبرات واضحة:
- سمعتك تهتف طالبا كونياك فرأيت من واجبى أن أخبرك
بأن الدفع هنا مقدم ...

فسحب محروس ساقيه من الكرسي أمامه وأغرق فى ضحك
طويل مفتعل وهو يضرب على ركبته من شدة الانفعال ، ثم
أخذ يهدىء من انفعاله حتى ذهب عنه الضحك ، ورمى ببصر
هازىء الى الشاب ، وتساءل ساخرا :
- حامى القهوة ؟ .. هه ؟

فقال حسن بهدوء :

- وأحب أن أقول لك أيضا أن هذه المعاملة خاصة بالزبائن
غير المحترمين ...

ومرت ثوان . وفى أثنائها كان الزبائن القريبون يتدافعون الى
خارج القهوة ، وامتلا الطريق فيما يلى مدخل القهوة بالمارة والنسوة
من كل لون وسن ، على حين نشط عمال المقصف الى اخفاء القوارير
وما يخافون عليه التلف من الأكواب والآلات الموسيقية وغيرها .
وجمد محروس وعلى شفتيه الفليظتين بسمة هازئة ، ثم دفع قدمه

بغثة بقوة فأصابت ساق حسن اليسرى فمال مترنحا الى الوراء .
كان يراقبه بيقظة وحذر بيد انه ركز انتباهه في يديه متوقعا ان
يقذفه بشيء او يشهر عليه خنجرا فلم يتنبه الى قذيفة قدمه حتى
كانت منقضة عليه ، فانكمش متماسكا ، وتفادى بهذا من السقوط ،
ولكنه مال الى الوراء مترنحا وهو يعض على نواجذه ليتغلب على
الآلم الذى بعث جنون الغضب فى دمه . ولم يدعه الزنجى ثانية
واحده فوثب عليه كمن يشب الى الماء ، وخاف حسن ان يؤخذ
فريسة سهلة فأمسك عن مقاومة الميل الى الوراء وقفز الى الخلف
بسرعة عجيبة فاصطدم بجدار القهوة زائفا من خصمه الجبار .
ولم يسمح له الزنجى بثانية يتمالك فيها توازنه فانقض عليه موجهها
ضربة الى بطنه فحال الآخر دونها بيديه ، ولكنها كانت ضربة خادعة
قصدها محروس ان يكشف خصمه عن عنقه ، وبسرعة البرق
قبض بيدين حديديتين على رقبته وضغط بوحشية ليكتم أنفاسه .
وبدا للجميع ان المعركة فى حكم المنتهية . ودارت الأرض بعلى
صبرى . وابيضت وجوه رجال التخت والعمال ، وتبادلوا نظرات
زائفة لا تخلو من دعوة الى العمل ، ولكن احدا منهم لم يحرك ساكنا ،
أما الفتيات فشرعن فى الصوات استقبالا للجثة التى ستقع .
وتأكد حسن بعد تمكن خصمه من عنقه - وفى بدء غيبوبته - بأنه
لا قبل له بفك الحصار القاتل ، وانه مائت لاحالة اذا توانى ، فعض
على نواجذه وشد على عضلات رقبته ليركز فيها قوته ، ثم ثنى
ساقه اليمنى وطعن أسفل بطن خصمه بركبته بكل ما تبقى فيه
من قوة . وشعر فى اللحظة التالية بتراخى قبضة الزنجى حول
رقبته فاستطاع أن يتنفس وهو يرتجف حقدا وحنقا ، ثم ثناها
بطعنة أخرى ، وحدث هذا كله فى نصف الدقيقة الأولى لمحاولة
كتم أنفاسه ، وانفك الحصار ، وتراجع محروس بوجه تنعقد فى
عبوسه الضغينة وعينين تغشى نظرتهما الحمراء سحابة ذهول
قائمة . ولم يضع حسن وقتا مطمئنا الى سيطرته على الموقف

فانقض على خصمه الذى بذل مجهودا جبارا للتغلب على اله ونطاحه
بجبهته بقوة خارقة فى رأسه ، مرة أخرى ، فكان لاصطدامهما
طقطقة تقشعر لها الأبدان ، دون أن يشيه عن هدفه ما كال له
الآخر من لكمات مزلزلة . وتفجر الدم من رأس محروس وسال
على وجهه كأنه لهب ينبعث من قطران ، وبدأ وكأنه يترنح من
دوار ، وتغلب حسن على آلام ساقه وعنقه وصدره ووجه لعنق
خصمه المكشوف ضربة من حافة كفه - كالسكين - فشقق الزنجى
وسقط على الأرض غائبا عن الوجود . وقف حسن عند رأس
خصمه وصدره يعلو وينخفض ، تهزه نشوة الظفر ، وتهرس عظامه
آلام قاسية أخذ صراخها الباطنى يتعالى بعد زوال الخطر . ولعله
لو غابت العين لارتضى أن يرتقى الى جانب خصمه ولكن أقام ظهره
الأبصار المتطلعة اليه فتجلد وتماسك ، وانثال على أذنيه صراخ
وغوغاء وضجيج ، وشعر بحركة غريبة تسرى فى القهوة كلها ،
ثم احس بيد توضع على كتفه ورأى الأستاذ على صبرى يبتسم
اليه بوجه تعلوه صفرة الموت ، وسمعه يهمس فى أذنه :

- تعال معى أقدم لك كأسا من الكونياك . .

فسار معه دون أن ينبس ، وجلس على كرسيه على منصة
التخت وجاءه الرجل بكأس مترعة فتجرعها ، وطلب أخرى
فأحضرها له ، ثم قال باشفاق :

- لشد ما تعبت !

فغمغم حسن بنقة :

- كانت معركة لا بد منها .

وجاء النادل يقول ضاحكا :

- أطلق الناس عليك لقب « الروسى » لأنك صرعته برأسك !

وشعر حسن برغبة فى تحاشى الأنظار ، فقال لعلى صبرى :

- دعنا نمتح اثر المعركة فابدأ الوصلة الثانية . . .

استعداد حسن توازنه بفضل قوته وحيويته واعتياده العراك يوماً بعد يوم . وكان الليل قد جاوز منتصفه بساعة أو أكثر ، وأخذت قهوة « على صبرى » تلفظ آخر المترنحين من روادها . وأطفئت الأنوار الخارجية في الدرب فسادت شبه ظلام ومضت البيوت تغلق أبوابها مفتوحة سهراتها الداخلية التي لا تنتهى عادة قبل الفجر ، على حين مر شرطيان يهزان الأرض بوقع أقدامهما الثقيلة . وكان حسن يجلس على كنب من على صبرى في نهاية القهوة يعلقان على إيراد الليلة حتى قصدهما غلام يعمل نادلاً بيت زينب الخنفاء فحياهما ثم مال على أذن حسن وهمس باسمًا :
- بعضهم يريدك !.

وسمع على صبرى ما همس به الغلام فلاح الاهتمام في وجهه وتمتم :
- امرأة ؟!

فقال حسن بعدم اكتراث :

- أظن هذا ..

- ألا تفضل مثلى الحب الطيارى ؟

فابتسم حسن ابتسامة ذات معنى وقال :

- ولكنه حب لا نفع فيه . انتظر وسنرى ..

وودع الأستاذ وقام ثم تبع الغلام إلى البيت الذى يواجه القهوة ، وطرق الغلام الباب ففتح عن شق فى حذر فمرق منه الغلام وتبعه حسن ، ثم أغلق الباب . ووجد حسن نفسه فى مدخل البيت وقد انتشرت على الكنبات بأركانها فتيات ، انتحلت كل برجل تشاربه وتداعبه ، وعلى كرسى فى الصدر جلس رجل

ضرب ينفخ في الناي ، على حين اتخذت المعلمة زينب الخنفاء مجلسها على أريكة عالية ملتفة بملاءتها السوداء وعلى وجهها برقع ذو عروس ذهبية كبيرة تخفى به أنفها المتآكل . والقي حسن على الحاضرين نظرة متفحصة فلم ير فتاة خالية ، ولكن الغلام مال الى الستار المسدل على مدخل السلم وأزاحه ودخل فتبعه ، وارتقيا الأدراج معا في سكون حتى تساءل حسن :
- من هي ؟

- الست سناء ...

وذكرها لتوه ، امرأة عرفت بسمرتها العميقة وشعرها الجعد وجسمها المكتنز . واشتهرت بشفتين غليظتين وعينين دعجاوين وكانت تجلس سحابة النهار على كرسي عند مدخل البيت واضعة ساقها على ركبتيها كاشفة عن فخذيها حتى السروال الحريري الأبيض . وانتهيا الى الدور الثاني وسارا في دهليز طويل يفضي الى صالة صغيرة تحديق بها أبواب ثلاثة ، ومضى الغلام الى الباب الأوسط وطرقه ثلاثا فجاء صوت له رنين النحاس يهتف :
- ادخل ...

ودفع الغلام الباب قليلا وتنحى جانبا فتقدم حسن الى الداخل وقبل ان يرد الباب وراءه شعر بيد الغلام تربت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد :
- اقرا لنا الفاتحة ..

واغلق الباب فوجد نفسه في ظلام دامس . وحدثته نفسه ان يتحسس موضع الزر الكهربائي ليضيء الحجرة ولكن سرعان ما عدل عن خاطره ، ووقف مستندا الى الباب منتظرا ان تألف عيناه الظلام . وساد صمت شامل حينما ثم مضت أذناه تلقطان حس انفاس تتردد ، فصغى اليها مبتسما ، وتوقع قولاً او فعلاً ولكن لم يحدث شيء . واتجه على مهل الى يساره متسماً بالأنفاس المترددة حتى مست ركبته شيئاً صلباً ، جسده بيده ،

فأدرك أنه حافة فراش خشبي ، ووقف ينظر الى أسفل بعينين
براقتين حتى شفت الظلمة الشاملة عن كتلة مظلمة ممتدة لاتبين
لها معالم . وهوى بابهامه رويدا رويدا حتى انغrust انملته في
لحم طرى ثم انبعثت تحت اصبعه رجفة وندت عن الظلمة ضحكة
مكتومة ..



ثم اضاء النور وأخذ يرتدى ثيابه . وأخرج من جيبه نصف
ريال ووضع على الفراش والمرأة تراقبه بعينين ضاحكتين ، ثم
وثبت الى أرض الحجرة وسارت بجسمها العاري الى صوان
ففتحته وعادت بورقة من ذات الخمسين قرشا وحطتها فوق
نصف الريال دون أن تنبس بكلمة ، فتساءل ضاحكا :

— اهو الباقي ؟

فقالت بهدوء :

— اجررك !

وآتم ارتداء ثيابه في هدوء متظاهرا بعدم الاكتراث ضابطا
عواطفه حتى لا ينم وجهه عن فرحه ، ثم تناول النقود ودسها في
جيبه . وسأله وهي ترمقه بنظرة عميقة :

— ترافق ؟

فقال مستعينا بالكذب :

— لى رفيقة !

فتساءلت في اهتمام بدا في لمعة عينيها :

— فى هذا العرب ؟

— فى الآخر .

— أفرنجية ؟

— بنت عرب !

- وساد السكون دقيقة ، ثم سأله :
- ألا تزال لك فيها رغبة ؟
- فلم يشأ أن يجيب بلا أو نعم ، قائما بابتسامة ذات معنى .
- فسأله ضاحكة ؟
- أين تقطن ؟
- شبرا .
- ما أبعداها عن مكان عملك ، هل ثمة ما يضطرك الى البيت هناك ؟
- كلا . .
- مسكنى قريب فى عطفة جندب بكلوت بك . تعرفها ؟
- سوف أعرفها من الآن فصاعدا . . .

٤١

كانت الشمس تميل الى الغروب حين غادرت نفيسة بيت احدى زبائننا بشارع الوليد ، وكان يلوح فى وجهها الضيق ، وهى حال لا تفارقها اذا خلت الى نفسها ، ولكن زادها تعاسة انها لا تجنى من عملها الا مبالغ زهيدة تبتلعها حاجة اسرتها الشديدة فلا تكاد تبقى لها على شىء . وكانت الى هذا تبدو فى مظهر جديد ينم عن تغير ذى بال ، فتزيت فى فستان برتقالى مزخرف بأزهار البنفسج أعلن عن جسمها الطويل النحيل ، وأخذت زينتها فى غير تحفظ . وسارت وشارع الوليد حتى انتهت الى شارع شبرا ، وانعطفت مع الطوار وهى ترمى ببصرها الى الجراج عن بعد فدبت فى قلبها يقظة وحيوية . وأعادها منظر الجراج — وصاحبه محمد الفل — الى ذكريات صراع عنيف نشب فى نفسها فى غير ما رحمة ولا هوادة

طوال الأسابيع الماضية . وجعلت تقدم رجلا وتؤخر أخرى حتى توقفت عن السير تماما . وعقل الخوف قدميها ، ومع أنها كانت قد انتهت من تردها المذهب الى نهاية ، إلا أن الخوف ركبها وهي تخطو الخطوات الأخيرة . « إلا يحسن بى أن أستزيد من التفكير ؟ كلا ، كلا ، لن أجنى من التفكير إلا وجع الدماغ . سيعترض سبيلى كما يفعل كل مساء . لا أستطيع أن أتكر أننى ابتسمت لدعاباته فماذا بعد هذا . فات أوان التراجع . وهو لا يخفى دواعيه ولا مقاصده ، ولست أجهلها ، أنى أدرك كل شيء ، أدرك لماذا يدعونى الى سيارته . لا يحاول خداعى كما فعل غيره ، فالامر واضح ، فهل أقدم على هذا ؟ . لماذا يتعلق بى ؟ لست جميلة ، وهيهات أن يغير هذا الزواق من الحقيقة شيئا . ولكن الدمامة نفسها سلعة لا بأس بها فى سوق الخلاعة ، وعشاق اللذة - أو بعضهم - لا يرفعون عن مطلب . هذه هى الحقيقة . الزواج أمره مختلف أما اللذة فلا اختلاف عليها . هل أدع نفسى تهوى ! ولماذا امنعها ؟ . لن أخسر جديدا . ليس ثمة ما أخاف عليه . ولكن إلا يحسن أن أمد لنفسى حبل التفكير ؟ » وعادوتها ذكريات اليأس الذى أمرت غصصه ريقها ، وكيف لم يعد ثمة أمل على الإطلاق . على أن الامر لم يكن مجرد يأس فحسب ، فهناك هذه الرغبة المشبوبة التى تشتعل فى دمها ولا حيلة لها فيها . وكلما استنامت الى قبضة اليأس شكتها فى الأعماق كشوكة مستعرة . هذه الرغبة وحدها تأبى عليها أن تعتزل الحياة وتتورأى حتى كرهتها فيما تكره من حياتها . بيد أنها لم تعترف بها أمام شعورها ، وانكرتها ، وقالت لنفسها أنها ترضى « الهوان » فى سبيل النقود التى تمس حاجة أسرتها اليها . ولم تكن فى هذا كاذبة ، فانه حق لا شك فيه ، ولكنها صارحت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى ، وسرها - أن كان ثمة سرور - أن تبدو لعينيها شهيدة ، وضحية لليأس والفقر . وبرز الفتى عند ذاك من

الجراج ووقف يحدث بعض العمال فخفق قلبها ولم تتحول عنه عيناها . وأدركت بغريزتها انها لن تتراجع فسلمت - على البعد - وهو موليا ظهره ، سلمت تسليما نهائيا ، وانتهى في تلك اللحظة الصراع العنيف المحزن الذى نشب في قلبها منذ أسابيع . وزفرت في يأس وحرارة وغادرت موقفها . واقتربت منه في خطوات وثيدة متجاهلة اياه ، حتى أحست به يعترض سبيلها قليلا بجراته المألوفة :

- الصخر نفسه يلين يا ست ، هاك السيارة عند منعطف الطريق تنتظرك منذ أجيال .

ثم سار الى جانبها متشجعا بابتسامتها وهو يقول :

- كفاك تدللا ، لو كان لى صبر أيوب لنفد ..

ما ألد الغزل ولو كذب . حال مخزية ولكنها ترد اليها اعتبارها وكرامتها كأنشى مهیضة الجناح . « ليته يدري من أنا ، ومن كان أبى » . ثم سمعته يقول بلهجة تنم عن وعيد :

- هاك السيارة فاذا لم تصعدى اليها رفعتك بذراعى أمام الرائح والغادى .

وكانا بلغا موقف السيارة فى العطفة الثانية فقبض على يدها وفتح بالأخرى باب السيارة ، وازدردت ريقها واندفعت الى الداخل فى حركة عصبية ، وجلست ، فأغلق الباب وراءها ، ودار حول السيارة ودخل من الباب الآخر وهى لا تكاد تدري به ، ومالت الى الوراء لتباعد بين وجهها وبين النافذة المشرفة على الطريق ، ثم غشيتها غرابة . بدا لها كل شىء غريبا خياليا لا يمت للواقع بسبب ، الطريق الذى تساقط عليه ظلمات المساء واشباح المارة ، والسيارة الهرمة المهلهلة ، ونفسها ، واصوات الناس ، ودوى عجلات الترام ، واستعدت ارادتها بقوة لتعود الى وعيها واسترقت نحوه نظرة وهو جالس أمام عجلة القيادة بقوام فارغ ووجه معروق صلب ووجنتين بارزتين وأنف ضخمة صخرى

وفم عريض كفم البولنج فأعادها منظره الى عالم الحقيقة ،
والوعى والأعصاب ، والدم والخوف . واستخرج الرجل
قارورة من تحت مقعده وفض سدادتها ثم نظر فيما حوله في
شيء من الحذر ، ورفع فوهتها الى فيه وأفرغ في جوفه جرعات
غزيرة ، والتفت اليها بوجه متقلص العضلات وسألها :

— ألا تشربين قليلا من النبيذ ؟

فقلت بعجلة واضطراب :

— كلا ، لا اتعاطى الخمر ..

فرفع حاجبيه دهشة وهو يمصص ، وأعاد القارورة الى
موضعها ، وبدأت السيارة تتحرك وهو يقول :

— من الحكمة ان أشرب الآن حتى اذا بلغنا مقصدنا بلغته
في سلطنة ...

وانطلقت السيارة مقرقرة تشق سبيلها بسرعة مستهترة ،
وعجبت نفيسة من جراته وبدا لها قويا جسورا ، وفي الوقت
نفسه غير أهل للثقة أو الشرف . ولكن ما حاجتها الى الرجل
الشريف ؟ لم تعد أهلا له ، ولم يعد ضالتها . ولا تخاف شيئا
في الوجود قدر ما تخافه على نفسها . وسمعته يقول ضاحكا
في زهو :

— ما اطول نفسك في التدلل !.. ولكن طالما قلت لنفسي

مصر الحلوان يقع ، وها هو قد وقع ..

ورحبت بالكلام لتهرب من أفكارها واضطرابها ، فارتسمت

على شفثيها ابتسامة وتساءلت :

— ومن أدراك انى وقعت ؟!

فضحك ضحكة ضخمة وقال :

— سنرى ما يكون في صحراء الماظة ..

وتساءلت في قلق :

— صحراء الماظة ؟.. هل نغيب طويلا ؟

- حتى منتصف الليل .. !
 فتملكها فزع شديد تراءى لها خلاله وجه أمها وشقيقها ،
 وقالت بلهجة المستصرخ :
 - يا خبر أسود ، يجب أن أعود الى البيت قبل العشاء ؟ ..
 أوقف السيارة بربك ..
 فقال بدهشة وفتور :
 - حقا ؟! لا تخافى ، سنعود قبل العشاء ، ولكن ماذا تخافين ؟
 - أهلى ...
 فلحظها بارتياح ساخر وسألها بلهجة ذات معنى :
 - أهلك ! .. ألا يعلمون ؟!
 ووخزها قوله حتى خرم قلبها كالطعنة الحادة . أهلكها
 يعلمون ؟ ، ماذا يظن بها ؟! واندفعت تقول :
 - كيف يعلم أهلى !. اخوتى طلبة بالجامعة ، وكان أبى موظفا .
 وهز رأسه متظاهرا بالتصديق ، وقال لنفسه ساخرا :
 « لا أم غسالة إلا أمى . » ولا أخوة صعاليك إلا اخوتى ، الأمر لله
 وضاعف من سرعة السيارة ليبلغ هدفه فى أقصر وقت ، ومضى
 يستشعر حميا النبيذ فطاب نفسا وسألها :
 - ما اسمك ؟
 - نفيسة .
 ولم يعجبه الاسم فسألها :
 - لماذا لم تنتقى اسما أرشق منه ؟
 ولم تفهم قصده ، وأساءت فهمه فقالت باستياء :
 - أنه يعجبنى !
 - عاشت الأسماء يا ست نفيسة ، لا مؤاخذة ..
 وأخيرا مالت السيارة الى الطريق الصحراوى تغوص فى ظلمة
 شاملة . ولاحت المدينة عن بعد فى أنوارها الموصولة كأنها مارد
 جبار ذو أعين نارية لاحصر لها ، وأخذ يهدىء من سرعة السيارة

حتى أوقفها ، وأطفأ مصابيحها ، وبغته مد ذراعه حول خصرها وجذبها نحوه بعنف لم تتوقعه . فاندلقت عليه متأوهة ، ففغر فاه العريض وأطبق على فمها حتى منتصف ذقنها ، وضمها الى صدره بوحشية وأنفاسه تتردد فى أنفه فى نخير محشرج ، فشعرت بادىء الأمر بألم وقلق ، ثم مضت آلامها تغيب فى ظلمة باطنية غريبة كما غاب شبحاهما فى الظلمة المحيطة الشاملة وآمنت بأنها مدينة للظلام بالشئ الكثير ، فقد شجعوها ، وفى الوقت نفسه أخفى عيوبها ، وبذلت قصارى جهدها - مدفوعة بحافز فطرى - لارضائه . ولعلها وجدت بادىء الأمر حياء الى ما تجد من قلق وخوف ولكن سرعان ما شملتها حرارة جنونية تذيب الخوف والقلق والحياء .

ثم قال لها باغراء :

- ألا يحسن بنا أن ننتظر ثمرة أخرى ؟

فقالت بضراعة وهى تجفف العرق المتصبب من جبينها :

- لا أستطيع ، أرجو أن نعود فى الحال ...

وتناول القارورة وأروى ظمأه بجرعات متتابة ، ثم انطلق بالسيارة بوجه جامد ، وظل صامتا حتى بلغا ميدان المحطة ، وقال بغلظة :

- توجد ثمرة دانية ، إلا نعود ؟

فقالت برجاء وجزع :

- كلا ، كلا .. لا أستطيع ..

وقطب ساخطا فجأة ، وقال بفظافة لم تتوقعها :

- الله يقرئك ، هذه رحلة لاستاهل البترول الذى احترق .

ووقع قوله من نفسها موقع السوط ، فانعقد لسانها ، وأفعم فؤادها خيبة ومرارة وخجلا ، ونظرت نحوه فى ذهول ، ولكنه لم يلتفت اليها ، ودفع السيارة صامتا ساخطا الى شبرا . عسى أن تكون رغبته فى المزيد عذرا ، ولكن أما كان يجمل به أن يترفق

بها أو في الأقل أن يمسح خشونته بكلمة رقيقة ؟ . وواصل انطلاقه صامتا ، ثم عرج الى شارع جانبي لينزلها في أمن من الأعين . وأوقف السيارة الى جانب الطوار . وتساءلت وهي تغادر موضعها عما تفعل اذا سمى لها موعدا آخر أتقبل رغم اهانتة أم ترفض على رغمها ؟ وجابقتها حيرة لم تستعد لها ، بيد أنه مد لها يده بنصف ريال وهو يقول :
— هذا يكفي لمرة واحدة ..

ولما رأى جمودها ترك القطعة الفضية عند قدميها وانطلق بالسيارة مخلفا وراءه ذيلا من دخان خائق ، وقرقرة مزمجرة . وركبها جنون غضب أعمى فتسمرت في موقفها وجسمها ينتفض . واتصل انتفاضها وهي تعض على نواجذها ، ثم مضت ترفرف في عجلة كأنما تنفس عن صدرها أن ينفجر . لم يتكلف موعدا آخر . مرة عابرة . كأننى .. رباه ، مرة عابرة . ثم يرمى لى بنصف ريال ! وخطر لها خاطر فباخ غضبها وخمد ، وحل محله خجل وخيبة ، أجل ، ألا يجوز أنها لم ترق له ولم تعجبه ؟! هذا محتمل . هذا مرجح . هذا مؤكد ! . وأمضها شعور أليم بالحزن والقهر ، ثم تنبعت لموقفها من الطوار فهمت بمغادرته ولكنها ذكرت القطعة الملقاة عند قدميها فنظرت اليها بغرابة دون أن تدري ما هي فاعلة ، ثم ذكرت لتوها القطعة ذات الخمسة قروش التي اقترضها سلمان منها يوما على محطة الترام ، ثم يوم قادها الى مسكنه ، والظلام الدامس وشجارها معه في الطريق ، وتفزل أبيها بخفة دمها . ثم عاد انتباهها الى القطعة الفضية تحت عينيها ، افرنت اليها طويلا دون أن تتحول عنها . أى شيء ثمة يدعوها الى تركها ؟! ..

وفي ذات ليلة زار حسن الأسرة زيارة غير متوقعة بعد انقطاع غير قصير ، وكانت الأسرة مجتمعة بحجرة الاخوة التي تتخذ منها مجلسا مختارا في شهور الصيف . جاء هذه المرة ويده قفة فوضعها وراء الباب واقبل عليهم مسلما ضاحكا فاستقبلوه بترحاب كالعادة ، اهلنه الاخوة في غير تحفظ ، أما الأم فرمقت القفة بنظرة متسائلة وغمغمت ساخرة « ايش جاب الغراب لأمه » فقال ضاحكا وهو يتخذ مجلسه بينهم :

— لا تتعجلي . الصبر طيب ..

بيد أنهم لم يلقوا بالا لقفته . ولم يكن من عادتهم أن ينتظروا خيرا منه ، قالت له نفيسة :

— لا نراك الا كالزائر !

— اخوك سائح في أرض الله الواسعة ، يلتقط رزقه في جهد ومشقة ، ولكن لا تعجبي اذا لم تريني الا زائرا فقد وجدت لنفسي مسكنا !

وتطلعت اليه الأبصار في اهتمام وسأله أمه :

— هل هداك الله أخيرا ووجدت عملا ؟

— تخت على صبرى ولا شئ غيره ولكن الله فتح عليه وعلينا .
فقالت الأم بامتعاض :

— لا يدخل عقلى بحال أن هذا عمل بالمعنى الصحيح ..
فقال حسن مستنكرا :

— لم لا يا أماه ؟! ، أنى فى التخت أغنى بينا فى المهن الأخرى
تشاجر كما تعلمين ..
وسأله حسين :

— وهل وجدت لنفسك مسكنا حقا ؟ .. أين ؟

- فسكت مليا ثم سألته :
- ولماذا تريد أن تعرف ؟
- كى نزورك بدورنا !
- كلا . ليس مسكنى معدا للزيارة ، وليس هو خاصا بى اذ يقطنه أفراد التخت جميعا ، دعونا من هذا وخبرونى متى أكلتم اللحم آخر مرة ؟
- فقال حسين ساخرا :
- الحق انا نسينا ، دعنى أتذكر قليلا ، .. تتخيل لعينى شريحة لحم فى ظلام الذكريات ولكن لا أدري اين ولا متى .
- وضحك حسين قائلا :
- نحن أسرة فلسفية على مذهب المعرى .
- فتساءل حسن :
- ومن يكون المعرى هذا ؟ .. أحد أجدادنا ؟
- كان فيلسوفا رحيفا ، ومن آى رحمته أنه امتنع عن أكل اللحوم رحمة بالحيوان ..
- انى أدرك الآن لماذا تفتح الحكومة المدارس ، انها تفعل كى تبغض لكم اللحوم فتأكلها دون منافس ..
- ونهض حسن وذهب الى حيث ترك القفة وعاد بها ووضعها أمام أمه ، ثم نزع عنها غطاء من الورق فبدت تحته فخذ خروف مكتنزة تتصل على سطحها حمرة اللحم ببياض الدهن . والى جانبها علبة من الصفيح متوسطة الحجم . وصاح حسنين :
- لا أصدق عينى ، وما هذا داخل العلبة ؟
- سمن !
- ودبت فى الاخوة حيوية ولمعت أعينهم ، وسرت عدوى الفرح الى قلب الأم فابتسمت وتمتمت :
- ضمنا للغد غداء فاخرا !
- وهتف أكثر من صوت :

— بل عشاء فاخرا الساعة .

— متى ينتهى طهيه ؟

— ننتظر حتى الفجر ..

ونهضت نفيسة فحملت القفة وسبقت أمها الى المطبخ .
وكفت الأم عن المعارضة وقامت أيضا فغادرت الحجرة وهى
تومىء الى حسن ان يتبعها فتبعها على الأثر مبتسما ابتسامة
ذات معنى ، فانتبذت به ركنا فى الصالة وسألته بلهفة :

— هل تيسرت سبل الرزق حقا ؟

— بعض الشيء ! لا أدري ما يأتى به الغد ..

— هل أطمئن الى انك ستمد لنا يد المعونة ؟

— كلما واتانى الرزق . ارجو هذا ..

وصمتت لحظة ثم سألته :

— اين تقطن ؟

وكان يعلم انها تفهمه فهما لا يجدى معه الكذب فقال :

— عطفة جتدب بكلوت بك رقم ١٧

فسألته بعد تردد :

— امرأة ؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

— نعم .

— زواج ؟

افضحك مرة أخرى وتعمم :

— كلا ...

ولم ير فى الظلام ما ارتسم على وجهها من امارات الامتعاض ،
ولكنها كانت قد يئست منه من زمن بعيد فأعفت نفسها من
لومه او نصحه ، بيد انها سألته باهتمام وحرارة :

— اليس رزقا شريفا ؟

فقال بلهجة مطمئنة وتوكيد :

— بلى ، لا تشكى فى هذا .. اتنا نحى أفرحا كثيرة ونغنى
فى المقاهى والصالات ...

٤٣

وانتضى عام آخر . وواصلت الحياة سيرها لا تلوى على شىء ،
ومضى كل فرد من أفراد الأسرة فى سبيله بما يلقى من خير وشر .
ولو اتيح للأب أن يعود الى الحياة لأزعجته الدهشة لما طرأ من تغير
على أسرته شمل الأرواح والأجساد والصحة ونظرات الأعين ،
ولكن كان حتما سيعرفهم ، سيعرف أن المرأة هى زوجته وأن
الأبناء أبنائه ، أما الذى كان ينكره ، ولا يعرفه مهما أجهد ذاكرته
فهو البيت . اختفى الأثاث أو كاد ، فلم يبق بحجرة الاستقبال
الا كنبه وبساط باهت نازل كان مفروشا بحجرة نوم الأم ثم
وضعه بحجرة الاستقبال بعد بيع سجاداتها ، واقتصرت غرفة
الأم على كنبتين يستعملان نهارا للجلوس وليلا للنوم . وخلت
الصالة — حجرة السفرة قديما — فبيع البوفيه والمائدة والكراسى ،
وانتهى بهم الحال الى تناول طعامهم على صينية مقتعدين الأرض ،
بل بيع فراش حسن . ولولا الضرورة القصوى لبيع الفراشان
الباقيان . كانت حياة شاقة عسيرة ، ولولا حزم الأم ، وحسن
تدبيرها ، لما نهض المعاش وكسب نفيسة القليل بضرورة المسكن
والمأكل . اما حسن فلم تتعد معونته لأسرته زيارات متباعدة كانت
للأسرة بمثابة المواسم يطيب لها فيها الطعام والأمل ، وربما ابتاع
لأمه من آن لآخر جلبابا أو منديلا أو بعض الثياب الداخلية ، وفيما
عدا هذه الأويقات فلم يكن يراه أو يسمع به أحد . وكان يعتذر
لأمه بمشاق التكفاح وقلة الرزق ، ولم يكن فى اعتذاره غلو دائما .
والحق انه وجد الحياة اشق مما كان يتصور . كان يغنى فى تخت

على صبرى ، وينبرى للعراك اذا دعا الداعى ، ويتجر بالمخدرات
فى حدود ضيقة ، وفى حوزته امرأة لا بأس بجمالها ونقودها ، ولكن
ظل كسبه دون ما كان يحلم به بكثير فضلا عما اوجبته حياته عليه
من الانفاق السخى ليظفر بقلوب أعوانه ، وليظهر بالمظهر اللائق به .
وكان النزاع بين ضروريات حياته وأنانيته من ناحية وحبه لأسرته
من ناحية أخرى لا يهدأ بنفسه ، يتغلب ذاك حيناً ، ويتغلب هذا
فى أغلب الأحيان ، يمسك يده مستسلماً لتيار حياته الجارف ، ثم
يجود بما فى طوقه ، ويتمنى كثيراً لو يرد أسرته الى سابق عهدها
بالحياة ، ثم ينسى أسرته فى خضم مغامراته ، ثم يعود الى تذكرها
فى ندم والم ، وهكذا الى غير نهاية . ومهما يكن من أمره فلم تجد
فيه الأسرة الرجل الذى يقيل عثرتها أو يأخذ بيدها وان تنسجت
فى زياراته نسائم الترفيه والراحة . الأم وحدها كانت عصب حياة
الأسرة . وفى سبيل الأسرة انهذ حيلها وهرمت فى عامين كما لم
تهرم خلال نصف قرن من الزمان ، فنحلت وهزلت حتى استحالت
جلدا وعظاما . بيد أنها لم تسلم للمحنة ، ولم تعرف الشكوى ،
ولم تتخل عن سجاياها الجوهرية من الصبر والحزم والقوة . وكانت
تعمل النهار كله ، تطبخ وتفسل وتكنس وتمسح وترتق وترفو ،
وترعى أبنيتها خاصة ، تراقب لهوهما ، وتحثهما على العمل ،
وتفض نزاعهما التافه ، وتكبح من نزواتهما ، خصوصا طفلها المتقلب
حسنين . وبين هذا وذاك تعكف على التفكير فى الحاضر والمستقبل ،
وتجتز كثيراً من الآلام التى تبعثها فى نفسها ابنتها نفيسة فى تجوالها
الدائم بين بيت وبيت ، تعمل كثيراً وتربح قليلاً وتواصل سعيها
فى مشقة ويأس . لشد ما تتجرع غصص الألم فى سكون متجملة
بصبر لا يهن ، لائدة بايمان لا يتزعزع ، متشبثة بأهداب أمل لا بد
أن يتحقق وان طال انتظاره . وبفضلها عرف الشقيقان سبيلهما .
فلم يحد أيهما عن جادته ، وأمكنهما — على ما يكتنفهما من تقشف
وحرمان — أن يواصلوا اجتهادهما فى مشابرة تدعو للاعجاب . وكان

حسنيين يعد ما يلقاه من ظروف العيش أهون مما يجد في حبه من حرمان ، ولكن فتاته لم تكن دون أمه عنادا ، فأرغمته على الرضى بحب ظاهر متقشف لا يستسيغه طبعه الحامى . وأوشكت الحياة الخاصة أن تلهى الشقيقين عما انتاب حياة الوطن في تلك الفترة من التطورات الهامة . والحق أن حسنين لم يبد اهتماما يستحق الذكر بالسياسة العامة ولعل حسنين كان أكثر اهتماما بالسياسة من أخيه ، ولكن ليس الى القدر الذى يجعل منه تلميذا سياسيا ، واقتصر اهتمامه فى الغالب على النقاش الحزبى أو الاشتراك فى المظاهرات السلمية . وكانت الأم أيضا الحائل بين ابنيها وبين الاشتراك فى الحياة السياسية ، فلم تكن لتفقه حرفا فى السياسة ، واستغرقت الأسرة مشاعرها فلم تترك نصيبا للوطنية . ولما ذاعت الأخبار المحزنة عن ضحايا المظاهرات من الطلبة أصابها الفرع وراحت تقول مخاطبة الشابين :

— قتلوا يا ولداه فهل تغنى عنهم السياسة أو المظاهرات ؟! .
فجعوا أهليهم وخربوا بيوتهم وضاعوا هباء ..
وقال لها حسنين منفسا عن شعور مكبوت لتخلفه عن الثائرين :
— ان الأوطان تحيا بموت الأبطال ...

فرمته بنظرة صارمة فخفض عينيه وقد عدل عن مواصلة حديثه الحماسى . ثم جدت أحداث فتكونت الجبهة الوطنية ، وشرع فى المفاوضات ، وانتهت المفاوضات الى الاتفاق ، وسرى فى البلد ارتياح عام ، وحينذاك عاد حسنين الى حديثه ، وكان اجرا على أمه من أخيه ، فقال لها يوما :

— أرايت أن الأرواح التى زهقت لم تذهب تضحياتها عبثا .
ولم تفضب هذه المرة لشعورها بأن الخطر قد زال وحل محلها السلام ولكنها لم تنش عن رأيها فقالت :

— هيهات أن يعوض شئ عن هلاك روح شابة .
فقال حسنين ضاحكا :

— لقد عشت يا أماء نصف قرن في ظل الاحتلال فلندع الله
أن يمد لنا في عمرك نصف قرن آخر في كنف الاستقلال ..
فقال الأم ممتعضة :

— احتلال ، استقلال ، لا أدري أي فرق بينهما . خير لنا أن
ندعو الله أن يكشف عنا الغمة وأن يبدلنا من عسرنا يسرا ..
فقال حسنين بحماس وإيمان :

— لو لم يكن الاحتلال لما تركت أسرتنا بعد موت أبي بلا معين!
(ثم مخاطبا حسين) اليس كذلك ؟
فقال حسين بأمل :

— اعتقد هذا !

ورددت الأم نظرها بينهما في شك كثير . لم تكن تحفل بهذه
الأحاديث العامة التي تساق إليها أحيانا من حيث لا تدري ، أمر
واحد يهمها . وتنسى من أجله الدنيا وما فيها ، هو أن تبلغ بهذين
الشابين اللذين تحبهما أكثر من الحياة نفسها بر الأمان . وأن
تراهما رجلين ناجحين سعيدين قد أمنا شر الحياة ، وآوت الأسرة
منهما إلى ركن ركين ..

٤٤

وفي نهاية العام حصل حسين على البكالوريا . وقد ذاقَت الأسرة
في فترة الانتظار السابقة لظهور النتيجة مرارة الشفاق والشك .
ولم يكن أحد يجرؤ على أن يتكهن بما يجد فيما لو أخفق حسين
وحرم من المجانية . ولم تكن الأم تتصور أن ينتهي صبرها هذه
النهاية . ولا أن تنكشف آمالها عن مثل هذا القنوط . وعندما
تناول حسين الجريدة من البائع وأجرى بصره الزائف في صفحاتها
باحثا عن نمرته ، التف به أخوه وأخته وأمه بقلوب خافقة ينبض

في اعماقها الأمل ويظلها الخوف والعذاب . فانطبعت اللحظة
الرهيبة على نفوسهم الى الأبد . ثم كان يوم سعيد : أول يوم
سعيد منذ عامين كئيبين ، فطابت النفوس ، ولهجت الألسن
بالشكر لله ، وراحوا يقصحون عن سعادتهم بالحديث اللطيف
حيناً ، وبالصمت المطمئن الباسم حيناً آخر . ثم وجدوا أنفسهم
يطرقون باب المستقبل ، ويفكرون في الغد القريب والبعيد معاً ،
فنسوا سعادتهم وهم لا يشعرون ، وتخيلت لأعينهم مرة أخرى
الصعاب التي تكتنف حياتهم . فحل التفكير وهمومه محل السعادة
"إضافية العابرة" ، وعرف حسين حقيقة جديدة في حياته وهي
الـ السعادة قصيرة الأجل وانها لا تعمر في النفس طويلاً كالـ الحزن
أو الحسرة . ولم يكن التفكير في مستقبله بالأمر الجديد عليه ،
كان بطبيعة الحال ذا آمال وأحلام ، ولكن الحقائق لم تكن لتغيب
عنه كذلك ، وكأنه أراد أن يستدرجهم الى اعلان آرائهم فتساعل :
— ماذا لديكم عن الخطوة التالية ؟

وكان للأمر رغبة ، فهي تود أن تنتهي الحال التي يكابدونها بأى
ثمن . وكانت تعلم — وقد خلا البيت مما يمكن الانتفاع بثمن
بيعه — انهم لن يستطيعوا مواصلة هذه الحياة بعد الآن . بيد
أنها لم تترجح الى املاء رغبتها عليه ، ونفرت من التحكم في
مستقبله كما تتحكم في حياته . أجل لم يعد طفلاً ، فاذا وافق
على رأيها مختاراً فيها والا فليقض في أمر نفسه بما هو قاض .
وليمدوا هم في حبال التصبر والتجلد ، بل والجوع حتى
يأمر الله بالفرج . لذلك قالت باقتضاب :
— فلنتدبر الأمر طويلاً .

ولكن حسنين كان يفكر بسرعة مدفوعاً بعواطفه كمعاداته ،
وكانت أنانيته تتوارى خلف ما يظنه الصالح العام ، فقال :
— لم تعد الحياة تطاق . غداؤنا سيء ونحن في حكم الجياع
وثيابنا متداعية ممزقة أو مرفوة . وبيتنا عار ، فلا يصح أن

نطيل امد العذاب . لا سبيل الا ان نبدأ حياتنا العملية ..
وكان حسين يفهم اخاه خير الفهم ، فأدرك لتوه ما يرمى
اليه ، وكان مقتنعا بما يريد ان يذهب اليه ولكن ساءه مكره
فتغيط عليه وقال :

— لماذا تقول « نبدأ » ؟ .. لماذا تستعمل صيغة الجمع بيننا
الامر يتعلق بى وحدى ؟
وأدرك حسنين أن اخاه نفذ كعادته الى ما وراء كلامه فقال
باشفاق :

— انى اقرر مبدا عاما يجوز عليك اليوم وعلى غدا .

— تعنى انه يجب ان أجد وظيفة ؟

فزاغ عن الجواب الصريح وتساءل :

— ما رايك أنت ؟

فالتفت حسين صوب أمه وسألها مبتسما :

— ما رايك يا أماه ؟

وآثرت ابتسامته فى نفسها تأثيرا عميقا ، وأدركت أنه يضع
مصيره بين يديها . وأنه يحملها وحدها مسئولية مستقبله .
ولكنها لن تقضى عليه بما لا يحب ، لن تفعل ولو ذاقوا الهوان أربع
سنوات أخرى . انه الوحيد الذى يدعن لمشيئتها بلا تردد
أو تدمير فهل يكون جزاؤه الفداء ؟! وقالت الأم بوضوح :

— راى رايك يا حسين ..

فابتسم حسين ابتسامة غامضة وقال مدفوعا برغبة عابثة
فى مضايقة حسنين :

— أرى ان اكمل مرحلة التعليم العالى ..

فقالت نفيسة بسرور :

— احسنت . . .

وقال حسنين بعد تردد :

— اماننا أربعة اعوام عجاف أخرى ..

فقال حسين مبتسما :

— عام واحد فحسب ثم تتوظف أنت في نهايته ان شاء الله . . !

فضحك حسنين مغلوبا على أمره وقال بلهجة المعتذر :

— لعلك تظن اننى أريدك على أن تتوظف لتتيح لى فرصة أكمل

فيها تعليمى العالى فى هدوء وطمأنينة ، ولكن الحقيقة اننى أود أن أرحم أسرتنا مما تعانيه ، فضلا عن هذا وذاك فاذا كان على أحدنا أن يضحي بذاته — اذا اعتبرنا التوظف بالبكالوريا تضحية — فانت الذى يجب أن تبذل هذه التضحية ، لا لأنى أريد لك ما لا أريد لنفسى ، ولكن لأن أسرتنا تستطيع أن تنتفع بتضحيتك الآن على حين يجب أن تنتظر عاما آخر حتى يمكنها الانتفاع بتضحيتى أنا .

فضحك حسين قائلا :

— منطق زائف . انى أعلم علم اليقين أنك لن ترضى بالتضحية

لا العام القادم ولا الذى بعده . .

وقالت الأم حسما للجدل :

— افعل ما تشاء يا حسين ، ولا اعتراض لنا . .

فابتسم اليها فى صفاء وقال :

— لم اعن مما قلت حرفا واحدا ولكنى اردت أن يعرف حسنين

أنى احسن فهمه . ولست ألومه أيضا على تفكيره فله عذره .

ينبغى أن يضحي أحدنا ويرضى بالتوظف الآن ، وهذا هو واجبى

أنا ، أنا أخوه الأكبر ، وأنا صاحب البكالوريا . انى أدرك الحال على

حقيقتها ، وأعلم أنه من القسوة الشريرة أن أفكر فى تكملة تعليمى ،

فلأرض بحظى ، ولندع الله جميعا أن يوفقنا الى ما نريد . .

وقرأ الارتياح فى أعينهم جميعا رغم ما تنطق به ألسنتهم من

عبارات الأسف ، فداخله شعور طيب بالسرور والارتياح على

حزنه وأسفه . « أسرتنا كادت تنسى معانى الارتياح والطمأنينة .

ها أنا أعيد الى نفوسها بعض هذه المعانى . علام أسف ! . مدرس

او كاتب سيان . لو كنا نقتصد في إحلامنا ، أو كنا نستلهم الواقع في خلق هذه الأحلام . لما ذقنا طعم الأسف او الخيبة ..

٤٥

وقالت الأم :

- لدينا أحمد بك يسرى صديق المرحوم والدكم ، وهو يستطيع أن يوظفك في غممة عين ..

وتفكرت الأم مليا ثم واصلت حديثها قائلة :

- لن أستطيع الذهاب اليه بنفسى لأن معطى لم يعد لائقا للظهور أمام الناس المحترمين ، فامض اليه أنت ، وخذ معك أخاك تشجع به . وما عليكم الا أن تقولوا للبواب انكما ابنا المرحوم كامل افندى على ..

وذهب الشقيقان عصرا الى شارع طاهر وقصدا بيت البك وطلبا مقابلته كما أوصتهما أمهما فغاب البواب دقائق ثم جاء ليدعوهما الى حجرة الاستقبال . ودخلا يسيان فى ممشى الحديقة الوسط وهما ينظران الى شتى الأزهار التى كست الأرض بألوان بهيجة بدهشة ، ثم صعدا الى السلامك ، ثم الى بهو الاستقبال الكبير ، واتخذا مجلسهما بارتباك على كنب من الباب بالموضع الذى اختارته أمهما قبل ذلك بعامين . وجرى بصرهما سريعا على البساط الغزير الذى يغطى أرض الحجرة الواسعة ، والمقاعد الكثيرة الأنيقة ، والطنافس والوسائد ، والستائر التى تنهض على الجدران كالعمالقة ، والنجفة المتدلية فى هالة للاءة من سقف عال انتشرت بجوانبه المصابيح الكهربائية . وأشار حسنين الى النجفة وقال بسداجة :

- مثل نجفة سيدنا الحسين !

وكان حسين يفكر في أمور أخرى فقال :
 - نعم .. دعنا من النجفة ، ما عسى أن نقول ؟ .. ينبغي
 أن تساعدني بلسانك !
 فقال حسنين هازئاً :
 - اتظن أنك ستحدث شيطاناً ؟ .. تكلم بشجاعة ، وسأتكلم
 أنا أيضاً . ملعون أبوه !
 وندت عنه اللعنة - لا لحق - ولكن ليشجع أخاه ، وليتشجع
 هو نفسه . وألقى نظرة ذاهلة على ما يحيط به من آى الثراء
 ثم تساءل بصوت منخفض :
 - هل يشير موت رجل كأحمد بك حزناً في نفوس ورثته ؟
 فقال حسين بنصف وعى :
 - أما كنا نحزن لوفاة والدنا لو كان غنيا ؟
 فقطب الشباب متفكراً ثم قال :
 - أعتقد هذا . ولكن لعل الحزن أنواع ودرجات . آه ..
 لماذا لم يكن أبونا غنيا ؟!
 - هذه مسألة أخرى ..
 - ولكنها كل شيء . خبرنى كيف صار هذا البك غنيا ؟
 - لعله وجد نفسه غنيا ..
 فالتمعت عينا حسنين العسليتين وقال :
 - يجب أن تكون جميعاً أغنياء ..
 - وإذا لم يكن هذا ؟!
 - إذن يجب أن تكون جميعاً فقراء ..
 - وإذا لم يكن هذا ؟!
 فقال بحنق :
 - إذن نثور ونقتل ونسرق ..
 فابتسم حسين قائلاً :
 - هذا ما نفعله منذ آلاف السنين ..

— يعز على أن أتصور أن تمضى حياتنا في عناء وقذارة الى الموت . . .

فقال حسين مبتسما :

— لا قدر الله . .

وقبل أن يفتح حسين فمه سمعا وقع أقدام آتية من الفراندا ، ثم دخل البك بجسمه الطويل العريض في بذلة بيضاء حريرية ، وسلم عليهما مرحبا وهو يتفرس في وجهيهما بعينين ضاحكتين ، ثم سألهما وهو يجلس :

— أهلا بابنى الحبيب المرحوم ، كيف حال والدتكما ؟

فشكرا له بلسان واحد ، وقد نسي حسين ارتبأكه . وتوجس أحمد بك خيفة من هذا اللقاء الذى لا بد أن يسفر عن بذل وعطاء ، وكان يسلم سلفا بأنه لن يستطيع أن يرفض لهما رجاء اذا سألاه . والحق انه لم يكن بخيلا ، بل كان جوادا ولكن لا عن طيب خاطر ، كان يجود فى برم وضيق دون أن يستطيع أن يقول « لا » . وتغلب حسين على ارتبأكه وقال بصوت رقيق مؤدب تغنى نبراته عن الفاظ الرجاء والضراعة .

— حصلت يا بك على البكالوريا ، وظروف أسرتنا تضطرنى الى البحث عن وظيفة ، لذلك رأت والدتى أن ترسلنى الى سعادتك لما لنا جميعا فيك من عظيم الرجاء . .

فجعل البك يعبث بشاربته الغزير المصبوغ ثم قال :

— وظيفة ؟! . . باب الحكومة ضيق فى أيامنا هذه ، ولكنى سأبذل ما فى وسعى يا بنى . لا أعتقد انى سأجد لك وظيفة فى الداخلية ولكنى صديق لوكيل المعارف ، وكذلك وكيل الحربية ، جهاز طلب استخدام وسأكتب لك توصية قوية . .

وشكرا له كرم أخلاقه ثم سلما وغادرا الفيلا ، وألقى حسين على الفيلا نظرة توديع وهما يبتعدان عنها ، وعاد ببصره الى وجه

أخيه فوجده راضيا حالما فسأل نفسه في دهشة : ترى هل
يفرح الآن بما عده بالأمس تضحية ؟. ثم قال :

— أيقنت الآن فحسب ، وبعد أن تنسمت عبر الحياة الحقبة
في هذه الفيلا ، أنه من الظلم أن نعد أنفسنا بين الأحياء ..

وكان حسين مشغولا بالتفكير في طلب الاستخدام والتوصية
القوية فلم يعن بالرد على أخيه ، فقال حسنين حائقا :

— انى أعجب لما تتحلى به من رضى وهدوء !.. ولكنه تظاهر
لا يمكن أن يخدعنى ...

فغمغم حسين مبتسما :

— وما جدوى الحنق ؟.. لن نغير الدنيا !

— يجب أن تتغير . من حقنا ولا شك أن ننعم بالسكن النظيف
والمأكل الصحى والمركز المرموق . ولكنى أراجع حياتنا جملة
فلا أجد بها خيرا أبدا ..

فحدجه حسين بنظرة غريبة لم يفهم معناها وقال له :

— ولكنك تتمتع بالحب ، وستكمل تعليمك . اليس هذا خيرا ؟
ونظر اليه ثم نظر فيما أمامه ، ترى ماذا يعنى ؟. وشعر
بعدم ارتياح ، وتضاعف ضيقه . ثم روح عن صدره متسائلا :
— ألم يكلفك هذا التضحية بنفسك ؟.. أن لنا حقوقا بديهية
ولا يجوز أن يضيع شئ منها ، فأين نحن من هذا ؟.. كيف
نعيش ؟.. ماذا تكابد أمنا ؟.. أين أخونا حسن ؟.. كيف
انقلبنا أختنا خياطة ؟..

وقطب حسين وقد تنفص عليه صفوه ، وتناسى جوهر
الموضوع ووقف عند الصفة الأخيرة حائقا ، وصاح بأخيه في لهجة
تنم على العتاب :

— خياطة ...

فقال حسنين فى هياج وانفعال :

— نعم خياطة ، هل تكره هذا حقا ؟. أتمنى حقا لو كانت

وجت كأمثالها من الفتيات ؟! .. كذب . لو كانت تزوجت
لو لم تكن خياطة لاضطر كلانا الى الانقطاع عن المدرس
لبحث عن مهنة حقيرة . هذه هي الحقيقة ..

واشتد الغضب بحسين ، لا لأنه لا يسلم بما قال أخوه ، ولكن
لأنه يسلم به في أعماقه ، ولأنه ما كان يرحب حقاً بزواج الفتاة
سعادتها . « اننا نأكل بعضنا بعضاً ، ينبغي أن نسر بتهرير
سن وعيثة ما دام يجيئنا كل شهر بفخذ خروف . وينبغي أن
نسر بأختنا الخياطة ما دامت تعد لنا لقمتنا الجافة . وهذا
شباب المتدمر ينبغي أن يسر بانقطاعه عن التعليم ما دام سيرة
عليمة هو . يأكل بعضنا البعض . أي وحشية . أي حياة
على لا أجد إلا عزاء واحداً وهو أن قوة أكبر منا جميعاً تطحننا
حننا وتلتهمنا التهاماً ، واننا نصمد ونقاتل . » وتركز تفكير
الخاطر الأخير ، فيما سماه العزاء الوحيد ، فسكنت نفسه
سكنت عنه الغضب وقال وكأنه يخاطب نفسه :

— نحن لا يأكل بعضنا البعض . لا تقل هذا ! لم تكن هذا
عبارة من قول شقيقه ولكنه لم يفطن لهذا) .. لا تقل هذا
دا . نحن أسرة بائسة ولنا نظائر وأشباه لا يحيط بهم حصر .
واجب كل واحد منا أن يجود بما يقدر عليه من البذل
لتضحية ..!

ثم طلب الى أخيه في حزم أن يمسك عن الجدل ، وكانا بلغا
خطة الترام ..

وتبين لحسين أن الوظيفة - أو التضحية التي رضى ببذلها عن طيب خاطر - لم تكن منالا يسيرا ، فقد انصرفت ثلاثة أشهر وهو يتردد في هم ويأس ما بين ثيللا أحمد بك يسرى ووزارتى المعارف والحربية . وأخيرا أخبره البيك بأنه امكن الحاقه بوظيفة كاتب بمدرسة طنطا الثانوية ، وحثه على تقديم نفسه للقومسيون والاستعداد للسفر لتسلم عمله في أول أكتوبر . وسر الفتى ، وسرت الأسرة ، ولكنه سرور لم يكن خالصا ، وشابته مرارة . كانت الأم تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر كي تنتشل الأسرة من وهدتها وتبدلها حالا بعد حال ، فجاء السفر مخيبا لهذا الرجاء ، وتحيرت الأم بين فرحها وحسرتها ، وأيقنت أن الوظيفة لن ترفه عن الأسرة الا قليلا ، وأن خيراتها ستبتدد ما بين طنطا والقاهرة . والى هذا كله فقد لاح في أفق الأسرة شبح فراق جديد لم تألفه ، فتوجعت قلوبها ، وعجبت الأم لهذا الحظ الذي يابى أن يمنحها ابتسامة الا نحت عبوسة متجهمة ، والذي يمد يد النوى بينها وبين الابن الوحيد الذي لا يخلق لها المتاعب . كانت ترى في حسين صورة من نفسها الهادئة الصابرة ، وكانت تجد عنده من الانس والراحة ما لا تظفر به عند غيره . اجل لم يكن أحب الجميع الى قلبها ، اذ كان حسين الطفل المشاكس الذي يحظى بهذه المنزلة ، ولكنه بدا لعينيها وقتذاك كأنفس ما تملك في حياتها . ووقع الفراق من نفس حسين موقعا سيئا ، وحزن له حزن رجل لم يبتعد عن بيته يوما واحدا في حياته ، وضاعفا أثره في نفسه تعلقه الشديد بأمه وأخوته وما كان يأمل من الترفيه عنهم بوجوده بينهم . وكان يقول لنفسه كثيرا « سأعيد نفيسة الى بيتها سيدة

محترمة حال تسلمى أول مرتب من الحكومة « ولكنه رأى حلمه يتبدد ، وغدا يذهب الى بعيد خلفا أسرته المحبوبة ورائه على حال ليست أفضل كثيرا مما كانت عليه . ولعل هذا ما جعله يمضى الى أحمد بك يسرى مستشفعا بنفوذه على ابقائه فى القاهرة ولكن البيك - وكان ضاق به - أخبره بأن رغبته بعيدة عن التحقيق فى الوقت الحاضر . ثم اعترضته مشكلة جديدة تتعلق بالنقود التى يجب أن تتوافر له ليقیم بها أسباب معيشته فى طنطا حتى يتسلم أول مرتب له فى نهاية الشهر ، من أين له بهذه النقود ؟ واتجه نحو أخته نفيسة ولكن الفتاة كانت تنزل لأمرها عن جل أرباحها المحدودة ولا تكاد تبقى لنفسها على شيء إلا ما يلزم لكسائها ، وإلى هذا أقما تبقى من أثاث البيت لا يفى ثمنه إذا بيع جميعه - بمطلبه - فلم يجد من ملاذ أمامه إلا أخاه حسن . وخاطب أمه فيما تراءى له فوافقت عليه ولم يداخلها شك فى نجدة ابنها الأكبر إذا وسعه ذلك ، وأطلعت على عنوان أخيه لأول مرة فمضى من توه الى شارع كلوت بك وراح يبحث عن عطفة جندف . وكان غادر البيت كبير الأمل ثم تسلل القلق الى نفسه رويدا رويدا حتى تساءل فى النهاية ترى هل يعطينى حسن ما أريده حقا ؟! وإذا لم يفعل فهل تضيع الوظيفة من أجل بضعة جنيهات لا يجدها ؟! ثم اهتدى الى عطفة جندف وهو على حال من التشاؤم مؤلمة ، ووجدها عطفة ضيقة متعرجة ، تقوم على جانبها بيوت متداعية ، وتسطع فى هوائها الفاسد رائحة السمك المقلی، وتكتظ بالمارة وعربات اليد ، وتتجاوب فى جوها نداءات الباعة تتخللها شتائم ونحنات محشجة وبصقات غليظة ، ثم تأخذ أرضها المغطاة بالأتربة ونفايات الخضر وروث الدواب فى الصعود تدريجيا حتى خيل اليه فى النهاية أنها مقامة على سفح تل . ومضى الشاب الى البيت رقم ١٧ ، وهو بيت قديم من دورين يلفت الأنظار بضيقه فكأته عمود ضخمة ، وقد جلست غير بعيد من مداخله بائعة

دوم ولب وفول سودانى فدخل كالتردد وارتقى سلما حلزونيا
بغير درابزين وقد زكمت أنفه رائحة نتنة صاعدة من بئر السلم ،
حتى انتهى الى الدور الثانى وطرق الباب . كانت الساعة حوالى
الحادية عشرة صباحا ، وكان أخوف ما يخافه إلا يجد أخاه فى
الشقة ، وزاد من خوفه أن أحدا لم يلب الطارق . وعاد الطارق
بشدة ويأس حتى كلت يده ، ثم وقف يائسا لا يدرى ماذا
يصنع ، وقبل أن يتحول عن موقفه جاءه صوت غليظ من
الداخل يهتف بحق :

— من ابن الكلب الذى يطرق الباب فى هذه الساعة المبكرة ؟!
ودق قلبه بسرور ، وقال يجيب الصوت الذى عرفه حق
المعرفة :

— أنا حسين يا حسن ...

وقال الصوت بدهشة « حسين » ، ثم سمع خشخشة
المزلاج وهو يرفع ، وفتح الباب فرأى أخاه بشعر هائج مشعث
وعينين محمرتين منتفختين فمد له يده وهو يهتف بدهشة :
— حسين !.. أهلا وسهلا ، ادخل ، خيرا ان شاء الله ،
ماذا وراءك ؟

فدخل حسين فى شىء من الارتباك ، وسرعان ما تظاهر الى أنفه
عرف بخور طيب بدا عذبا مريحا عقب رائحة السلم ، ووجد
نفسه فى دهليز شبه مظلم تكتنفه حجرتان واحدة الى يمين
الداخل والأخرى فى مواجهته وإلى اليسار المرافق . وابتسم
حسين الى أخيه وقال كالمعتذر :

— هل أتيت مبكرا ؟.. الساعة الحادية عشرة !

فتساءب حسن طويلا ثم قال ضاحكا :

— انى أستيقظ عادة حوالى العصر . المغنون ليهم نهار
ونهارهم ليل . ولكن خبرنى قبل كل شىء كيف حالكم ؟
— بخير والحمد لله .. وكيف أنت ؟

فقال وهو يسير به الى الحجرة التى الى يمينه :
- نحمده ..

دخلا حجرة صغيرة تكاد تقسم مناصفة بين فراش وصوان
بينهما الى الجدار الداخلى كنية علقت فوقها على الحائط صورة
كبيرة تجمع بين حسن وامرأة لحيمة عميقة السمرة قد اعتمدت
منكبه بساعديها المشتبكتين ، فثبتت عينا حسين عليها فى دهشة
لفتت نظر أخيه فتساءل ضاحكا :

- ماذا يدور برأسك ؟

فسأله حسين بسذاجة :

- هل تزوجت يا أخى ؟

فأجلسه على الكنية ووثب الى الفراش وتربع عليه وهو يقول:
- تقريبا ...

- خطبت ؟

- الثالثة ...

- الثالثة ؟!

- اعنى الفرض الثالث !

فرفع الشاب اليه عينين داهشتين فى وجوم ثم ابتسم
ابتسامة آلية على الرغم منه ولاح فى وجهه ما يشبه الحياء
فضحك حسن عاليا وقال باستهانة :

- هى زوجة فى كل شىء الا العقد ...

فسأله حسين فى خوف :

- الست وحدك الآن ؟

فحنى رأسه دلالة الايجاب ، ثم تشاءب بصوت مرتفع
كالهيق ، ثم قال محذرا :

- طبعا لن نخبر أحدا ؟

- طبعا ...

فضحك حسن وقال :

- لا أحب إيذاء مشاعرهم ، هذا كل ما هنالك . وبهذه المناسبة ألم تجرب النساء ؟
- فهر الشاب رأسه سلبا في حياء ، فسأله مستطردا :
- وحسنيين ؟
- فارتج قلبه في خوف وألم لم يدر لهما سببا ، ثم قال :
- ولا حسنيين ...
- فتفكر حسن مليا ثم قال :
- هذا أفضل بالنسبة لكما .. (ثم ضاحكا) اذا نويت الزواج يوما فاقصدنى ازودك بنصائح عظيمة .
- فقال حسين بهدوء :
- لست افكر في الزواج كما تعلم ...
- أمن الممكن أن يتزوج حسنيين قبلك ؟
- فخفق قلبه ، ولكنه قال بهدوء :
- هذا مؤكد لأنه مرتبط بوعده قديم ...
- فقال حسن بتأثر ؟
- على أية حال اذا انتهى حسنيين من دراسته فليس ثمة عائق ..
- آه ، على فكرة ، ماذا جد من انباء الوظيفة التى تبحث عنها ؟
- وسر حسين بما هيا له من فرصة يلج بها موضوعه ، فقال :
- لقد جئتك لأخبرك بأننى تعينت كاتبا بمدرسة طنطا الثانوية ، وبأننى سأتسلم عملى فى أول اكتوبر ...
- فقال حسن بدهشة :
- هل تسافر الى طنطا ؟ ... وما الفائدة التى تجنيها أمك اذا فتحت بيتا جديدا فى طنطا ؟
- فائدة قليلة ، ولكن ما الحيلة ؟
- هذا سوء حظ قارح ، وهذه هى نتيجة المدرسة !
- فابتسم حسين يغالب ارتباكاه ، ولم أطراف شجاعته وقال :

— سأسافر في نهاية سبتمبر ، وأنت تعلم أن الحكومة تصرف المرتبات مؤخرا !

وأدرك حسن ما يعنيه قبل أن يتم كلامه ، فتفكر دون أن يبدو على وجهه شيء مما يدور في نفسه . ثم سأله :
— وما المرتب الذي تنتظره ؟

— سبعة جنيهات .

— يا خبيثها يوم أرسلتك الى المدرسة !.. وطبعا لا تملك من نفقات السفر ومعيشة شهر أكتوبر مليما ؟

فابتسم حسين في تسليم وهو يعجب لما شعر به نحو أخيه — في هذا الموقف — من الارتباك والحياء كأنه يسأل رجلا غريبا . وجعل حسن ينظر اليه صامتا وعقله لا ينشئ عن التفكير . « جاء حسين في ظرف غير مناسب . انى انتظر نقودا لا أدري متى تأتي ولكن يدى الآن فارغة . مصفاة لا يبقى فيها شيء . تبأ لها ! لا يمكن أن اصارحك بالحقيقة ، لتقم القيامة قبل ذلك . انه في حاجة ملحة الى النقود ، ولا بد أن يحصل عليها . مستقبل الأسرة يتوقف على هذه الجنيهات ، وليست في الواقع بالكثيرة ، ثمن أوقيات حشيش ، وينفق مثلها اى فتى أرعن في اسبوع بدرج طياب . سناء مفلسة أيضا ، لم أعد أبقي لها على شيء . ولكن لا بد أن أعينه ، كيف ؟ لماذا لم يحضر الا اليوم ؟ ، الام تبقى أسرتنا شوكة في جنبى ؟! » . وظل ينظر الى أخيه صامتا حتى امتلأ حسين قلقا وخوفا . ثم غادر حسن الفراش فجأة وذهب الى الصوان ففتح درجا وعكف عليه دقائق ثم عاد الى مجلسه ومد يده الى أخيه فاذا فيها أربع أساور ذهبية ، وقال بسرعة :

— خذه هذه الأساور ، وبعها في الحال وانتفع بثمرها ..

وجمدت يد حسين فلم تتحرك ، واتسعت عيناه انزعاجا وانكارا ، وهتف وهو لا يدري :

— ما هذا ؟! ... أساور من هذه ؟

فقال حسن ببساطة وقد ضايقه انزعاج الآخر :

— أساور سناء : امرأتى !

— وبأى حق أخذها ؟

— ان أخاك يعطيك إياها . لا شأن لك بصاحبتها ..

واشتد انزعاجه وتساءل فى امتعاض كيف يعيش أخوه ؟

ثم تتمم :

— لست مرتاحا الى أخذها . أما من سبيل آخر ؟

وحقق حسن على هذا « التعفف » فقال بجفاء :

— اذا كنت حنبليا حقا فما عليك الا أن ترفضها ، وليس

عندى غيرها !..

فرمقه بارتياب ، ولكنه قرأ فى وجهه الصدق فأحس بضيق

وقهر . « أساور امرأة !.. وأى امرأة !.. محال . شىء لا يصدق .

ولا يمكن أن يدور لى بخلد ، ولم أألم — ولو فى كابوس — بآله وقع

لى . كيف يمكن أن أحترم نفسى بعد ذلك ؟! . أرفض ؟ . والعمل ؟! .

ليس لديه نقود أخرى ، ينبغى أن أصدقه . ولكن محال أيضا أن

أضيع الوظيفة ، وما عسى أن أصنع لو أفلتت الفرصة ؟ كلا لا يمكن

أن أرفض . لا يمكن أن أقبل . لا يمكن أن أرفض . لا يمكن أن أقبل .

أرفض . أقبل . أرفض . أرفض . أقبل . أقبل . شىء واحد

يستحق اللعنة ، هو الحياة . الحياة والحظ .. والوالدان اللذان

أتيا بنا الى هذه الدنيا . كان يلعب بأوتار العود ولا يبالي شيئا !.

سحقا لى ، كيف أفكر ؟ . هيهات أن تذهب من مخيلتى صورة

جثمانه . رحمة الله عليه ، ليس الذنب ذنبه . كالدجاج نلتقط

رزقنا بين القاذورات . حجرة الدجاج على السطح ملتقى

حسنين وبهية . شىء تشمئز منه النفس ؛ فلا أرفض . ولكن

لا حياة الا بالاذعان . لن يدري أحد . ولكنى سأذكره ما حييت ،

وسأخجل منه ما حييت . انه ينتظر الجواب فاما الاذعان

واما الموت . فلاخذها كدين ثم أقضيه عند الميسرة . انك

تخدع نفسك . بل انى صادق ولأقضى دينى . ارفض
ولا تزعم بعد الآن انك رجل شريف . انى جائع . شريف
وجائع . ولن ارفض . تبا للحياة . انى أدرك الآن ماذا ساق
خى الى هذا الوكر . اسرة ضائعة وحياة قاسية . يجب أن
يبت فى الأمر والا نفجر راسى . كالدجاج ...
- ماذا قلت ؟

ورفع اليه عينيه فى ذهول وقد اثر فيه صوته تأثيراً مخيفاً .
وكانت الأساور ما تزال فى يده ، فخفض عينيه وقال بخجل :
- انى أشكر لك كرمك ، وأقبله على العين والراس ، وأرجو
من تعدد دينا أقضيه عند المسرة باذن الله ..
- اقبله هدية اذا شئت ، ولا تنس أن تخبر امك باننى
قترضت النقود من الأستاذ على صبرى ..
وأثار ذكر أمه المأحداً فى نفسه فوجد امتعاضاً ، وتضاعف
هذا الامتعاض وهو يتناول الأساور ويدسها فى جيبه ، ثم قال :
- يوسفنى اننى أزعجتك ، وأظن أنه ينبغى أن أذهب كى
وأصل نومك ..

فمد حسن له يده بالسلام ، وضغط على يده باسماء ، ثم قال :
- مع سلامة الله . بلغ تحياتى للجميع ، وقل لأمك باننى
سأزورها قريباً ...

وغادر الشقة شاعراً بغربة وانكار . وهبط السلم الذى
درابزين له فى حذر ، ولكنه لم يتنبه للرائحة النتنة من شدة
غراقه فى تيار أفكاره ..

كانوا يجلسون بحجرة الاخوة التى ستصبح من الآن فصاعداً
حجرة حسنين وحده . ورنث نفيسة الى وجه حسين فغمر الألم
قلبها وهتفت :

— رباه ، هذه آخر ليلة تجمعنا معا !

وأحست الأم بطعنة تصيب قوادها الذى علمه الدهر من
الصبر فنونا ، ولكنها ابتسمت ، أو رسمت ابتسامة على شفتيها
الجافتين . وقالت بعطف :

— حسين رجل كامل ، وسيعرف كيف يعيش وحده دون
ارتباك أو اضطراب . وانى مطمئنة كل الاطمئنان الى انه لن
ينسا ، فسيذكرنا دائماً كما سنذكره دائماً . هذه هى الحياة
يا عبيطة ، ومصير كل أسرة الى التفرق السعيد — على ما به من
حزن — حيث ينهض كل بدوره الجديد ..

وكان حسين يعرف أمه جيداً فأدرك أنها تدارى حزنها
بالحكمة والحزم كعادتها دائماً ، فصمم على أن يعالج وحشة قلبه
بالحزم كذلك . لقد بكى مرة كالأطفال ولكنه لن يبكى مرة أخرى ،
وقتم مقلداً أمه فى ابتسامتها :

— سوف نلتقى فى الاجازات ، ولعلى أنقل يوماً الى القاهرة .
فقال حسنين بأمل :

— لا بد أن يحدث هذا يوماً ما ..

وكان حسنين يجد كتابة وحزناً لم يفترق عن شقيقه مذ رأى
نور الدنيا فلم يدر كيف يلقي الحياة بدونه . كان شقيقه وصديقه
معا ، أجل كثيراً ما نشب النزاع بينهما ، وبلغ الشجار أحياناً ،

ولكن لم يكن لاحدهما غنى عن الآخر . لو كانت بهية أقل عنادا لما
شكا الوحدة قط ، بيد أنه بوسعه أن يتعزى عن الفراق بالرسائل
يحبرها له من آن لآن فتصل ما ينقطع بينهما من أسباب العشرة
والحديث ، ولعله يستطيع أن يسافر اليه في العطلة . ترى هل
يمكنه أن يجرى عليه راتب شهريا ؟ خمسون قرشا أو ثلاثون
خصوصا وهو يعلم بأن راتب الدروس الخصوصية ينقطع بانتهاء
السنة المدرسية ! ليت شجاعته تؤاياه الآن فيحدثه بأمانه !..
ولكن صبرا ، وليؤجل هذا الى فرصة أوفق .

وكانت الأم تواصل التفكير بلا توقف . لقد وفقت الى الظهور
بالمظهر الذى تحب أن تظهر به ، أو الذى اعتادت أن تظهر به ،
ولكنها كانت تعاني الما عميقا بلغت شدته ذروتها هذا المساء ،
كانت تكابد تأنيبا خفيا لشعورها بأنها تؤثر حسنين بأكبر
جهاد ، والآن ماذا ترى ؟.. ترى الأخ الوديع يضحى بمستقبله
ويرمى بنفسه بين احضان النوى في سبيل الأسرة ، بل في سبيل
حسنين بالذات . وضاعف من آلامها أنها كانت ترى الواجب
يحتم عليها خوض حديث أبعد ما يكون عن العواطف ، حديث ان
دل ظاهره على الحذب على الفتى المسافر فباطنه يرمى الى الدفاع
عن الأسرة قبل كل شيء . وجعلت تؤجله وهو يلح عليها حتى
اقتنعت بأنها اذا لم تسقه الآن فقد تفلت منها الفرصة الى الأبد ،
ونظرت الى حسين باشفاق وحنان - وكان يرتب ثيابه في حقيبة
أبيه - وقالت :

- انك رجل عاقل ، وهذا ما يجعلنى جديرة بالاطمئنان .
ولست اطمع فى شيء أكثر من أن تواصل سيرتك الحميدة فى بلدك
الجديد ، وأن تحذر صحبة السوء ..

فابتسم حسين قائلا :

- اطمئنى كل الاطمئنان يا أماه ...

على أن عبارة « صحبة السوء » استدعت الى مخيلته صورة

عطفة جنذب والبيت الذى لا درابزين له والأساور الذهبية
فشعر بفتور أغاض الإشراق الذى رسمته الابتسامة على وجهه
فأنحنى على الحقيبة ليوارى وجومه عن الأعين ، أما الأم
فاستطردت قائلة باهتمام :

— ولا تنس اسرتك . حقا ليس ثمة حاجة الى تنبيهك لهذا .
ولكننى أحب أن أذكرك بأننا سنظل فى حاجة الى رعايتك حتى
يتوظف حسنين وتتزوج نفيسة !
— ما توظفت الا لهذا .

وسرت فى نفس نفيسة قشعريرة رعب ، ونقذت كلمة «تتزوج»
الى أعماقها وخالتها تنبش ما استتر من خبيثتها . الا يزال هذا
الأمل يداعب أمها ؟ .. الا تدرى أن الموت أحب اليها منه ؟ .
ونظرت الى وجه حسين بغرابة ، انه لا يدرى ، وهيئات أن
يخطر لهم هذا على بال . هيئات هيئات . وغابت الحجرة عن
عينها فخيّل اليها أنها تراهم وقد أهدقوا بها فى ثورة جنونية
وقد جحظت أعينهم ملتهبة بنار الغضب ثم انقضوا عليها
كالوحوش . وهزت رأسها لتطرد عنها أشباح هذه الأوهام المرعبة
فعادت الى حاضرها ، ولكن سرعان ما وجدت نفسها تتذكر على
الرغم منها ساعات ضعفها تلك الساعات التى تذهل فيها عما
يدفعها الى تسليم نفسها من دواعى اليأس والفقر ، هنالك تنسى
كل شيء الا الرغبة المحرومة الجائعة فتمثل بنفسها أقطع تمثيل .
تذكرت ساعات الضعف هذه وهى بينهم صامتة فعلاها خجل
أليم وخوف لا قبل لها به ، وعادت تردد بصرها بين أمها
وشقيقها بغرابة . ما يزال أمامها فرصة للتراجع ، لا لراب
الصدع طبعها فقد ولى أوانه . ولكن ... ، رباه لا تدرى ماذا
تقول ، ما الفائدة ؟ ، أى أمل قد بقى لها فى الحياة ؟ . لقد
قضى عليها بأن تقضى على نفسها ...
واصلت الأم حديثها قائلة :

— انظر ماذا يلزمك من نقود كي تنهض بضرورات المعيشة وارسل اليها الفأض من مرتبك . لا بد من هذا يا حسين لأنه لم يعد يبقى لدينا ما يستحق البيع .
— سأبذل قصارى جهدى .

وتبدد أمل حسنين — أو كاد — من الفوز براتب شهرى من أخيه بعد أن طالبت الأم بالفأض من مرتبه . أجل لا يبعد أن تحس الأسرة بشيء من الترفيه ولكنه لن يروى جفاف يده ، خاصة فى العطلة الصيفية الطويلة . ترى هل تطالبه أمه اذا وظف يوما ما بما تطالب به حسين ؟ . غير معقول . اذا انتهى هو من دراسته فستتخفف أمه من اثقل واجبات الأسرة . ويسعه وقتذاك ان يتزوج وأن يعنى بأمر نفسه . ان نفيسة وحسين يتصديان للزوجة فى ابائها ، وقد وجد نحوهما عطفًا ورثاء دون أن يمنعه هذا من الفرح بحظه .

ولم تفرغ الأم من الافصاح عما يدور بنفسها كله ، فودت لو تحذره من ان يستدرجه احد الى الزواج . ولم تكن تجهل ان كثيرا من الآباء والأمهات يتصيدون العزاب أمثاله فى غربتهم بسهولة : ولكنها لم تدر كيف توجه اليه هذا التحذير وعن يمينه أخوه الأصغر قد خطب وتهيأ للزواج وهو ما يزال تلميذا ! . عدلت عن رغبتها كارهة ، ولكن مطمئنة فى الوقت نفسه الى رجاحة عقله وحسن تقديره . وتحدثوا طويلا ماشاء لهم الحديث . ثم جاء فريد افندى محمد وأسرته لتوديع حسين . واستقبلوهم كما يستقبلونهم عادة بالترحيب والسرور ، فليس ثمة أحد الا ويقدر مودتهم وكرمهم وحسن جيرتهم . أجل لعله طرا على بعض النفوس تغير باطنى منذ تمت خطبة حسنين لبيهة غير الرسمية ، فالأم مثلا آمنت بأنهم رموا شبابهم حول الفتى قبل أن ينهض ، وانهم راموا باستئثارهم اشد آمالها تألقا ، أما نفيسة فلم يكن بوسعها أن تحب شخصا يطمح الى

امتلاك حسنين خاصة . ولكن هذه المشاعر الصامتة لم تكن لتؤثر في رابطة الود والاخاء التي تجمع بين الأسرتين ، ولم يكن من الهين أن تنسى الأم أيادي فريد افندى ومروءته . وقد سر حسين بزيارة التوديع سرورا كبيرا ، ووجد نحو الأسرة التي يحبها - الأب والأم والفتاة وتلميذه السابق - امتنانا عميقا . وجرى الحديث بين ذكريات الماضي وآمال الحاضر لطيفا صادقا ، مباركة عليك الوظيفة ، تسافر مصحوبا بالسلامة ، ستترك وراءك وحشة ، لقد خسر سالم استاذا لا يعوض ، الخ وبهية نفسها على حياتها وتحفظها قالت برقة « تعود بالسلامة قريبا ان شا الله » فشكر لها تلطفها بلسانه وقلبه « فتاة حسناء حقا ، مهذبة محتشمة ، وحسнин شاب رائع وسيكون زوجا رائعا . ترى ألم يقبل هذا الثغر ؟ . طالما شكنا تحصنها متذمرا فيالها من فتاة نادرة حقا . سأسافر غدا وتمسون صورا وذكريات ، وستجتمعون كاجتماعكم هذا ، وربما لا تذكروننى الا قليلا ، او لا تذكروننى بتاتا » ولكن كيف أكون ؟ وأين ؟ وهل أملك مع وحدتى الا أن اذكركم ؟ كلما اشتد الدهر ازدادت قوة وصبرا ، ولاظن هكذا الى الأبد ! .. »

٤٨

غاب وجه حسنين في زحمة المودعين ، وتراجع سقف محطة مصر الهرمى حتى بدا من الداخل مظلما ، كل شيء يتراجع بسرعة متزايدة ، وداعا يا مصر . وعاد حسين برأسه الى الداخل واعتدل في جلسته وهو يغمض عينيه ليخفى دمة رقيقة غالبت ارادته طويلا ورمش سريعا لينفض نداها عن أهدابه . وكان الى يساره افندى يتصفح جريدة على حين جلس قبالة قرويان يتجاذبان الحديث ومع أن العربة كانت نصف ممثلة الا أن ضجة الركابين

كادت تعلو على صلصلة عجلات القطار ، وذكر في حزن مرطب
بسرور انه رأى دمة في عيني حسنين ، أجل لقد تجلدا وهما
يتحادثان على طوار المحطة ، ولكن حين تحرك القطار واخذ الفتى
يلوح له بيده اغرورقت عيناه بالدموع . وفي البيت كانت نفيسة
تبكى صراحة حتى التهب عيناها ، لشد ما يذكر وجهها - الذي
حرمه الله نعمة الحسن - بعطف ورثاء وحنان . أما أمه - وقد
ابتسم على رغمه - فقد ضمته الى صدرها وقبلت خديه ،
ولعلها تفعل هذا لأول مرة ، أو في الأقل فهو لا يذكر أنها قبلته قبل
هذه المرة !. لشد ما تأخذ نفسها بالحزم حيالهم ، هذا طبعها ،
ولكن هيات ان يطمس حنانها العميق . ولم تشأ ان تبكى وهي
تودعه اذ أنها تتشاءم من دموع التوديع ، ولكنه قرأ في تقلص
جفניה نذيرا بالبكاء لا يلبث أن يستفيض دموعا اذا واره الباب
عن عينيها . وقال لنفسه لعلها بكت طويلا ، ولعلها لا تزال تبكى .
وشعر لهذا بكابة وحزن . ولم يكن رآها تبكى قبل وفاة والده
فاشتد تأثره ، «يا لها من امرأة عظيمة . شاء الله ان يبتلى أسرتنا
بمصيبة قاصمة ولكن سبق لطفه فقدر ان تكون هذه المرأة أمنا .
ماذا يكون مصيرنا لولاها ؟. كيف غدتنا وكستنا ؟ كيف سيطرت
على توجيهنا ؟ كيف نهضت بضرورات أسرتنا في هذه الظروف
القاسية ؟ يا لها من معجزة تحير العقول . حتى حسن أخى ففى
ظنى انه لولا المرحوم أبى لأمكن ان تجعل منه رجلا غير الرجل .
آه . . لاقتصدن فى الكلام عن حسن . لولاه ما عرفت سبيلى الى
وظيفتى ، نقوده هى كل مالى حتى آخر الشهر . الأساور ؟ .
يا للذكرى !. انس ، ينبغى ان أنسى كى أعيش . سأقضى الدين
يوما واسدل الستار على أسوأ الذكريات » . وارسل بصره من
النافذة فارا من افكاره فرأى الحقول تتراعى حتى الافق ، والخضرة
يائعة ناضرة بهيجة تميل رءوسها مع الهواء فى موجات متصلة ،
وهنا وهناك فلاحون وثيران تلوح كالدمى تكاد تبتلعها الأرض ،

وسوائهم ترعى ، وفوق هذا كله سماء الخريف متلغفة ببياض شاحب ينحصر في أكثر من موضع عن بحيرات من زرقة صافية .
 ومر القطار بجدول صاف ذابت أشعة الشمس على سطحه زئبقا يبهل الأعين . ورأى أسلاك البرق في أمواجها المتواصلة تشملها حركة منتظمة كأنها تسبح في الفضاء على وقع طقطقة القاطرة الرتيبة . ثم مد بصره كرة أخرى الى الأرض المنبسطة . الصامتة الصابرة ، الخيرة ، فذكر دون وعى أمه ! . كهذه الأرض الخضراء صبرا وجودا والدهر يحرثها بسنانه ! . لم يعد بوسعها أن تقوم بزيارة محترمة لأنها لاتجد الثياب اللائقة ! . وتغيبت عيناه فغابت عن ناظره بهجة المنظر ودعا الله أن يرزقه حتى يرفه عن أمه المتصبرة وأسرته المتجلدة . « يا للعجب . أن مصرتأكل بنيتها بلا رحمة . ومع هذا يقال عنا اننا شعب راض . هذا لعمرى منتهى البؤس . أجل غاية البؤس أن تكون بأئسا وراضيا . هو الموت نفسه . لولا الفقر لوصلت تعليمي هل في ذلك من شك ؟ . الجاه والحظ والمهن المحترمة في بلدنا هذا وراثية . لست حاقدا ولكنى حزين . حزين على نفسى وعلى الملايين . لست فردا ولكنى أمة مظلومة ، وهذا ما يولد في روح المقاومة ويعزى بنوع من السعادة لا أدري كيف أسميه . كلا لست حاقدا ولا يائسا أيضا ، وإذا كانت فرصة التعليم العالى قد أفلتت من يدي ، فلن تفلت من يد حسنين ، وربما وجدت نفيسة الزوج المناسب . سوف ترد الروح الى أسرتنا فنذكر أيامنا السود بالفخار» . ولاحت منه التفاتة الى يساره فوجد الأفندى الذى كان يتصفح الجريدة قد طواها ونظر اليه نظرة من ضاق بالوحدة والصمت ، وكأنه كان ينتظر هذه الالتفاتة العارضة فقال بلا داع ولا تمهيد وهو يلوح له بالجريدة المطوية :
 - لولا الطلبة ما ائتلف الزعماء ، من كان يتصور أن يجلس صدقى مع النحاس على مائدة واحدة ؟

ورحب حسين بالحديث ليريح رأسه من افكاره وقال :
- هذا حق يا سيدى .

- ومن كان يصدق ان يعترف الانجليز بأن مصر دولة
مستقلة ذات سيادة ، وأن ينزلوا عن التحفظات الأربعة ؟ ..
اتظن أن تلغى الامتيازات حقا ؟
- اعتقد هذا .

فقال الرجل بسرور :
- سيحكم النحاس الى الأبد . انتهى عهد الانقلابات .
حضرتك وفدى ؟
- نعم ...

- قرأت هذا فى سماحة وجهك . الوطنى هو الوفدى ،
وما الأحرار الدستوريون الا انجليز بطرايش بصرف النظر
عما يقال عن الائتلاف وفوائده .
- هذا حق لا شك فيه ...

- حضرتك مسافر الى الاسكندرية ؟
- الى طنطا فقط .

- شى لله يا سيدى يا بدوى ، لقد عشت فى طنطا أعواما ..
ولاح الاهتمام فى وجه حسين فسأل :

- انى موظف جديد ، فهلا دللتنى على فندق معتدل الأسعار
يصلح للإقامة ؟

فجعل الرجل يدعك ذقنه بيده متفكرا ثم قال :
- عليك بفندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق لصاحبه
ميشيل قسطندى .

يمكن ان تقيم فى حجرة نظير جنيه ونصف شهريا ..
ثم تحدثا طويلا عن الإقامة فى الفنادق وسكنى الشقق
والمفاضلة بينهما ...

كانت حجرته بالفندق صغيرة ، ذات فرش لشخص واحد وصوان ومقعد خشبي ومشجب . وكان جوها يشي بالرطوبة الكامنة ، اذ كان بها نافذة واحدة تفتح على عطفة جانبية ضيقة ويحول بينها وبين الفضاء جدار بيت قديم . فلم تجد الشمس سبيلا اليها . وكان يوجد بالفندق حجرات تطل على شارع الأمير فاروق ولكنها مرتفعة الايجار فعذر عنها الى هذه الحجرة البسيطة قائلا لنفسه : « من العدل أن أعيش كما يعيشون في عطفة نصر الله » . وكان أول ما فعل أن فتح النافذة واطل منها مدفوعا بحب الاستطلاع فوق بصره على عطفة حقيرة تقوم على جانبيها بيوت قديمة فعجب للفارق الكبير بينها وبين الشارع الذي تتفرع منه ، ثم رأى جدار البيت الذي يحجب عنه الفضاء فداخله ضيق وأيقن بأنه لن يظفر في وحدته بتسليية . وتحول عن النافذة الى مرآة الصوان فطالع صورته في هيئة غريبة ، بدا وجهه طويلا وقسماته شائئة الى ما تنائر على صفحتها الباهتة من افرازات الذباب ، فتضاحك وقال مخاطبا صورته « انى أجمل منك بفضل الله ورحمته » ثم مضى يخلع ثيابه ، وارتدى جلبابه ، ورتب ملابسه القليلة في الصوان الذي بدا على صفره فارغا ، والواقع انه لم يكن يملك غير بدلة وجلبابين وملابس داخلية من نسختين ، وجميعها قديمة عملت بها يد الرفو والترقيع ، وعلى سبيل الاطمئنان دس يده في جيب الجاكتة وأخرج رزمة الجنيهات وعدها ثم أعادها الى مكانها وقد عاودته ذكرياتها الأليمة ، ثم ذهب الى الفراش وتربع عليه . لا يدري ماذا يفعل في بقية النهار ، ولما لم يجد احدا يحادثه ولا عملا يعمله فقد استسلم بكليته الى التأملات

والأحلام . وشعر بالوحدة والدهشة ، وأدرك أنه سيعانى مر العناء من فراغه . أجل أنه يحب القراءة ولكن حتى إذا أمكنه ابتياع ما يريد من الكتب فسيظل لديه من الفراغ ما يضيق به . لم يألف الحياة فى هذا الصمت الثقيل ، وشعر فى وحدته الصامتة بأنه شىء ضائع تافه لا يحفل به أحد ولا يابه له أحد . أين صوت حسنين الحاد العصبى الذى لا يفتأ يضج بالضحك أو بالشكوى ، أين صوت نفيسة الرفيع وتعليقاتها اليومية الساخرة على الجيران والحوادث . ولكنه لم يشأ الاستسلام لشعوره ، وآثر أن يبحث شئون ميزانيته التى سينظم معيشته على أساسها . مرتبه سبعة جنيهات ، مبلغ لا بأس به فى ذاته لولا ما يحدق به من ظروف . منه اجرة سكن ١٥٠ قرشا ، و ٢٠٠ قرش للأكل لا يجوز له أن يتعدها بحال ، فول للفظور ، وطبق خضر باللحم و ارز ورغيف للغداء ، وحلاوة طحينيه او جبن للعشاء ، وإذا دعا الأمر أقلع عن العشاء كما اعتادوا أن يفعلوا طوال العامين المنصرمين ، ومهما يكن من أمر فلن يسمح لمعدته بأن تكون مصدرا للمتاعب والارتباك . انه اعظم من هذا وبوسعه ان يقرر هذه الحقيقة الآن ، وهو فى مأمن من معارضة حسنين ، وان تحمل المضايقة فى سبيل الحياة التى يرضى فيها عن نفسه لألد من شهوة الطعام . ثم ٢٠٠ قرش لأمه ، وهو قدر زهيد ، وكان بوده لو يضاعفه ولكن لاحيلة له فلم يبق لنفقاته الثرية وكسائه الا ١٥٠ قرشا فيما عدا الضرائب التى تخصم عادة من المرتب . ثم تساءل فيما يشبه الحيرة ألا يمكنه أن يقتصد ولو مبلغا قليلا فى صندوق التوفير ؟! انه لا يطيق الحياة بلا اقتصاد من أى قدر كان ، ولا يظن أن انسانا احتضنته أم كأمه يستطيع أن يمارس الحياة بلا اقتصاد . والحق أن أمه بين النساء كالألمانيا بين الدول قادرة على الاستفادة من كل شىء ولو كان زبالة !. كانت ترقع البنطلون حتى اذا بلغ اليأس قلبته ، فاذا أدركه اليأس مرة أخرى قصت أطرافه وجعلت منه سروالا داخليا ، ثم تصنع من

بعضه طاقة وتستعمل بقيته ممسحة ، ولا يلفظه البيت إلا فتيتا !
لا بد من الاقتصاد مهما كلفه الأمر ، وأن قسوة الحياة التي عضتهم
بلا رحمة لحرية بأن تجعل من الاقتصاد عقيدة لهم . وعندما بلغ
هذا الحد من التفكير تداعت الى نفسه مشاعر الخوف التي
كانت تعذب أسرته بسبب وبلا سبب ، والتي لم يكن من باعث
لها إلا الفقر . أجل كانوا في خوف دائم من أن تزيد النفقات
الضرورية على الإيراد المحدود ، كأن يتعرض أحدهم للمرض ، أو
يجد من ناحية المدرسة طلب ، أو تتعطل نفيسة عن الكسب ردحا
من الزمن أو أو ، مما لا يقف عند حد ، أو اه لشد ما يشعر
بغمز الألم في صميم قلبه وهو يجتر هذه الذكريات ، ومن خلالها
يتراءى لعينيه وجه أمه المعروق الجاف كمثال حي للصبر والألم ،
أحب الوجوه الى قلبه على بؤسه ودمامته ، ومن عجب أن نفذت
الى نفسه - وقتذاك - نسمة مطولة بغتة لشعوره بأنه بات
قادرا على التخفيف عنها مما يثقل كاهلها . أجل انه من الغد
موظف من موظفي الدولة ، وبعد أعوام قصيرة أو طويلة يصبح
حسнин موظفا أيضا من درجة أعلى ، وسيفآخر هو مدى الحياة
بأنه قنع بشهادة متوسطة ليسر لأخيه الحصول على شهادة
عليا . ترى هل يذكر حسنين هذه العبر ؟ . انه يبدو مشغولا
بأمر نفسه عما عداها ، ذكى بلا ريب ، ومجتهد ، بيد أنه . . . آه
فليمسك عن نقده في غربته ، فما أشد حنينه اليه ، وما أكبر
شوقه حتى الى عناده وملاحاته . ومزق الصمت صغير قطار
قطع عليه أفكاره وخفق قلبه . وكان الفندق غير بعيد من
المحطة ، فلم يكن بد من أن تذكره القطر بين آن وآن بالقاهرة
وأهلها . وعادته ذكريات الوداع فنهشت قلبه حتى سح حسينا
دافقا . ثم غشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكآبة فقال
لنفسه يصبرها ويعزيها : لعلها ضريبة اليوم الأول للفراق ثم يهون
الأمر رويدا رويدا . وتحير ماذا يفعل ، هل يقضى سحابة اليوم

في هذه الحجرة أو ينطلق الى الخارج ليجول جولة في المدينة الجديدة ، ثم خطر له خاطر هبط على نفسه كما تهبط اداة النجاة على المتخبط بين الأمواج ، وهو ان يكتب رسالة لأخيه . وجاء بخطاب وبدأ يكتب بلا توان فوصف رحلته والفندق وصاحبه قسطندي وحجرتة واشواقه ثم حملة تحياته الى أمه ونفيسة ، ثم توقف متسائلا هل يهدى تحية الى بهية ؟ هل يذكرها بالاسم ، او يصفها بخطيبة أخيه او يقنع بتحية عامة لاسرة فريد افندي ؟ ثم أثر الأخير بعد تردد طال أكثر مما ينبغي ..

٥٠

وغادر حجرتة في الصباح الباكر ، ولكنه وجد الخواجا ميشيل قسطندي جالسا الى مكتبه البالى عند اسفل السلم . وقد سأله الرجل عما اذا كان يحتفظ بشيء ثمين في حجرتة ، فابتسم حسين على رغمة وقال له « الأشياء الثمينة في جيبى » . وانطلق الى الطريق ، ثم قصد الى مطعم فول في نهايته كان عرف موقعه في أثناء جولته أمس بالمدينة ، وتناول فطوره ، ولفت نظره بصفة خاصة سلطة حمص لم يعرف لها نظيرا في القاهرة . وتمشى في المدينة حتى التاسعة ثم ذهب الى المدرسة الثانوية ليقدم نفسه الى الباشكاتب ويتسلم عمله رسميا . وقد اهتزت نفسه لمراى المدرسة ، وعادوته ذكريات قريبة حية لاحت في عينيه كالحلم . وعرف البواب بشخصيته فمضى به الى حجرة الباشكاتب وطلب اليه ان ينتظر حتى يحضر الرجل عما قليل . وجلس حسين على كرسى قريبا من المكتب وجعل ينظر خلال الباب المفتوح الى فناء المدرسة في جو يثقل عليه الصمت . بعد اسبوع يبدأ العام الدراسى وتمثلت هذه المدرسة بحياة حارة . وذكر كيف كان - منذ أشهر - يقضى أسعد أوقاته

بالمدرسة فى مثل هذا الفناء ، وكيف كان يمتلىء خشوعا حىال
أى موظف من موظفها . انه الآن أحد هؤلاء الموظفين ، بيد
أنه لم يستسلم للزهو . ان التلميذ حلم أما الموظف فحقيقة ،
التلميذ مشروع مستشار أو وزير أما الموظف فدرجة ثامنة
لا أكثر . ولم يطل به الانتظار فما عثم أن صكت أذنيه سعلة
غليظة ونحنحة عميقة ثم أزيز بصقة : ورأى على الأثر رجلا
يقتحم الحجرة مهرولا ، قصر القامة ، رقيق الجسم ، كروى الوجه ،
أعمش العينين . تعلوه صلعة ناصعة البياض ، وقد قبض على
طربوشه بيد وراح يجفف صلعته بمنديل باليد الأخرى ،
وما ان وقعت عيناه على الشاب حتى صاح به :

— بسم الله الرحمن الرحيم ، كيف طلعت هنا ؟ .. هل بت
ليلتك فى حجرتى ؟ .. تلميذ مستجد ؟!

فوقف حسين مرتبكا وقال :

— أنا يابيك الكاتب الجديد حسين كامل على ..

فققه الرجل ضاحكا : ولكن أدركه السعال وعاودته النحنحة
فامتلا فمه مرة أخرى ونظر حوله فى حيرة ، ثم جرى الى الخارج ،
وغاب نصف دقيقة ثم عاد احسن حالا وهو يقول كالمعتذر :

— لعن الله البرد ، أصاب به كل مطلع فصل من فصول
السنة فتجدنى فى حيرة دائمة ما بين فصول السنة وفصول
المدرسة ، لا مؤاخذة يا حسين أفندى السلام عليكم أولا ..

فمد حسين يده مبتسما وهو يرد تحيته بأحسن منها ،
ثم جلس الرجل الى مكتبه ودعاه الى الجلوس فجلس ، وانشأ
الباشكاتب يقول :

— اسمى حسان حسان حسان . العادة فى اسرتنا أن يتسمى
الابن الأكبر باسم أبيه ، الم تسمع بأسرة حسان بالبحيرة ؟ ..
كلا ؟! .. كلا كلا يا سيدى ، الله الفنى ، التلاميذ الكلاب
يدعوننى بحسان أس .

فضحك حسين ملء قلبه ، ولكن الرجل حدجه بنظرة انتقاد من بصره الأعمش وقال :

— علام تضحك ؟ ألم تتخلص بعد من عقلية التلاميذ ؟ وبهذه المناسبة اقول لك انى رجل عصبى جدا ولكن قلبى طيب . وكثيرا ما العن أبا احسن واحد ، بلا قصد سيىء ومع الاحترام الكلى للشخص الملعون !. افافهمنى ولا تنس انى فى سن والدك ! فقال حسين فى ارتباك شديد :

— لن يحصل بيننا ما يشير الغضب ان شاء الله .

— ان شاء الله . احببت ان اعرفك بنفسى ، هذا كل ماهنالك . انى العن نفسى كثيرا . اللعن مريح فى أحيين لا حصر لها ، ولولاه لمات كثيرون كمدا . ستعلم عما قريب معنى العمل فى مدرسة « ثم متنهذا » وصل الكتاب الخاص بتعيينك من الوزارة (وبحث عنه فى اوراقه حتى وجده) وهو الرقيم ١١٧٥ بتاريخ ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٦ . وقد جئتنا ونحن فى أشد الحاجة اليك، وستبدا الآن فى مراجعة كشوف الأسماء والمصروفات . لقد تزوج الكاتب السابق من كريمة مفتش بالوزارة فنقله فجأة الى القاهرة . حضرتك متزوج يا حسين افندى ؟

فقال حسين مبتسما :

— كنت تلميذا حتى الربيع الماضى !

— وهل تظن التلمذة مانعة من الزواج ؟ لقد تزوجت وأنا تلميذ بالثانوى ، وهذه أيضا من عادات أسرنا كتسمية الابن الأكبر باسم أبيه . وكان لنا عادات أخرى عظيمة أبطلها صدقى باشا لا سامحه الله ..

فنظر حسين متسائلا فاستدرك فى حزن قائلا :

— والدى حسان بك وفدى كبير وأحد أعضاء الهيئة الوفدية . وقد طالبه صدقى باشا اثناء حكمه المشئوم بالانفصال عن الوفد،

ولما أبى كما ينتظر منه حرمة معونة بنك التسليف في عز الأزمة
فبيعت الأرض وضاعت الثروة .

فقال حسين :

— ولكن النحاس قد عاد الى الوزارة ؟

— ولكن الأرض ضاعت . والأدهى من هذا كله أن صدقي
انضم الى الوطنيين وقد خطب أول هذا العام في مستقبله
بدسوق فبلغهم تحيات « زعيمى النحاس » يا خسارتك يا حسان
حسان حسان !

فتظاهر حسين بالتأثر وغمغم :

— ربنا يعوضكم عن خسارتكم خيرا ..

فهز الرجل رأسه : وسكت دقيقة ، ثم قال :

— حظك سعيد اذ عينت في المدرسة بعد أن ولى عهد الاضراب .

كادوا يحرقون بنا المدرسة أثناء المظاهرات الأخيرة لعن الله
المظاهرات والطلبة وصدقي باشا . أين تقيم يا حسين افندى ؟
— فى فندق بريطانيا .

— فندق ؟! . خيبك الله ، معذرة ، أعنى ساحك الله .

الفندق مقام غير صالح للإقامة الطويلة ويجب أن تبحث فورا عن
شقة صغيرة ..

— ولكنى لم أحمل معى أثاثا ؟

فتفكر حسان افندى وهو يقرض أظافره باهتمام طارىء

ثم قال :

— فرش حجرة لن يكلفك كثيرا ويمكن أن تؤدى ثمنه مقسطا

بضمانتى اذا شئت ...

وعاود التفكير وهو يتفرس وجه الشاب واستطرد :

— توجد شقة مكونة من حجرتين على سطح البيت الذى

أقيم فيه لن تزيد أجرتها عن جنيه واحد فما رأيك ؟

وثار اهتمام حسين لأول مرة بعد سماع قيمة الايجار فقال :

— سافكر فى الامر جديا ..
— الامر واضح مثل $1 + 1 = 2$ والآن هلم الى العمل فان
الأوراق اكوام مذ تزوج ابن القديمة ونقل الى القاهرة ..

٥١

وقرر حسين افندى ان يبقى فى الفندق حتى يتسلم مرتبه
اول الشهر الجديد ، واخذ يقتنع بمرور الايام بوجوب الانتقال الى
شقة خاصة يتها له فيها الشعور بالاستقرار والطمانينة على
وجه افضل . وكان حسان افندى دائبا على تزيين فضائل الاقامة
فى شقة له ، حتى هل الشهر الجديد فابتاع له فراشا وصوانا
صغيرا ومقعدا بحوالى الجنيهين تم الاتفاق على ادائها على اربعة
اقساط بضمن حسان افندى ، ولما كان ايجار الشقة جنياها
فلم تزد نفقاته شيئا . وكانت الشقة الجديدة تشغل نصف سطح
البيت الذى يقيم حسان افندى بطبقته الوسطى ، وكانت مكونة
من حجرتين غير المرافق . فأغلق الشاب حجرة لعدم الحاجة اليها
وفرش الأخرى بالاثاث الجديد وكان للحجرة نافذة تطل على شارع
ولى الله — حيث يوجد مدخل البيت — وينسرح أمامها الفضاء
بلا عائق لارتفاعها عما حولها ، فشعر الفتى — بعد ضيق — براحة
الفضاء وطلاقة الجو ، وسر لذلك كثيرا . وكان يوم انتقاله الى
الشقة الجديدة يوما سعيدا حقا ، اذا انه وجد نفسه — لأول مرة
فى حياته — صاحب بيت وأثاث ومرتب . ولم يكن نسى ذلك
الاحساس اللطيف بالارتياح والسرور الذى انبعث فى نفسه وهو
يتسلم مرتبه صباح ذلك اليوم ، ولا كيف دارى ابتسامة انطلقت
من قلبه الى شفثيه حياء أن يطلع الصراف على فرحه ، ولكن
هذا السرور كله لا يعد شيئا الى السرور الذى امتلأ به قلبه وهو

يبحث بالجنهين الى أمه ، كانت لحظة عظيمة عرف أثناءها أن صبره الطويل لم يذهب سدى . وما كاد يستقر به المقام حتى زاره حسان افندى مهئنا وقال له «لن تكون غريبا ما دمت بيننا» فشكر له فضله وحفظ له في نفسه من الامتنان ما هو خليق بقلبه الشكور ، وغفر له ما يلقي منه في المدرسة من حدة الطبع وسوء التصرف والارتباك في العمل ، والحق انه قد الف هوسه متعزيا بطيبة قلبه وخفة روحه ، ولم يرض حسان افندى أن يتركه منفردا ودعاه الى قضاء سهرته بشرفة شقته فذهب معه مفتبطا وجلسا معا وحسان افندى يقول :

- يبدو لي أنك لا تحب المقاهى فاجعل من هذه الشرفة ناديك الليلي ..

وكانت الشرفة مهيأة للجلسة الطيبة ففي جانبها الأيمن كرسيان كبيران من القش بينهما خوان وفي الجانب الآخر شلثة كبيرة تقوم وراءها وسادة ، وعلى خوان في ركن من الشرفة وضعت صينية صفت بها قلتان وابريق وقد عام على الماء المتجمع في وسطها الليمون البنزهر . وراح حسان افندى يتحدث بلا توقف تقريبا وكيفما اتفق ، وقد بدا في جلبابه الفضفاض اصغر منه في البدلة فلم يكن شيئا يذكر ، أو كان لسانا فحسب . ورحب حسين بالجلسة لما عاناه من الفراغ في الأسابيع الماضية ، فلم يكن يدري ماذا يفعل بالوقت ، ولم تنفع القراءة في تزجية فراغه الا قليلا ، لا لأنه كان يضيق بها ولكن لأن نقوده لم تسعفه بشراء ما يحب من الكتب فاكتفى مضطرا بكتاب غير الجريدة اليومية . وجرب الاختلاف الى المقهى ولكنه لم يهش له وخاف أن يجره الى بعثرة نقوده المعدودة فيما لا يجدى . وكان بطبعه حريصا ، لهذا كله رحب بدعوة حسان افندى وصدقت نيته على أن يجعل منها تسلية محبوبة مهما كلفه هذا . وتأدى الحديث الى الشقة الجديدة فقال حسان افندى :

— لا يهتمك تنظيف شقتك فقد أمرت الخادم بأن يتعهد بها بالتنظيف كل صباح ، وسوف أوصي غسالة تعرفها « الجماعة » بأن تذهب اليك كل يوم جمعة .

فشكر حسين صنيعه في حياء وتأثر ، ولكنه تضايق بعض المضايقة لأنه كان يستطيع أن ينظف حجرته بنفسه ، ولأن قيام الخادم بهذه الخدمة اليومية يوجب عليه أن ينفحه ببعض النقود بين آن وآخر الأمر الذي لا يمكن أن يتقبله بارتياح . وضحك حسان افندى بسرور ثم قال :

— اما مفاجأة المفاجآت التي أعدها لك فهي النرد ... هل تجيد لعبها ؟

فقال حسين بسرور :

— بعض الاجادة ..

فغادر الرجل الشرفة في بحماس ثم عاد بالنرد ووضعها على الخوان وهو يقول بفخار صبياني :

— أنا بحمد الله خير من يلعبها بالوجه البحرى ، وربما بالقبلى أيضا ..

سر حسين حقا بهذه التسلية التي لم يكن يتوقعها وتساءل :

— عادة أم حبس ؟

فقال حسان افندى بثقة :

— اختر لنفسك ما تشاء ، أنك على الحالين لمغلوب ..

وبدأ يلعبان . وقد اتضح لحسين أن حسان افندى يرش وجه المستمع اليه عن قرب برذاذ ريقه اذا حادثه فأمل أن يلهيه اللعب عن الكلام ، ولكنه كان يواصل اللعب والكلام معا ، وكان اللعب نفسه يهيئ له فرصا لا تنتهى للثرثرة فكان يعلق على أية نقلة للقطع مزهوا بلعبه ساخرا من لعب الشاب ، ثم صاح به بعد أن غلبه أول عشرة :

— العن سوء الحظ الذى رمى بك بين يدى ، وهيهات أن
تذوق الفوز ما دمت حيا ..

وعاودا اللعب بحماس وتحفز ، وانهمك فيه حسين انهماكا
شديدا فلم يفق حتى طرق سمعه صوت أقدام خفيفة تقترب من
الشرفة ، والتفت نحو الباب بحركة عكسية فرأى فتاة تحمل بين
يديها صينية شاي ، وسرعان ما استرد بصره فى حياء وارتباك
لأنه أدرك من أول نظرة أن الفتاة لا يمكن أن تكون خادمة . وأحس
بشخصها أحساسا غامضا وهو ينحن قليلا ليضع الصينية على
كرسى خيزران ، ثم به وهو يذهب مبتعدا . ولم يكن بصره قد
ارتد عنها فارغا ، أجل علقت به صورة وجه ممتلئ يميل الى
البياض ، وعينين سوداوين — أو لعلهما عسليتان ؟ — ذواتى نظرة
مليحة . ولبث فى ارتبাকে مورد الوجه على حين أمسك حسان
افندى عن ثرثرته بغتة ، ثم عاد يقول بصوت منخفض :
— هذه ابنتى احسان ، لم أر أبسا فى ان تقدم لنا الشاي
ما دمت أعدك كأحد آبائى ..

وحرك حسين شفته كأنه يتكلم ولكنه لم ينبس بكلمة ، وقال
حسان افندى وهو يصب الشاي فى القدحين :
— البنت فى البيت نعمة كبرى ، لقد تزوج أخواتها واحدة فى
القاهرة واثنتان فى دمنهور ولم يبق غيرها !
تمتم حسين فى ارتباك :
— ربنا يفرحك بها ..

ومضيا يحتسيان الشاي فى صمت . واخذ الارتباك يذهب
عن حسين مخلفا وراءه شعورا بالخرج لم يدر له سببا واضحا ،
أو لعله تهرب من السبب وتجاهله . ووجد الى هذا انه لا يزال
متأثرا بما علق فى مخيلته من صورة الفتاة على غموضها ، تأثرا
يعرفه فى نفسه حيال أية فتاة ولا دلالة خاصة له سوى انه
انفعال مكتوب على كل شاب بصفة عامة ، وكل شاب بكر بصفة

خاصة ، ولعل انبعائه هذه المرة في بيت - لا في الطريق ولا في الترام - هو الذي اشاعه في جو من الحيرة والبهجة والعمق .
وكان حتما ان يفكر في امور اخرى بعيدة عنه بعد القاهرة فتساوره مشاعر خوف وحذر ، وليث حسان افندى يراقبه صامتا ، ثم ضاق بالصمت فقال :
- اشرب شايك وتأهب للعشرة الآتية . وقعت في محالبي ولا نجاة لك .

٥٢

كانت على درجة من الحسن تسوغ تأثيره ، وقد صدق ظنه فيما تلا من ايام واسابيع فرآها في الطريق بصحبة أمها ، ولمحها في البيت اكثر من مرة . ومن حسن الحظ انها لم تثر من هيئة ابيها الا خديه المنتفخين ، ولكنهما جعللا لها طابعا خاصا ولم يقبحا وجهها . وادرك بسهولة أن شقة حسان افندى باتت تجذبه اليها بقوة لا يبررها نشدان التسلية وحده . وكان يمتلىء شبابا وحيوية ، فكان قلبه كان ينتظر اول طارق ، وسرعان ما ترعرعت بين جنبيه عاطفة يضطرم فيها الميل والرغبة والاعجاب ، فرامها أنسا لوحشته وريا لظمئه ، ولكن لم تغب عنه دقة موقفه لحظة واحدة من بادىء الامر ، فلم يكن يغفل عن متاعبه ، ولم يدر له بخلد أن يتراخى في القيام بواجبه ، بيد أنه لم يعالج أمره بالحزم ، وكان هذا فوق طاقته ، وكان عليه أن يختار بين الاغضاء من ناحية وبين الانزواء في حياة جافة موحشة لا نسمة فيها ولا أمل . واشتدت به الحيرة ، وفكر مرارا في العودة الى الفندق منتحلا عذرا من الأعذار ، ولكنه لم يفعل ، ثم وجد نفسه يسلم للأقدار تاركا لها الأمر كله تقضى فيه بقضائها . وتواصلت الأيام دون أن

يجد جديد ، وكان نادرا ما يرى الفتاة ولكنها لم تغب عن خاطره قط ، أما حسان افندى فلم يخرج عن مألوف ثرثرته وتجاهل الأمر كله . وفي اثناء ذلك لم تنقطع عنه أخبار أسرته بفضل رسائل حسنين التي لا تترك كبيرة ولا صغيرة ، فكأنه يواصل حياته بينهم ، ويشاركهم عواطفهم جميعا . وقد أخبره بأن أمه قررت ان ترصد النقود التي يرسلها لضرورات الكساء وحده ، وأنه ظفر منها بجاكته الجديدة يرتديها مع البنطلون القديم ، وانها ابتاعت لنفسها روبا ترتديه فوق فساتينها الخفيفة فيكسبها دفئا تستغنى به عن الملابس الصوفية ، وكان من نتائج ذلك - رصد نقوده لضرورة الكساء - انهم لم يستطيعوا الانتفاع بها في تحسين حالهم الغذائية التي ظلت على ما يعلم من التفاهة والسوء . وحدثه عن نفيسة فقال انها تظفر من آن لآن بتقدم يسير وأن الأم لم تعد تستولى على جل كسبها كما كانت تفعل قبل ورود نقوده ، فتوفر لديها مال قليل تنفقه على ثيابها كي تظهر امام الناس بالمظهر اللائق بهم . اما حسن فيبدو ان حياته الجديدة تستأثر به استئثارا شغله عنهم ، أو لعله ظن بعد توظيفه - حسين - انهم لم يعودوا بحاجة اليه فانقطع عنهم انقطاعا كليا . وواصل موافاته بأنباء استعدادده لامتحان البكالوريا في نهاية العام قائلا انه يستبسل في مذاكرته لأنه يعلم ما يعنيه سقوطه . وفي آخر رسالة وردت منه تودد الى اخيه توددا كبيرا ثم سأله في ختامها هل يطمع أن يمده بثمن بنطلون منجما على اشهر ثلاثة نظرا لأن الجاكته الجديدة قد فقدت بهاءها فوق البنطلون القديم الناحل ؟ ووقف حسين عند هذا الرجاء متفكرا ، لا يدري ان كان يستطيع ان يحقق له رغبته دون مساس بالقدر الذي يودعه صندوق التوفير . ولكن فيم يفكر وهو يعلم بأنه لن يخيب لحسنين رجاء ؟ . ربما كان بوسعه أن يزجره لو لم يفرق بينهما هذا البعاد ، ولكن البعاد رقق قلبه وجعل حنينه الى أهله قوة لا تقاوم . أجل انه حريص لا يرحب بتاتا

ببعضرة النقود ، ولكن حرصه يتخلى عنه بلا عناء كبير اذا كان البذل لأهله . ولن يضره التقدير على نفسه ثلاثة اشهر كثيرا في سبيل ارضاء حسنين . انه يعرفه حق المعرفة ، ويعلم بأنه يعد ما يقدم له من خير واجبا على الآخرين ، فاذا لم يسعفه بالبنطلون نسي في حنقه صنيع الجاكتة . ووجد الى هذا شعورا غريبا يدفعه الى ان يغمر بجميله الفتى الذى يؤمن بأنه سيكون له مستقبل باهر غدا . لقد ضحى بمستقبله في سبيله وينبغى ان تكون التضحية كاملة . وعاوده ذلك الشعور السعيد الحزين بأنه الضحية الصابرة على الأقدار التى تجهمت لهم ، وأنه الدرع الذى يتلقى الضربات دون ان يتحطم ، انه عزاء يستمد منه قوة وسرورا ، ويضفى على حياته معنى خلقيا باهرا .

ثم حدث ما لم يقع له في حسابان - هكذا قال لنفسه وان لم يكن صادقا - اذ كان يوما يجالس حسان افندى ويتنازعان الحديث كالعادة ، فسأله الرجل :

- ألم تفكر فى الزواج ؟

فاضطرب الشاب ، وشعر بما يشبه الذعر ، ثم غمغم قائلا :

- كلا

فرفع الرجل حاجبيه مستنكرا وقال :

- وفيم تفكر اذن ؟ ولماذا تعيش ؟ هل تظن للرجل من غاية ،

خاصة اذا اطمأن جانبه بالوظيفة ، سوى الزواج ؟

وتردد حسين قليلا ثم قال :

- على واجبات خليقة بالتقديم عما عداها .

ثم صارحه بما يكتنف أسرته من متاعب مستعينا بالمبالغة حيانا

حتى يقوى مركزه حياله . وأصفى الرجل اليه باهتمام حتى انتهى من

قصته ، ولكنه لم يبد عليه الاقتناع ، ولم يكن على استعداد للاقتناع

بما يحول بينه وبين امانيه ، ثم هز رأسه الأصلع باستهانة وقال :

- أراك تبالغ فى تقدير خطورة الحال . حسبك الصبر حتى

يحصل أخوك على البكالوريا ، ثم تكون في حل من التحرر من مسئوليتك ، وعليه هو أن يتوظف بدوره . النحاس باشا نفسه تزوج فهل ترى نفسك اكبر مسئولية منه ؟! فضحك حسين في ارتباك . وقال :

— ولكن أخى مصمم على استكمال تعليمه .. فعاد الرجل يقول هازئاً :

— اسمع اذا كانت لك أهداف في الحياة كاعادة دستور سنة ١٩٢٣ مثلاً فالأخلق بك أن تؤجل زواجك ، ولكن دستور سنة ١٩٢٣ قد عاد والحمد لله فلماذا لا تتزوج ؟ .. يجب أن تتزوج في نهاية هذا العام حال توظف أخيك ، اما اذا أصر على تكملة تعليمه ووافقت والدتك على هذا فلا يحق لها أن تعارض في زواجك ، أجل لا يحق لها أن تدلل واحداً على حساب حرمان الآخر من حقه الأول في الحياة .

ووجد حسين حديث الرجل مؤثراً أكثر منه مقنعاً ، ولكنه لم يشأ أن يقطع بالرفض أن تنفصم مابينه وبين الرجل من اسباب المودة . فقال :

— اعتقد انه من الممكن أن أحقق آمالى دون أن اقضى على آمال أخى .

وكان حديث الزواج يدور دون هدف معين في الظاهر ولكن التفاهم الصامت عن الهدف كان تاماً بينهما ، وسبقت اليه اشارات فيما ينشأ بينهما من أحاديث كل مساء ، وكأن حسين لم يشأ أن يقنع بهذا القدر من التفاهم فقال في حياء شديد :

— وأظن أنسة احسان لم تعد أولى خطى الشباب ... فضحك الرجل عالياً وقال :

— احسان صغيرة طبعاً ولكن الزواج لم يخلق للكبار .. لم يتقدم الموقف عن هذا الحد فيما تلا ذلك من أيام حتى اقترح حسان افندى أن يقدمه لبعض أقاربه في حفل عائلى فلم

يسمع حسين الا القبول . وخجل أن يظهر أمام الأقارب بمظهره الذى لا يسر حبيبا ، وركبه فجأة ما يشبه الجنون - هكذا وصفه فيما بعد - ، ففصل بدلة جديدة على أقساط وابتاع حذاء وطربوشا مدفوعا الى هذا كله بعواطفه ونزوته الطارئة حتى اذا جاء أول الشهر أدرك أنه من المستحيل أن يرسل النقود الى أمه . وأرسل بدلا منها خطاب اعتذار كاذب يقول فيه ان مرضا ألم به وأنه أنفق فى العلاج ما ناعت به ماهيته المحدودة . وقد كتب الرسالة بيد باردة ونفس منقبضة مقتنعا فى أعماقه بأنه هوى من خطأ الى خطأ ، وأن تعاقب الأخطاء قد أفقده اتزان التفكير وسداد الراى فلم يحسن حتى اختلاق العذر . . .

٥٣

ثم كان يوم الخميس ، وكان حسين مستلقيا على فراشه يقرأ جريدة الصباح التى يحتفظ بها عادة لوقت العصر ، فسمع دقا على الباب افظنه خادم حسان افندى ومضى الى الباب وفتحه واذا به يرى امه امامه . أجل امه دون غيرها ففغر فاه دهشة ، ثم أخذ يدها بين يديه هاتفا :

- اماه !.. فى طنطا ؟! لا أكاد أصدق عينى !

وشد على يدها ، ثم قبل خديها أو تبادلها بالأحرى قبلتين ، وفى طريقهما الى حجرته سألها بدهشة :

- لماذا لم يخبرنى حسنين بحضورك كى أنتظرك فى المحطة ؟

فجلست المرأة على الكرسي الذى قدمه لها وهى تقول مبتسمة :

- لم أجد صعوبة تذكر فى الاهتداء الى مسكنك ، ان الاهتداء

الى مسكن فى شبرا اثنى من هذا بكثير . وقد اقترح حسنين على ان أنتظر حتى يخبرك عن حضوري برسالة خاصة ولكنى لم أجد

داعيا لازعاجك وانت مريض كما لم احتمل البقاء في القاهرة
وانا اعلم انك هنا وحيد ومريض ..

مريض !.. أيقظته هذه الكلمة من نشوة اللقاء فشعر بالخوف
يقبض قلبه ، ولكنه قاوم الخوف بقوة الخوف نفسه فضحك وقال :
- يوسفنى اننى ازعجتك يا أماه ، ولكنى ما كنت اطمع في
هذه النتيجة السارة وهى حضورك بنفسك !..

وجعلت تتفحصه بعناية بوجه ينم عن اشفاق ورحمة ثم قالت :
- ماذا بك يابنى ؟.. كيف حالك ؟.. حدثنى عن مرضك ؟!
وداخله ارتباك بذل قصاراه كى لا تلوح اماراته في وجهه .
وكان واثقا من أن مظهره لايشى بمرض ، بل لم يكن يخفى عليه
أن صحته تقدمت تقدما ملموسا منذ توظيفه لتحسن حالته
الغذائية بصفة عامة ، قال ببساطة :

- لا شىء ذا بال . أصبت بنزلة معوية حادة ولكنها لم
تلازمنى اكثر من يوم وبضع يوم ..
فقالت وعيناها لا تتحولان عنه :

- لشد ما انزعجنا جميعا خصوصا وانك طمانتنا على
صحتك في خطابك الأسبق ..

ثم استدركت بعد وقفة قصيرة :

- وتوهمنا في الأمر خطورة ، والعياذ بالله ، لما راينا من
اضطرابك قطع نقود هذا الشهر عنا ..

وشعر بمثل شكة الابرّة في نفسه ، وقال بعجلة مبتسما
ابتسامة باهتة :

- اضطررت الى استدعاء طبيب وشراء أدوية فانفقت اكثر
من جنيهين ، وأنت تعلمين أنه ليس لدى احتياطى للطوارئ !
- لا عليك من هذا انى مسرورة لأنى وجدتك في صحة جيدة ،
ويحسن بك أن تبعث برسالة في الحال الى أخيك لتطمئنه
هو ونفيسة اللذين تركتهما في أشد حالات القلق ..

ثم ألقت نظرة متفحصة على حجرته ، فعلق بصره بالبدلة الجديدة على المشجب فى خوف وقلق وتهياً عقله لاختلاق كذبة جديدة ، ولكنها قالت :

— حجرتك نظيفة وأثاثها جيد . هلم أرنى شقتك ..
فضحك حسين قائلاً :

— ليست شقتى الا هذه الحجرة ، وتوجد حجرة أخرى مغلقة لعدم الحاجة إليها .
— كأنك تستأجر حجرة بايجار شقة !.. ألم يكن الفندق أفضل ؟..

— على العكس فإن إيجارها ينقص عن الفندق خمسين قرشاً .
— أخبرتنا بأنك لم تحتج الى خادم أفلا يتعبك تنظيفها ؟
— كلا ، هذا على هين كما تعلمين !
فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :

— يبدو لى أنك مرتاح ومسرور يا بنى ، ولذا فأنا سعيدة ..
وخيل اليه أن الأزمة قد مرت بسلام فقال بارتياح صادق :
— أنا السعيد يا أماه ، وسأستأثر بك شهراً كاملاً .
فما تمالكت أن ضحكت وقالت :

— بل هذه الليلة فحسب . ليس لى مكان أنام فيه ،
وسأكلفك أكثر مما تحتمل ما دمت تجيء بطعامك من السوق .
وقبل أن يتكلم دق الباب فقام اليه ، وسمعت الأم صوتاً يقول بلهجة ريفية « سيدى حسان يسأل عما أخرك اليوم »
ثم سمعت حسين يعتذر بحضور والدته من القاهرة ، وأغلق الباب وعاد الشاب الى مجلسه من الفراش فوجد أمه تنظر اليه بعينين متسائلتين فقال :

— خادم جارى حسان أفندى باشكاتب المدرسة ..
وكانت تعلم من رسائله أنه الرجل الذى أقنعه بالانتقال الى الشقة وعاوناه على ذلك بضمانته لاثائه الجديد فقالت :

— يبدو لى من قول الخادم انك تمضى عنده فراغك .
وتوهم لحظة انها مطلعة على سره كله فقال دون أن ينظر اليها
وهو يشعر بلسعة الخوف تجرى في لعبه وتعرض زوره :
— كثيرا ما أفعل . انه رجل طيب وهو الى هذا رئيسى وقد
وجدت في صحبته ما أغنانى عن المقاهى و « مفاستها » ..
لا بد للانسان من تسلية يزجى بها فراغه ..

ثم قامت الأم الى الحمام ففسلت وجهها ، وخلعت معطفها
فتناوله حسين ونفض عنه الغبار بفرشاته وهو يدعو الله أن تمر
الزيارة بسلام . أجل قد تولاه القلق وخاف على سره الافتضاح
واضطرب لوجودها في موطن هذا السر فلعن الظروف السخيفة
التي أجبرته على منع النقود عنها . وعادت المرأة الى مجلسها
وأخذت تسأله عن أحواله وحياته ، ولكن لم يمتد حبل الحديث
طويلا لأن الباب دق مرة أخرى فذهب حسين ليفتحه فيما يشبه
الحنق وكان القادم هو الخادم نفسه وقد قال بصوت بلغ مسمعها:

— الست الكبيرة ترغب في أن تحيى الست والدتك .
ونفضت الأم مسرعة وخرجت الى الردهة وقالت للخادم :
— لا يوجد مكان هنا لاستقبالها ، سأزورها بنفسى ..
وذهب الخادم فعادا الى الحجرة وحسين يقول :
— لا داعى لهذه الزيارة ، ولا يجوز أن نفرق دقيقة واحدة
في المدة القصيرة التي تمكث فيها هنا .
فتنهدت قائلة :

— مجاملات لا بد منها ، ولا يخفى عليك أنه يهمنى أن أجامل
أسرة رئيسك ..

وعاودا حديثهما ردحا من الزمن حتى خفضت حدة النور
واقبل الأصيل فنهضت الأم لترتدى معطفها قائلة « آن لى أن
أزور حرم جارك » ، وراقبها الفتى بعينين كئيبتين حتى غادرت

الشقة ، ثم تنهد من الأعماق وتساءل « ترى هل يساورها شك ؟ .. كيف تنتهى هذه الرحلة ؟! » .

٥٤

ولبت وحده مفتما قلعا ، وتزايد قلقه بمرور الوقت ، ثم لم يعد يشك في افتضاح سره ، ثم تساءل مدافعا عن نفسه قيم هذا الوهم كله ؟! عسى ان يمر كل شيء فى سلام ، لا يمكن أن يلمحوا الى شيء ، هذا مؤكد ، ولكن هل تغيب عنها الحقيقة اذا رأت احسان ؟. وتنبيه الى زحف الظلام فقام وأشعل المصباح الغازى ، ثم سمع الباب يدق فدق قلبه معه فى عنف ومضى اليه ففتحه فدخلت أمه وهى تقول :

— لا أظننى غبت كثيرا .

وعادا الى الحجرة فوقف هو مستندا الى حافة النافذة وراحت هى تخلع معطفها وحذائها فى صمت ، وجعل يقول لنفسه « وراء هذا الوجه شيء ، بل أشياء ، انى اعرف هذا . اراهن على انها لم تتجشم السفر لتطمئن على صحتى . ليست أمى بالأم الضعيفة ، انها حنونة حقا ولكنها قوية ما فى هذا من شك . ما افطع هذا الصمت ، متى ينقطع ؟ » وسألها متظاهرا بعدم الاكتراث :

— كيف وجدتهم ؟

فارتقت فراشه وتربعت عليه ثم قالت باقتضاب :

— لا ادري لماذا لم يرتح قلبى اليهم !

انه يدري لماذا ، برح الخفاء ، ووقع المحذور . وقال :

— الحق ان حسان افندى رجل طيب ..

— ربما . لم اقبله بطبيعة الحال ..

لن يسألها عما لم ترتح اليه منهم . فليتجاهل المسألة ، ولن يطول هذا طويلا على أية حال . ووجدتها تنظر الى يديها اللتين شبكتهما على حجرها . انها تفكر فيما ينبغي قوله . لشد ما اخطأ . ما كان ينبغي أن يستسلم لاغراء الظروف التي انتهت بمنع ارسال نقوده هذا الشهر . كيف ضل عائل الأسرة ؟! . ورأى امه ترنو اليه بطرف واجم ثم تقول :

— أما وقد اطمأنتت عليك فلا اظن ان يخجلنى ان اصارك بان منع النقود عنا قد أخافنى . اعذرنى يا بنى اذا اعترفت لك بأنه ساورنى بعض الظن بأن يكون المرض مجرد اعتذار !
فصاح وهو لا يدري :
— أماه !

— معذرة يا بنى ان بعض الظن اثم ، ولكنى كنت افكر طويلا فيما يمكن أن يلقي شاب وحيد فى بلد غريب . اجل انى اومن بعقلك ولكن الشيطان شاطر فخفت ان يكون اضلك ، ولا تسلم عن حزنى وانت تعلم بأنى اعتمد بعد الله عليك . اخوك حسن لم يعد منا ، ونفيسة فتاة تعيسة الحظ ، وحسين تلميذ وسيظل تلميذا طويلا ، وانت ادرى به ؟ وانا لنشقى ونجوع فى مغالبة حظنا ، وقد خسرنا نصيبك من المعاش وسنخسر عما قريب نصيب اخيك منه .

فقال حسين بانفعال :

— لست فى حاجة الى من يذكرنى بهذا يا أماه ، لقد اخطأ .. اضطرت الى منع النقود اضطرارا لا حيلة لى فيه . انى جد حزين يا أماه .

فقالت برقة وكأنها تحدث نفسها :

— انا الحزينة ..

ثم استطردت بعد لحظة صمت :

— انا الحزينة لانى ابدو كثيرا وكأنى احوال بين ابنائى وبين
سعادتهم !

فقال بقلق :

— لشد ما تظلمين نفسك ، أنت ام رحيمة كأحسن ما تكون
الأم رحمة ..

— يسرنى انك تفهمنى يا بنى .

وتنهدت وهى تنظر فى عينيه ثم قالت :

— لا يقلقنى شىء فى حياتى كما يقلقنى مستقبل أختك
نفسه . اود لو أغمض عينى ثم أفتحهما فأجدها فى بيت
زوجها . ولكن كيف ؟! لسنا نملك لتجهيزها مليما ، وأخوف
ما اخاف ان اموت قبل ان أطمئن عليها . أنتم رجال أما هى
فمن الولايا اللاتى لا نصير لهن .

فصاح حسين مستنكرا :

— لن تكون بلا نصير ونحن على قيد الحياة ..

فتنهدت مرة أخرى قائلة :

— مد الله فى أعماركم ، ولكن الفتاة لا تضمن سعادتها فى بيت
أخيها المتزوج !

ولاحت فى عينيه نظرة ذات معنى . انه يفهم ما يقال . اذا
كانت الفتاة لا تضمن سعادتها فى بيت أخيها المتزوج ، وما دام
حسين فى حكم المتزوجين ، فلا يجوز له أن يتزوج !. منطق
معقول ! ورحيم أيضا !، بيد انه ينطوى على حكم بالاعدام .
ما عسى أن يقول ؟ لم يعد يخاف أن تنهال عليه ضربا كما كانت
تفعل أحيانا . ولكنه لن يتخذ من هذا الأمان مسوغا لاغضابها ،
وعلى العكس سيتخذ منه دافعا بريئا للمبالغة فى اكرامها .
وقال بهدوء :

— اطمئنى يا أماه . أرجو الا تجد نفسيه نفسها يوما فى
هذا المأرق !.

فهزت رأسها هزة كأنها تقول له لنسعد المداراة جانباً
ولنتكاشف ثم قالت :

— الحق لقد ألححت على بعض الخواطر فلم أجد فرجة إلا في
أن أسافر اليك على مشقة السفر وكثرة النفقات .
فابتسم قائلاً بلا وعى تقريباً :

— اذن لم تحضري كي تطمئني على صحتي !
وندم في اللحظة التالية على افلات هذا القول منه ، ولكنها
ابتسمت اليه ابتسامة حزينة وقالت :

— اصغ الى يا حسين ، أترغب في أن تتزوج ؟
فتظاهر بالانزعاج ليخفى اضطرابه وقال :
— انى أعجب لما يدعوك الى هذا الظن !
— ليس أحب الى من أن أراكم أزواجا سعداء ، ولكن هل
ترغب في أن تعجل بالزواج حتى قبل أن تنهض أسرتك من كبوتها ؟
— لم أفكر في هذا مطلقاً ..
— الا يضايقك تطفلى هذا ؟
— مطلقاً !

— واذا اقترحت عليك أن تؤجل التفكير في الزواج ، الا تجد
في اقتراحى ظلماً ؟

— هو عين العدل والرحمة ..
فخفضت عينيها قائلة في حزن :
— ليس شقائى الحق فيما نزل بنا ولكن فيما أراه واجباً
مما يبدو لعين المتعجل قسوة وإناية ..
— لست هذا المتعجل على أية حال !
فترددت لحظة ثم قالت :

— ان ما أراه من حسن تقبلك لكلامى يشجعنى على أن
أنصحك بأن تترك هذه الشقة وتعود الى حجرتك بالفندق .
برح الخفاء ! واصيب بذهول ، ثم غمغم متسائلاً :

— الفندق ؟!

فقلت بحزم :

— انت لا تدري من امر الناس شيئا . ولعل جيرانك اناس طيبون ولكنهم لا يحفلون الا بمصلحتهم . واذا حافظت على جيرتهم كرهتنا وانت لا تدري ؟.

٥٥

ولم يعودا الى هذا الحديث مرة اخرى فلم تكن الثروة من طبعها شان الكثيرات من النساء . وقد قضيا صباح الجمعة في سعادة شاملة ، حيناً في البيت ، ثم انطلقا في المدينة لزيارة السيد البدوى . ولكنها صممت على الذهاب الى المحطة مع الضحى فلم يسعه الا الازعان لها مرغما . وذهبا معا وقطع لها تذكرة ، وفي اثناء انتظار القطار قال لها :

— سأتبقى في البيت حتى نهاية الشهر لآنى دفعت الايجار كما تعلمين ...

فكان جوابها أن دعت له بالتوفيق والسداد ، ثم جاء القطار فودعته وصعدت الى عربة من عربات الدرجة الثالثة وانحشرت بين جمع حافل من القرويات والقرويين ، وغشيته كآبة ثقيلة ، لأنه كان يقف منها موقف التوديع لأول مرة في حياته ، فغمز القطار الذاهب قلبه غمزة قوية ، ولأنه عز عليه أن يراها منزوية في العربة الحقيرة وسط البؤس والبائسين ، وعاد الى البيت كثير الهم والفكر . « انا الملوم . انى ادفع ثمن حماقتى . اى شيطان يخصنى بعنايته ؟ . هذه هي المرة الثانية . الخيبة تلاحقنى دائماً . لا مفر » . وجاءه خادم حسان افندى يدعو والدته الى الغداء فأخبره بأنها سافرت الى القاهرة . وجاءه مرة اخرى في المساء

- يدعوه الى السهرة المعتادة فلم يسعه الا الذهاب .
- وجلسا حول خوان النرد في الحجرة بعد أن أحكم الشتاء
- اغلاق الشرفة . وسأله حسان افندى :
- كيف عادت والدتك بهذه السرعة ؟
- فأجاب حسين مبتسما :
- لا يمكن أن يستغنى عنها بيتنا أكثر من يوم ..
- تجيء الخميس وتذهب الجمعة ؟! .. رحلة لا تستحق
- مشقة القطار !
- ولكنها حققت لها ماتريد فاطمánt على وتبركت بزيارة
- السيد ..
- وأشار الرجل الى داخل الشقة قائلا :
- قالوا لى أنها ست طيبة جدا .
- بعض ما عندكم ..
- فتساءل الرجل وهو يرمش بعينه العمشاوين .
- كنا نود لو زارتنا قبل الرحيل !
- كانت متعجلة ، وقد حاولت أن أؤخر سفرها الى العصر
- ولكنها اعتذرت بحاجة بيتنا اليها ..
- فقال الرجل بأسف :
- واعددنا لها غداء طيبا فاخترت لها بنفسى ثلاث دجاجات
- مسمنة ...
- فابتسم حسين فى ارتباك وقيم :
- بالهناء والشفاء لكم ..
- وضحك الرجل ، ثم فتح علبة النرد ولكنه بدلا من أن يشرع
- فى اعداد القطع للعب سأله باهتمام :
- ألم تفتاحها بما « اتفقنا » عليه ؟
- فشعر حسين بحرج ولكنه قال :
- كلا ...

— له ؟

— انها تعدنى رجل بيتها فكيف أفاتها بهذا ؟
فتناول الرجل زهر النرد فى قبضته وهزه ورماه ، ثم قال :
— أنت رجل خواف . كانت أمك خليفة بأن تفرح لهذا النبا .
— انه خليف بالفرح اذا جاء فى حينه ..

فضحك الرجل ضحكة عالية ثم قال ببطء :
— لى فلسفتى الخاصة فى الحياة ، ألق بنفسك فى عباها ولا
تخش شيئا . هل سمعت عن شخص واحد بمصر مات جوعا ؟
فقال حسين مبتسما :

— أصل شعبنا اعتاد الجوع !

فضحك حسان افندى واستطرد قائلا :

— كل الناس يعيشون . أغمض عينيك ثم افتحهما تجد
الصغير كبيرا ، والتلميذ موظفا والأعزب متزوجا ولا تجد خاسرا
الا من كان خوافا مثلك . هذه هى الحياة ..
خواف ؟! وضايقته هذه الصفة فثار عليها ثورة باطنية . ليس
الخوف ولكنه أدرك الموقف على حقيقته . أكان يكون شجاعا حقا
لو تخلص من المرأة وتركها تعود مهیضة الجناح خائبة الأمل ؟!
ليس الخوف . الرجل الأحقق يسىء فهمه . انه مصاب فى آماله
ولا يجد من يرحمه ولا من يفهمه . وعندما بلغ هذه النقطة من
أفكاره وجد رائحة غريبة مفاجئة ، أجل وجد سرورا فى أن يكون
على حق وأن أساء الناس فهمه ، بل أكثر من هذا تركز السرور فى
أن يسىء الناس فهمه وهو على حق ، سرور غامض كذلك السرور
الذى يخامره وهو يستسلم لعنت القضاء . وقال مبتسما :
— أنت يا حسان افندى من أسرة كبيرة فلا يمكن أن تدرك
متاعب أسر كآسرتنا ...

وندت عن الرجل ابتسامة خيلاء داراها بعبوسة مصطنعة وتمتم :
— عالج أمورك كما تشاء ولكن لا تنس نفسك . قال تعالى :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » . وكل آت قريب . ما هي الا
شهر معدودات ثم يحصل أخوك على البكالوريا فيتغير الموقف .
ارم الزهر لنرى من يكون البادىء باللعب . .

٥٦

وبعد مضي أسبوعين جاءته رسالة من حسنين ينبئه فيها بأنه
أدى رسوم الامتحان وأنه يذاكر ليل نهار لضمان النجاح . وكان
عظيم الثقة بذكاء أخيه ومقدرته فلم يداخله شك في النتيجة
المأمولة . ونزعت به نفسه الى الأحلام مع انه لم يكن من الذين
يستسلمون لسحرها عادة ، الى أنه كان يؤمن بكذب هذه الأحلام
بالذات . ورغم هذا كله تخيل أخاه قد فاز بشهادته . واقتنع بأنه
ينبغي أن يتوظف ليحمل العبء عنه ، ثم تخيل نفسه يبدأ حياة
سعيدة بضمير مطمئن ! . انه لا يطمح الى أكثر من حياة مطمئة
هائلة في ظل الزوجية . وقد علمته هذه الحياة التي حملها منفردا
في شقته المقفرة معنى الأسرة فحن الى حضنها الدافئ حنين الممرور
تحت مطر منهمر الى المأوى . لم يعد يطبق الاختلاف الى المطاعم
العامة لتناول غذائه ، وبات وكأنه يخاف الانفراد بنفسه في حجرته
ولو الى حين قصير ، واتعبه لحد السقم ما تتطلبه حياة الأعزب من
رعاية متواصلة لشقته وأثاثه وملابسه ، وكل هذا يهون الى جانب
ما يعاني من جوع قلبه وأشواقه . ولم يكن يحب الفتاة بالذات
بقدر ما أحب فيها المرأة والحياة الزوجية ، ولكنها كانت المثال
المحسوس لأحلامه فهفا اليها قلبه وحنينه . وزاد من تعلقه بها
انه لم يكن يراها الا في القليل النادر مما تجود به المصادفات
السعيدة ، وحسب حسين أنهم يتعمدون اخفاءها ، ولكن تبين له
أن حسان أفندى رجل محافظ حقا وأنه قد يتسامح ولكن بالقدر

الذى لا يחדش حياء ولا يجاوز حدا . ولو ان حسنين رضى
بالوظيفة لمضى من توه الى فتاته . وضمها الى نفسه وحيى الحياة
الحقة . هذا حلمه ، ولكنه مجرد حلم ، ولا يدبرى متى يتحقق .
وسيوصل حسنين تعليمه وما ينبغى له أن يحق لهذا ، اجل
فليدع الأمور تجري كما يشاء الله ولينتظر . ولكن تبين له ذات
مساء انه لن ينعم بالانتظار فى هدوء وطمأنينة ، اذ قال له حسان
افندى عقب فراغهما من احتساء الشاي مباشرة :
— جد امر هام يستحق أن أشاورك فيه .

رفع اليه حسين عينيه متسائلا فقال الرجل باهتمام :
— الامر أن ابن عم احسان — وهو تاجر ومزارع بالبحيرة —
يرغب فى طلب يدها ، وقد رأيت أن أسألك عن رأيك قبل البت فى
الموضوع برأى !!

وكانت مفاجأة سيئة وجم لها الشاب فى قهر وحيرة كأنه
لا يصدق . والحق أن بعض الشك ساوره ولكنه وجد نفسه فى مأزق
لا يخرج منه تشككه . وشعر بحق انسان وضعته ظروف قاسية
بين لا ونعم وهو عاجز عن الكلام ، فما عسى أن يقول ؟! اذا قال نعم
خان أسرته ، واذا قال لا قطع ما بينه وبين حسان افندى .
وتراءى لعينيه على اضطرابه وحيrote وجه الفتاة التى تعلقت بها
آماله فشعر بقبضة اليأس تشد على عنقه ، ورمق الرجل الذى
يعذبه بنظرة باردة تخفى وراءها حنقا متزايدا . وكان الآخر
يتفرس فى وجهه صابرا فلما طال الصمت غمغم متسائلا :
— ما قولك يا حسين افندى ؟

ولم يجد بدا من الكلام فقال بلهجة تنم عن الرجاء :

— لقد فصلت لك ظروفنا بما لا يحتاج الى مزيد .

فقال الرجل فيما يشبه الضجر :

— سيفرغ أخوك من دراسته فى أوائل الصيف القادم .

— ولكنه فيما أرى مصمم على مواصلة تعليمه ..

فقال الرجل بضيق :

— فكرة سخيفة لا يصح أن تدعن لها وتتحمل مسئوليتها ..
وأراد أن يتفادى من الخطر المائل فقال متهربا كما يتهرب
الفأر وراء رجل كرسى لن تغنى عنه شيئا :

— بوسعى أن أعلن الخطوبة فورا على أن انتظر بعد ذلك ..
فتساءل حسان افندى بفتور :

— كم عاما ؟

آه ، ان الرجل يظنه لا يحسب حسابا إلا لأخيه ، ولا يكاد
يدرى شيئا عن نفيسة ومشكلتها المستعصية ، ليته كان بوسعه
حقا أن يصارحه بالحقيقة كلها بغير خفاء ! .. وأجابته قائلا في
اشفاق شديد :

— أربعة أعوام .. ؟!

ونظر إليه ليرى وقع تصريحه من نفسه ثم بادر قائلا :

— لن يضيرنا الانتظار شيئا ، ألا تثق في ؟!

ومط الرجل بوزه وهو يهز رأسه ثم قال بهدوء مخيف :

— أربعة أعوام !، يا ترى من يعيش ! .. أتريدنى على أن

أقول لأُمها انى رفضت ابن عمها الذى يرغب فى الزواج منها الآن
كى تنتظر أربعة أعوام ؟! ... يبدو لى يا حسين افندى انك لم
تكن جادا فيما أظهرت من رغبة !

وانتفض حسين فى ألم بالغ وهتف :

— سامحك الله يا حسان افندى ! .. انى رجل مخلص ولا زلت

عند رغبتى الصادقة ، ولا أرى سببا وجيها يحول بينى وبينها ..
فقال الرجل بفتور :

— لست أبا ولا أما فلا عجب ألا ترى وجاهة السبب ، والآن

فلندع النقاش جانبا وأجبنى باختصار ألا تستطيع الاقدام على
الزواج فى هذا العام ؟

وساد الصمت ، وطال دون أن ينبس حسين بكلمة . لم يجد

شيئا يقوله ، وتفكر طويلا في حيرة ، ثم اطبق شفتيه في يأس وقهر .
وابتسم حسان افندى ابتسامة باهتة ، واطبق شفتيه بدوره وقد
نم وجهه البيضاوى الصغير على الجمود والكدر . وطال الصمت
والجمود وفاحت رائحة الخصام كالغبار في يوم خمسينى فلم تعد
تحتملها الاعصاب . ومع ذلك لم يحتمل حسين أن تجيء القطيعة
من ناحيته فتساءل بصوت حزين كأنه كان يتنبأ الجواب سلفا :
- ألا يمكن الانتظار ؟

فقال الرجل بنرفزة :

- كلا ...

ومكث حسين قليلا في خجل والم ثم نهض مستأذنا في الانصراف
فأذن له . وغادر الشقة لا يكاد يرى ما أمامه من شدة الحزن
والياس ، غادرها وهو يعلم أنه لن يعود اليها مرة أخرى . وذهب
الى حجرته فأوقد المصباح الغازى وارتمى على الفراش . واللقى
على ما حوله نظرة سخط وعداوة ، عداوة لكل شيء ، كان في تلك
اللحظة عدوا لنفسه وللشجر جميعا . « أضعيف انا أم قوى ؟ وما
صنعت بنفسى اهو اقدام أم افرار ؟! كل شيء بفيض مقيت ، هذه
الحجرة التى أودعها وحجرة الفندق التى تنتظرنى بالوحشة نفسها
وحسان افندى وطنطا وحسين وأمى وأنا . ربما تصور الرجل
أنه يستطيع أن يضايقنى فى عملى بالمدرسة !.. تباه له ، سيجدنى
أصلب مما يتصور . ولكن ما قيمة هذا كله ! الموت أرحم من
الأمل . لست أعجب لهذا فالموت من صنع الله والأمل وليد
حماقتنا . الأولى خيبة والثانية خيبة فهل قضى على أن امنى
بالخيبة مرة بعد أخرى ؟ لماذا لا يتوظف بالبكالوريا ؟! لماذا لا يحب
لنفسه ما أحب لى ؟! » وتناهى به الضيق فلم يعد يحتمل وحدته
فقام الى المشجب وارتدى بدلتته وغادر البيت ، وجعل يخبط على
وجهه من شارع الى شارع فى ليل بارد حتى أعياء المشى فمضى
الى مقهى . وأنعشه المشى والبرد من حيث لا يدرى فاتخذ مجلسه

وهو أهذا نفسا . وراح يتسلى بمنظر الجلوس ويستمتع الى ما يتطاير من سمرهم فلم يخل من كلمة أو لفظة تدعو الى الابتسام . وخبث فورة الغضب الجنونية وانحسرت موجتها الصارخة عن حزن عميق لكنه هادىء وصامت . ولا يخلو فى الوقت نفسه من ندم . اكان يؤثر حقا أن يوافق الرجل على رأيه ؟ هل يسره أن يترك أسرته تحت رحمة الأقدار ؟ يا له من احمق ! . من حقه أن يحزن ، ولكن ليس من حقه أن يغضب هذا الغضب الجنونى . وليس من الحكمة أن يستسلم للحزن ، أجل انه يعلم أنه سيحزن طويلا مادام الشعور لا يخضع للعقل ، ولكنه يؤمن أيضا بأن لكل شىء نهاية ، حتى هذا الحزن الخائق لا بد أن يدركه العزاء . وانتظر هذا العزاء كما ينتظر فريسة الكابوس صحوة النجاة . انه آت لا ريب فيه كما علمته المحن ، وهناك لن يجد ما يندم عليه وسيجد ما يفخر به ويطمئن ضميره . ان شعوره بالواجب يفوق مشاعره الأخرى ، ولشد ما أخطأ الرجل حين اتهمه بالخوف ، ويحسبه ان أمه تفهمه وأنها تعده الأمل والعزاء ، وافتر ثغره عن ابتسامة لهذا الأمل المنتظر وهو يعانى مرارة الحزن الراهن ..

٥٧

وحوالى منتصف الصيف استقبلت الأسرة — بعطفة نصر الله — يوما سعيدا حين نجح حسنين فى امتحان البكالوريا . وجلسوا ثلاثهم جلسة هناء وصفاء ، فمرت ساعة لا يشوبها كدر ، وتملت الغبطة قلوب نهكها التعب . وجاء فريد أفندى محمد وأسرته للتهنئة فشر حسنين حيا لخطيبته بشعور سعيد بخيلاء ساذجة كأن البكالوريا قد أضفت عليه رجولة جديدة خليقة باحترامها وعطفها . وكان كماداته مرحا لطيفا فتحدث طويلا منتشيا بالفوز

والضحكات تنطلق من فيه تباعا ، وكان منظر بهية مما يستثير
سعادته والله معا : كان يسعده أن تلتقى عيناها خفية فيقرأ في
نظرتها الصافية المحبة العميقة المهدبة ، ولكنه لم يكن يحظى
بالصفاء تحت نظرتها الا قليلا ثم يندلع في قلبه لسان لهب ، ثم يذكر
حرمانه الطويل فيثور حنقه ، ويرمق العامين المنطويين بحسرة
وأسف . واسترق اليها النظر خلال الحديث فانصهر بصره على
وجهها البدرى وجسمها البض ، وتخيلها - كما كان يطيب
له ان يتخيلها كثيرا - متجردة الا من شعرها المنسدل فبلغ
ريقه درجة الغليان . وجعل يتساءل صامتا الا يمكن أن تغير
من سياستها بعد حصوله على البكالوريا ؟ أليس من العدل أن
تهبه قبلة على سبيل التهئة ؟! ... وظل وعيه متنقلا بينها
وبين أخيلته وبين الحاضرين ، وكان السرور شاملا بيد انه لم
يخل من عذاب لا يكاد يرحمه في محضرها .

ثم خلت الاسرة الى نفسها مرة أخرى فداخلها احساس جديد
- غير السرور الصافي - بالمسئولية ، لأنهم تعلموا أن الظفر
بالبكالوريا سعادة يعقبها تفكير ومتاعب . وكان اتمام تعليمه العالى
أمرا مفروغا منه فيما بينهم ولكن الرأى لم يستقر على اختيار
بعينه . وقد قالت نفيسة :

- عليك الآن ان تختار المهنة التى تريدها .

فقال حسنين الذى كان قد قتل الأمر بحثا :

- التعليم العالى مرحلة طويلة شاقة ، ومستقبله مجهول .

فنظرت اليه المرأتان فى دهشة فاستطرد قائلا :

- لقد فكرت فى الأمر طويلا ، وانتهيت من تفكيرى الى انه

يجب أن أختار مدرسة من مدرستين البوليس او الحربية !

وهتفت نفيسة بسرور :

- ما أجمل هذا !

ولم يحفل بسرورها لأنه كان يفكر فى الصعاب التى تعترض

آماله فقال :

— دراسة عامين فحسب ثم أصير ضابطا . والنجاح مضمون تقريبا لأنها دراسة باللعب أشبه ، والوظيفة في النهاية لا شك فيها . هذه ميزات لا يستهان بها !
فهمت نفيسة بالحماس نفسه :

— دراسة عامين ثم تصير ضابطا !.. ما أشبه هذا بالأحلام !
وتساءلت الأم باشفاق :
— والمصروفات ؟!

ونظر إليها طويلا كالحائر ثم قال :
— البوليس غالية جدا ، ولكن الحربية معقولة ... مصروفاتها سبعة وثلاثون جنيها .

فتطالعت إليه المرأتان بوجوم ودهشة فبادرهما قائلا :
— ليس الأمل في المجانية معدوما أو على الأقل في نصف المصروفات ، ولنا في أحمد بك يسرى شفيق عظيم القدر في هذه الحال ...

ولم يذهب الوجوم عن نظرة الأم وبدت قلقة حيال هذا الأمل . فقالت :

— حدثني فريد افندى محمد عن معهد التربية الابتدائي فوجدت فيه ميزات تستحق التقدير ، فمدة دراسته ثلاث سنوات بالمجان تضمن بعدها وظيفة مدرس .
فقال الشاب بامتنعاض :

— انى اكره ان أعمل مدرسا ، واكره اكثر ان التحق بمعهد بالمجان .

— ولكنك لا ترى مانعا من دخول الحربية بالمجان .
— ثمة فرق كبير يقوم بين معهد يقوم على المجانية ومعهد قد يعينى من مصروفاته كلها أو نصفها . سيقول الناس عن الحال الأولى انى تعلمت بالمجان أما فى الأخرى فهيها ان يعلم بها أحد

غير كاتب المدرسة !

فهزت الأم رأسها غير مقتنعة وتمتت :

- المسألة أخطر من هذا !

- لا يوجد ما هو أخطر من هذا ، أنا أكره الفقر وسيرته ،

ولا أحب أن اخفض رأسي بين أناس مرفوعي الرءوس !

ولم يكن هذا فحسب دافعه الحقيقي الى هذا الاختيار ،

والواقع انه طمح الى المدرسة الحربية مدفوعا بنفسه الظمأى الى

السيادة والقوة والمظهر الخلاب ، بيد ان أمه ظلت على قلقها وعدم

اقتناعها فتساءلت :

- واذا لم يتيسر اعفاؤك من المصروفات ؟

ففكر متجهما ثم قال :

- سأحتاج بادئ الأمر الى الدفعة الأولى من المصروفات وفي

مرجوى أن أنالها من أخى حسن ! لا اظنه يتخلى عني كما لم يتخل

عن حسين ، أما الباقي فليس بمتعذر توفيره اذا نزلت لى عن نقود

حسين الى ما يمكن أن تجود به نفيسة (ثم ناظرا الى أخته) ولا

اظنها تبخل على خاصة وان عملها يجيئها بكسب لا بأس به ..

ونقل بصره بين أمه وأخته ليسبر وقع كلامه ولكنه لم يحظ

بما يشجعه فاستطرد يقول برقة :

- عاما شدة بمران كما مر غيرهما وبعدهما الراحة والهناء !

وثابر على ترديد بصره بينهما في رجاء ، ثم قال باغراء :

- أم ضابط وأخت ضابط !.. تصورا هذا ؟! تصورا

مغادرتنا لهذه العطفة الى شقة محترمة بالشارع العام !

ورقت نفيسة لنظرته المتوسلة فاجتاحتها موجة ايثار وكرم

فقالت :

- لا تحمل هما من ناحيتي ، سأهيك أقصى مايمكننى ان أهيه!

فتجلت في عينيه نظرة امتنان وغمغم :

- شكرا لك يا نفيسة ، ولن تكون أمى دونك كرما ، وسيمضى

كل شيء على الوجه الذى نحب جميعا . .
ودعت له الأم بالتوفيق ، لم تكن ترجو من ورائه خيرا كثيرا ،
وكان أقصى ما تطمح اليه أن يؤجل زواجه - بعد توظيفه - عامين
حتى ترمم ماتهم من أسرتها ، ولكن لم يسعها إلا أن تنزل له عن
نقود الانقاذ التى يرسلها حسين وأن تدعو له بالتوفيق من أعماق
قلبها . وتأثرت نفيسة بما غمرها من ايثار وكرم ارتقيا بها الى
منزلة عالية من الصفاء والسرور والحماس ، ونعمت بهذه السعادة
لحظات غالية . ولكنها لم تدم طويلا ، اصطدم تيارها الدافق بعقبة
كئود من الذكريات السود فتوقف عن الجريان الساجع وتجمع
وتطين ، وفتر الحماس فخفضت عينيها فى خمود ، ليس الفرح
الصائى من حقلها . وما عسى أن يصنع السرور بنفس ملوثة
منطوية على البشاعة والشقاء ؟

٥٨

قال حسنين لنفسه وهو يغادر ميدان الخازندار الى شارع
كلوت بك « سيقول حسن اننا لا نسعى اليه الا اذا طمعنا فى
نقوده ! » وتألم لهذا الحاطر ، ولكنه خفف من وقعه قائلا انه هو
- حسن - الذى لم يشأ أن يتردد احد منهم على بيته . وجعل
يتساءل فى حب استطلاع عما سيجد فى هذا المسكن المحرم ! ثمة
شيء « غير طبيعى » ولكنه لا يستغرب من حسن !

ثم ذكر النقود التى يريدونها فهاله الأمر ، ماذا لو عجز حسن
عن أن يمد له يد المعونة ؟ ، وشعر بأصابع باردة تقبض على قلبه
وتوشك أن تعصف بآماله . واهتدى أخيرا الى عطفة جندف
وأخذ يرتقى أرضها القذرة باحثا عن البيت رقم ١٧ حتى انتهى
اليه ، ورأى غير بعيد بائع بطاظة جالسا القرفصاء على الأرض
أمام عربته فسأله مشيرا الى البيت :

— هل يقيم هنا حسن افندى كامل ؟

فسأله الرجل بدوره :

— تعنى حسن الروسى ؟

فقال حسنين بدهشة :

— حسن كامل على المغنى ؟

فقال الرجل :

— هذا بيت حسن الروسى الذى يعمل بقهوة على صبرى

بدرب طياب ...

واغضى حسنين فى حياء منزعجا انزعاجا فظيعا ، لم يعد يشك فى انه حيال بيت اخيه وقد تؤكد ذلك بذكر على صبرى ، ولكنه لم يتصور انه يعمل بهذا الدرب الذى فرقع اسمه فى أذنه كالقنبلة . وهذا اللقب : الروسى ما معناه ؟ ودخل البيت وكأنه يفر فزكمته رائحة بئر السلم التنتنة وارتقى السلم الخزونى وهو يشعر بأنه يهبط الى هاوية ما لها من قرار . وطرق الباب فجاءه صوت امرأة يصيح فى ابتذال « من ؟ » ثم فتح الباب عن امرأة قصيرة بدينة عميقة السمرة تنطق سحنتها بجمال وقح . حدجته بنظرة نافذة وسأله :

— ماذا تريد ؟

فقال حسنين بصوت منخفض من الاضطراب :

— حسن كامل ..

— من انت ؟

— أخوه ...

فانبسطت أسارير المرأة وتنحت جانبا وهى تقول :

— سى حسين ؟

فتمتم فى ذهول :

— حسنين !

ودخل فى تهيب وحياء . من تكون هذه المرأة ؟ وكيف عرفت

أسماءهم ؟ هل تزوج حسن ؟ وشعر بقشعريرة باردة ، أيمن
أن يقال عن هذه المرأة أنها زوجة أخيه ؟ وأن أمه حماؤها ؟...
وتمنى من عماق قلبه أن تكون مجرد رفيقة . ومضت المرأة الى
باب في نهاية الدهليز ونقرت عليه ففتح بعد قليل وظهر حسن
على العتبة ، وكأنه شعر بوجوده فاتجه بصره اليه ثم هتف
بدهشة وسرور :

— حسنين ..

وهرع نحوه وشد على يده بترحيب وشوق ، وقبل أن يتكلم
أحدهما تسأل من الحجرة نفر من الرجال متتابعين ، ألقوا على
حسينين نظرة عابرة وقال بعضهم مخاطبا حسن :

— سنسافر عصر اليوم الى السويس باذن الله ، وتلحق
بنا غدا ...

ثم غادروا الشقة . كانوا من ذوى الجلايب ، تلفت سحتهم
النظر بغرابتها ولا يكاد يخلو وجه أحدهم من تشويه . وداخل
حسينين شعور بالقلق ، من يكون هؤلاء الرجال ؟... أفراد
التخت ؟... ما أبعد هذا عن التصور . لقد ذكره منظرهم برجال
العصابات كما يظهرون على الشاشة ، وطرات عليه فكرة مرعبة
بأن شقة أخيه تناصب القانون العداء !. وألقى على حسن نظرة
متوجسة فراه يرتدى جلبابا مقلما فضفاضا ، ويبدو في صحة
وقوة ولكن يلوح فوق حاجبه الأيسر وفي صفحة عنقه اليسرى
ندبان كبيران كأنهما أثرا طعنتين شديديتين . رباه ، ان أخاه لا يخلو
من تشويه إجرامي أيضا ! ولعله الآن يستطيع أن يدرك حقيقة
الأسباب التي حجبتة عن عالمهم . وأوما حسن الى الحجرة في
نهاية الدهليز وقال للمرأة :

— رتبى الحجرة واجمعى الأشياء ...

وشبك ذراعه بذراع حسينين واتجه الى حجرة النوم ، ثم
أغلق الباب وراءهما وأجلسه الى جانبه على الكنبة وهو يقول :

— كيف حالكم ؟ .. كيف الوالدة ؟ .. ونفيسة ؟ .. وما
أخبار حسين ؟

وحدثه عن الأسرة بعقل شارد وروى له ما يعلم من أخبار
حسين ثم قال بلهجة تنم عن العتاب :
— انقطعت عنا كأنك لست منا ولسنا منك ، وباتت أمانا في
حزن شديد ...

وهز حسن رأسه في كآبة وقال :
— انى غارق فى حياتى حتى قمة رأسى ، ولكن توظيف حسين
طمأننى عليكم ...

وتساءل حسنين متأثرا بما طرأ على أخيه من تغير فى مظهره
ترى هل أبقى على حبه القديم لهم ؟ ، وانساق بغريزته الى التودد
اليه قبل أن يتطرق الى مهمته وتساءل فى قلق :
— ما هذا يا أخى ؟!

فقال حسن ضاحكا :

— مخلفات معارك . لم تكن حياتى لتخلو من عراك وقد
أصبح العراق من أهم واجباتى فى الحياة الجديدة ..
وود لو يسأله عن هذه الحياة الجديدة ولكنه تحامى ذلك بغريزته
أيضا ، لقد قصد هذا البيت المحرم فى سبيل الحياة ، وحسن
يتخذ من العراق واجبا فى سبيل الحياة أيضا ، فما أفلطح ماتسيماننا
الحياة من خسف ! « من كان يحلم بهذا المصير ونحن صفار
نلاعب لما كان حسن طفلا حاذقا شاطرا ، وكان أبى يحبه أكثر من
أى شئ فى الوجود ، ثم بدا وكأنه انقلب له عدوا ، ولكن لم يكن
يتصور أحد أن ينتهى به المطاف الى هذا البيت ! لا شك أن
حسين أدرك الحقيقة فى زيارته لهذا البيت فى سبتمبر الماضى ،
ولكن ترى هل تعلم أمى بكل شئ ؟ ! » . لم تواته شجاعة على
السؤال الصريح ولكنه تساءل فى مكر :

— ما العلاقة بين الغناء والعراق ؟

فقهقه حسن ضاحكا ثم قال :

— هما شيء واحد في عرف الكثيرين ..

وهنا جاءهما صوت المرأة من خارج وهى تقول :

— انى ذاهبة ، هل تريد شيئا ؟

فقال لها باقتضاب :

— مع السلامة ..

ولم يستطع حسنين أن يقاوم حب استطلاعـه فسأله بقلق :

— هل تزوجت يا أخى ؟

— كلا ..

فلاح الارتياح فى وجه حسنين غير خاف فتساءل حسن :

— أسرك هذا ؟

— نعم ..

— لماذا ؟

فقال الشاب بسداجة :

— أفضل أن تختار زوجك من وسط كوسطنا ..

فقطب حسن كالمستاء وقال :

— انها أفضل من سيدات كثيرات ، تحبى وتخلص لى

ولا تضن على ببال ..

وأوشك أن يقول له « ومن مالها الخاص أعطيت حسين ما احتاجه من نفقات » ولكنه أمسك رحمة بأخيه — لم يستطع التغير الذى لحق بطبعه أن يؤثر فى عواطفه نحو أخيه حتى حين استيائه — ولما رأى القلق والندم يلوحان فى عينى الشاب قال بركة :

— ان اخلاص الزوجة لزوجها لا يخلو من منفعة وراءه أما هذه المرأة فاخلاصها غير مشوب . سوف تعلمك الحياة أمورا كثيرة تجهلها ..

فهر حسنين رأسه متظاهرا بالاقتناع ، وابتسم الى أخيه ابتسامة رقيقة متوددا . ثم ذكر أمرا كاد ينساه فرحب به ظنا

منه انه خليف بأن يصفى على الجو الذى كاد يتوتر روحا من المرح
فسأل أخاه ضاحكا :

— علمت وأنا أسأل عن بيتك انهم يدعونك الروسى فما معنى
هذا ؟

فضحك حسن ضحكة عالية أعادت الطمأنينة الى نفس الآخر
وقال وهو يشير الى رأسه :

— نسبة الى هذا !.. انى اكسب بعرق جبينى على نحو ما
(وبسط يده ونطحها برأسه ثم نظر الى أخيه نظرة ذات معنى
ضاحكا) أو بالأحرى بدم جبينى . لا بد من العرق كى تعيش
ولكنه يختلف العضو الذى يعرق بين فرد وآخر .

وشعر حسنين بفراة نحو أخيه ، وفكر مليا ، ثم قال بحزن :
— ثمة الناس يكسبون دون أن يعرق لهم جبين !
وبلدا حسن ، وكأنه لم يفهم قوله على حقيقته فقال بحماس :
— هذه غاية الشطارة .. ان تكسب بعرق جباه الآخرين !
وسئم حسنين هذا الحديث الذى يجرى بلا ضابط فصمم
على ان يطرق الموضوع الذى جاء من أجله . وصمت قليلا ثم قال
بصوت منخفض :

— أظن يسرك أن تعلم بأنى نجحت فى امتحان البكالوريا .. ؟
فهتف حسن بسرور :

— مبارك . أسر طبعا بسرورك وسرور أمنا !
تفرس فى وجه الشاب ثم استطرد فى لهجة لا تخلو من
اشفاق وسخرية :

— وظيفة ، ثم طنطا أو الزقازيق ، اليس كذلك ؟
فقال الشاب منتهزا هذه الفرصة التى هياها الآخر كى يتقدم
خطوة جديدة فى سبيل غرضه :
— كلا ، فى نيتى أن ألتحق بالكلية الحربية !

— الحربية !.. عظيم جدا !.. الحمد لله على أنك لم تختار مدرسة البوليس !.

— مصروفاتها كبيرة ..

— لا أعنى هذا ولكنى لا أستلطف ضباط البوليس !.

فحدّجه الشاب نظرة تساؤل فقال حسن مبتسما :

— ضباط الجيش رجال أفرّاح ، نراهم أمام المحمل وفي الاحتفالات الكبرى أما ضباط البوليس فلا تراهم إلا عادين وراء خراب البيوت !..

وساد الصمت وراحا يتبادلان النظرات ، حسنين فى قلق وحياء وحسن فى ابتسام له معناه ، ولبثا كذلك طويلا حتى انفجر حسن ضاحكا فضحك الآخر وهو يفيض بصره حياء ، وواصل الضحك حتى تعباً ، ثم سأله حسن بلهجة ذات مغزى :

— كم ؟!

فضحك حسنين مرة أخرى وقد احمر وجهه من الحياء . ثم قال :

— الدفعة الأولى من المصروفات . يؤسفنى أن أقول انها مبلغ لا يستهان به ولكنى سأدبر الدفعة الأخرى ومصروفات العام الثانى من نقود حسين وما وعدتنى به نفيسة !

وذكر حسن كيف كان يعد فيما مضى الخائب الفاشل فى الأسرة جميعا : الآن يرونه ملاذهم فى الملمات ! وأحسن زهوا ولكن هذا لم يغير من شعوره الطيب المتأصل فى نفسه نحو أسرته بل لعله ضاعفه . وسأله أخاه مبتسما :

— كم هذا المبلغ الذى لا يستهان به ؟

فقال حسنين فى خوف :

— عشرون جنيها !

ولاح الانزعاج فى عينى حسن وقال وهو لا يدرى :

– عشرون جنيهاً ؟ .. ان جيشنا كله لايساوى هذا المبلغ ! ..
هل تنوى الالتحاق بمدرسة اللوات ؟
وانتظر حسنين فى اضطراب وقلق ولم ينبس بكلمة حتى عاد
الآخر يقول بجذ واهتمام :
– هذا مبلغ جسيم حقاً ، ولا يمكننى ان اعطيك – اليوم
على الأقل – أكثر من عشرة جنيهاً !

وسادت فترة صمت اليم ، ثم نفخ حسن فى ضيق وقال :
– لو جئتنى قبل أسبوع ! .. وعلى أية حال سأسافر غدا
الى السويس ولعى أعود بما يكفيك !
وتفكر ملياً على حين قال حسنين بصوت منخفض :
– يؤسفنى انى أزعجتك !
فقرصه فى أنفه ضاحكاً وقال :

– كيف تعلمت هذا الأدب وعهدى بك طويل اللسان ! ..
لا تنزعج سأتيك بما تريد ولو قتلت قتيلاً ونشلت محفظته .
ثم أعطاه عشرة جنيهاً ، وحمله السلام الى أمه وأخته ،
وطلب اليه أن يستمسك بالحكمة اذا تحدث عما رآه فى بيته .
وشد حسنين على يده شاكراً وغادر الشقة . وما أن انفرد بنفسه
حتى قال بصوت ثقيل كئيب « حياة حسن فضيحة يجب التستر
عليها ، ولعل ما خفى منها أدهى وأفظع » . وقطع الطريق متفكراً
متغماً يلفه احساس بالاشمئزاز والخوف . لم يكن بوسعه أن
ينسى جميله ولا ما أبداه نحوه من عطف أخوى ، ولكنه لم يستطع
كذلك نسيان المرأة والرجال المشوهين والنديين الخطيرين ، نقش
هذا كله على صفحة قلبه بمداد التقزز والرعب . رباه ، لقد أنقلب
حسن الى نوع آخر من الأدميين ، لم يعد من الأسرة ولا من المجتمع
الذى يعرفه . انه يترنح كأنما ضربة هائلة قد هوت على رأسه
فأفقدته وعيه ، وكلما جد فى السير امتلا شعوره بفداحة الخطب .
وذكر حاجته اليه التى جعلته يستوهبه نقوداً لا يدري من أين

انت ، فاشتد اشمئزازه وحنقه ، ولعن هذه الحاجة من أعماق قلبه في يأس وقهر . وأمر من هذا كله أن حاجته لم تنته ، فسيعود اليه بعد أيام ويمد اليه يده سائلا ! ترى من أى سبيل تأتية النقود في السويس !. ان قلبه لا يكذبه ، وفيما رأى بعينه الكفاية لمن يتشد الدليل ، ورغم هذا كله سيعود اليه ويسأله ان يتم صنيعه له ! هل يستطيع أن يغضب لكرامته حقا ؟ هل يستطيع ان يرد هذه الجنيهاات الى أخيه ويصيح في وجهه انى لا أرضى عن حياتك القدرة ؟ وندت عنه ضحكة مبحوحة مرة .. انه يعلم انه يهذى هذيانا سخيفا . سيعود اليه راضيا ويأخذ النقود - اذا تفضل بها - شاكرا ممتنا . ولو علم انه ذاهب الى السويس ليسرقها ما وسعه الا أن يدعو له بالتوفيق . وقال وكأنه يحاور ضميره المتوجع « مهما يكن من أمر فهو بالنسبة لنا أخ فاضل كريم ! » .

٥٩

وفي عصر اليوم نفسه مضى الى قبلا أحمد بك يسرى بشارع طاهر . والواقع انه كان يندفع بحيوية هائلة نحو الأمل الذى ركز فيه حياته جميعا ، فاما الحرية او الموت . وجلس فى السلامك ينتظر البك مسرحا طرفه فى أطراف الحديقة أو فى الشطر الامامى منها على الأصح . وكان مشئت اللب فرآها رؤية غامضة ، وتنقل بصره الشارد بين نخيلها الرشيق المنفرس وسط دوائر من الحشائش المنسقة سورت بنبات الشيح وانتشرت فى رقاعها شجيرات الورد على هيئة أهلة . وارتاح لحظة من أفكاره فاستقر ناظره على دائرة حشائش كبيرة تتوسط المكان ما بين مدخل القلا والسلامك فاستسلم اليها فارا من قلقه . وكانت تنبثق من وسطها نخلة قصيرة ذات جذع أبيض ترف عليها روح الطفولة،

وتغشى سطحها شجيرات الورد بوفرة حتى تماسست أغصانها
وتعانقت أزهارها فامتزجت في هالة كبيرة انشالت عليها الحمرة
والخضرة والصفرة في وئام وأتلاف وسلام . وأبتسم وهو
لا يدري . وكان الظل قد زحف على أرض الحديقة وما وراءها
من الطريق ولاحت آثار الشمس المائلة في أعلى الدور على الجانب
الأخر للطريق ولكن الهواء هفا مائلا للسخونة مفعما بعرف
الياسمين الجاثم على سور الفيلا . وورد على خاطره هذا
السؤال : « هل يمكن أن أقتنى يوما فيلا كهذه ؟ » وتخيل الحياة
فيها ما بين المخدع والحديقة وما يتبعهما عادة من سيارة وأسرة
محترمة . هذه هي المرة الثانية التي يزور فيها فيلا أحمد بك
يسرى ، وفي كلتا المرتين انفجر في صدره بركان من الطموح
والسخط والتلف على متع الحياة النظيفة المحترمة . وكان
أخوف ما يخافه أن ينحصر في حياة كحياة حسين فيقطع عمره
ما بين الدرجتين الثامنة والسادسة بلا أمل ناضر . في الحياة متع
عالية وهواء نقي وينبغي أن يأخذ نصيبه منها كاملا . وتوقف
عن التفكير فجأة حين لمح دراجة تمرق من الجانب الأيسر للحديقة
وعليها فتاة . وكانت الفتاة توجه الدراجة في حذر على مماشى
الفيسفساء بين دوائر الزهور فاستفرقها الحذر عن النظر فيما
حولها . كانت في السادسة عشرة ، ترتدى فستانا أبيض
هفهافا وتعصب رأسها بإشارب منمنم ، ذات قامة نحيلة
وصدر ناهد وبشرة نقية . وقد أعجله النظر إلى ساقها المدجتين
اللتين تتناوبان الارتفاع والانخفاض فلم يكدر يتبين وجهها ،
واختفت وراء جناح الفيلا الأيمن قبل أن يستدرك ما فاتته منها .
وثار في عينيه اهتمام ويقظة . إذا لم تكن هذه الفتاة كريمة أحمد
بك فمن تكون ؟ . وابتدرت مخيلته تستدعى صورة بهية بجسمها
اللدن الممتلىء ووجهها البدرى ، شهية جميلة ولكنها ليست من
هذه الرشاقة في شيء ! ثم ذكر اخته نفيسة فعجب للاختلاف البين

بين مخلوقات من جنس واحد ، ثم شعر في قلبه بغمز الم وعطف وعاد الى نفسه فوجد فيها من فتاة الدراجة اثرا يشبه الاثر الذي تركته الحديقة والفيلا ونجفة بهو الاستقبال ، طموحا وثورة وسخطا ! « ما أجمل أن أملك هذه الفيلا وأنام فوق هذه الفتاة » . ليست شهوة فحسب ولكنها قوة وعزة . فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدي في تسليم مسيلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يهتف بى قائلا « سيدى .. هذه هى الحياة . اذا ركبتها ركبت طبقة بأسرها ! » ثم عاودته ذكرى بهية فتضاعف ألمه وامتزج به ما يشبه الندم والحجل . وهنا سمع وقع أقدام آتية من ناحية السلم فالتفت صوبها منقطعا عن تيار أفكاره فرأى أحمد بك قادما فى بدلة بيضاء من الحرير وقد رشق فى عروة الجاكتة وردة حمراء فانتفض قائما وأقبل نحوه فى أدب وانحنى على يده مسلما فى اجلال وابتسم البك مرحبا وسأله وهما يجلسان :
- كيف حال الأسرة يا بنى !

فقال حسنين بتودد :

- يقبلون يدك الكريمة ويذكرون صنائعك .

فغمغم البك :

- استغفر الله .

وأيقن البك أنه سيتلقى عما قليل رجاء بتوظيف هذا الشاب أو نقل أخيه الى القاهرة الخ .. لم يكن يومه يخلو من مثل هذا ، وكان يضيق بالرجاوات ولكنه كان فى قرارة نفسه يحبها كذلك ولا يطيق أن يخلو بيته يوما من صاحب حاجة . وقال :

- خير يا بنى ؟

فقال حسنين بحرارة :

- جئتك يا سعادة البك مستنجدا بشفاعتك فى الحاقى

بالكلية الحربية ...

ودهش البك وكأنه كان يتوقع كل شيء الا هذا الطلب
الأرستقراطي وتساءل دون أن يخفى دهشته :
- ولماذا اخترت هذا الباب الضيق ؟!

وتألم الشاب لما لاح في وجه الرجل من دهشة وكرهه لحظتها
كراهية عمياء ، بيد أنه قال بنفس اللهجة المتوددة المهدبة :
- يبدو لى يا سعادة البك أنه توجد فرصة ذهبية هذا
العام لم يوجد مثلها في السنين الماضية لما تعتزمه الحكومة من زيادة
عدد الجيش ، ومهما يكن من أمر فشفاعتك أهم من كل شيء !
وتساءل البك باقتضاب :
- والمصروفات ؟!

وكرهه مرة أخرى . وسرعان ما تناسى رجاء المجانية أو صمم
على أن يؤجله لفرصة أخرى وقال بثقة وطمأنينة :
- انى على استعداد لأداء المصروفات كاملة !
ففكر البك مليا ثم قال :

- ان وكيل الحربية صديق قديم وسأحدثه بشأنك ...
فكان جواب حسنين أن أقبل على يده يحاول تقبيلها فسحبها
الرجل ونهض قائما - ربما أنهاء للزيارة - فقنع حسنين
بالانحناء على يده مسلما وكرر الشكر وغادر السلامك مرح
الصدر بالأمل . وذكر وهو يقطع الحديقة فتاة الدراجة وتمثلت
صورتها وهو يرنو الى اثر العجلتين في المشى ، ولكنه لم يدم هذا
الا لحظة قصيرة ، ثم استأثر بوعيه كله مستقبله وآماله ...

في نفس الساعة كانت نفيسة في ميدان المحطة . . كانت السماء تتخشع لهبوط المساء على حين واصل الميدان في حياته الصاخبة يستبق على أديمه الإنسان والحيوان والترام والسيارات . وكانت الفتاة واقفة على طوار تمثال نهضة مصر تنتظر انقطاع تيار السيارات لتعبر الطريق الى محطة الترام افلا حظت أن رجلاً واقفاً على بعد أذرع منها ينظر اليها نظرة غريبة بنات مع الأيام تفهمها حق فهمها . وتولتها دهشة وتساءلت ؛ حتى هذا ؟! كان رجلاً في الستين !، يجمع في جسمه بين ترهل العمر ووقاره ، مرتدياً بدلة صوفية على حرارة الجو ويقبض بيده على مذبة انيقة عاجية المقبض ، ويضع على عينيه نظارة زرقاء . وقد انحصر طربوشه المائل الى الوراء عن جبهة عريضة لفحت الشمس أسفلها وبدا أعلاها لامع البياض فيما فوق حز الطربوش ، أما سؤاله وما لاح من قذاله فشديد البياض . وثار في أعماقها حب استطلاع وطمع ولذلك لم تفادر موقفها حين انقطع تيار السيارات ، وحولت نحوه عينيها فوجدته ما يزال يحدق فيها ، وكأنه تشجع بنظرتها فتقدم منها في خطوات ثقيلة وهمس وهو يمر بها :

— اتبعيني الى سيارتي . .

ثم واصل سيره الى سيارة واقفة لصق الطوار مثله في الهرم والوقار ، يكاد يعلو سلمها عن الطوار شبرين ويقف عند بابها سائق كالتمثال . وصعد اليها دون أن يفلق الباب وراءه وأمر سائقه فاتخذ مكانه خلف عجلة القيادة . ماذا يريد الشيخ ؟ وابتسمت خواطرها في تشوف ، ثم عادت تنصت الى همس الطمع . وكأنه استبطأها فخلع نظارته ثم أوما لها بيده فما تمالكت

أن ابتسمت ، والقت على ما حولها نظرة متفحصة ثم اتجهت نحو السيارة ، يحدوها الطمع وحده لأول مرة . وأوسع لها فجلست الى جانبه وما عتمت أن سطعت أنفها رائحة الخمر الفائحة من فيه . فاستحوذ عليها القلق ، وقالت :

— لا أستطيع أن أتأخر .

فقال بلسان ثقيل :

— ولا أنا أيضا !

وأمر السائق بالسير فانطلقت السيارة . ولم يفارقها شعورها بالغرابة في أثناء الطريق ، ثم غشيتها سحابة حزن وخوف لاحساسها بأنها تتدهور الى ما لانهاية . لم يسبق لها قبل هذه المرة أن ذهبت مع رجل قبل تعارف طويل أو قصير ، ولو بعد رؤيته مرتين أو ثلاثا ، الى أنها لم تكن تخلو من رغبة . أما هذه المرة فهي تستسلم لعابر سبيل ، مدفوعة بالطمع وحده ، وبلا أدنى رغبة . أي تدهور وأي نهاية ! ترى كيف عرف أنها ضالته ! هل انقلب وجهها — على دمامته — يشي بتدهورها ؟ وتقبض قلبها فرقا ، وجبهتها حيرة قديمة جديدة معا ، بين أن تتزين فتبدو في هذه الهيئة المبتذلة أو أن تتعطل فتكشف عن دمامتها النقاب؟! . ووضع الرجل كفه على يدها وقال بصوت ملعثم:

— جميلة كالقمر !

ولم يفتر ثغرها عن ابتسامة كما كانت تفعل قديما وتمتت :

— لست من الجمال في شيء ..

فقال مستنكرا :

— لا تخلو امرأة من جمال !

كاذب أو مخدوع فلشد ما يعنى الفسق العيون ، وقالت

ببساطة :

— الاى ! . . .

فنقر بأصبعه على ثديها وقال :

— لولا جمالك ما وجدت هذه الرغبة !

ودت لو تستطيع أن تصدق قوله ، ولكن هيهات ، فلم تغفر بأحد يحبها أكثر من ساعات . لعله يعربد أو يخرف أو يعانى مرارة اليأس مثلها سواء بسواء . لقد كابدت من الرجال ما جعلها تحقد عليهم ولكن دون أن تخمد لهذا رغبة جسدها الذى يسيماها الهوان فكرهته كما تكره الفقر . ما هى الا اسيرة للجسد والفقر ولا تدرى كيف تستنقذ نفسها منهما . جرفها التيار وجرحتها الصخور فلم تعد ترى من خير فى أن تأوى الى الشاطئء عارية مثخنة بالجراح وبلا نصير أو رحيم ، ثم سمعت صوته يقول متنهدا « وصلنا » فالتفت الى الخارج فرات السيارة تدور مع طريق دائرى تقوم على جانب منه الأشجار الضخمة كأشباح عمالقة وعلى الجانب الآخر يجرى النيل رقعة عظيمة من الظلمة الا ما انغرس فى جناحه البعيد من رماح الأنوار المنثالة من المصابيح ، وقالت كالمسائلة :

— الجزيرة ؟

فضحك ضحكة فاجرة وقال بلهجة ذات مغزى :

— تعرفينها طبعاً ..

وتريث ريثما غادر السائق موضعه واختفى فى الظلام فخلع نظارته وهو يقول :

— أرينى شطارتك فكل شئ يتوقف عليها ..

كان هرما مجنوناً ، يكاد ينز خمراً . وانهال عليها بمداعبة غليظة فعضها بوحشية وراح يقرصها حتى أوشكت أن تصرخ . ولاحت فى الجو نذر هزء وسخرية ، ثم تعب حتى اليأس ، انفرج عن احساس بالغرابة ومغالبة الضحك . وأخيراً ارتدى مخموراً وقال بصوت غليظ :

— مدى يدك الى مقعد السائق وناولينى الزجاجاة ..

ورفع سدادتها وعل منها ثم أسلم ظهره الى المسند وراح

يتنفس تنفسا ثقيلا غليظا . ولم تعد تحتمل ثقل الانتظار فقالت
برجاء مشبع بالتودد لأنها تعلمت ان تخاف هذه الآونة أكثر من
أى شىء آخر :

— آن لنا أن نعود .

فقال وكأنه يخاطب نفسه :

— ليتنى لا أعود أبدا . .

ولم تدرك ما يعنى ولكنها استجمعت شجاعته وغمغمت :
— تسمع !

ودس يده فى جيبه وأخرجها فى تكاسل ثم ترك ريبالا يسقط
فى حجرها فتناولته فى دهشة وانزعاج وحدجته باستنكار
وتساءلت وهى تتميز غيظا :

— ما هذا ؟

فقال بجفاء مباغت وعيناه تعكسان بريق الخمر :

— نعمة كبرى ! اذا لم ترضى به عاد الى موضعه السابق

الى الأبد . . .

فقالت بحنق :

— اظن مقامك أعلى من هذا بكثير . . .

فصب فى فيه جرعة كبيرة ومصمص بشفتيه مقطبا وقال :

— هذا حق ، ولكن الريال أعلى من مقامك بكثير ! أراهن على

أنه لا توجد امرأة لها مثل هذا الأنف وتطمع فى مثله !

وجرحت الأهانة صدرها فاضطرب وقالت وهى تغالب

الغضب بالخوف :

— لماذا تحدثنى بهذه اللهجة ؟

— لأنك طماع . . ولأنك السبب فيما يقع لى . اعلمى انى

لا أحمل معى الا الفكة ، وحتى هذه تحاسبنى زوجى عليها عقب

عودتى الى البيت ، وأهون على أن أضربك من أن تضربنى هى !

ولانت بالصمت وهى تنتفض غضبا وغيظا فعاد هو يقول :

— ضايقتنى امرأة ذات مرة فى مثل موقفنا هذا فصفعتها
وقذفت بها خارج السيارة نصفعارية ، ماذا فعلت فيما تظنين؟
.. لا شيء! كانت تعلم بلا ريب أن الشرطى أخطر عليها منى .
ومع ذلك فهى مظلومة وأنت مظلومة وأنا مظلوم أيضا ، والظالم
الحقيقى هى زوجى ..

فزفرت زفرة غيظ وتمتمت :

— نعود من فضلك ..

فقال وهو يتشاءب :

— لك هذا . افتحى النافذة ونادى السائق ..

وانطلقت السيارة فى طريق العودة فتزحزحت حتى نهاية
المقعد ، وسهمت الى الظلمة بعين خابية .

٦١

وكان يوم قبول حسنين طالبا بالكلية الحربية اسعد الايام
جميعا . وكان يحسبه مطلبا غير عسير كشأنه حيال مطالبه ،
ثم اخذ يتبين عسره وعناده حتى اقتنع آخر الأمر بأن تدبيره
للدفعة الاولى من المصروفات كان أخف متاعبه . وقد طال ترده
الى فيللا أحمدبك يسرى وكاد الرجل يئأس من قبوله فنصحه
بالعدول عن اختياره ولكن تصميم الشاب وتقدم ترتيبه وحسن
هيئته وتفوقه فى الكرة والعدو ثم شفاعة أحمد بك قبل كل شيء .
كل أولئك ساعد على احداث المعجزة — على حد تعبيره بعد
اليأس — وتم القبول . وكاد يجن من الفرح ، والحق أنه علق
آماله كلها على هذا القبول بحيث لم يكن يدرى ماذا يفعل او
كيف يولى وجهه وجهة أخرى لو أخفق مسعاه . كان طموحه
الى الحربية يتفجر من صميم روحه الملهوفة على السيادة الثائرة
على تعاسة حياته وضعتها ، وبدت الكلية لعينيه كمصنع سحرى

قادر على تحويله من انسان مهزول مغمور الى ضابط مرموق في ظرف عامين ، وبأقل جهد . وكان سمع مرة صاحباً له يصف ضباط الجيش بقوله « الضباط مرتبات عالية ونفخة كاذبة وعمل كاللاعب لآخر فيه » فهامت بالحربية نفسه وقوى حلمها في روحه . ولما علم بقبوله في الكلية ابنى أن يعترف لوساطة أحمد بك بالدور الخطير الأول الذى لعبته في قبوله فقال لأمه ان الفضل الأول راجع لمزاياه الجسمية وتفوقه في الرياضة . وقال لنفسه في زهو « أستطيع أن أعد نفسى من الضباط منذ الآن » وراح خياله المختال يستعرض الأدميين الذين ستؤثر فيهم بذلته الرسمية تأثيرها السحري - الجنود والفتيات وعامة الشعب بل وأحمد بك يسرى نفسه - وهو مرح نشوان . وحمل الخبر السار بنفسه الى أسرة فريد أفندى محمد فاستقبلته بفرحة تجل عن الوصف : وقال له فريد أفندى ضاحكا « شرفتنا يا حضرة الضابط » . وقال الشاب على مسمع من بهية لغرض في نفسه « سأغيب عنكم أربعين يوما قبل أن يسمح لنا بالخروج مرة كل أسبوع » وكان يطمع أن يحظى تلك الساعة بما حرم عليه عامين ولكنه لم يتح له أن يخلو الى الفتاة الا دقائق ، ولم تكن الدقائق لتمنعه من نيل مشتهاه لو أرادت الفتاة أن تجود له به ولكنها لم تتزحزح عن تعففها حتى في هذه اللحظة . وغلبها الحياء كماداتها ، فانكمشت وقلبها يخفق بالعطف والألم تأثرا بالوداع . وقال لها بعجلة في صوت لا يكاد يسمع « أريد قبلة حارة من شفتيك » ولما رأى حياءها وجمودها قال بجزع « أتأبين على هذا حتى في هذه اللحظة !.. لا يمكن أن أتصور أنك تحبيننى ! » وخرجت الفتاة عن صمتها قائلة في قلق « بل لهذا أرفض أن أذعن لك ! » وتساءل في انكار « لا أفهم ما تعنين » فقالت بشجاعة مؤثرة « أرفض لأنى أحبك » وكان يسمع هذا الاعتراف الصريح البسيط لأول مرة فبلغ به التأثير حد السكر وهم بالاقتراب منها ولكنها أشارت اليه

مخدرة وهى تومىء برأسها ناحية باب الحجرة المفتوح ، وما لبث أن
 عاد فريد افندى وزوجه فقضى بقية الوقت ممزقا بين نشوة
 السكر وقلق الشوق وحنق الغيظ ، ثم ودعهم ونزل الى شقيقته
 وهو يقول لنفسه « هذا حب عاقل ! حب يسيطر عليه الحزم
 والتدبير . كأنها رسمت خطة حكيمة كى تضمن زواجى بها .
 ولكن هل يعرف الحب الحقيقى هذا المنطق البارد ؟ ! » وكان
 حديثه لنفسه فى الواقع خاضعا لما استحوز عليه من غيظ
 وحسرة ، وعد وداعه لها أسوأ وداع منى به عاشق . ثم أمضى
 شطرا من الليل بين أمه وأخته . ولم تستطع نفيسة - كهاتها -
 مغالبة مشاعرها فدمعت عينها وقالت فى حزن « قضى علينا بأن
 نعيش وحلدا » ولم يخل هو من كآبة خليقة بمن يفارق أهله
 لأول مرة ولكن هون من وقعها أن روحه كانت تهفو كثيرا الى
 الحياة المستقلة ، فى بيت غير البيت ووسط غير الوسط . أما الأم
 فحافظت على هدوئها الظاهرى ، ولم تشجع نفيسة على
 الاسترسال فى حزنها وقالت لها بحدة « لا تبكى كالاطفال ، سنراه
 كثيرا ، وحسبنا سرورا أنه نال ما تمنى » . بيد أن قلبها كان فى
 واد آخر ، حرك الفراق الوشيك أشجانه فرجعت أوتاره الأحزان
 المنطوية ، فذكرت وداع حسين ، وتخيلات خلو البيت من أبنائها
 جميعا ، وتدلعت الى ذهنها - على كره - ذكرى رحيل زوجها ،
 فعجبت لحياتها التى لا تجود لها بسعادة الا مصحوبة بوداع
 وفراق . فهل قدر لها أن تمضى البقية الباقية من حياتها وحيدة ؟
 وهل فى سبيل هذه النهاية تصبرت وتجلدت وعانت ما عانت من
 مرارة الكفاح ؟ ! . ولكنها لم تستسلم لحزنها الا بمقدار يسير .
 ونادت قوتها الكامنة ، وذكرت ما صادف ابنها من آى التوفيق
 لتستعين به على تبديد كآبتها . مهما يكن من أمر فانها تؤمن
 الآن بأن ما بذلت من صبر وكفاح لم يضع سدى ، وأن سفينتها
 الضالة فى سبيل الهداية الى مرفأ آمن . ويحق لها أن تفرح فما

من ثمرة تجنى في هذه الأسرة الا وهى غرس يديها وعصرة قلبها .
وفي الصباح الباكر ودع حسنين أمه وأخته ومضى في سبيله
الى الكلية الجديدة ..

٦٢

ثم وجد نفسه في فناء الكلية بين جماعة المستجدين من
الطلبة وبحث عيناه فيما بينهم لعله يجد صاحباً قديماً من
التوفيقية فيلوذ من وحشته ولكنه لم يظفر بوجه قديم ،
وضايقه هذا وان أحس زهواً لكونه الطالب الوحيد من مدرسته
الذى قبل في الحربية . وتمنى كثيراً أن يبدأ أحد بالكلام ، وطال
انتظاره . ولكن أبى كبرياؤه أن يكون هو البادىء . ثم مضى
يتسلى بمشاهدة الكلية فجرى بصره مع الفناء الشاسع وأبنيتها
الفخمة المترامية ، ثم ثبته طويلاً على تمثالى المدفعين المقامين
عند مدخلها فهاله المنظر وبث في نفسه إعجاباً وخيلاء . وكان
بادىء الأمر مطمئناً الى مزاياه الجسمانية من طول قامته
ورشاقة قدمه ووسامته ولكنه تخلى عن كثير من إعجابه بنفسه
حين تفحص الآخرين ورأى بينهم شباباً غضا وفتوة ناضرة
وجمالاتاً رائعا ، الى ما لاحظ على بعض الأفراد من مخايل
الأرستقراطية . ثم وقعت عيناه على شاب قادماً من حجرة تطل
على الفناء عرف فيه زميلاً قديماً في التوفيقية سبقه الى
الالتحاق بالكلية بعام أو يزيد . وكان يرتدى قميصاً وبنطلوناً
قصيراً من الخاكى وعلى ذراعه اليسرى أربعة شرائط . لم يكن
من أصدقائه ولكنه تعرف به في فناء المدرسة ، ومع أنه لم يكن
يذكر من اسمه الا « عرفان » ولم تكن هذه العلاقة الواهية
لتفريه بالأقبال عليه في غير هذا الظرف ، الا أنه رحب بالتسليم
عليه ليعلن صداقته بهذا الطالب القديم أمام الطلبة المستجدين .

ونفذ فكرته فمضى اليه حتى واجهه ومد اليه يده مبتسما وهو يقول في ألفة :

— كيف أنت يا عرفان ؟

وسرعان ما ماتت الابتسامة على شفثيه للنظرة الجامدة التي رماه الآخر بها في تجهم و صلف ، وقد أطل تفحصه في تكبر وما يشبه الغضب ، ثم لمس يده بيده واستردها بسرعة كأنه يخاف عليها عدوى خبيثة دون أن ينبث بكلمة !. وشعر حسنين بانهيـار شامل وذهل قاتل ، وظنه نسيه أو أساء فهمه فقال كالمستفيث :

— الا تذكرنى ؟.. أنا حسنين كامل على ...

فلم يؤثر الاسم في الآخر ايما تأثير ولم يطرأ على صلابته أى لين ، ولكنه خرج عن صمته وقال بخشونة وجفاء :

— لا صداقة هنا . أنت طالب مستجد وأنا باشجاويش ..
نطق بهذه الكلمات ثم ذهب . ووجد حسنين نفسه في موقف خزى لم يقفه في حياته فأثلجت اطرافه وتوترت شفثاه ، وانتبد موضعا بعيدا متحاميا النظر الى أحد اقرانه وان تخيلهم وهم يتغامزون ويتضحكون . ماذا دهاه الأحمق ! ترى هل أهانه لضغينة اضطفتها عليه أو فقد رشاده ؟ أمن الممكن أن يكون هذا هو النظام المتبع في هذه الكلية ؟!. ولبت مستغرقا في أفكاره لا يرى مما حوله شيئا حتى نودى على الطلبة المستجدين ودعوا الى أول طابور لهم بالملابس المدنية . ووقفوا صفين متوازيين بارشاد الباشجاويش محمد عرفان وبعض الجنود ، وقد تجنب النظر الى صاحبه القديم الذى وجده معلقا فوق رأسه كالسيف وكظم عواطفه المستعرة أن يلوح منها أثر في وجهه . ثم جاء ضابط عظيم محاطا ببعض الضباط من رتب أقل ، والقى عليهم نظرة ثاقبة ثم راح يخطبهم عن الحياة العسكرية التى آثروها . وكان يخطب باللغة العامية بصوت أجش يوافق ما ارتسم على

أساريه من الصلابة والعنف ، وكان يفصل بين كثير من جملة
بهذه العبارة « العقاب الصارم » حتى صارت كضربات الإيقاع
وملات القلوب رهبة وحذرا . وما ان انتهى من خطبته حتى بدا
أول يوم في الحياة العسكرية الجديدة . واستقبل به حسنين حياة
جديدة لم يسبق له بها عهد . وبدأ اليوم - والأيام جميعا -
شاقا طويلا ، يتبدى بالدش البارد في الصباح الباكر ، ويشنى
بالتابور ، ثم الدروس ، جهد متواصل ، وخشونة في المأكل
والملبس والمعاملة حتى اذا جاء وقت النوم استلقوا كالقتلى .
وكانت خشونة المعاملة أفظع ما يلاقونه ، وكان الرؤساء يرونها
فرضا واجبا ، ويكفى أن يحظى طالب بشريط لأقدميته حتى
يمارسها كحق من حقوقه ، وهو يمارسها في غير رافة وبسطة
تبلغ في أكثر الأحيان اهانة صريحة وتجريحا متعمدا . ولم يكن
ثمة مجال للاعتراض أو الاحتجاج إذ لم يكن للكلية من شعار تحرص
عليه كالطاعة العمياء الخرساء البكماء . ولم يجد حسنين من عزاء
في ذلك الجو الرهيب إلا أنه سيصير يوما أومباشيا ثم باشجاو يشا .
وهناك يقضى ديونه دفعة واحدة ! . وقد ذكر عهد التوفيقية
- الذي وصفه يوما بالارهاب - بالترحم والرثاء . وبلغ منه
الضيق أحيانا أن ندم على اختياره لهذه الكلية الجهنمية وتمنى لو
تواتيه الشجاعة على التخلص منها . وكان يشاركه احساسه
هذا كثيرون في الأيام الأولى على وجه الخصوص . وقد عصرتهم
قساوة الحياة فسارع اليهم الهزال ، ولعل حسنين كان الطالب
الوحيد الذي لم يخضع لهذا لقانون الطبيعي ، بل لعل جسمه
اكتسب ارتواء غير منتظر لأن غذاء الكلية - على خشونته - هيا
له وجبات منتظمة لم يعتدها في أعوام الشدة الأخيرة . بيد أنه
تعرض لآلام نفسية غير متوقعة في أيام الجمع التي يسمح فيها
عادة بالزيارات . كان فناء المدرسة الخارجي يمتلئ بالآباء والأمهات
والأقارب فيحظى الطلبة جميعا بنهار ممتع ويعودون إلى حجراتهم

مثقليين بالهدايا من حلوى وفاكهة ودسم الطعام ، حتى الطلبة الريفيون لم يعدموا أقارب من القاهرة ، فلم يكن ثمة طالب يقضى هذا اليوم السعيد وحيدا إلاه ، لم يزوره أحد ولم ينتظر أحدا . وكانت أمه قد أخبرته - قبل رحيله - بأنها لن تستطيع زيارته لأنها - كما يعلم - لم تتمكن من ابتياع معطف جديد يليق بالظهور أمام أقرانه ، أما نفيسة فقد قالت له بمزاحها المألوف « لا أظن أنه مما يشرفك أن أبدو أمام زملائك بهذا الوجه » . ولم يكن ثمة أمل في أن تزوره بهية لحياها وعدم اعتيادها الظهور في مجتمع من الأغراب ، فلم يبق إلا فريد أفندى وكان بطبعه كسولا لا يكاد يفارق بيته إلا لضرورة قصوى ، ومع هذا فقد زاره مرة وحمل إليه هدية من البسكويت . واعتاد في أيام الزيارات أن يختار موقفا عند مدخل الفناء الداخلى يراقب منه الزوار بعينين كئيبتين ويتملى بمشاهدة النساء والفتيات مأخوذاً بجمالهن واناقتهن وآى النعيم البادية في وجوههن وثيابهن . وعجب لهذه الفوارق التى تباعد بين الآدميين ، وبدت لعينيه محيرة بقدر ما هى مزعجة . وثارت بنفسه انفعالات السخط والغضب والتمرد فلم يجد من متنفس إلا فى أن يناقش ربه الحساب ، متسائلا - فما يشبه التحدى - عن أسرار حكمته التى جعلت من الدنيا ما هو كائن ! . وسأله مرة زميل له عن سر عزله فقال بلا تردد :
- أبى متوف . وأخى مدرس بطنطا . أما الأسرة فمحافظة له تآلف الظهور بين الناس على هذا النحو ! .

بيد أن الأفكار السوداوية لم تجد من نفسه مرتعا خصيبا إذ ان الحياة العسكرية لا تمهل الأفكار حتى يستفحل خطبها . وقد علمته ان ينسى باطنه أكثر وقته ، ثم بمرور الأيام - أخذ يآلف شدتها وجوها الخائق فمضت تخف وطأتها وتحتمل ، الى ما ظفر به من صداقات جديدة ابتل بها صدره الموحش فاستطاع ان

يضحك ملء قلبه - رغم كل شيء - كعهده القديم . وهكذا
انقضت الأربعون يوما ...

٦٣

وخيل اليه - لدى خروجه من الكلية بالملابس الرسمية -
انه حقق حلما بديعا بتصديه للعالم بالبدلة الملونة . . . كان ينطلق
كالعامود في استقامته ، كالطاووس في خيلائه . ملقيا على صورته
التي تعكسها مرايا الحوانيت والمقاهى نظرات ارتياح تشمل الشريط
الأحمر والطربوش الطويل والحداء اللامع ، ملوحا بعصاه القصيرة
ذات الراس الفضى . قابضا على قفازه كأنه يتحدى العالم . ولما
ترأت لعينيه عطفة نصر الله جاش صدره بمشاعر متنازعة من
العطف والنفور ، ثم مضى اليها مطمئنا الى أن أحدا لن يراه ممن
يود ألا يروه - لم يطالع أحدا من أقرانه على عنوانه - راجيا أن
يراه جميع الذين يود أن يروه ، وأحدقت به الأعين ولوحت له
الأيدي من رقاع الأحذية الى الحداد ومن بائع السجائر الى جابر
سليمان البقال . وتطلع رأسه الى شرفة فريد افندى فوجدها
مغلقة فسر لما تهيأ له من مفاجأة سعيدة غير مسبوقه بتنبيهه ، ثم
قطع فناء البيت الى الشقة وطرق الباب وانتظر مبشما . وجاءه
صوت نفيسة وهى تزعق « من ؟ » وفتح الباب فما أن رآته حتى
هتفت كالمجنونة :

- حسنين !

وشدت على يده فى انفعال وجعلت تهزها بقوة وفرح ، وجاءت
الأم متهولة على صوت ابنتها فاستسلم للذراعيها النحيلتين وهى
تضمه الى صدرها وقبل جبينها فى سرور شابه شىء من القلق
على سترته التى طوقتها ذراعاها ، ثم سار بينهما الى حجرته

القديمة التى بدت لعينيه غريبة ولكنها على غرايتها استثارت حنانه
وذكرياته . ووقفوا ثلاثهم والمرأتان ترنوان اليه باعجاب وحب ،
ثم دعت له الأم وأفصحت عن سرورها بعبارات مقتضبة : ثم لاذت
بالصمت : أما نفيسة فلم يسكن لسانها لحظة «لشد ما أوحشتنا»
.. « البيت من غيركم كالقبر » .. اضطرني غيابك الى أن ارد
بنفسى على رسائل حسين بخط أقبح من وجهى » .. « لم يتمكن
حسين من القيام بإجازته هذا العام لمرض زميله وقد كدنا نحن من
الحزن » .. « هل حقا كنتما تتراسلان ؟ .. لقد أخبرنى بهذا
منذ عشرة أيام » .. « ماذا تعلمت ؟ .. هل تستطيع الآن أن تطلق
بندقية ؟ » وكان يجيب على أسئلتها فى دعابة ، ثم خلع طربوشه
ووضع عصاه وقفازه على المكتب ولبث واقفا وهو ينظر الى
سترته ليرى ما فعل العناق بها . وجلست أمه على الفراش
وهى تقول :

— اجلس يا بنى ..

فتردد لحظة ثم قال :

— أخاف أن يتكسر البنطلون ! ..

فتساءلت المرأة بدهشة :

— هل تظل واقفا طالما أنت لابس البدلة ؟!

وابتسم فى ارتباك ثم جلس على الكرسي فى حذر ومد ساقيه
وهو يتفحص بنطالونه باهتمام ، وقال :

— ان كسرة تلحق بالبنطلون خليقة بأن توقع على عقابا

سارما لا يقل عن حبس شهر بالكلية .

ونظر فى وجه أمه ليرى اثر هذه الكذبة فى نفسها فقرأ فى

صفحته الانزعاج فاستطرد قائلا بصوت ينم عن التضجر :

— حياتنا شاقة لا يمكن أن يتصورها انسان ، فنهارنا كله

وشطر من الليل نقضيهما فى الخلاء بين المدافع والقنابل

والرصاص ، وقد تودى هفوة بسيطة بحياة فرد !

فأسمعت عينا نفيسة في فزع ، وتساءلت الأم في اضطراب :
 — كيف يلقون بأبناء الناس الى الهلاك ؟!
 وهتفت نفيسة في انفعال :
 — لماذا اخترت هذه المدرسة !
 فنهز رأسه بثقة وقال :
 — لا تخافا على !... انى اللعب بالنار بمهارة استحققت أعجاب
 الضباط جميعا !
 فقالت الأم بصوت متهدج :
 — ما عسى أن نصنع باعجابهم اذا أصابك سوء لا قدر الله ؟!
 فقال حسنين في سرور خفى :
 — وماذا تصنعين اذا دعينا غدا الى الحرب ؟.. ألم تسمعا
 بأن هتلر يعد عدته لاشعال نار الحرب ؟ واذا شبت الحرب هجم
 موسولينى على مصر فندعى جميعا للقتال !
 وحدثته الأم بارتياح ، ثم سألته بجدة واهتمام :
 — احقا ما تقول يابنى ؟
 وتراجع قليلا ..
 — هذا ما يقوله بعض الناس !
 — وما رأيك انت فيما يقوله هؤلاء الناس ؟
 وقبل أن يجيب صاحت به نفيسة :
 — اذا صح ما يقولون فاترك المدرسة بلا تردد .
 فضحك الشاب ملء فيه وقال مشفقا من افساد سرور اللقاء :
 — ما أردت الا اخافتكما .. (ثم غير لهجته متسائلا) ..
 فلندع الهذر جانبا وخبرينى يا ست نفيسة ماذا تعدين لى غداء
 للغد ؟!
 فابتسمت الفتاة وأدركت أن أخاها « ضيفها » نصف نهار
 الخميس ونهار الجمعة وأن اكرامه واجب عليها قبل أى انسان
 آخر ، فقالت :

- ساشترى لك دجاجتين تطبخهما نينة في ملوخية !
- عال !.. والحلوى ؟
- برتقال ؟
- نفسى فى الكنافة . فطالما رأيت هداياها تحمل الى الطابة ايام الجمع فيتحلب ريقى من بعيد !
- ولم تهتم الفتاة للكنافة قدر ما اهتمت للسمن اللازم لها ولكنها لم تتراجع فى نشوة الكرم التى غمرتها فقالت :
- وستحلى بالكنافة كما تشتهى !
- فقال الشاب بعد تردد :
- لو كنت وقحا لسألتك أن تحشيها بالفستق والبندق !
- ولكنك لست وقحا والحمد لله ..
- هكذا تهربت بالمزاح وأدرك حسنين أنه لم يعد بوسعها أن تسخو أكثر مما سخت فقال ضاحكا :
- آه لو رايتم الهدايا التى كانت تحمل الى الطلبة !.. وفى مرة أهدي الى صديق قطعة من حلوى اسمها « بودنج ! » .
- بودنج !
- نعم بودنج ...
- فضحكت نفيسة قائلة :
- لولا الملامة لقلت انها سلاح لضرب النار !
- ثم سألته أمه :
- لماذا لا تخلع ملابسك ؟
- فقال فى شيء من الخجل :
- سأذهب الى السينما !
- ولاح التذمر فى عينى الأم فاستدرك قائلا :
- سأعود مبكرا لنسهر معا ، وسنمضى الغد معا كذلك !
- عادوا الى الحديث والذكريات طويلا ، ولكنه لم يعد يسمعه أن يملك خياله الذى أخذ ينازعه الى الشقة العليا ! وكان يجد صعوبة

فى قطع الحديث والافصح عن رغبته فى زيارة جارهم فريد
افندى . وأخيراً قال بعدم اكتراث :
— آن لى ان اترككما للذهاب الى السينما ، ولعلى أجد بعض
الوقت لزيارة فريد افندى !

٦٤

منته نفسه بالانفراد بفتاته على وجه من الوجوه ولكنه لم يدر
كيف ، فقد اجتمع فى حجرة الاستقبال بالوالدين ، واستفاض
الحديث العادى وهو ينتظر حضورها بصبر نافذ . ثم جاءت تسير
على استحياء وقد لفها روب وردى لم يبد منه غير اطرافها فسلمت
عليه سلاما رسميا ووالدها يتفحصها بنظرة ضاحكة تنم عن
اعجاب . وجلست الى جانب أمها ، واتصل الحديث كما كان ولكن
محضرها استأثر بأعماق وعيه فوجد مشقة فى تتبع الكلام التافه
ومشقة أكبر فى الاشتراك فيه ، ثم أخذ يستشعر الملل والضيق ،
وكلما استرق اليها نظرة وتخيل قوامها البضئار دمه وحقد على
الجلسة وشهودها . ورأى فى عينيها هدأة وطمأنينة كأنه لا يكدر
صفوها مكدر ، وانها لذلك دائما كأنما لا يجرى فى عروقها دم ،
وليس أحب اليها من أن تجلس بين والديها تصفى الحديثه وهى فى
مأمن من نزواته !. لذلك يحنق عليها أحيانا ، ولكنه لا يستطيع ان
يتجاهل ما بثته فى حناياه من طمأنينة وثقة فكان يشعر بأنه يأوى
من حبها الى ركن ركين وعاطفة عميقة ثابتة لا تززعها الأحداث .
واستمر الحديث فلم تجد من نفسها شجاعة على الاشتراك فيه
قائقة بهزة من رأسها أو ابتسامة من شفثيها فبلغ منه الضيق
نهایتة ، وفكر فى مخرج فخطرت له فكرة جريئة لم يقعد عن تنفيذها
مدفوعا بجسارته ، فقال موجه خطابه الى فريد افندى :

— هل تأذن لى فى أن أصحاب بهية معى الى السينما ؟
وتبادل الزوجان النظر على حين خفضت بهية عينيهـا موردة
الوجه ، ثم قال فريد :

— اظن العالم الحديث يستسيغ هذا السلوك بين خطيبين ..
ولكن زوجه قالت بلهجة المعارضة :

— أخاف الا يروق هذا لىست والدتك .

ولم يتورع حسنين عن الكذب انقاذا لمشروعه فقال :

— لقد استأذنتها فوافقت بسرور !

فابتسمت أسارير المرأة وقالت وهى تنتظر صوب زوجها :

— ما دام والدها موافقا فلا مانع عندى .

وطلب اليها فريد افندى أن تأخذ أهبتها للذهاب مع الشاب
فمضت متعشرة فى خطوات الحجل . وما هى الا دقائق حتى كانا
يفادران الشقة معا . ولاحظت بهية أنه جعل يسير فى حذر عندما
اقتربا من شقة الأسرة كأنه يخاف أن يتنبه اليهما أحد من الداخل
فساورها القلق وهمست فى أذنه :

— كذبت على أمى بقولك انك استأذنت والدتك ، وستغضب

نفسه لأنك لم تدعها معنا !

فأشار اليها بالسكوت واخذها من يدها الى الفناء ثم الى
العطفة ، وسارا معا والوالدان يطلان عليهما من الشرفة . وكانت
بهية ترتدى المعطف الأحمر الذى يجلو نقاء بشرتها فبدت كالقطة
الجميلة . بيد أن القلق لم يذهب عنها . وقالت له فى لوم :

— ستعلم أسرتك برحلتنا ان عاجلا أو آجلا ..

ولم يدع له سروره بالظفر مكانا لهم فقال ضاحكا :

— لم نرتكب اثما ، ولن تحرق الدنيا !

— ألم يكن الأخلق بك أن تدعو نفيسة معنا ؟

— ولكنى أريد أن انفرد بك !

فقالت بقلق ، وكانت تخاف نفيسة أكثر من أى مخلوق آخر :

— أنت لا تبالي شيئا وأا أسفاه ..

ولم يكن لديه من وسيلة للانتقام من تحفظها وبرودها سوى الكلمات الصريحة وأحيانا النابية فقال :

— وددت لو كنت ارتكبت معصية معك حتى أستأهل هذا الوصف عن جدارة ...

فتضرج وجهها بالاحمرار وعبست في استياء دون أن تنبس بكلمة لأنهما كانا قد اندسا بين الواقفين على طوار المحطة ، وجعل ينظر الى وجهها الساخط في سرور باطنى ، ثم همس مبتسما :

— اعنى معصية خفيفة !

فأعرضت عنه حتى جاء الترام فصعدا الى الدرجة الأولى ولم يكن بها الا سيدة أجنبية فشعر بارتياح ، وجلس لصقها ، ثم سألها فى دعابة :

— كيف كان شوقك الى فى غيابى ؟

فقالت فى شبه غضب :

— لم أخطر لى على بال قط ..

فهز رأسه كالحزين وقال :

— ما أآمنى شىء كما أآمنى احساسى بتشوقك الى .

فقالت ببرود وهى تخفى ابتسامة :

— أصارحك بأن الكلية الجديدة قد زادت دمك ثقلا !

وذكر وهو لا يدرى ما تعرض به نفيسة من ثقل دم فتاته فرنا اليها متأملا فوجدها جميلة فوق ما يشتهى ، ولكنها لا تخلو من هذه الصفة ! وماغاب عنه انه يحب هذه الصفة كما يحب العاشق نقائص معشوقه . وعدل فجأة عن معايشتها فقال بحرارة :

— لم تغيبى عن نفسى لحظة واحدة طوال ذاك الفراق ، وقد تعلمت جديدا وهو أن الحب فى القرب — على طموحه المعبذب — جنة أما على البعد فهو مأساة كاملة .

وخفضت عينيها دون أن تنبس ولكنه شم فى استسلامها وما

اعتراها من سهوم رائحة الوجد الصامت وامتلات رثاه بارتياح عميق . وتحدث كيفما اتفق حتى بلغ الترام ميدان المحطة فغادره ومضيا صوب عماد الدين . وطلب اليها أن تتأبط ذراعه ففعلت بعد تردد ، ولما كانت تسير شخصا - غير أمها - لأول مرة فقد تولاهما ارتباك وحياء . وشعرت بكوعه وهو يس - عفوا أو قصدا - ثديها فسحبت ذراعها من ذراعه ، وتسائل محتجا :

- ماذا فعلت !

- هذا أروح لى ...

فتغيظ لافلات الفرصة وقال :

- سيكون من المعجزات تحويلك الى زوجة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى امرأة محبة تعانق وتقبل الخ الخ ! وبعد حين قصير كانا يجلسان جنبا لجنب فى السينما ، وعاوده شعور بالزهو والخيلاء ، غير أنه استأثر هذه المرة بميزتين بدلته العسكرية وحبيبته . ومر به كثيرون من زملائه الطلبة وخطفت أعينهم من فتاته نظرات متفحصة فتزايد شعوره بالسرور ، ومال نحوها وهمس :

- ألا ترين أن جمالك يجذب الأنظار من المقاعد والالواج ؟ فافتر ثغرها عن ابتسامة حيية فانطلق مرحه وهمس مرة أخرى :

- قلبى يحدثنى بأننى سأنال الليلة القبلية المشتهاة .. فرمته بنظرة وعيد ثم نظرت فيما أمامها . وحاول فى الظلام أن يعابثها بكوعه أو بقدمه ولكنها لم تشجعه ، ثم اضطرت تحت ضغطه والحاحه الى أن تترك راحتها فى راحته على الذراع التى تفصل بين كرسييهما ، ومضى الوقت فى سعادة شاملة ...

وفى مساء الجمعة كان يقف بميدان الملكة فريدة ينتظر
 الأتوبيس رقم ١٠ ليحمله الى الكلية . وكان امضى نهارا سعيدا
 فى أسرته وتناول غداء لذيذا ، وبدأت نفيسة فى مرحها المألوف
 ولكنها - على ذاك - قالت له على مسمع من أمها وبلهجة ساخرة :
 - وددت لو رايتك وانت ذاهب مع « الهانم » الى السينما !
 وأدرك ان سره افترضح وأن الحرب أعلنت فضحك عاليا ونظر
 صوب أمه فرآها صامته وعلى شفيتها ما يشبه الابتسامة ،
 وشكر فى نفسه بدلته العسكرية التى انتقذته من لكلماتها الى الأبد .
 وعادت نفيسة تقول بنفس اللهجة :

- ما أجملكما من زوجين !.. حضرتك فى طول العمود والهانم
 طول الشبر ودمها الثقيل يوسع لكما الطريق !
 فنهرتها أمها قائلة :

- لا تكونى عيابة وافيك كل العبر !
 فقالت الفتاة ضاحكة :

- انا على الأقل خفيفة ، ولكن لك حق ياسى حسنين فوجهى
 لم يخلق للسينما !

واعتذر لها ما وسعه الاعتذار ولكنه شعر بندم كما يشعر الآن ،
 وما ضره لو كان دعاها للذهاب معه ؟! . كان يستعيد ذكريات
 اليوم وهو واقف ينتظر ، وما لبث ان انضم اليه كثيرون من
 زملائه ، ثم جاء الأتوبيس فصعدوا اليه متزاحمين ولحق بهم
 آخرون رأى بينهم بعض من قابلهم أمس فى السينما فترجح
 لديه انهم سيعلقون على فتاته شأنهم فى هذه الأحوال ، وسر
 لذلك سرورا كبيرا وانتظر على لهفة الحديث الذى سيكون دون

جوانه . ولم يطل به الانتظار لأن أكثر من واحد منهم بدا متحفزا ، فقال قائل منهم وهو يشير إليه :

— أما علمتم ؟.. رثى الصنديد أمس وفي يده فتاة !
وود أن يسمع الجميع وأن يخلصوا لحديثه وحده . وتساءل البعض :

— من أى نوع ؟!

— النوع البيتى ..

— جميلة ؟

وتركز انتباه حسنين واشتد وعيه أما المتحدث فقال :

— لها عينان زرقاوان ولكن يغلب عليها الطابع البلدى !

وتصاعد الدم الى وجهه وشعر بفتور قضى فى الحال على حماسه ونشوته ، على حين واصل الآخرون حديثهم فى ضحك وصخب :

— ممثلة أكثر مما ينبغى قصيرة أكثر مما يستحب !

— ودمها ثقيل من رتبة لواء !

— دقة قديمة على وجه العموم ، أين وجدتها ؟!

وادرک ان السؤال الآخر موجه اليه ولكنه لم ينبس بكلمة ، وجعل يضحك متظاهرا بالاستهانة وهو يعانى شعورا جارحا بالخجل والقهر . وقال شاب بلهجة تنم على الاشفاق :

— احذر ان تكون خطيبتك !

واندفع قائلا بلا وعى تقريبا :

— كلا طبعا !

— حبيبة ؟!

فقال مدفوعا بمشاعر الألم والخذلان التى تصطرع فى نفسه :

— نوع من التسلية ليس الا !

— اذن فلا بأس بها . عذراء ؟!

واجاب باضطراب شديد : نعم ..

— خيب الله أملك ! لماذا تنفق وقتك عبثا ؟! ألم تدر بأن

التقاليد تقضى بأن تكون ليلة الخميس للعشيقه ويوم الجمعة للخطيبة أو من يقوم مقامها ؟!

فتكلف الشاب ضحكة وقال :

- سأصحح جدول النساء فى المستقبل !

وضحكوا جميعا ، ثم غيروا مجرى الحديث . وانطوى على نفسه فى غم وهم يعانى سكرات الهزيمة . تبرأ من افتاته وهو لا يدرى . آه لو علموا أنها خطيبته وأنه استعصى عليه نيل قبلة منها بعد مثابرة عامين !. طابع بلدى ، ممتلئة أكثر مما ينبغى ، قصيرة أكثر مما يستحب ، دم ثقيل من رتبة لواء ، أهذه بهية حقا ؟!. وهى الى هذا كله دقة قديمة !، لا يخلو هذا القول من حق فهى لا تدرى كيف تصحبه فى الطريق ولا كيف تحسن الحديث والدعابة ، ولا يكاد يذكر من قولها الا التأنيب والتذمر . كيف يسعه اذا تزوجها ان يظهر بها أمام الناس ؟ سيقولون هذا وأكثر منه . وشعر بكرب وامتنعاض . وغاب عما حوله غارقا فى أفكاره فلم ينتبه الى وقوف الأوتوييس أمام محطة الكلية حتى نهض الطلبة قائمين ..

٦٦

وفى الأسبوع التالى صعد فى الوقت المعتاد لزيارة فريد افندى، وكان الأب وسالم الصغير فى مشوار فجلس مع الأم وبهية ، واستمتع بقدر من الحرية لا يتاح له بمحضر الأب . وبدأت بهية فى فستان بنى تنبسط على أعلى صدره شبه مروحة من الحرير المزركش ينغرز مقبضها أسفل البنيقة وتنتشر أهدابها فوق الشدين، فلم يكن ينقصها الا المعطف وتصبح متأهبة للذهاب معه الى السينما اذا دعاها . ولكنه كان أبعد ما يكون عن التفكير فى

هذا . وكان صوت نفيسة لا يزال يطن في أذنيه وهي تقول له
بعد ان أعطته نصف ريال لسهرته :
- هذا لفسحتك أنت وحدك !

ولكن لم تكن نفيسة كل شيء . كان في الواقع لا يجد الشجاعة
للظهور معها مرة أخرى أمام زملائه ، وبات يخجل منها وهو
لا يدري . كان يحسبها أجمل فتاة ، ولكنه لم يكن فتح عينيه
بعد وجاءت ملاحظات زملائه الساخرة آية على عماه ! ورنا إليها
فالتقت عيناهما . وهناك نسي أفكاره ، وانبعث حرارة دمه
واضطربت به الرغبة مستهينة بكل شيء . مليحة شهية ،
لا يستطيع أن يمارى في هذا ولكن كيف يتعامى عن هذه الحقيقة
المرعبة وهي أنه يتحاشى الظهور معها أمام الناس ؟! . وكانت الأم
لا تمسك عن الحديث وهو يحاورها باقتضاب وشروء حتى قالت له :
- مالك ياسى حسنين كأنك مشغول البال !

فأفاق الى نفسه مضطربا وقال كالمعتذر :
- كان الأسبوع الماضي حافلا بالتمرينات القاسية حتى غادرنا
الكلية كالأموات !

وواصل الحديث وهو أشد انتباها له حتى استأذنت الأم لأداء
الصلاة فخلا لهما الجو ، وبادرت الفتاة قائلة :
- مالك ؟

فقال مبتسما ليذهب عنها الشك :

- لا شيء !

- لست كعادتك !

وخطر له خاطر ماكر بعثه في نفسه خلو المكان وعواطفه
الشائرة فقال متظاهرا بالحزن :

- لا أنسى تحفظك معي !

- أتعود الى هذا ؟

- طبعاً !.. هذا حقى ولا أنزل عنه ما حييت .

فقلت الفتاة برجاء :

— حسبت أننا انتهينا من هذا ؟

— انى فى حيرة من أمرك ، جميع زملائى لهم خطيبات مثلك ولكنهن لا يحرمهن حقوقهم من العناق والقبل .
وغمغمت موردة الوجه :

— لسن مثلى ولست مثلهن !..

هذا حق ، ولعل زملاءه لم يقتصدوا فى توكيد هذا ولكنها لا تدى ماذا تقول ! وتفكر فيما ينطوى عليه قولها من سخرية لم تدر لها بخلد ، وقبل ان يتكلم عجلت هى بتفسير مجرى الحديث فسألته :
— اذهب انت الى السينما ؟

وأدرك أنها تهيب له فرصة ليدعوها للذهاب معه ، وساوره احساس بالضيق ولكن اشفاقه كان اكبر من حرجه فقال :
— كلا ، سأوافي بعض الزملاء الى موعد سابق !

وخفضت عينيها فى خجل ، ثم ساد صمت أليم ، وأخيرا سألته بلهجة ذات معنى :

— ماذا أحدث ذهبنا معا الى السينما فى بيتك ؟

ووجد فيما تعنيه بسؤالها عذرا ينفعه فى تجنب ما يريد تجنبه فقال :

— لا شيء ذا بال الا أن والدتى ساءها ان ادعوك الى مخالفة تقاليد أسرتك المحترمة !

فقلت ببرود :

— ليس مما يسىء الى الأسر المحترمة أن يذهب فتياتها الى السينما !

— كما لا يسىء اليها العناق والقبل ولكنك — مثل أمى — لا تصدقين !

فتجاهلت اشارته وتساءلت :

— هل منعتك من العودة الى تلك المخالفة ؟!
— كلا !.. ولكنها تخاف ان أسوء من غير قصد الى أسرتك
الكريمة .

— ألم تخبرها بموافقة والدي ؟
— أخبرتها ولكنها اعتقدت أنهما وافقا متورطين ..
— هل أفهم من هذا اننا لن نخرج معا بعد اليوم ؟
ولم يستطع أن يجابها بما يبطن فقال :
— بل نخرج حين نشاء ..
وندم على قوله أثر التفوه به ، أما هي فابتسمت في حياء
وقالت بصوت منخفض :

— ظننت اننا سنذهب اليوم الى السينما !
وعجب لهذه الدعوة تجيء من ناحيتها هي ، ومع أنه رق
لها الا أنه لم يستسلم لعاطفته فقال :
— لولا اننى مرتبط بموعد كما قلت لك ..
— آه .. هذا أهم طبعاً من ذهابي معك !
— ليس الأمر كذلك لكن سبق منى وعد !.. ثم .. ثم
لا يجمل بنا ان نعاود ما تظنه أمي مخالفة للتقاليد بهذه السرعة !
فهزت رأسها في ابتسامة حزينة وقالت :
— اذن فليس الموعد الذى يمنعك !
فقال بتسليم :

— كلا الأمرين معا !.. لا تؤاخذى أمي على عقليتها القديمة .
فخرجت عن ضبط عواطفها لأول مرة قائلة :
— فكيف تسمح لنفسية بالخروج كل يوم ؟!
ولم تعجبه لهجتها ، وساءها ما تضمنته فقال بلهجة لم تخل
من حدة :

— لولا العمل لما غادرت نفيسة البيت أبدا !
وبادرت قائلة بلين واشفاق وأسف :

— لم أقصد سوءا بأحد . أردت ان أقول ان الخروج لا يعيب
انسانا . .

وساد الصمت قليلا ثم سمعا وقع أقدام الأم وهى راجعة
فتساءلت بهية فى لهفة واشفاق :

— حسنين أنت غاضب ؟

ولم يستطع ان يجيبها بسبب ظهور الأم فابتسم لها ابتسامة
رقية أثابت اليها طمأنينتها . . ومكث معها ساعة ثم ودعهما
وانصرف .

٦٧

لم يكن ثمة موعد كما زعم وقد ذهب الى السينما بمفرده ودخلها
بعد بدء العرض بدقائق فأرشد الى كرسيه فى الظلام . وجعل
يشاهد الجريدة بنصف انتباه والنصف الآخر هائم فى البيت الذى
غادره معتذرا بأكذوبة . وذكر كيف ضغطت على يده . بحنو
وهى تودعه ، ضغطة لذيذة أرعشت قلبه . وغفرت لها ما تقدم
وما تأخر من اساءة ! . « الأمنيتى الآن أدنى الى التحقيق . لو
مارست ضبط النفس بدل التهالك والتوسل لفزت بما أشتى من
زمن . لو عبست فى وجهها مرتين لما ألصرت على قول « لا » .
ما أحمقنى ! . لن أقنع بقبلة . لأضمنها الى صدرى حتى يقطع
عظمها تحت ذراعى ، بعيدا عن أعين النقاد التى لا تعجبها الا
الملاحاة والرشاقة والموضة . ولكن هل أصر على اخفائها عن الأعين
حتى بعد أن اتزوج منها ؟ . لماذا لا أستهين بالناس وألستهم ؟ .
يا له من شر لا قبل لى بالتعامى عنه ! . هكذا أنا » وارتاح من
أفكاره بتركيز وعيه فى الشاشة فرأى هتلر وهو يستقبل سفراء
الدول بمناسبة عيد ميلاده ، ثم شاهد فصلا من الصور المتحركة

وأضيئت الأنوار . ودار برأسه فيما حوله متفرسا في الوجوه
فاستوقف نظره امرأة هائلة مفرطة في السمنة لحد مزر تجلس
لصق زوجها وتنازعه الحديث ، ولم يسهه الا الاعجاب بشجاعة
الرجل الذي يستصحب هذه المرأة دون مبالاة بأحد . ولاحظ
منه التفاتة الى يساره فرأى في الكرسي الذي يليه فتاة حسنة
مرتدية جاكته رمادية وتاييرا . وخيل اليه لحظة أنه لا يرى هذا
الوجه لأول مرة . وراح ينقب في طوايا ذاكرته ، وفي أثناء ذلك
انتقل بصره الى امرأة تليها ثم الى رجل ما ان رآه حتى دق قلبه
بعنف ونهض قائما ومد له يده بأدب وهو يقول :

— مساء الخير يا سعادة البك .

فالتفت الرجل صوبه — كان أحمد بك يسرى — وابتسم اليه
مسلماً ، ثم قدمه الى زوجته وكرمته وعقب على التعرف به قائلا
« ابن المرحوم كامل افندى على » فسلم عليهما في غاية من الأدب
وعاد الى جلسته ومس يد الفتاة يسرى في جسده ، وسأله البك
عن حاله في الكلية فأجابه شاكرا ثم فرغ كل لحاله . ونظر الى
امامه وهو يشعر بارتياح لأنه جاز فترة التعارف وهو ثابت
متمالك لأعصابه مع انه كان يقدم الى عضوين في هيئة الجنس
اللطيف العالية لأول مرة في حياته . ومر عند ذاك نادل يحمل
الوانا من الشيكولاتة والمشروبات فود لو كان يملك من النقود
ما يسعفه بتقديم بعض منها الى الأسرة ، ولكن لم يكن في جيبه
الا قروش ، فحنق على افلات هذه الفرصة منه ، وحقد على فقره
كما لم يحقد عليه من قبل !. ثم اطفئت الأنوار وعادت الحياة الى
الشاشة ، ولكنه لم يندمج فيها ووجد من وعيه وخياله اباء
وجموحا . توكد لديه الآن انه لم يكن يرى هذا الوجه البديع لأول
مرة ، وذكر الساق العارية التي كشفت عنها حركة الدراجة
بحديقة القيللا . ترى أى اثر قد تركه في نفسها ؟. واى اثر أخلفه
قول أحمد بك من انه « ابن المرحوم كامل افندى على » ؟. كان

والده موظفا صغيرا ، وفضلا عن هذا فلا شك أن المرأتين تعلمان بما بذل البك لأسرته من شفاعاة تارة ليوظف حسين . وتارة ليلحقه بالكاكية الحربية ، وهيهات أن يغيب عنهما حقيقة مستواه الإجتماعى . ولعل الفتاة لم تر فيه الا صنعة لمعروف والدها . ولعلها قالت لنفسها انه لولا يد أبيها ما ارتدى - هو - بدلتة ذات الشريط الأحمر !. كل هذا محتمل ، بل هو مؤكد ، وقد التهب جبينه خجلا وسخطا . « لقد رأيت ساقك على الدراجة ، عاجية جذابة ولكنها ليست بمعجزة . لا توجد معجزات فى هذه الدنيا . الست تنامين كأي فتاة ، وتغيبين عن الوجود كأي امرأة . وتحبلين كما تحبل الخادمة التى طردناها لفقرنا ، وتعوين حين المخاض كاية كلبة ! » وحك أنفه بسبابته فجأة فتنسم شذا لطيفا مما علق براحته عند السلام ، فيه اثاراة للأعصاب ونفاذ الى القلب كأنه السحر ، فأسكره عرفه وبث فى نفسه رضى وسلاما مسحاً عن صدره ادراان الحنق والألم . ولحظ طيفها اللطيف فحدس انها شابكة ذراعيها على صدرها ، وتمنى لو تريح ساعدها على يد المقعد فتمس ساعده عفوا . ثم تخيل صورة وجهها الذىلقى عليه نظرة خاطفة وهو يسلم عليها ، بطوله الممتلىء وعينيها السوداوين اللتين ينمان عن حيوية وخفة ، وهالة شعرها الاسود العميق السواد ، وبشرتها النقية التى تزين وجنتها اليسرى شامة ، ثم راح يستحضر صورة بهية ، ويعرض الصورتين جنبا الى جنب حيال مخيلته حتى اقتنع بأن هذه الفتاة ليست أجمل من فتاته ، ولكنه شعر فى الوقت نفسه بأن بهية جمال جامد وهذه جمال متحرك ، كأنما ييث فى النفس حرارة ويشيع فى الخيال حياة . وليس هذا فحسب فانها تمثلت لعينيها الطموحتين كرمز حى للدنيا الراقية التى يتطلع اليها بشغف جنونى . لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة . وبرغم نشوته الراهنة لم يخدع عن حقيقة شعوره ، ولم يتوهم انها تغفلت فى قلبه حيث استكنت

بهية . فهذه على سلبيتها المطلقة - تقبض على جذور غرائزه
وأعصابه ، ولكن الأخرى تخاطب مباشرة طموحه الذى لا يقف
عند حد ، ولعله عرف على ضوء عينيها جانباً من نفسه كان
غامضاً وهو أنه يؤثر فى أعماقه الطموح على السعادة والسلامة ! .
ثم هبطت عليه نوبة فتور مفاجيء فقال لنفسه « انى احلم احلاماً
سخيفة . ولكن الا يحق لى أن أروح عن صدرى بالأحلام ؟
أليست الأحلام نفسها حلماً ؟ .. بلى ، انها حلم . ولا يكدر صفوها
الا شعورنا الوهمى بأنها حقيقة ! » . وانقضى زمن لا يدريه قبل
أن يتمكن من تركيز انتباهه فى الشاشة ، ولكنه كان قد استنفذ
حيوية كبيرة فبدأ المنظر متعباً مملاً ، وتصبر عليه فى جهد حتى
انتهى وأضيئت الأنوار . والتقت الأعين فحنى رأسه تحية ثم
انخرط فى تيار الخارجين . وانفلت من الزحام فتمشى فى الطرق
ساعة ثم استقل الترام الى شبرا . وأقبل على حيه فبدت له
عطفة نصر الله أشد كآبة من عهدا ، وزكمت أنفه رائحتها التى
يختلط بها التراب بالدخان بمواد شحمية كثيرة فقطعها برما
خابى العينين ..

٦٨

وتواصلت الأيام حتى أوشك العام الدراسى على الختام . وفى
ثلثه الأخير علم أن وزارة الحربية قررت تخريج دفعة الشباب
مكتفية بعام دراسى واحد على أن يتم الخريجون تدريبهم فى الفرق
التى يلحقون بها ، وذلك لتواجه زيادة عدد الجيش بعد اقرار
المعاهدة . وضوعف العمل للطلبة ولكنهم اقبلوا عليه مستبشرين
متحمسين ، والواقع أنها كانت حقيقة أقرب ما تكون الى الخيال
فلم يكن ثمة واحد منهم يصدق أنه سيكون ضابطاً بعد عام دراسى

واحد ، وكان آخر هؤلاء جميعا حسنين نفسه . ثم انتهى العام وتخرج الشاب ! . واستخف الطرب الأم وكانت أشبه بملاح تائه تمزق شراعه ونفد طعامه اذ تكشف الضباب لعينيه فجأة عن مرفأ آمن ، ولهج لسانها بحمد الله وجعلت تقول في حرارة وإيمان عميق « أنت وحدك يا ربى الذى أخذت بيدي . ومن كان يرى حالنا بالأمس ونحن نتخبط في ظلمات اليأس ويرانا اليوم وكل شيء من حولنا يدعو للأمل يقر من صميم قلبه بعدلك ورحمتك » . وغبطت نفسها على سعادتها لأول مرة في حياتها وأخذت محنتها الطويلة تتراعى لعينها الذابلتين في هالة من الفخار والسرور وكأنها لم تكن سوى عبوسة مصطنعة على جبين الأقدار الرحيمة ، فابتلت عيناها بدموع الفرح والشكر . وكانت تقتصد من تقود حسين ونفيسة ما تعده لسداد مصروفات السنة التالية فأخذه حسنين ليهيئ به ملابس الضابط الكاملة وشغل بذلك طول المهلة التى تمنح للخريجين قبل توزيعهم على الفرق المختلفة . ولما كان ترتيبه بين الأوائل فقد الحق بسلاح الفرسان بالقاهرة وتها للأسرة من حسن التوفيق ما لم تكن تحلم به ، وارتدى حسنين بدلة الضابط فتحقق حلمه القديم وجعلت أمه تنظر اليه بعينين أذهلها الفرح حتى شذت عن المألوف من صمتها ورزانتها ، فهذا هو الابن المحبوب ، زهرة حياتها وأملها المنشود . وقد قال لها مرة :

— اذا حان موعد الاحتفال بالمحمل فسيتاح لك ولنفيسة فرصة باهرة لتشاهدانى على صهوة جوادى على رأس فرقة الفرسان !

فلم تتمالك أن قالت له :
— هذا اذا ابتعت لى معطفا يليق بالظهور فى الطريق القاص بالمفرجين !

فضحك الشاب قائلا :

— صبرك حتى أقبض مرتبى !

كانت أياما سعيدة صفت لهم فيها الدنيا وطابت . بيد أن الشاب كان يفكر فى أمور كثيرة ، وكان يروم أن يقيم سعادته المتاحة على أسس ثابتة لا يتطرق اليها الفساد ، فانتهر فرصة انفراده بأمه مرة — كانت نفيسة فى الخارج — وقال لها بصوت ينم عن الاهتمام الشديد :

— أماه ، يجب أن تنقطع نفيسة عن عملها المزرى فى الحال لأنه لا يجوز لاخت الضابط أن تكون خياطة .
فابتسمت الأم وقالت فى بساطة :

— سترحب بهذا بمجامع قلبها يا بنى ..

كان ينتظر هذا القول بلا ريب بيد أنه لم يمح من نفسه ما يعتلج بها من مثار الفكر فاستطرد متنهدا فى كتابة :
— ليتنا نستطيع أن نمحو الماضى من صفحة الوجود !..
أخاف أن يعيرنا قوم بما كان . وأنت أعلم بنفوس الناس ، وأكره ما أكره أن يترامى شىء من هذا الى أحد من زملائى فأفقد كرامتى بين أقرانى ..

فسرى اليها بعض همه ولكنها ربتت على كتفه مبتسمة وقالت باستهانة :

— كنا فقراء ، وأكثر الناس فقراء ولا عيب فى هذا ..

فهر راسه معترضا وقال فى اسى :

— كلام يقال ولكنه لن يغنى عنا شيئا وأنت أخبر بالنفوس !..

— لا أحب لك يا بنى أن تنفص عليك صفوك بأمثال هذه

التخيلات !..

فاستدرك قائلا وكأنه لم يسمع قولها :

— هذه العطفة الحقيرة تعرفنا على حقيقتنا ، فلهذا لا اطيع

البقاء فيها ...

واشفقت الأم من تكدير سعادتها الشاملة فقالت بتوسل :

— ستسوى هذه الأمور مع الزمن فلا تتعجل بحمل همها !
وحدجها بنظرة غريبة وغبطها فى نفسه على قوة أعصابها ،
ولكنه سرعان ما تغيظ لعدم اكتراثها بالأخطار التى تتهول فى
رأسه وقال بحدة :

— قد تسوى هذه الأمور مع الزمن حقا ولكن بعد أن تكون
قد قضت على !

فلاحت فى عينى المرأة نظرة ارتياح وقالت له فى عتاب :
— أراك كعادتك نافد الصبر متعجلا للمتاعب ، ونصيحتى
لك الا تخطأ أفراحك الحقيقية بأثرأح وهمية لا أهمية لها ..
فقال باستنكار :

— لا أهمية لها !؟

— بلى لا أهمية لها !

— ماضى نفيسة وما يعرفه هذا الحى عنا لا أهمية له ؟

— اذا لم تأخذ نفسك بالإيمان بهذا فلن تنعم بالسعادة أبدا .
فتنهذ حسين قائلا :

— أود أن أسدل على الماضى ستارا كثيفا ..

— تجمل بالصبر وسيكون لك هذا ..

فالتهب الشاب غيظا وقال كمن ضاق صدره :

— لا أخاف شيئا كخوفى الصبر الذى تدعيننى اليه . أنظرى

الى هذه العطفة الحقيرة وهذا البيت العارى هل أستطيع أن
أخفيهما الى الأبد عن أعين زملائى !؟

وشعرت المرأة بتعاسة وأدركت أن حياتها لن تخلو من هم
وكدر . وقالت له بمرارة :

— خطوة خطوة ! كنا لا نجد الطعام فانظر أين نحن الآن !!

فهرز رأسه فى حزن وقال :

— ما أردت اغضابك يا أماء ولكنى أفكر هذه الأيام كثيرا فى

المتاعب التى تتهددنا . وقد ذكرت لك بعضها ، ولعل ما بقى

أدهى وأمر . فانظري مثلا الى أخى حسن وسيرته فى الحياة !..
كيف نستقبل الحياة فى هدوء وحولنا هذه المتاعب ؟!
وتفرست فى وجهه بدهشة وكأنها تعجب لقدرته على اصطيد
الهموم ، وتمتت فيما يشبه اليأس :

— دع الخلق للخالق . كنا هكذا دائما فلم نهلك ولم يقض علينا .
فقال الشاب بانكار :

— لم أكن ضابطا أما الآن فقد أصبحت سمعتى مهددة !
وتجهم وجه الأم ولاذت بالصمت فى كرب شديد فتنهد
حسنين قائلا :

— ينبغى أن يتغير كل شئ ، حتى قبر والدنا المكشوف بين
قبور الصدقة . تصورى ماذا يظن بنا زملائى لو علموا بمكانه !
ودارت الأم مشاعرها بابتسامة وقالت برجاء :

— انى أحب لنا ما تحب ولكنى أوصيك بالصبر واحذر
عواقب ثورة لن تجدى الآن الا الحزن . تريد أن تمحو الماضى وتغير
البيت وتنشئ مقبرة وتبدل أخاك من حال الى حال ، ولكن
هيهات أن يتم لك ما تريد قبل زمن طويل فكيف يكون العمل ؟ .
 طالما تمنيت أن تسعدنا وأن تسعد معنا فاذا لم تروض نفسك
على التسليم بالواقع وتأخذها بالصبر شقيت وشقيننا !

وضاق بالكلام ضيقه بمتاعبه فأمسك عنه . ولم يقع قولها من
نفسه الشائرة موقع الاقتناع أو القبول فخیل إليه أنها لا تشاركه
آماله وعواطفه ، وأنه وحيد فى معركة الحياة أو الموت . ان نفسه
تهفو لحياة أفضل وأنظف . ولن يحيد عن هدفه ، وليدافع عن
سعادته وآماله بكل ما أوتى من قوة ورغبة فى الحياة . ودق الباب
عند ذاك ، وكان المساء يمد رواقه ، فحدث أنها نفيسة عائدة
من عملها ، فهرع الى الباب فى تصميم جديد ..

ودخلت الفتاة مبتسمة وكانت لا ترى تلك الأيام الا مبتسمة
مستبشرة . واستبان في وجه أمها سهوما فاقتربت منها
وقالت مداعبة :

— تخلى يا أماه عن هذا الجد الذي لا داعى له فقد انتهت
متاعبنا .

وردد حسنين قولها في نفسه محزوناً ، هل حقا انتهت
متاعبهم ؟ . ان ميزانية الجيش كلها لا تكفى لانهاء متاعبهم !
ثم رفع بصره اليها وقال بلهجة ذات معنى :

— آن لك ان تستريحى ...

فتساءلت ضاحكة :

— اتعنى ان أترك مهنتى ؟

— نعم ...

— اتركها غير آسفة ، وسألزم بيتى كالهوانم : أأست شقيقة
ضابط ؟ ! . .

ولم يتمالك ان قال ساخرا :

— وشقيقة سى حسن أيضا !

فرددت عينيها بينه وبين أمها فى دهشة وتساءلت عما جعله
يقحم أخاه بهذه اللهجة المرة ، أما هو فسالها متهمكا :

— ألا يسرك هذا ؟

وقالت الفتاة برقة وعطف :

— مهما يكن من أمر أخينا حسن ففضله لا يمكن ان ينكر . .
وتدارك الشاب قائلا :

— لست فى حاجة الى من يذكرنى بهذا ، وعلم الله انى أحبه ،

ولكن لا حيلة لى اذا قلت أن سلوكه فى الحياة ليس مما يشرف .
وثقبت العبارة الأخيرة قلبها فلاحت فى عينيها نظرة زائفة ،
وتخيلت أمورا فبردت اطرافها رعبا ، ثم خيل اليها أنه يعنيها
بالذات ، ولم تعد ترتاح للصمت فغمغمت فى فتور :
- واية أسرة تخلو من شيء من هذا القبيل !
فقال حسنين بامتعاض :

- ولكنه لا يوجد فى الأوساط المحترمة .

وركبها الضيق والقلق فرغبت فى الاختفاء وتظاهرت بالضحك
وقالت فى مرح متكلف :

- لا يستحيل أن يوجد شقيقان أحدهما وزير والآخر لص ،
بالله لا تكدر صفونا ، واعلم أنى صنعت لك صينية كنافة
فدعنى أسخنها ولنأكل فى سلام !

وغادرت الحجرة الى المطبخ بوجه مكفهر ونفس حائرة يشيع فى
قلبها خوف وقلق . انه يدعوها الى القبوع فى البيت أسوة بالنساء
المحترمات ، وانها ترحب بهذا ولكن ما كان كان ولا سبيل الى
اصلاحه . وهى تستطيع اذا شاءت أن تنتحل لسلوكها الأعدار
وأن تقول لنفسها انها إنما ارتضت تلك الحياة للحصول على النقود
التي أقامت بها أود أسرتها فى أكلح ساعات حياتها ، وهذا حق ولكنه
ليس الحق كله ، فهناك أيضا الرغبة المعبدة واليأس القاتل . وكم
ودت فى ساعات يأس لو تموت هذه الرغبة ولو تموت هى بموتها ولكنها
كانت تزداد رغبة وانحدارا ويأسا ثم تمردا واستسلاما . وعانت
كثيرا شقاء الذنب وكان عزاءها الوحيد أن كان عزاء على الإطلاق
- أن الأقدار لا يمكن أن تدخر لها حياة أفضل . وكم تمزقها الحيرة
الآن بين ماض تعيس ورغبة لا تسكت عنها . وحتى هذه الحياة
الجديدة الموعودة لا تدرى ان كانت تستطيع حقا أن تخلص لها بعد
ما كان ، فلن تفيض رغبتها ولن يتخلى عنها اليأس ، وفيه تأخذ
نفسها بصبر لا مطعم لأمل وراءه وليس لديها ما يصح المحافظة

عليه ؟ هل يمكن أن تقنع من الحياة بانتظار طويل ممل للموت ؟ .
لا تدري ان كان بوسعها حقا ان تخلص للحياة الجديدة ، وان تتعذب
عذابا طويلا متصلا بعد ان خسرت كل شيء . انها تمقت الماضي
وتخافه ولكنها تشد اليه بقوة شيطانية فلا تستطيع منه فككا ،
ولن تفتأ تتبعه يائسة مثقلة بالذنب مرتعبة ، كمن يسلم للسقوط
من علو شاهق في كابوس بعد ان ايس من اليقظة . وجعلت تنظر
في سهوم الى صفحة الكنافة الموردة حتى تخيلت نفسها في
الصينية تحترق وقد اسودت بشرتها ، وفي تلك اللحظة بدت
الحياة لها عابثة قاسية ، تعبت في قسوة ، وتقسو في عبث . فتساءلت
« لماذا خلقني الله ؟ » . ومع ذلك كانت تحب الحياة ، ولم يكن
يأسها وعذابها وخوفها الا آيات على هذا الحب ، وكانت الى
هذا كله تنتظر مع الغد موعدا لم تضر النكوص عنه .

وحملت الصينية بخرقة بالية وعادت الى الحجرة فوضعتها
على المكتب وهي تقول في مرح وكأنها انسيت أفكارها ومخاوفها .
- اقدم لك آخر كنافة من عرق جبیني ، وعليك وحدك منذ
الآن أن تحلى السنتنا !

وأقبلوا على الكنافة بشهوة وقد تطهرت الأنف من همومها ،
وقالت الأم وهي تفرز أصابعها في الصينية :
- ليت حسين كان معنا .

ولوح لها حسنين بأصبعه حتى ابتلع ما في فيه ثم قال :
- آن لنا أن نسعى الى نقله الى القاهرة ، كان أحمد بك
يسرى قد وعد بنقله بعد مرور عام أو نحوه وها قد أوشك
أن يمضي عامان على تعيينه في طنطا .

كان يرغب في معاشرة أخيه كعهدهما القديم ، وكان يأمل أن
يجد فيه عوناً على متاعبه ، وقد رحب الى هذا وذاك بفرصة
تتيح له زيارة أحمد بك في قصره .

ذهب مع أصيل الغد الى فيلا أحمد بك يسرى وفي نيته ان يقدم له فروض الشكر لمناسبة تخرجه ثم يستشفعه لنقل أخيه الى مدرسة من مدارس القاهرة . وقد وقف البواب احتراماً للمضابط ثم قاده الى السلامك ومضى الى الداخل لانباء البك بحضوره . وجلس حسنين على الكرسي الذي جلس عليه اكثر من مرة في أوقات متباعدة وظروف مختلفة ، وراح يسرح طرفه في الحديقة . وجرى بصره في الممشى الطويل المتعرج الذي رأى الدراجة تقطعه في مهل وحذر منذ اكثر من عام وتساءل ترى الاتزال تلهو بهذه الرياضة ؟ . وابتسم للذكرى حيناً ثم تساءل مرة أخرى أحقا جاء للشكر والشفاعة وحدهما ؟! وعأوده الابتسام . بيد انه كان في حيرة من أهدافه قلقا حيال البواعث التي تحركه ، مشفقاً من الاساءة الى خطيئته ، ثم ذكر زيارته الأخيرة - التي أعقبت تخرجه - لبیت فريد افندى وكيف مرت في احاديث مملولة وشعور اليم بالحرمان ، حتى انه لم يظفر بجلسة منفردة واحدة بفتاته ، ذكر هذا فوجد من التذمر ماهون عليه احساس التائب الذي دب في أعماقه لسروره بذكریات فيلا أحمد بك . ونفض عن رأسه افكاره وأستسلم لمشاعر الطموح التي تتوهج في قلبه في محيط هذه الفيلا الرائعة فانثالت على مخيلته الأحلام ، ماض جديد وبیت جديد وقبر جديد وأهل جدد ومال موفور وحياة وضاعة لامعة . ومع انه صار ضابطاً ، ولعل كثيرين يرمقونه بعين الحسد لذلك ، إلا انه أدري الناس بقلبه الذي يحترق لهفة على الحياة السامية النظيفة ، هذا القلب الذي أورده الجزع موارد القلق والسخط

والشقاء ، ولبت على استسلامه للأحلام حتى عاد البواب من الداخل وتنحى عن الباب فى أدب وهمس « سعادة البك قادمة » . ونهض حسنين ، ثم ظهر البك فى بدلته البيضاء والوردة الحمراء تزين عروته ، ولما رأى الشاب القى على بدلته العسكرية نظرة شاملة ثم قال ضاحكا :
— أهلا بالضابط .

وانحنى الشاب على يده مسلما وهم بالكلام ولكنه رأى حرم البك تتبعه قادمة من الداخل وفى أثرها الفتاة . وأدرك أنه جاء فى وقت غير مناسب لفرضه لأن الأسرة متاهبة للخروج ، وقد تؤكد هذا لديه حين لمح السيارة تدور فى الممشى الواسع وتقف عند أسفل السلالم منتظرة الداهيين ، فما كان منه إلا أن سلم على المرأتين وتأخر خطوتين قائلا :

— جئت لأقدم لسعادتك فروض الشكر لمناسبة تخرجى ، وأرى أن أستاذن فى الانصراف الآن حتى لا أؤخركم .
ولكن البك قال :

— بل نجلس لنشرب ليمونا معا . ما يزال أمامنا فسحة من الوقت ..

وجلسوا فجلس وهو يبذل قصاراه ليضبط أعصابه فلم يكن ابغض إليه من أن يتولاه الاضطراب أو الارتباك حيال البك وانداده من على القوم . وذهب البواب لاحتضار الليمون أما البك فسأله برقة :

— أين كان تعيينك ؟

فقال حسنين بزهو مكتوم :

— سلاح الفرسان بالقاهرة .

— كنت من المتقدمين ؟

— الثامن ...

وهنا الرجل ، ثم ساد الصمت . وكان فى عزمه — لو قابل

البك منفردا - أن يعدد أياديه على أسرته وما بذل من شفاعاة
محمودة له ولأخيه على أن يتدرج من الثناء الى عرض مسألة أخيه
حسين ، ولكنه عدل عن هذا مصمما على الاحتفاظ بكبريائه أمام
المرأتين ، وأمام الفتاة خاصة ، ولم ير ضيرا في تأجيل مسألة
شقيقه الى غد أو بعد غد على أن يحدث البك عنها في مكتبه
بالوزارة . وجاء خادم نوبى بأقداح الليمون ودار بها عليهم .
وانتهز حسنين فرصة رفعه للقدح الى فمه فاسترق الى الفتاة
نظرة من فوق حافة القدح فرآها وهي تحسو شرابها في رفق
ولطافة ، فلم يند عن زورها هذه الحركات العصبية التى يبعثها
الازدرداد العنيف ، وتمززت السائل في رقة فانسكب في هواده
وحياء ، وقد اكتسى وجهها بهدوء بديع واسترخاء حالما كأنها
تستنيم للمسرات النعاس ، وأعاد القدح الى الصينية ثملا بنشوة
افتتان تبعثها الأناقة والرشاقة وأمارات الأرسقراطية . وتخيلها
فجأة بين ذراعيه مستكينة مستنيمة فأصر على أسنانه . « ما هذا
الجنون الذى ينبعث فى دمي . ليس شهوة فحسب ، بل ليس
شهوة على الإطلاق ، بهية أشهى منها وان كان يخجلنى الظهور
معها أمام الناس ، ليس ركوب هذه الفتاة بعمل جنسى ولكنه غزو
كامل وفتح مظفر . هذه هى ! » . وانتبه من أفكاره على صوت
أحمد بك وهو يسأل :

— كيف حال الأسرة ؟

فخطر له خاطر ظن انه يرفع من كبريائه . وكانت الأكاذيب
تنبعث فى نفسه أحيانا بوحى البديهة فقال بلا تردد :

— الحمد لله . انقضت متاعبنا بعد ان كسبنا القضية !

فتساءل البك :

— اى قضية ؟

فقال بثبات وثقة :

— قضية قديمة بين أمى وأخوالى على أوقاف وقد حكم
لأمى بنصيبها كاملا !

فقال الرجل :

— مبارك .. مبارك ..

وشعر حسنين بارتياح وزهو ، ثم وهو يقول :

— لقد اخترتكم وأنا آسف يا سعادة البك .

ونهبوا جميعا وهبطوا الى موقف السيارة ، وتمنى لو يدعو
الرجل الى الركوب معهم ، ولكنه مد له يده مودعا فسلم عليه
وحنى رأسه تحية لأسرته ومضى الى الباب مسرعا . كانت الزيارة
تبدو مخففة لأنه لم يمس الموضوع الذى جاء من أجله ولكنه كان
يرى توفيقه بهذا اللقاء غير المنتظر وهذه الكذبة التى جادت بها
البديهة السعيدة أخطر من غرضه الأول الذى لن يؤثر فيه
تأجيل يوم أو يومين ..

٧١

وقلب وجهه فى السماء ولما يبرح شارع طاهر فطالع فى صفحتها
نظرة الغروب الشاحبة فتساءل ترى هل يجد أخاه حسن فى بيته
إذا جازف بزيارته ؟ كان مصمما على مجابته براهيه وأن كان
ضعيف الأمل فى اصلاح ما فسد من أمره ، ولكن تركيز أفكاره
فى مستقبله ومستقبل أسرته جعله يستهين بكل شئ حتى
مناضلة حسن نفسه . ومضى يشق طريقه بعزيمة لا تنثنى ولكنه
كان يحمل قلبا أثقله الهم والشك . واستقل الترام حتى ميدان
الحازندار ثم اتجه الى شارع كلوت بك وقد تحول انتباهه الى
بدلته العسكرية التى فرضت عليه الظروف — كانت أمه قد
استغلت ملابسه القديمة فى أغراض جديدة كعاداتها — أن يخرق

بها طرقا مربية ! لم يكن الاختيار بيده ، وكان يرى في حسن مشكلة الأسرة المعقدة الأولى . لقد تخلت نفيسة عن مهنتها . وسوف يهجر قريبا عطفة نصر الله بل وشبرا جميعا ، وربما أسدل ستار النسيان على الماضي البغيض كله ، فلم يبق الا حسن وهيهات أن يطمئن له جانب ما دام شقيقه مقارفا حياته الآثمة . وطالعت عطفة جندف فعرج اليها متجنباً الأنظار التي تطلعت اليه في دهشة وقطعها مسرعا الى بيت أخيه ومرق اليه كالهارب مستقبلا الرائحة النتنة . وارتقى السلم الحلزوني ممتعضا ، ذاكرا في ضيق وخجل زيارته الأولى لهذا البيت منذ عام . حتى وقف أمام باب الشقة في شبه ظلام وطرق الباب . وفتح الباب عن وجه رجل غريب - وجه شائه من الوجوه التي لم تبرح ذاكرته منذ زيارته الأولى - وما أن وقع بصره عليه حتى دفع الباب فأغلقه في وجهه بسرعة غريبة وقد ندت عن فيه صرخة قائلة : « بوليس ! » فدهش الشاب ، ثم حدس ما هنالك فانزعج وأحس بخزي وألم لم يحس بمثلهما من قبل . ولبث متسمرا في مكانه لا يدرى ماذا يفعل . وفكر في العدول عن الزيارة ، ولكنه لم يبرح مكانه ووجد من نفسه تصميمًا عنيذاً على انجاز مهمته مهما كلفه الأمر . ليست المسألة لهواً وعبثاً ؛ هي حياة أو موت ، ولن يستطيع السير في حياته قدما ووراءه هذا البيت . وطرق الباب مرة أخرى ، وانتظر وهو يعلم بعث الانتظار ، ثم أعاد الطرق بشدة . ترى هل يمكن أن يكونوا قد هربوا من الشقة من إحدى النوافذ ؟ وأراد أن ينادى أخاه بصوت مرتفع فيتعرف عليه بصوته ولكنه خاف أن يعرفه كما يريد ثم يعلن شخصيته لصاحبه المذعور ليطمئنه فتذاع الصلة التي يتمنى ألا تعرف أبداً ، ومع هذا فمن أدراه أن حسن لم يخبر أحداً بحقيقة شقيقه ولو على سبيل الفخار ؟! وأصر على أسنانه في خزي ويأس ، ولكن اليأس أمده بقوة عناد جديدة فطرق الباب بقبضة يده

بعنف وصاح « يا حسن ، يا حسن ، انا حسنين ! » . ولم يطل
انتظاره بعد النداء ففتح الباب وبدأ حسن خلفه يطالعه بعينين
ذاهلتين . وبدأ كمن يفيق من صدمة ، وثبت عليه بصره لحظات
دون أن يتحرك ، ثم دبّت في عينيه يقظة ، وشاع في نظرتيهما
الابتسام وهتف :

— حسنين !!.. ضابط ..! لا اصدق عيني !

وشد على يده ، وربّت بالأخرى على ذراعه . وجذبه الى
الداخل وهو يضحك ضحكة عصبية عالية . ثم سار به الى
حجرة النوم وهو يقول :

— ضابط ..! يا لها من مفاجأة !!.. مبارك مبارك .. هذا

يوم سعيد ..

وجلس حسنين على الكنية ، واغلق حسن الباب ثم جاء
فجلس الى جانبه . وكان الشاب يبذل جهدا جبارا ليتغلب على
اضطرابه ويتمالك أعصابه ، ونظر الى أخيه مبتسما وقال :

— انى أحق الناس بالتهنئة ولكنك انت احقهم بالشكر .

فضحك حسن بسرور ولعل شعوره بالسرور كان مضاعفا
بعد ما كان من انزعاجه وقال :

— علام أستحق الشكر ؟ ما أديت اليك الا بعض حقك عندي .
دعنا من هذا وخبرنى عن حال الأسرة ، وكيف أمنا ونفيسة وما
اخبار حسين ؟

وراح يحدثه عما يريد بباطن فاطر وظاهر متكلف الاهتمام ،
وكاد الحديث يسوقه وهو لا يدري الى سؤاله عما قطعه عنهم ،
ولكنه أمسك عن السؤال فى اللحظة الأخيرة ذاكرة ان انقطاعه هذا
خير غير مقصود وأن وصاله شر ما يبتلون به وهو على هذه
الحال ، ولما فرغ من حديثه قال حسن :

— الحق انى احن اليهم كثيرا ولكن حياتى لم تعد تسمح لى
باشباع هذا الحنين . نحن فى بلد واحد ولكنى فى الواقع كائى

في بلد بعيد منقطع عن العالم ، وربما خفف عنى الالم احيانا انهم لم يعودوا بحاجة الى وائى أديت بعض الواجب على . فضلا عن هذا فلست تجدنى فى يسر متصل ، فقد يمتلىء جيبى بالنقود أياما ثم يفرغ أسابيع ، وفى حالة امتلائه تجدنى مضطرا للانفاق بغير وعى . لا عليك من هذا ، لقد أصبحت ضابطا فمبارك عليك حظك ولا يصح ان أخلط بفرحى شيئا آخر . . . مبارك يا حضرة الضابط! وجعل حسنين يصفى اليه وهو يتفرس فى وجهه فهاله ما يرى من تغير وتشويه وغبابة كأنه يستهلك فى العام الواحد من حياته المحفوفة بالمهالك الأعواما طويلا . لقد أنتهى حسن ، وشعر بانقباض وتشاؤم ، وبثقل المهمة التى جاء من أجلها . ومع هذا فلم يخطر له لحظة واحدة أن يعدل عما يراه واجبه ، وعزم على أن يتسلل الى هدفه برفق فابتسم وقال :

— أخاف أن أكون قد أزعجتك بزيارتي !

— ابصق هذه العبارة من فيك !.. ما هذا القول يا حضرة الضابط ؟!

فأشار حسنين ناحية الخارج وقال متصنعا الدهشة :

— لقد فتح الباب لى رجل غريب ثم صرخ مرتعبا « بوليس » وأغلق الباب فى وجهى !

فقهقه حسن عاليا وقال :

— حصل سوء تفاهم نادر ولكنى عرفت صوتك فانتهى الأمر

بخير . .

فوجد حسنين صعوبة قبل أن يقول متسائلا :

— وما الذى أخافه ؟

فالتقى عليه نظرة كأنما تسأله أيجهل حقا ام يتجاهل ! ثم قال :

بعدم اكتراث :

— يوجد أناس كما تعلم يخافون البوليس !

فتساءل الشاب باشفاق :

— اليس من الخطر أن تفتح أبواب بيتك لمثل هؤلاء ؟!
فصمت حسن قليلا ثم قال :

— بلى ولكن الانسان ليس حرا في اختيار أصحابه !
فقال بدهشة :

— كيف هذا يا أخى ؟! .. الانسان حر بلا شك في اختيار
أصحابه ...

فقال حسن بلهجة من يرغب في تغيير مجرى الحديث :

— فلندع هذا جانبا ولنختار حديثا لطف !

— لا أستطيع أن أدعه حتى أطمئن عليك ...

فقال حسن ضاحكا :

— لا خوف على ، اطمئن !

— انى أعجب لما يدعوك الى مصادقة هؤلاء الأشرار .. انت

فنان محترم وتستطيع أن تختار من بين زملائك أحسن الأصدقاء .

وخفض حسن عينيه ليخفى نظرة التجهم التى لاحت فيهما .

غضب الرجل ، ولو ثار غضبه حيال شخص آخر غير حسنين

لأنفجر ، ولكنه كظمه وعالجه بالحسنى . أغضبه شعوره بأن أخاه

يعلم من أمره أكثر مما يتظاهر به ، وأنه يعامله معاملة الاطفال .

ولو أنه صارحه بذات نفسه ، بل لو أنه وصفه بالشر كما وصف

أصحابه لما غضب كما يغضب الآن . وعزم على أن يكشف القناع

عن الحديث الكاذب فقال باقتضاب وبصوت — رغم كظمه غضبه —

غير الذى تكلم به من قبل :

— انى واحد من هؤلاء الأشرار !

وففر حسنين فاه دهشة فقال الآخر بجفاء :

— حسنين اياك والتظاهر بالدهشة . لست غبيا ولست

غبيا فيحسن بك أن تحدثنى بالصراحة التى تعودت أن تحدثنى

بها دائما . ما وجه الغرابة فى أن اكون شريرا ؟ ألم اكن طوال

عمرى هكذا ؟!

وخفض الشاب عينيه في وجوم وخجل وتشتت منطقه.
فانقعد لسانه ، وارتاح الآخر لارتبائه فعاوده مرحة واراد ان
ينهى هذا الحديث المؤلم فقال :

— لا عليك من هذا ، ولعن الله الرجل الرعديد فلولا فزعه
الصبيانى ما جرى الحديث بيننا هذا المجرى السخيف ، ولنعد
الآن الى الأهم (ثم ضاحكا) لا شك انك جئتني لحديث آخر !

فجمع الشاب ما تشتت من افكاره وقال متنهدا :

— الحقيقة اننى ما جئت الا لهذا الأمر !

فلاح الاستنكار في وجه حسن وقال متهمكا :

— حسبتك جئت تطلب نقودا !

وشعر الشاب بغضب أخيه ولكن لم ينش عن عزمته فقال
بلهجة رقيقة متوددا اليه :

— بفضلك السابق لم أعد في حاجة الى نقود ولكن مهمتى

الآن اجل من النقود ، انى اريد ان اطمنن عليك ..

فحدجه بنظرة ثاقبة وقال بسخرية :

— لا زلت اطالبك بالمزيد من الصراحة !.. انك يا حضرة

الضابط تريد ان تطمنن على نفسك لا على انا !

فقال حسنين وهو يشعر بقهر وغيظ :

— هما شئ واحد ...

— حقا ؟! لا أرى رأيك أو دعنى أسألك لماذا لم توجه الى هذه

النصيحة من قبل ؟ .. منذ عام مثلاً ؟

لا يسعه — بعد ان قال له وهو لا يدرى انه انما جاء لهذه

الأمر — ان يدعى أنه كان يجهله ، وركبه الضيق ، ولكنه تهرب

من سؤال أخيه قائلا :

— الا ترى وجه الخير لك فيما اريد ؟

فتجاهل حسن سؤاله وقال بنفس اللهجة الساخرة :

— كنت قبل عام في حاجة جنونية الى النقود فلم تهتم

بالتنصح والارشاد اما الآن وقد أصبحت ضابطا فلا يهيك الا
الدفاع عن هذه النجمة اللامعة !

ومع أن وجه حسنين لم يتغير الا أن قلبه ماج بالغيظ والحنق
وكانما أهاجه ان يقرأ الآخر أعماقه بهذه السهولة الساخرة ولكنه
قال بلهجة لينة :

- أخى ...

وأشار اليه الآخر أن يسكت فسكت ، ثم قال باستهانة :
- ساكون معك صريحا الى أبعد حد ، وإذا كنت تسائل نفسك
حقا عن عملي فاني أقول لك انى فتوة قهوة بدرب طياب (ثم مشيرا
إلى الصورة فوق رأسه) وعشيق هذه المرأة ، وبائع مخدرات .
وهتف حسنين فى انزعاج :
- لا أصدق هذا !

فقال الرجل مبتسما فى هدوء :
- بل تصدقه كل التصديق ، ولعلك خمنتها فيما مضى ، وها
قد صح تخمينك ، فماذا ترى ؟!
فرنا الشاب اليه صامتا فى اشفاق وألم ، حتى ضاق بصمته
فقال محزونا :

- ليس أحب الى من أن تبدأ حياة جديدة شريفة !
فضحك حسن عاليا ثم قال بسخرية :
- بفضل حياتى غير الشريفة أتمكنى أن أدفع عن أسرتنا
غائلة الجوع ، وأن الأزود أخاك حسين بما كان فى حاجة اليه كي
يباشر عمله الحكومى ، وأن أهيبء لك قسط المصروفات الذى
جعلك ضابطا والحمد لله .

ووخزه كلامه بمثل شك الابر فترأت له الحياة ضيقة خائقة ،
ولكن رغبته الحارة فى الدفاع عن نفسه أبت عليه أن يسلم
بالمهزيمة فقال :

- كان هذا بفضل نبلك ولا فضل لهذه الحياة الخطيرة فى ذاتها!

— لا تغالط نفسك . انهم يدعوننى بالروسى لا بالنبيل . ثم
ما هى الحياة غير الشريفة ؟ ليس ثمة الا حياة فحسب ، وكلنا
يسعى للرزق ...

— توجد حياة آمنة ، وحياة يفرعها مجرد توهم البوليس ..
— هذا من عسف البوليس ، ولا ذنب لنا ، بالله خبرنى ماذا
تريد على أن اعمل ؟

فقال حسنين بحماس وقد لاحت له بارقة أمل :
— اهجر هذه الحياة واختر لنفسك عملا شريفا كسابق عهدك .
وانفجر الرجل ضاحكا وتساءل فى دهشة :
— صبي ميكانيكى ؟! .. هذا كمن يطلب اليك أن تستقيل
من الجيش لتبدأ من جديد بالتوفيقية !
وغلى حنق الشاب فى أعماقه مرة أخرى ، ولكنه تساءل فى
هدوء وأبتسام :

— الا تدري ما النهاية المحتومة لحياتك ؟
فقال متهمكا فى بساطة :
— أن اسجن أو اقتل !.. واذا قدر على أن اقتل أولا نجوت
بطبيعة الحال من السجن !
فتظاهر بالضحك وما يزداد الا حنقا ، واشتد حنقه خاصة
لاستهانته ، ومع أنه يؤس منه او كاد الا أنه استطرد قائلا :
— ارى أن خطورة حياتك لا تغيب عن فطنتك ، فلست فى
حاجة الى أن أبصرك بعواقبها الوخيمة ، وانى استحلفك بالله ان
ترعى نفسك بالحكمة ..

فألقي عليه نظرة طويلة باسمه كأنه يقول له « لا تحاول
خداعى بتوددك » وقال :
— لا تخف على ، أستغفر الله ، أعنى لا تخف على نفسك أو
سمعتك . لا تحمل نفسك هموما فارغة ، هبنى كشيء لم يكن .

لا تكثرث لما يقول الناس عنكم بسببي فانك تستطيع ان تحيا الحياة التى تروق لك على رغم كلام الناس ..

وتنهد حسنين فى ضيق وقنوط ، وحنق عليه فى تلك اللحظة حنقا أسود تمنى معه لو كان شيئا لم يكن حقا . ولكنه كائن . ومسلط على رأسه كالسيف القاتل ، فما عسى أن يفعل ؟ وتنهد مرة أخرى وتساءل :

— اليس ثمة أمل فى أن تعود الى الحياة الشريفة ؟ .. أهذه كلمتك النهائية ؟!

وغضب حسن ، وكأنه أشفق على أخيه من غضبه فانتفض قائما وقطع الحجرة الصغيرة ذهابا وإيابا مرتين مفرغا بخار غضبه فى حركاته العنيفة ، ثم استند الى حافة السرير ، وشبك ذراعيه على صدره ، وقال بلهجة من نقد صبره :

— حياة شريفة ، حياة شريفة ! لا تعد هذه العبارة على مسمعى فقد اسقمتنى . ميكانيكى بقروش معدودات فى اليوم ، أهذه هى الحياة الشريفة ؟! .. السجن أحب الى منها ! ولو اننى أستمسكت بها طوال حياتى لما حليت كتفك بهذه النجمة . اتحسب ان حياتى وحدها غير الشريفة ؟ ... يالك من ضابط واهم ! ... حياتك أنت أيضا غير شريفة ، فهذه من تلك ، ولقد جعلت منك ضابطا بنقود محرمة مصدرها تجارة المخدرات وأموال هذه المرأة (واشار الى الصورة) ، فأنت مدين ببدلتك لهذه المومس والمخدرات ، ومن العدل اذا كنت ترغب حقا فى أن أقطع عن حياتى الملوثة أن تهجر أنت أيضا حياتك الملوثة ، فاخلع هذه البدلة ولنبدأ حياة شريفة معا ؟

واصفر وجه حسنين وغض بصره فى ذهول ويأس وقد امتلأ صدره غيظا وحقدا . وانفجرت شفثاه أكثر من مرة كأنه يهم بالكلام ولكنه كان يطبقهما فى تسليم اليأس . ولم يرحمه حسن على ما بدا من قهره ووجومه فقال :

- أرايت أنك تؤثر النجمة على الحياة الشريفة ؟!! ولست
 الوملك فأنا مثلك لوثر رزقى على الحياة الشريفة (ثم ضاحكا) ..
 نحن شقيقان ويجرى فى عروقنا دم واحد !
 ونهض حسنين عابسا وهو يقول :
 - لا تسخر منى جزاء ما أوليتك من نصيحة !
 ثم اتجه نحو باب الحجرة وهو يقول :
 - استودعك الله ...
 ولما وضع يده على الكرة الباب سألته الآخر برقة مفاجئة :
 - ألا تريد أن تسلم على ؟
 فتحول إليه ومد له يده ، فشد عليها الآخر وأبقاها فى يده
 وهو يقول ضاحكا :
 - يؤسفنى أننى أغضبتك . انس ما كان ولنبق كما كنا ولو
 على البعد . ستجدنى دائما « الروسى » الذى عهدته . ولاتنس
 أن تهدى سلامى الى أمنا ونفيسة . مع ألف سلامة ..

٧٢

واطلع امه على صورة واضحة من سيرة حسن فقد كان صدره
 أضيق من أن يتسع لها وحده . واستمع لما جاد به لسانها من
 ضروب العزاء والنصح بقلب مفلق ، كان فى الحقيقة متجهما متشالما
 حاقدا . ولما كان لديه بضعة أيام من الفراغ قبل أن يبدأ عمله
 بالفرقة فقد خطر له أن يسافر الى طنطا للقاء حسين ، وعأوده
 شعوره القديم بالحاجة الى مشاورة أخيه فيما يلم به من أحداث .
 بيد أنه لم يقدّم على تنفيذ فكرته وبدأ كالتردد ، وفيما بين هذا
 وذلك لم يجد من سلوى الا فى شقة فريد أفندى . ولكنه كان
 يذهب اليها ناشدا عزاء لأمليبا شوقا ، ولم تغب عنه حقيقة مشاعره

فحمل كآبته العامة مسئولية تغيره . ثم أخذ يستبين أن تغيره
أعمق من أن يكون أثرا عارضا وقتيا ، وتساعل في حيرة ألم يعد
يحبها ؟! . عرض له هذا التساؤل لأول ما عرض في ضحى اليوم
الذى جاء بعد زيارته لحسن بيومين ، وكان يجالس بهية على انفراد
بحجرة الاستقبال على حين شغلت الأم بالمطبخ ، فجعل ينظر الى
الفتاة متسائلا ألم يعد يحبها ؟! هي فتاته بجسمها وروحها ، ولم
تنزل مشار رغبة جامحة ولكن كأنه يرغب في أن يولى عنه فيما يرغب
أن يولى عنه من ماضيه جميعا . وتحير بين رغبته فيها وما يتساعل
عنه من انتهاء حبه لها ! أم يمكن أن يرغب فيها ولا يحبها في آن ؟ انه
يجذب اليها بقوة عنيفة ولكن يرغب به عنها ما يرغب به عن عطفة
نصر الله وعطفة جندف . لم تعد الأمل الذى يرنو اليه ، وما هي
الا لوثة في دمه يبغي منها شفاء . وأدام النظر اليها حتى خال
وجهها الهادى المهذب عقابا مجسما فوجد وخزا في قلبه ، وطرده
افكاره دون أن يبت فيها برأى وسمعها تقول له :

— لا تحملق في هكذا ..

ما الذى أن يضمها الى صدره ويمطرها قبلا ! انه لا يدري
ما هو فاعل بها غدا ولكنه يأسى على طول حرمانه .
وقال مبتسما :

— انى أفكر في تقبيلك قبلة حارة نبدا بها حياة جديدة ..

— لا يحلو لك الا هذا الكلام !

— هل ثمة ما هو أحلى ؟

فترددت قليلا ثم خفضت عينيها قائلة :

— يوجد ما هو أهم !

وحدس ما تعنيه بلا تردد . وساوره قلق . ولكنه تجاهل
ظنه متسائلا :

— أهم من القبلة ؟!

— أحب أن تحدثنى جادا ولو مرة ..

— ولكنى أود أن أقبلك جادا !
 فتفكرت فيما يشبه الحيرة ، كأنما تغالب خطره ثم بدا كأنها
 تغلبت على حيرتها ، فقالت :
 — ألا تدري ماذا قالت أُمى ؟
 صدق حدسه ! .. لا بد مما ليس منه بد ! وتساءل متباليها :
 — ماذا قالت ؟
 فقالت بصوت منخفض وفي عناء من حياء :
 — قالت لى لقد طال انتظارك ، وها قد صار ضابطا !
 وأحس في أعماقه بحرق حام كأنه سمع تجديفا ، ومع أنه كان
 يعلم بأنه ليس له حق في حنقه إلا أنه كره الأم في تلك اللحظة .
 ثم تساءل :
 — هل تتعجل الزواج ؟
 فتضرج وجهها بالاحمرار وغمغمت :
 — كلا ولكنها ترى أنه آن أن تعلن الخطبة .
 — ألم يتم هذا !
 فتحسست بنصر ييناها في حياء وغمغمت :
 — ثمة أمور لم تزل ناقصة ..
 وفهم ما تشير إليه في استياء لم يدر سببه . لم يكن ثمة شيء
 مستغرب فيما يطلبون ومع ذلك حنق عليهم جميعا وركبه شعور
 المطارد اذا تهدده خطر ، وتفرس في وجهها وهو يذكر ما قال
 زملاؤه عنها في الأوتوبيس وقال لنفسه « فتاة طيبة ولكنها ليست
 أهلا لأن تكون زوج ضابط مثلى ، ولو تم هذا الزواج لكان
 الأول من نوعه ! » ثم قال لها فى هدوء باسم :
 — هذه أمور لا وزن لها ..
 — ولكنها هامة جدا فى نظر الناس فطالما تساءل أقاربنا عن
 الخاتم ! ..
 وعجب لحماسها ، وتمنى لو كانت تعلن عن بعض هذا الحماس

فى الحب . « ولكنها تريد أن تتزوجنى لا أن تحببى . هذا سر
برودها وتحفظها . واذا لم يكن حب ، بل وحب قهار جنونى ،
فما الذى يغربنى بالزواج منها ؟! » وقال :

— لا داعى للعجلة ، ستتحقق آمالنا فى الوقت المناسب ..
— ومتى يكون هذا الوقت المناسب ؟

فقرب ما بين حاجبيه كأنه يفكر وقال :

— اظن اذا رقيت الى رتبة الملازم اول أصبح فى وسعى أن
افتح بيتا مع معاونة اهلى الذين لا يستفنون عنى كما تعلمين ..
وبدا فى وجهها الوجوم وجعلت تقرض ظفرها حانية الرأس
خاية العينين . ومع انه ارتاح لتصريحه الذى مد له فى حرите
الا انه رق لمنظرها ، وجرى بصره على جسمها فدق قلبه
وتناسى افكاره ومخاوفه وحنقه فنهض اليها وجلس الى جانبها
على الكنبه ، ولكنها تباعدت الى نهاية المقعد وحالت دونه
بساعدىها قبل أن تذهب روح المقاومة الطارئة مسحة الحزن
من عينيها . وقبض على ساعدىها وهوى على كفيها يقبلهما ،
حتى قامت مبتعدة عنه وهى تهتف :

— دعنى .. دعنى .. لم تعد كما كنت ..

وقام فى أعقابها مدفوعا بفورة احساسه وجنون أعصابه
وطوقها بذراعيه وأطرافه ترتعش ، ودافعته بقوة فهوى بغيه
الى شفتيها فأمالت رأسها الى الوراء فمست شفتاه طرف
ذقنها ، ثم تملصت من ذراعيه ووقفا وجها لوجه وهما يلهثان ،
وصاحت به بصوت متهدج :

— لا تهجم على غضبا !

وانقلبت شهوته غضبا فحدثته نفسه بهجرة الحجرة ، وسار
خطوتين صوب الباب ، ثم تحول اليها بغتة وقد انقلب غضبه
شهوة جنونية فانقض عليها مصمما على ارواء عواطفه ، وطوقها
بذراعيه رغم مدافعة يديها ، وضمها الى صدره بعنف ووحشية ،

ثم طبع شفثيه على شفثيها ، وكلما مالت بوجهها عنه أتبعها وجهه لازقا فاه بفيها ، ملاقيا دفعات مقاومتها بقوة وحشية ، حتى سكنت بين ذراعيه في شبه انغماء . ولم يبال خورها فراح يضمها الى صدره حتى استشعر طراوة جسمها اللدن على بطنه وفخذه فتسرب الى احساسه في ارتياح عميق كأنه كشف جديد عن لذة الحياة . وندت عنها مقاومة طارئة ضعيفة كصحوة الموت ولكنه قضى عليها بوحشيته ، وجن انفعالا وتطلعا واستزادة ، وانصهر قلبه وسرى ذوبه في أعصابه باعثا لذة خيالية ، ثم انهار في تسليم متوقع مفاجيء معا . وأفاق كمن يفيق من حلم فوجدها بين ذراعيه وشفثيه على خدها ، ولما شعرت بذراعيه تتراخيان عنها دفعتة في صدره متراجعة وقالت وهي تتنهد في صوت ضعيف :

— لن أصفح عنك ..

ولم يترك قولها في نفسه أثرا ، لا حسنا ولا سيئا ، فلم يأبه لها وكأن احساسه تجاهل وجودها . شعر بظفر وارتياح ثم غلبه عليهما فتور فتراجع الى مقعده الأول وجلس عليه في دهشة . ولبثت هي بموقفها كالترددة ثم عادت الى مجلسها في استياء وراحت تعاتبه وتعنفه دون أن يلقي اليها بالا . ورنأ اليها بغرابة وسألها نفسه : أهذه هي أنا ؟ أهذا أنا ، أين هي وأين أنا ؟ . ثم ران عليه فتور ثقيل أكثر مما يحتمل ..

وجعل يصفى اليها دون أن يحمل نفسه مشقة الاعتذار ، وانتهاز فرصة حضور أمها فجالسها دقائق ثم قام مستأذنا في الانصراف . ولما غادر الشقة شعر برغبة في الهرب ، وحينذاك عاودته فكرة السفر الى طنطا فابتسم لها في ترحاب وحماس ..

عندما انتهى الى فندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق بطنطا
كانت الساعة حوالى الخامسة مساء وقاده غلام الى حجرة
أخيه فنقر على الباب ووقف مبتسما انتظارا للمفاجأة السارة .
وفتح الباب وظهر حسين فى جلبابه ، وسرعان ما اتسعت عيناه
دهشة فأقبل على القادم وهو يهتف :

— حسنين ! .. لا أصدق عينى !

وتعانقا عناقا حارا ، ثم دخلا الحجرة الصغيرة وحسين يلقي
عليه نظرة متفحصة فى حب و إعجاب ثم قال بصوت متهدج
من التأثر والسرور :

— يا لها من مفاجأة سعيدة . أهكذا يهجم العسكريون
بلا انذار ؟ مبارك . لقد أرسلت لك برقية تهنئة ..

— وصلتني ورايت أن أجيئك بنفسى شاكرا !

— وكيف حال نينة ونفيسة ؟

— على خير حال . وجدت لدى بضعة أيام إجازة قبل بدء
العمل فضلت أن أمضيها معك ..

— أحسنت صنعا . وحسن ؟ أما من جديد عنه ؟

وغاض البشر من وجه حسنين ولكنه أبى أن يخلط باللقاء
كدرا فقال :

— دعنا منه الآن على الأقل ..

وحديث حسين ما أحزنه ولكنه لم يكن أقل رغبة منه فى
تأجيل النكد الى وقت آخر فدعاه الى الجلوس على الكرسي
الوحيد ووثب هو الى الفراش . وتبادلا نظرات مشوقة متفحصة
فلمس كل منهما ما طرا على الآخر من إمارات الصحة والعافية

وان كان وزن حسين قد زاد أكثر مما يتصور أخوه ، كذلك
وجده قد ربي شاربه بطول شفته وعرضها مما اكسبه مظهر
رجولة وقور وجعله يبدو اكبر من سنه ، وقد داعبه قائلا :
- لقد خلقت لتكون أبا بارا ..

فابتسم حسين على ما اثار قوله في نفسه من ذكريات محزنة
ولكنه لم يعلق عليها بكلمة وقال مشيرا الى نجمة الضابط :
- انى فخور بك .

فقال حسنين بتأثر :

- انى مدين بها لنبل تضحيتك .

وهبط قوله على قلبه بردا وسلاما ، وتمتم :

- لا تبالغ ! أنت رجل جدير بكل خير ..

وقال حسنين لنفسه « هذا شقيق لا يشين ، ولولا ماضى
نفيسة وحاضر حسن وماضيه ما وجد انسان على الأرض اسعد
منى » ثم قال لأخيه بسرور :

- أبشر لقد رجوت أحمد بك يسرى أن يسعى لنقلك الى
القاهرة فوعدنى خيرا ..

- عفارم ! وبهذه المناسبة اخبرك أننى سأعود معك الى
القاهرة قائما بأجازتى السنوية ...

ثم غادر الفراش وهو يقول :

- اغسل وجهك ونفض بدلتك من وعشاء السفر وهلم ننطلق .

الى المدينة فلا خير فى البقاء فى هذه الحجرة الضيقة ..

وارتدى بدلته ثم خرجا معا يتمشيان فى طرقات المدينة ، ثم
مضى به الى قهوة السمر وجلسا معا يواصلان حديثهما . وتكلم

حسين عن حياته فى طنطا كثيرا ، وشكا الى أخيه وحدته وكيف
عودته على غشيان المقهى كل مساء فيمضى ساعتين على الأقل

مع نفر من الموظفين يلعبون النرد حينما ويسمرون حينما آخر ،
ثم يعود الى الفندق فيطالع ساعة أو أكثر قبل النوم ، وحده عن

آخر كتاب ابتاعه وهو الاشتراكية لمكدونالد المترجم عن الانجليزية وكيف أن النظام الاشتراكي لا يتعارض مع الدين ولا الأسرة ولا الأخلاق . كان في وحدته وضيقه يسعد بأحلام الإصلاح ويتخيل مجتمعا خيرا من المجتمع الذي يعيش بين أحضانه ، وحالا خيرا من الحال المقدورة له ، وأسعده الأمل في امكان تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التي أشرب حبها والايان بها منذ طفولته .

ثم تساءل في نفسه ترى هل أفضت أمه للشاب بالسر الذي دفعها الى زيارته منذ عام ونصف ؟ ولما لم يشر حسنين الى الموضوع بكلمة اطمأن الى انها كتبت الأمر كله وهو ما ترجع لديه من بادىء الأمر . وذكره هذا الخاطر بالآمه الماضية ولكنه ذكرها بقلب خال هادىء لولا حنينه العام الى الرفيق والحب ما تشكى قط . ثم وجد نفسه وهو لا يدري يسأل حسنين عن خطيبته ! واجاب الشاب اجابة عامة قائلا : « بخير والحمد لله » ، وساءل نفسه هل يصارح أخاه بما طرأ على نفسه من تغير وتطور ؟ ولكنه جفل عن هذا ، واجله الى المستقبل اذا جد جديد من الأمر . وكان يعلم سلفا بأن حسين لا يمكن أن يوافق على نواياه او يرضى عن منازعه . وتواصل الحديث بينهما طيبا لطيفا حتى عزم حسنين على خوض الموضوع الخطير الذى يشغله فقال متنهدا :
- تصور كم كانت الحياة جميلة لولا ماضينا وأخونا حسن . .
وأحس حسين بما وراء هذا التنهد من حزن وسخط فقال ببساطة :

- اعتقد أن الامنا قد انتهت ، أما ماضينا فليس فيه ما يخجل ، وأما حسن فلن يضر وأا أسفاه الا نفسه . .

فهز رأسه دلالة على عدم الموافقة وقال فى حزن :
- انا علمت أن حسن قد انقلب مع الزمن بلطجيا وتاجر مخدرات ! ؟

ومع أن حسين كان يتخيل شقيقه الأكبر على أسوأ حال

الا أنه لم يكن يظن أنه تردى الى هذا القرار ، فهتف في ارتياح :
- لا تقل هذا .. !

فكان جواب حسنين على ارتياحه أن قص عليه ما شاهده
في زيارته الأخيرة لحسن وما سمع ، واصفى اليه أخوه في صمت
ووجوم . ولما طال صمته سأله حسنين :
- ما رايك ؟

فبسط له راحتيه كأنه يقول له : «ما حيلتنا ؟ ..» ثم غمغم :
- وا أسفاه ، كان حسن ضحية للمرحوم والدنا ، وكان
والدنا ضحية لضيق ذات اليد !
فقال حسنين بجزع :

- ألا تستطيع اقناعه بالاقلاع عن أسلوب حياته ؟
فقال الآخر متنهدا :

- لن يقلع عنها مهما قلنا أو فعلنا . شيء واحد يستطيع أن
يعدل به عن حياته وهو أن نهىء له رأس مال مناسب كي يبدأ
حياة جديدة ، فهل يسعنا هذا ؟!
وتبادلا نظرة يائسة لأن السؤال لم يكن في حاجة الى جواب ،
ثم قال حسنين بحدة :

- أنتركه في غيه كي يقضى على آمالنا !
- لقد قضى على نفسه .

- وعلينا ! كيف تواجه العالم ولك مثل هذا الأخ ؟! .. سوف
تظهر أسماؤنا يوما في الجرائد بين أعمدة الحوادث والجنايات ؟
فتنهد حسين محزونا متفكرا في كلام أخيه الذي رجع أصداء
افكار طالما اكربته في وحدته ، ولكنه قال معارضا أخاه ونفسه معا :
- لا ذنب لنا . ولا يصح أن ندع الخوف يتهول في قلوبنا .
قد يصيبنا رشاش من السنة الناس ، الآن أو فيما بعد ، ولكننا
لن يمكننا مواجهة الحياة اذا لم ندرع بقدر من عدم المبالاة ..
بدا له حسين كأنه لا يعي ما يقول ، أو كأنه لا يبالي السمعة

الطيبة التى هى اس كل أمل فى الحياة بيد أنه مهما يكن من أمره فهو ليس ذا أصدقاء كأصدقائه يشفق من أن يطلعوا على أسرار أسرته ، كذلك لا تنازعه نفسه الى المجد والطموح فليس فى آماله ما يخاف عليه السنة الناس . أجل خطأ تقديره ولن يجد من أخيه مشاركة وجدانية ، وحنق عليه فى تلك اللحظة كثيرا ، واحتقر استسلامه وهذوه . واندفع قائلا وكأنه لا يروم إلا الترويح عن حنقه :

— هل نعد أنفسنا شرفاء ؟

فقال حسين بدهشة :

— ولم لا ؟ !

— ولكننا استعنا على تقويم حياتنا بنقود ملوثة !

تطايير الشرر بغتة من عيني حسين ، وحملق فى وجه أخيه وهو صامت ، وكأن آلامه الدفينة قد طففت على سطح قلبه داعية معها من الأعماق أسوأ الذكريات ، ثم قال بحدة :

— كنا فى موقف دفاع عن النفس ، والدفاع عن النفس قد يحل القتل ..

وشعر حسنين بارتياح خفى لغضب أخيه ، وجعل يتساءل فى حيرة عما دفعه الى مجابته بهذا التصريح الاليم . ثم استطال الصمت حتى سئما الموضوع فخاضا فى غيره ، غير أنه مضى زمن غير قصير قبل أن يطيب لهما الحديث ..

٧٤

وبعد بضعة أيام عاد الشقيقان معا الى القاهرة فكان يوم فى حياة الأسرة لاينسى . وقبلت الأم حسين طويلا ثم عانقته نفيسة عناقا حارا ، وأمضى الشاب ساعة طويلة من الظهر وهو يحدث

عن طنطا وحياته بها والمرأتان منصتان . وجعلت نفيسة تتفرس
في شاربته وبدانته الأخذة في النمو فهالها تغيره وقالت باستنكار :

— فيم تبدو كالرجال وأنت طفل !

فقال حسين مبتسما :

— لم أعد طفلا .

وقال حسنين ضاحكا :

— نحن رجال وأنت أختنا « الكبرى » !

فقالت الفتاة بحدة :

— كنت أكبركما فيما مضى أما من الآن فصاعدا فانتما

تكبراننى ، هل تفهمان ؟!

ثم التفتت صوب أمها وساءلتها في اعتراض :

— هل يعجبك هذا الشارب الذى يكبر نفسه ويكبرنا معه

بلا داع ؟!

وكان الوقت ظهرا فراح حسين يخلع ملابسه ، وقد بدا البيت
لعينيه غريبا . بيد أن حبه العميق لأسرته ولبيته استيقظ ودر
حنانا فملكه ارتياح شامل ، ارتياح من اهتدى الى مأواه بعد أن
تخبط ضالا طويلا . وأجال طرفه في حجرة المذاكرة ، هذا المكتب
القديم ، وهذين الكرسيين ، وهذه النافذة التى تقوم صفحة
الجريدة منها مكان اللوح الزجاجى المحطم ، كل أولئك ذكريات
عزيرة . أما سريره فلم يعد له أثر ، بيع فى الوقت المناسب
كالمبيع ، ولحق بسرير حسن ، وكأنه لم يعد من أهل البيت !
ومع أنه كان يحس هذا بالبداهة إلا أنه شعر بحزن وكآبة .
وهنا شعر بنفيسة وهى تغادر الحجرة قائلة :

— امهلانى ساعتين أعد لكما غداء طيبا !

وابتسم ارتياحا . أنه لم يذق طعاما طيبا منذ عهد بعيد ،
ربما منذ وفاة والده . أجل كان طعامه طيبا وهو موظف أفضل من
طعامه وهو تلميذ كما يشهد بذلك ارتواء جسمه ، ولكنه لم يطلق

لشهوته العنان قط . على أنه كان مشغولا بما هو أخطر من لذة الطعام وهو تذوق عودته السعيدة الى منبته الأول وجوه الأصل . كان حنانه كالغنوة الحلوة يتردد في حواسه جميعا ، حتى هواء عطفة نصر الله الفاسد وجد له ميل ألفة ورقة مودة فكانه الصحة والعافية . وجعل يحادث أمه وعيناه تترددان في أنحاء الحجرة الصغيرة حتى استقرتا على جاكته حسنين المعلقة بالمشجب فنظر الى النجمة طويلا . سرقى حسنين عاما بعد عام حتى يصير ضابطا عظيما على حين يبقى هو كاتبا في الدرجة السابعة - أو السادسة على أحسن فرض - طوال مدة خدمته . على أنه لم يجد أى أثر لشعور الحسد أو الحنق . كان أبعد ما يكون عن هذا ، بل كان سروره بأخيه لا يدانى ، ولكنه وجد نفسه يتأمل في صمت حزين الفوارق الطاغية التى تميز بين الموظفين ، وامتد خياله وهو لا يدري الى الفوارق التى تفصل بين الناس عامة . ترى ألا يمكنه اذا نقل الى القاهرة أن يلتحق بمعهد ليلى عسى أن يتغير من حال الى حال ؟ وابتسم قلبه لهذا الخاطر السعيد وأودعه صدره كامل احتياطي يلجأ اليه في حينه فينجيه من مصير كمصير حسان افندى حسان ! وحتى حسان افندى نفسه لم يكن ليرقى الى الدرجة السادسة لولا الوزير الوفدى ! وذكر عند ذاك أمورا سمع بها في طنطا فسأل أخاه :

- هل حقا ما يقال عن احتمال سقوط الوزارة ؟

فضحك حسنين قائلا :

- غير مسموح للضباط بالاشتغال بالسياسة .

فضحك الشاب ، ثم قال :

- كيف تسقط بعد أن نقض الانجليز أيديهم من سياستنا ؟

وتساءلت الام :

- انعود مرة أخرى الى المظاهرات ؟

- من يدري ؟

فعادت تتسائل بقلق :

— لا شأن للجيش مع المظاهرات ؟

فقال حسنين بمكر :

— اذا قامت ثورة فلا بد من تدخل الجيش !

وضحك حسين ، وادركت الأم ما تعنيه ضحكته فرمت حسنين بنظرة شذراء وهزت منكبيها استهانة . وعادت نفيسة لتقول لهم ان الغد يتها على أحسن حال ، ثم سألتهم عن السلطة المفضلة لديهم ، وغادرت الحجرة مشمرة عن ساعديها والعرق يتصبب من جبينها . وساد الصمت فعاد حسين الى افكاره ، وفكر هذه المرة في الاجازة وكيف يمضيها . كان الموظفون في طنطا يدعونه باليهودي لانه لا يقامر ولا يسكر ولا ينفق أكثر من قرش واحد في القهوة ، ولكنهم جهلوا حقيقة حاله ، أجل انه ميال بطبعه الى الاقتصاد ولكن هل تركت مسئولياته له شيئاً يقتصد ؟! . ولم تدعه أمه لأفكاره طويلاً فعادت تنازعه الحديث ، وخيل اليه أنها ترنو اليه بحنو نادراً ما تعلنه ، ترى هل ذكرت كيف قست عليه يوماً ؟! لقد قست عليه حقاً ، ولكن قسوة الدهر عليهم جميعاً كانت أعظم . ترى ماذا هي فاعلة مع حسنين ؟! . ولكن لماذا لا يبدو الفتى متحمساً لزواجه ! لماذا لم يحدثه عنه ؟! . وحوالى الساعة الثانية جاءت نفيسة حاملة صينية الغداء ، فوضعتها على المكتب وهى تقول :

— نأكل اليوم على المكتب لأن الموظفين لا يصح أن يأكلوا على

الأرض .

جمعتهم المائدة لأول مرة منذ عامين ، ثم عادوا الى جلستهم على الفراش الصغير وواصلوا الحديث فى أنس وسرور . وحوالى منتصف الرابعة دق الباب الخارجى فغادرت نفيسة الحجرة لتفتح للقادم . ووثب لرأس حسين خاطر عجيب ، أتكون أسرة فريد أفندى قد جاءت لتهنئ العائد ؟! . وفى هذه الساعة ؟

وعادت نفيسة جريا ووقفت على عتبة الحجره وهى تنظر اليهم
بعينين متسعيتين تلوح فيهما الدهشة والانزعاج ، ثم هتفت قائلة :-
- ضابط وعساكر ..

٧٥

ووقف الشقيقان فى دهشة وحسنيين يتناول جاكته
ويرتديها بسرعة متسائلا :
- ماذا يريدون ؟

وكانت نفيسة تردد بصرها بينهم وبين القادمين فقالت فجأة
بدعر :

- رباہ .. لقد دخلوا الصالة .
واندفع الشابان خارج الحجره فوجدا ضابطا وشرطيين
ورجلا آخر يبدو من مظهره انه مخبر ، فتقدم حسنيين من
الضابط متسائلا :

- ماذا تريد حضرتك ؟

فقال له الضابط :

- لا مؤاخذه ، لدى امر بتفتيش هذه الشقة !

وأطلعه على امر كتابى فنظر فيه حسنيين بعينين لا تريان
شيئا ، على حين سال حسين :

- لعلك أخطأت الشقة . ماذا يدعرو لتفتيش بيتنا ؟

فقال الضابط :

- نحن نبحث عن حسن كامل على الشهير بالروسى !

ووجم الشابان وهما ينظران الى الضابط فى انزعاج وقنوط ،
وكانت المرأتان تقفان على عتبة الحجره فركبهما الذعر وتسمرتتا
فى مكانهما . وعاد الضابط يقول :

— لقد قبض على بعض شركائه ولكنه اختفى قبل القبض عليه ، ودلنا بعضهم على مسكنه الأول وتحققنا من هذا بواسطة شيخ الحارة ..

فقال حسنين بصوت متهدج :

— ولكنه لا يقيم هنا . لقد غادر بيتنا منذ أعوام ولا ندرى عنه شيئا .

فهز الضابط رأسه وقال :

— على أى حال سأقوم بتفتيش الشقة تنفيذا للأمر ..

وبدا التفتيش فتراجع أحد الجنديين الى الباب واقتحم الضابط والآخرا الحجلات ، وقد جمدا الشقيقتان فى موقفهما كأنهما استحالآ حجرين . وقال حسنين لنفسه « سأذكر هذه الساعة ما حيت » ، وتبع خياله الضابط وهو ينتقل من حجرة الى حجرة ، وكأنه يرى معه الحجلات الخالية العارية ويقلب أثاثها البالى الحقير ظهرا لبطن . لم يكن تفتيشا عن حسن فحسب ، لأن حسن لا يمكن أن يختبئ فى درج المكتب أو تحت حشية الفراش ، فالفضيحة أقطع مما يتصور . وحتى فى تلك اللحظة الرهيبة لم يستطع أحد أن ينتزع من نفسه الخجل الجارح الذى عفى عزة نفسه والضابط يهتك بعينه المتفحصتين حقارة البيت وافقره ، وبلغ مسمعه — على ذهوله — صوت بكاء مكتوم فارتفع بصره الى نفيسة وصاح بها بحدة جنونية :

— اكتمى أنفاسك !

وانتهى التفتيش فأمر الضابط رجاله بمغادرة الشقة ثم اقترب من حسنين وقال برقة :

— أكرر الأسف . وأنه ليسرنى ! ننى لم أعثر على شيء كان

حرىا بأن يسبب لكم المتاعب !

ورفع يده الى جبينه بالتحية وغادر الشقة م خلفا وراءه سكونا محزنا . وتبادل الشايان نظرة ذاهلة دون أن ينبسا بكلمة ،

وأقبلت المراتان نحوهما بوجهين ميتين . وانتبه حسنين من
ذهوله بغتة متاوها فوثب الى الباب وأبرز رأسه راميا بطرفه
الى فناء البيت فرأى رجال البوليس فى نهاية الفناء يشقون
طريقهم وسط لمة من الرجال والصبية بينهم البقال والحداد
وبائع السجائر فتراجع وهو يضرب صدره بقبضته صائحا :
- الجميع يتفرج على فضيحتنا . افتضحنا وانتهينا .

وعاودت نفيسة البكاء ونظرت الام الى حسين كأنها تستغيث
به ولكن الشاب لم يدر ماذا يقول ، وبدا كأنه يقاوم طعنة
قاسية . وجعل حسنين يذرع الصالة وهو يواصل ضرب
صدره بعنف ويقول :

- بودى لو أقتل !.. لن يروح عن صدرى أقل من القتل .
وضاقت الام بعنفه بنفسه فغمغمت قائلة :

- هدىء من روعك يابنى ، ماذا يجدى ضربك نفسك هكذا ؟
فصاح فى غضب :

- دعينى أقتل نفسى ما دمت لا أجد من أقتله !

وخرج حسين عن صمته فقال بصوت غريب :

- يجب أن نتدبر أمرنا فى هدوء .

فرماه بنظرة من عينين محمومتين وقال :

- أى أمر نتدبره .. لقد افتضحنا وانتهينا !

- هذه مصيبة لاحيلة لنا فيها ولكننا لم ننته ، فلنتدبر أمرنا .

لم يكن صدره ليحتمل المناقشة فمضى الى حجرته وارتمى
على فراشه ، وكان الخزى يخنقه والغضب يحرقه فمقت اخاه
المذنب مقتا قتالا ود معه لو يخفيه عنه الموت الى الأبد . واستسلم
لخواطر دموية جنونية راح يجترها فى ذهول وهذيان ، ولحق به
حسين فجلس على الكرسي صامتا متحاميا اثارته ، وكان
هو نفسه فى حالة تستحق الرثاء . لم يبلغ منه الحزن يوما ما بلغه
فى تلك الساعة ، فلم يغب عنه ما أصاب سمعتهم من طعنة قاتلة ،

وما يتهددهم من قلاقل في الحاضر والمستقبل وما نزل بأخيه الأكبر من قضاء لا قائمة له بعده . ماذا جنت أسرته حتى تستحق هذا كله ؟! . واخذت تتجمع في ذاكرته ذكريات من الآلام الماضية ويربطها بالآلام الحاضر فبدت له كدمل خطير يتكشف فجأة عن مضاعفات سامة في الوقت الذي يظن به الاندعال والشفاء . وكعادته قرن الآلام أسرته بالآلام الناس فوجد نفسه يتأمل حزينا شاملا ، وكان يلقي على تأمله هذا كآبة لا شك فيها ولكنها كثيرا ما توحى بشيء من الصبر والعزاء . ثم نزعته به نفسه الى تلمس بصيص نور في ظلامه المحيط ، وجعل يسترق النظر الى وجه أخيه المكفهر متحينا فرصة لمحدثه .

ولبثت الأم وابنتها بموقفهما ونفيسة لا تمسك عن النحيب . لم يعد بوسع المرأة المحنكة أن تحسن التفكير والتدبير ، غلبت على أمرها . وقهرها الحزن والأسى . وكان قلبها يعاني الآلام التي تتوزع قلوب ابنائها جميعا يضاف اليها ألم خاص دفين يخيفها بقدر ما يعذبها ، وتشفق اشفاقا شديدا من ذبوعه وافتضاحه ، هو ألمها لحسن نفسه . أين ذهب ؟. ماذا يفعلون به لو قبضوا عليه ؟. أي مصير يرصده ؟. لا ينبغي أن تذكر له إلا عطفه وحنانه ، وأنه جاد لهم بخير ما في نفسه ، وأنه كان ملاذهم في الملومات . يا له من طريد لا نصير له ولا حبيب ، حتى أهله ينكرونه ويمقتونه . عين حسود أصابتهم ، نفسوا عليها الموظف والضابط ونسوا الآلام التي تركتها حطاما . وتنهدت في عصبية لأنها لم تعد تحتل نحيب نفيسة وانتهرتها قائلة :

— كفالك بكاء ارحميني فاني لا أجد من يرحمني !

ولكن نفيسة لم تكن تملك من نفسها شيئا ، حتى الآلام الموقف الحقيقية غابت عنها في حالتها العصبية . غلبها خوف غريب ترتعد منه الفرائص . ولم تكن تبكي حزنا أو أسفا أو غضبا ولكن بكاء هستيريا تغالب به خوفا لا يغلب خيل اليها معه أنها هي

المطاردة . وتوقع قلبها شرا فظيعا ، أفزع مما وقع ، فتلفت فيما حولها في زعر كأنما تخشى أن ينقض عليها فجأة . وسمعت أمها تقول بصوت ضعيف « هلمى بنا إليهما » فرحبت بالدعوة لتفر من مشاعرها وسارت وراء أمها إلى الحجرة في خطوات ثقيلة ، ثم خفق قلبها وهي تجوز العتبة كأنما تجفل من لقاء أخويها ..

٧٦

ثم لالتفت حسنين إلى حسين وسأله بوحشية :
- أين تظنه هرب ؟

وكانت مرت فترة من الوقت ثاب فيها حسين إلى بعض نفسه فلم يرتح للهجة الشاب القاسية وقال :
- من لى بأن أعلم ! (ثم بلهجة لا تخلو من تأنيب) تذكر أنه أخونا !

- بعد هذا كله !

- نعم ، بعد هذا كله ..

نطقها بصوت عميق ليعزى قلبا يعلم أنه - على صمته - في أمس حاجة إلى العزاء ، ولكن ثارت نائرة الآخر وصاح به :
- لقد قضى علينا ..

فقال حسين بصوت متعب :

- لا تبالغ ولا تصح . ينبغي أن تفكر في هدوء .

- ان الحى كله يتحدث الآن عن فضيحتنا ..

فقال حسين فى هدوء :

- فى وسعنا ان نهجر الحى كله ..

فتطلع إليه حسنين بعينين حائرتين انشقت ظلمتهما عن

بصيص أمل . هذا دعاء تهفو له نفسه ملبية وكأنها هي التي
تتكلم ، وغمغم متسائلا :

— ماذا قلت ؟

— لم لا ؟ .. القاهرة واسعة لا تحد ، وسيطوى النسيان
قصتنا في أقل من أسبوع ! ..

فتنهذ حسنين في شبه ارتياح ، ولكنه قال في حذر :

— لن نمحو الماضي .

— فلنفكر في المستقبل ..

— ولكن الماضي سيطارد المستقبل الى الأبد ..

فقال حسين بملل :

— فلنفكر جديا في الانتقال الى مكان آخر . ويجب أن يتم

هذا قبل انتهاء اجازتي ..

وقالت الأم برجاء :

— أجدر بنا أن نفكر في هذا حقا ..

وردد حسنين نظره بينهما حائرا . قد يقبض على أخيه وقد

لا يقبض عليه ولكنه سيظل على الحالين يطاردهم ويتهددهم .

لن يطمئن لهم جانب وهو على قيد الحياة . ثم تساءل في فتور :

— أين نذهب ؟

فقالت الأم في أمل :

— الى شارع شبرا بعيدا عن هنا ..

فندت عنه حركة تنم عن الجزع والسخط وقال :

— أبعد من هذا ، أبعد من هذا .. الى مصر الجديدة !

فقال حسين في شيء من الارتياح :

— كما تشاء ..

فلاح في وجهه تردد طارئ ثم قال متنهذا :

— ولكننا في حاجة ماسة الى أثاث جديد !

فقالت الأم بضيق :

— لا تزد الأمور تعقيدا ، ماذا يهم الأثاث اذا لم تقع عليه الأعين؟!
— لا أستطيع أن أخفى بيتنا عن أصدقائي الى الأبد !
فقال حسين :

— هذه مسألة أخرى ، وبوسعك أن تبتاع كنبه وكرسیين كبيرين وبساطا اسيوطيا فتجعل منها حجرة استقبال مؤقتة .
واذا شئت خرجنا معا اليوم أو غدا للبحث عن شقة ؟ . .
بذلك خفت التوتر قليلا وان غشيت جو المكان كآبة استسلموا لها جميعا في صمت حتى دق الباب وجاء فريد افندى واسرته .
كانت زيارة منتظرة ولكنها جاءت في أسوأ حال ، وذكر حسين في عجب كيف حلم بها منذ ساعات ، وكيف يتلقاها الآن بزوجا دكسیر ونفس فاترة . أما حسنین فقد ثار غضبه بلا سبب ظاهر ، ولو لم يره فريد افندى ونفيسة تتقدمه الى حجرة الاستقبال ، لمضى هاربا الى الخارج . واجتمعوا في حجرة الاستقبال ، ولقى حسين من الأسرة تحية حارة ، ثم استفاض الحديث عن الماضي والحاضر .
وكانوا يتوقعون أن يشير الزوار مسألة التفتيش والبوليس ولكن آل فريد افندى تجاهلوا الأمر كلية كأنهم ما علموا به . ولم يلطف هذا التجاهل من حنق حسنین ، أو بالأحرى زاد من ثورته الباطنة وشعر بجرح عميق في كرامته . والتقت عيناه بعيني بهية أكثر من مرة فوجدها ترمقه بحزن وحيرة لم تخف عنه بواعثهما منذ سفره المفاجيء الى طنطا . لیکن ، لقد ضاق صدره بهذا كله .
الآن ، وفي وقدة حنقه وضيقه ، يستطيع أن يواجه خواطره الباطنة بصراحة وشجاعة . لن تكون هذه المرأة حماته ، ولا هذا الرجل حماه . . ولا هذه الفتاة زوجه ! . كل أولئك هم عطفة نصر الله بلا زيادة ، عطفة نصر الله بذكرياتها السود وحاضرها الأغبر . انهم يعلمون بما جاء بالبوليس كما يعلم الجيران جميعا ولكنهم يتكرمون عليهم بتجاهل الأمر ، ولعلمهم يضيفون هذه المكرمة الجديدة الى مكرماتهم السابقة . سحقا لهم ، لشدة ما يضيق

صره بالمكرمات قديمها وحديثها ، وانه ليتطلع الى قوم جدد لا تحول بينه وبينهم المكرمات ولا يربط الماضي البغيض اسبابه بأسبابهم . « انظرى بحزن وحيرة كيف شئت ، لست لك ، لست لك . ينبغى أن يتغير كل شيء . ماذا فتننى فى هذا الجسم ؟! الآتة لحم طرى ؟ الأسواق ملأى بهذه اللحوم . جو بغيض . لو طال المقام بى هنا أكثر من ذلك سأبغض أسرتى نفسها » . وطالت الزيارة فجعل يتحملها فى صبر حتى انصرفت الأسرة قبيل المغرب بقليل . وقد دست الفتاة فى يده ورقة مطوية وهى تسلم عليه ، ولما أن خلا الى نفسه وبسطها وجد بها هذه العبارة « قابلنى فوق السطح » . كانت أول رسالة توجهها اليه ، وتفحص الخط بعناية وغرابة فوجده بخط الأطفال أشبه ، وذكر لتوه تعليمها الابتدائى !. بيد أنها كانت على ايجازها عميقة الدلالة حتى لكانها صرخة استغاثة . ولا شك أنها كتبتها خلصة فى شقتها قبل الزيارة مما يدل على أن قلبها توجس خيفة من أن يواصل فراره منها الذى بداه بالرحيل الى طنطا . وأحس بغمز الألم فى قلبه وشمله عدم ارتياح فسخط كما يسخط على كل شيء حوله . ولكن فيم يسخط ؟ أليس من الخير أن تلم بما طرأ على نفسه ؟ وهل كان يظن أن الارتياح لن يتسرب الى نفسها بعد سفره المفاجئ ؟ ليكن . لن يرضخ لضغط الظروف حتى يدمر نفسه بنفسه ، ولن يغامر بسعادته ومستقبله من أجل عاطفة طفلية قديمة ووعد صبيانى . وخاف أن يخلو الى نفسه أكثر مما خلا فمضى الى حجرته وقال مخاطباً أخاه :

— هلم بنا لنخرج ...

ونفض حسين موافقا على دعوته وغادرا الحجره معا . ووجد ما يشبه الندم ، وتمنى لو كان حسين قد تكاسل عن تلبية دعوته بهذه السرعة ليعاود التفكير ! ولم تكن الفرصة قد ضاعت تماما ، فلم يزل بوسعه أن يراجع نفسه ، ولكنه لم ينبس بكلمة ، وواصل

سيره الى جانب اخيه . لعلها تنتظر الآن امام حجرة الدجاج !
وخفق قلبه خفقة شديدة . تنتظر بلا امل ؟ وما اقبح هذا . وفي
نفس المكان الذى لمس حرارته وسمع بثه وشكواه ؟ ما اعجب
هذا . وحاول أن يطرد هذه الصورة عن مخيلته بتصميم عنيف .
ثم سمع اخاه وهو يخاطبه قائلاً :

— لن نضيع وقتنا ، ولن ينقضى هذا الشهر حتى نكون قد
انتقلنا الى البيت الجديد .

٧٧

وانقضت الايام فى البحث عن مسكن جديد حتى اهتمدوا
الى بيت بشارع الزقازيق بمصر الجديدة ، ذى موقع ساحر
وايجار مستطاع على حد قول حسنين . وفى اليوم المحدد للانتقال
اجتمعت كلمتهم على حمل الاثاث مساء على غير المألوف لاختفائه
عن أعين المستطلعين ، ونفذ ذلك ، ولبت حسنين فى الشقة مع
الاثاث المكوم على حين عاد حسين الى عطفة نصر الله ليصحب امه
واخته الى المقام الجديد . وودعوا حيهم ليلا غير آسفين ، بل
مستبشرين خيرا ، ولما بلغوا الحى الجديد تولتهم دهشة ممزوجة
باكبار لما شاهدوا من اتساعه وصمته ومناظر العمارات والفيلات
المقامة على جانبيه وهوائه الجاف النقى فلم تتمالك نفيسة نفسها
من أن تقول باسمه على رغم أن الموقف لم يخل من ذكريات حزينة
« لقد صرنا من الطبقة العالية حقاً » .

وكانت الشقة الجديدة فى بيت مكون من دورين تحيط به
حديقة بسيطة فارتقوا اليها سلماً ذا سبع درجات وهناك
وجدوا حسنين فى انتظارهم وقد أشعل المصباح الغازى .
ونشطت المرأتان الى فرش الحجرات الثلاث الصغيرة وعاونهما

الشابان فلم يستغرق تجهيز الشقة الجديدة بالأثاث البسيط أكثر من ساعة تخللتها فترة راحة . وبدت الكراسي والكنبتان والفراش غريبة نافرة وسط الحجرات الأنيقة ، ولم يفت حسنين التعليق على هذا بتذمر كالعادة ولكنه وجد بعض العزاء في حجرة الاستقبال التي كانت تفتح على الخارج فلا يضطر القادم الى عبور الصالة الداخلية اليها . وتحدثوا غير قليل عن الوسط الجديد والعمارات والشوارع وما يتخيلونه عن الجيران ، وتحدث حسنين عن ضرورات الحياة الجديدة كما يراها حتى قال :

— أمران لا يمكن تأجيلهما وهما النور الكهربائي وخادم صغير فبغير هذين لا يصح أن نبقى هنا يوما واحدا ..

ولم يعترض على قوله أحد إذ كان مفهوما أنه هو الذي سيدخل النور الكهربائي ويستحضر الخادم . ثم فكر في الوسط الجديد من زاوية جديدة فتساءل في نفسه ترى هل تصلح أمه واخته لمخالطة هؤلاء القوم ؟ وخيل اليه أنه يسمع تعليقات السيدات والهوانم عقب زيارة لبيته فتصاعد دمه الى رأسه وقال مخاطبا أمه في لهجة تنم عن التحذير :

— لا ينبغي أن نعرف أحدا في حيننا الجديد ولا يعرفنا أحد فلا نزور ولا نزار ..

فقالت أمه بعدم اكتراث :

— لا رغبة لي في معرفة أحد ..

وقالت نفيسة :

— لا صديق لنا هنا نأسف على قطعه !

فقال لها الشاب بقلق :

— يا حبذا لو أهملت صديقاتك الأخريات أيضا !

فاضطربت نفس الفتاة ، ومع أن الانقطاع عن العالم «الخارجي»

كان من أمانيتها إلا أنه كان أمنية تعجز عن تحقيقها دائما ، ولا تفتأ تساق اليه بقوة بغيضة آسرة ، فتساءلت في اشفاق :

— وهل أبقي حياتي سجيناً ؟!

وتدخل حسين للدفاع عن أخته فقال :

— لا تفال يا أخى فى طلباتك ...

فقال الشاب فى حدة :

— لا أريد أن يزورنا أحد من حيننا القديم ...

— لن يتجشم أحد زيارتنا فيما عدا فريد أفندى وأسرته .

وصمت حسنين طاوياً سخطه . وذكر زيارة التوديع التى

قامت بها أسرة فريد أفندى أمس ، وكيف عرفوا العنوان الجديد

وكيف تمنى وقتذاك لو يغمض عينيه ثم يفتحهما فلا يجد أثراً

للماضى كله ، خيره وشره !.. ترى هل أفضت الفتاة لوالديها بما

تجد من فتوره ؟.. ترى هل يفلت من هذه العلاقة بيسر أم

تنشب به متاعب لا يحلم بها ؟!.. ليصمدن مهما يكن من الأمر ،

الحرية والمجد فوق المتاعب جميعاً . أجل لو تغلب على الماضى

فسيتمتع بأشرف ما فى الحياة من طمأنينة وسلام .

ثم انتحى حسين بالشاب ليوازن معه ميزانيتها لما جد عليها

من تكاليف النقل وشراء ما سموه « حجرة الاستقبال » الى ما

ينتظر من نفقات جديدة للنور والخادم . وقامت نفيسة للفرجة

من نوافذ الشقة واستطلاع الدنيا الجديدة . وخلت الأم الى

نفسها فاستجمعت ما مر بها من حوادث فى الأيام الأخيرة حتى

انتهى بها المطاف الى هذا الحى الجديد ، فلم يستقر وعيها الا على

شئ واحد ، هو حسن !.. ترى أين يهيم الفتى ؟ ماذا صنع

الله به ؟. لم تكن تخلو الى أفكارها حتى يطالعها من ثناياها

فيستثير دفين الحسرة والألم ...

هكذا باتوا أولى لياليهم بمصر الجديدة .

— جئنا نهنيء بالبيت الجديد جعله الله مقاما سعيدا . .
 قالتها أم بهية ثم جلست هى والفتاة على الكنبه الجديدة .
 كان الوقت عصرا وكانت الأسرة مجتمعة ما عدا نفيسة التى غادرت
 البيت قبل وصول الأم وابنتها بنصف ساعة .

وأننت أم بهية ثناء جميلا على المسكن الجديد وحيه الباهر ،
 وشكت الوحشة التى شعروا بها بعد فراقهم ، واعتذرت عن
 تغيب فريد أفندى بانهماكه فى العمل بالوزارة بعد الظهر لمناسبة
 موسم الاجازات . ثم جرى الحديث المألوف واشترك حسنين
 كالمعتاد ولكنه كابد قلقا لم تخف عنه بواعثه وشعورا مؤلما بالخرج .
 وجعلت بهية تخالسه نظرات حزينة ، فصيحة بغير بيان ،
 فازدادت حاله توترا — ثم أعربت أم بهية فجأة عن رغبتها فى
 الانفراد بالأم — الأمر الذى زداه قلقا وتوترا — وما لبثا أن غادرا
 حجرة الاستقبال معا . ووجد حسين نفسه غريبا بين خطيبين
 فقادر الحجرة منتحلا بعض الأعذار ، وخلا الجو ، وهو ما لم يكن
 يتوقعه حسنين بحال . وكان يعرف بداهة ما دعا أم بهية الى
 الانفراد بأمه ، فأدرك أن الساعة الفاصلة فى حياته قد دنت ، فاما
 النجاة واما الهلاك . وتبادلا نظرة طويلة ، هى فى انكار وتساؤل
 وهو بابتسامة باهتة لا معنى لها . ولم تلبث أن سأله مستنكرة :
 — لماذا لا تزورنا ؟

فقال واجما :

— أسباب لا تخفى عليك تمنعنى من الظهور فى حيننا القديم !
 ولكنها لم يبد عليها الاقتناع وعادت تسأله :
 — لم لم تقابلنى فوق السطح بعد أن تركت الورقة فى يدك ؟

- كنت وأخى مرتبطين بموعد هام .
فتساءلت بلهجة وشت بحزنها :
— وسفرك المفاجيء الى طنطا دون أن تخبرنى ؟
فقال وهو يتحاشى عينيها :
— اضطررت الى السفر فجأة ..
فهمت في انفعال :
- لم تعد تبالى حتى باختلاق الاعذار المعقولة !
ان الموقف دقيق حقا ، بل اليم ، ولكن التخاذل معناه الموت
بالنسبة اليه ، ولن يتهاون في حق حريته ومستقبله وتنهى
متظاهرا بالحزن وغمغم قائلا :
- ان ظروفى أعقد من أن تقدرها ..
— أفصح عما تريد قوله . لا أفهم شيئا الا أنك تغيرت . لم
تعد كما كنت . لست غبية ولا حمقاء ، أنت لا تريد أن ترانى ..
— سامحك الله ...
- ولعل ضيق الوقت حل عقدة لسانها فقالت فى تألم ظاهر :
— لا تلق الى هذه العبارات المبهمة . أريد أن أفهم كل شيء .
ماذا بك ؟ .. لماذا تغيرت هكذا ؟ صارحنى بما فى ضميرك كله ..
وحال تشبثه بالنجاة والفرار دون احساسه بما فى كلماتها
من يأس وعذاب فقال :
- لم أغير ولكن ظروفى تغيرت ..
فقالت باستغراب :
- تغيرت ظروفك حقا ولكن الى أحسن !
— هذا فى الظاهر فقط أما الحقيقة فهى اننى بت أدرك
مسئولياتى الشاقة .
- فقالت بلهجة لا تخلو من غيظ :
- ألم تكن تدرك مسئولياتك من قبل ؟ .. ان مسئولياتك
جميعا لا تحول بينك وبين ما تريد اذا كنت تريده حقا !

— أريد ولا أستطيع .

فرنت إليه شاحبة الوجه وغمغمت :

— بل تستطيع ولا تريد .

ولم يجد ما يقوله ، وتضاعف احساسه بعذاب الموقف ،
ومع ذلك ازداد تصلبا وتشبثا فتمتم :

— أنت مخطئة .

وكانت تتفحصه في جزع ويأس وكأنها تريد أن تنفذ الى
اعماقه ، وابتلعت ريقها بمشقة ثم قالت :

— كلا ، لست مخطئة . لو كنت تريد حقاً لما قلت لا أستطيع .
أن هي إلا معاذير (ثم متنهدة على رغمها) لم تعد تحبني وتريد
أن تتخلص مني . هل ثمة سبب آخر !
ومع أن هذا ما كان يؤمن به في أعماقه إلا أن سماعه هاله
واكربه فرفع حاجبيه منكرا وقال :

— لشد ما تظلميني !

ولم تسكن لهجته خاطرها ، أو بالحرى مكنت لقبضة اليأس
من عنقها . وزاد احساسها بضيق الوقت من جزعها فتناست
حياءها المطبوع وهتفت :

— أنت الظالم ، لقد خطبتني ثلاثة اعوام ثم بدا لك أن
تتخلص مني ..

وتحامي عينيها فنظر الى الأرض . كان متحرجا متألما ولكن
تصميمه على عدم التراجع كان أعظم فقال :

— إن ظروفى أقسى من أن تدركيها على حقيقتها . أمامي
صبر طويل ..

ورقت لهجتها فجأة وقد تورد وجهها وقالت برجاء :

— إذا لم يكن ثمة سبب آخر فيوسعى إن اشاركك الصبر !
فتوجس خيفة من تغير لهجتها وقال :

— انه صبر طويل ..

فقال باللهجة نفسها :

— لا بأس ، إلا اننى أرجو أن تعلن خطبتنا بالطرق المعهودة .
وذهل حيال انقلاب الحديث الى هذا المجرى بعد أن أوشك
أن ينقطع ، وركبه الخوف والضيق والجزع فهتف وهو لا يدري :
— كلا !!

وجعلت تحلق في وجهه في ذهول ، ثم خفضت عينيها في
يأس ، واحمر وجهها خجلا . وحركت شفتيها مرة ومرة كأنها
تريد الكلام ولا تستطيعه ثم غمفت :
— أرايت اننى كنت على حق لما قلت لك انك تريد أن تتخلص
منى ؟ . . .

وبلغ منه الارتباك مبلغا لم يعهده من قبل ، ولاذ بالصمت
مليا ، ثم قال كالمعتذر :
— انى جد حزين ، ربما أقمت لى العذر يوما .
فقال فى اعياء وقهر :
— حسبك ، لا أريد سماع كلمة أخرى .

وساد صمت ثقيل الوطأة كالمرض ملأ الحجرة بأنفاس اليأس
المخائقة ، ولكن وجد الشاب على حرجه وألمه لونا من الراحة ،
فمهما يطل هذا العذاب فلا بد أن ينتهى ، وهناك يجد نفسه حرا
طليقا . وتساءل وهو يسترق اليها نظرة ترى ماذا يدور فى رأسها؟
ألا زالت تريده ؟ أم كرهته ؟ أم تتمنى الانتقام منه ؟ لشد ما احبها
عهدا طويلا ، ولكن هكذا انتهى كل شيء . وتساءل ترى فيم
تتحادث الأمان ؟ وعلام انتهى الحديث الذى طال ؟ ثم قال
لنفسه « ان مصرى يتقرر بيدى لا بيد أخرى » . ثم ترامى
اليه صوت المراتين وهما تتكلمان قادمتين فحقق قلبه واستحوذ
عليه قلق مفاجيء . وعادتا الى مجلسهما بوجهين يلوح فيهما
الرضا — مما ضاعف قلقه — ثم دق الباب وكانت القادمة
نفسه ، ورجع حسين الى الحجرة ، فوجد حسنين فى المحيطين

به ما انتزعه من افكاره ورد اليه شيئاً من هدوئه . ومع أن بهية
يدت على حال من الوجوم لا تخفى الا أن الحديث لم يشذ عن
المألوف حتى انتهت الزيارة ..

٧٩

ونظر حسنين صوب أمه في قلق متسائلاً فأدركت أنه يسأل
عما دار بينها وبين أم بهية ، ونظرت اليه نظرة لا تخلو من
فتور وقالت :

— حدثتني ست أم بهية عن وجوب اعلان الخطبة بصفة
رسمية ، ووافقتها في النهاية على رأيها ..

وقطب الشاب في حنق وضرب يداً بالأخرى وهتف بها :

— تسرعت يا أماه !

وشعر بما أحدثه قوله من دهشة فعاد يقول :

— لا لوم عليك بطبيعة الحال ولكنني فسخت الخطبة !

وحدقت به الأعين التي تابى تصديق ما سمعت وتساءلت الأم :

— ماذا تقول ؟

فقال ضاغطاً على مخارج الألفاظ :

— لقد فسخت الخطبة اليوم ، الآن ، وغادرتنا بهية وهي

تعلم أن كل شيء بيننا قد انتهى .

وصاح حسنين منزعجاً :

— ماذا تقول يا أخى ؟ .. كيف حدث هذا ؟!

وقالت الأم :

— أنك تحيرنى بتصريحك هذا ، ولست أفهم شيئاً ! هل

وقع بينكما خلاف بغتة ؟ .. متى ؟ وكيف ؟

وكانت نفيسة آخذة في خلع حذاءها فأمسكت وقالت :

— تكلم يا حسنين . هذا خبر لم يتوقعه أحد !

فقال الشاب بوجوم :

- الواقع اننى عقدت العزم على نسخ الخطبة من زمن غير قصير ولكننى لم اشأ أن اخبر احدا ، واليوم حين انفردت بها فى هذه الحجرة لم اجد معدى عن اعلان نيتى فانتهى كل شئ . ارجو الا يسألنى احد عما قلت أو عما قالت فهذا لا يعنى احدا سوى .

فقال حسين باهتمام وأسف :

- كان موقفا قاسيا على الفتاة بلا شك ، وأرجو أن يكون لديك من الأسباب ما يبرر الاقدام على هذه الخطوة الفظيعة .. وقالت الام المنزعجة :

- يا للفضيحة !.. لقد تم الاتفاق بينى وبين الام فى نفس الوقت الذى كنت تهدم فيه ما بنى ، فما عسى أن تظن بى المرأة ؟ . الا يمكن أن تشك فى اننى كنت اخادعها وأنا أعلم بنواياك ؟ .. ماذا فعلت يا بنى ؟ .. ما سبب هذا كله ؟ .. وماذا يعيب الشابة ؟ !

وضاقت نفيسة بالتكلمين فصاحت بحدة :

- دعونا نسمع صاحب الشأن ..

وقال حسنين مخاطبا أمه :

- بهية شابة لا غبار عليها ، ولكن تبين لى بوضوح انها ليست الزوجة التى اطمح اليها .. فقالت الام :

- لقد خطبتها ثلاث سنوات فكيف يليق أن تهجرها بلا سبب مقنع !

وهز حسين رأسه مؤمنا على قول أمه ثم قال :

- هذا حق . ان نسخ خطبة امر فظيع . ولا يجوز أن يقع بلا سبب مقنع !

وتساءلت نفيسة باهتمام :

— كيف تبين لك انها ليست الزوجة التى تطمح اليها ؟ ..
دعوه يتكلم ..

فقال حسنين بضيق :

— لا ريب أن بهية لا تصلح زوجة لى . حقا لقد خطبتها
بنفسى ولكنى لم أكن أدرك هذه الحقيقة وقتذاك ..
فقالت الأم بقلق :

— بهية فتاة جميلة ومؤدبة ، ولأبيها فضل علينا لا ينسى ..
وقال حسين باللهجة تنم عن استياء :

— انى أعجب لحكمك هذا . ما هى الزوجة الصالحة فى نظرك ؟
فصمت حسنين قليلا ثم قال :

— أريد زوجة من وسط أرقى ، مثقفة ، وعلى شىء من
الثراء ...

فتساءل حسين بنفس اللهجة :

— أهذه هى الأسباب التى جعلتك تنكث بعهدك ؟!

فقال حسنين متنهدا :

— نحن فقراء ، وبهية فى حكم الفقراء كذلك ، وأخاف اذا مت
قبل نهاية المرحلة — كوالدنا — أن أترك أبنائى لقساوة الحاجة
كما تركنا ..

وهتفت نفيسة قائلة بحماس :

— صدقت !!

فغضب حسين لحماس أخته وسأله :

— هل قدرت خطورة الخطوة التى أقدمت عليها ؟

فقال حسنين بحزن :

— لشد ما حز فى نفسى الأسف ولكنى لم أوافق على ضياع

حياتى ! . . .

— وتوافق على ضياع حياتها ؟!

— لن تضيع حياتها . لا زالت في عنفوان الشباب ،
والمستقبل أمامها باهر .

افتساءل حسين في حلق :

— هل تسمح لى بأن اصف لك سلوكك ؟
فنظر اليه في وجوم ولم ينبس بكلمة فhez حسين رأسه في
انزعاج وتساءل :

— انى أعجب كيف تسخط على سلوك حسن وله من الأعذار
ما ليس لك !

وامتقع وجه الشاب وقال بحدة :

— لا شك أن سلوكى لم يخل من قسوة ولكنه سينتهى بخير
بالنسبة لى ولها ، وهو على أية حال أفضل من زواج غير موفق .
وأعرض الشاب عنه يائسا ، وضربت الأم كفا بكف وهى تتمتم :
— يا لها من اساءة شديدة لأطيب الناس طرا ، رباه كيف
أخفى وجهى !

ومع أنها كانت صادقة فيما تقول الا أن أعماقها لم تخل من
ارتياح خفى . وقد كانت تشفق من أن يبادر حسين الى الزواج
فتعود الأسرة الى الترنح والقلق ، وكانت ترمق نفيسة دائما
بعين الخوف متسائلة في حزن عن المستقبل القريب والبعيد .
ولكن اذا كان هذا حقا لا شك فيه فحق كذلك ما تجد حبال
أسرة فريد افندى من أسباب الخجل والالم . أما نفيسة فلم
تكن تحسن اخفاء عواطفها فقالت :

— لا خوف على بهية ، ستتزوج اليوم أو غدا .

فقال حسين بامتعاض :

— هذا كلام يصدق على كل فتاة ولكنه لا يصلح دفاعا عن
خطئنا ..

فقالت نفيسة متهكمة :

— لا يصدق على كل فتاة ! .. والدليل على ذلك أنه لا يصدق
على أخت حضرتك !

وخفف تهكمها من التوتر العام ، وانتهر حسنين الفرصة فقال
 بلهجة دب فيها الحماس :
 - اليس الأفضل أن أختار زوجة من نوع خاص ككريمة
 أحمد بك يسرى مثلاً :
 وقالت نفيسة بمرح :
 - وما هذا على الله بكثير . من يدرى لعلنا نراك يوماً في قبلاً
 محترمة وتتدفق علينا خيراتك يوماً بعد يوم ..
 ولم يلق حسين اليهما بالاً ، وقالت الأم وكأنها تحدث نفسها :
 - سيعلم فريد أفندي بالخبر هذا المساء . ما عسى أن
 يقول عنا ؟! .. ليتنى أجد الشجاعة لأزورهم واعتذر اليهم !
 ففكر حسين طويلاً ثم تمتم بهدوء وحزم :
 - لا تنقصني أنا هذه الشجاعة .
 ووقع قوله من نفوسهم موقع الاهتمام ، وسأله نفيسة :
 - أتذهب حقاً ؟! .. وما عسى أن تقول لهم ؟
 فقال الشاب مقطباً :
 - أقول ما يفتح الله به على . رباه ، لا شك أن في دمن
 شيئاً نجساً ..
 ومضى يرتدى ملابسه ، ثم غادر الشقة ..

٨٠

لم يقصد غايته رأساً ولكنه مضى إلى مشرب شاى بمصر الجديدة
 فجلس ساعة يقاب الأمر على وجوهه ويعد له عدته . سرح خياله
 بين ذكريات الماضي وحوادث الحاضر ، وساءل عقله طويلاً وساءل
 قلبه . ثم قر فكره على رأى . وكان في تفكيره جريئاً حازماً قاطعاً
 على غير عاداته ، فلم تعترضه الصعوبات ولم تشبته المخاوف ،

حتى عجب للسرعة التي بت بها في الأمر وتساءل في دهشة « ترى أهى من وحى الساعة أم أثر لما تجمع في نفسى خلال ثلاث سنوات ؟ » . واستحوذ عليه شيء من الاضطراب ، وعاد يسأل نفسه ، ويستعرض الظروف المختلفة ولكن لم تكن قوة لتثنيه عما عقد العزم عليه . وقام من مجلسه تعتلج في صدره انفعالات شتى من بسطة السرور وقبضة القلق وأريحية المغامرة ، ثم اتخذ سبيله الى عطفة نصر الله فبلغها في أول الليل . ومضى يقترب من البيت القديم وهو يشعر بثقل المهمة وخرج الموقف ، ولكنه أقدم بخطى ثابتة وعزيمة لا تنثنى . ثم طرق الباب بقلب خافق ففتحت له الخادم ، وحدجته بدهشة أثارت أعصابه . ثم قادتة الى حجرة الاستقبال . وما عثم ان جاء فريد افندى بجسمه المترهل فرآه لأول مرة مكفهر الوجه ، يتوهج الغضب في نظرة عينيه . وما كاد الرجل يفرغ من مجاملات السلام ويستقر على مجلسه حتى قال بانفعال وتأثر شديد :
- عشرة العمر كله ، وجيرة العمر كله ، وصداقة العمر كله ،

تمزقونها جميعا في دقيقة واحدة !

فنظر حسين الى الخوان أمامه في ارتباك وتمتم بصوت منخفض :
- ان ما بيننا من ود قديم لا يمكن أن يتغير ، وان ننسى لا ننسى فضلك ونبل اخلاقك ما حيينا ..

فلم يعره الرجل التفاتا وضرب كفا على كف وهو يقول :
- لم أدر حين خبروني كيف أصدق أذننى . ان طبيعة قلبى تأبى أن تصدق هذا الغدر الشائن ..

- انى عاذرك يا سيدى . وصدقنى أننا لم نكن ادنى لتصديقه منك ، حتى اننى تركت امى فى حال يرثى لها ..

وتابع الرجل حديثه دون اهتمام بما قال :

- كنت لاحظ أنه يتشاغل عن زيارتنا ، وقيل لى فى تفسير ذلك أعذار صبيانية زادتنى تشاؤما ، حتى علمت هذا المساء بأنه

جاهر بنكث عهده . . ما شاء الله ، هل حسب بنات الناس العوبة
يلهو بها على هواه ، يخطب حين تحلو له الخطبة ، ويفسخ حين
يطيب له الفسخ ؟! . . . لقد عاملته كابنى ولم يدرك لى بخلد أنه
يطوى صدره على قلب بهذا الحبث والغدر . . .
وزاد شعور حسين بالحرج وطأة فقال ينتحل الأعذار كيفما
اتفق :

— أخى فتى طائش وقد أضاعت حادثة حسن صوابه .
فتساءل الرجل فى انكار :
— وما ذنبنا نحن ؟ . . هذا عذر غير مفهوم !
— اقصد ان المصيبة أثارت أعصابه وأفسدت حكمه فضاق
صدره بالدنيا جميعا .

فلوح الرجل بيده فى عنف وقال ساخطا :
— كلام غير مقنع . انى رجل مجرب وأعلم أن الرجل لا يغدر
بخطيبته لمثل هذا السبب . قل غير هذا الكلام اذا شئت أن
أصدقك . قل انه صار ضابطا وبات يطمع فى نوع آخر من النساء .
فقال حسين بلهجة حزينة :

— وددت بحياتى لو أصلح الأمر .
— فسد الأمر ولا صلاح له . انه عبث لا يليق بالشرفاء ، ولو
كنت غير الرجل لقاضيته وأدبته ، ولكنى أحمد الله على ما كشف
لى من حقيقة نفسه بعد أن خدعت به طويلا . ما هو الا شاب
نذل جبان ، ولا تؤاخذنى على قول الحق . . .

ووقعت هذه الأقوال من نفس الشاب موقعا أليما فخفض
بصره مليا ثم قال بصوت ضعيف :

— انى جد آسف ، بل كلنا آسفون ، ولا مطمع لنا الآن الا
الابقاء على الود القديم . .

وساد الصمت برهة ثم تمت الرجل بفتور :

— ما عهدنا منكم شرا . . .

وشعر حسين بقلق وتوتر ، وذكر ما انتهى اليه رايه قبل
حضوره بقلب خافق مضطرب وتساءل فيما بينه وبين نفسه .
ترى هل من المناسب الآن الاقدام على الافصاح ؟! ... ومع انه
لم يجد من الجواب مشجعا الا انه ابى التراجع او التأجيل ، ونظر
الى الرجل بعينين حذرتين وتساءل :
- هل أستطيع ان اقابل الانسة بهية ؟

فقال الرجل بجزع وهو يلطم الهواء بظاهر كفه :
- ما الداعي لهذا ؟... فلندعها وحدها ، هذا خير ما يفعل !
وغلب التأثير الشاب . ترى ماذا تفعل المسكينة ؟ وماذا
احدثت الصدمة بنفسها الرقيقة ؟ وماذا هو فاعل أيقدم أم
ينكص ؟ الا يقع كلامه من هذا الجو المكهرب موقعا مضحكا ! ولكنه
شعر شعورا خفيا بأنه اذا تراجع هذه اللحظة فلن يقدم أبدا ،
وتنهّد تنهدة عميقة أزاح بها التردد عن صدره وقال بسكينة
ظاهرة يدارى بها اضطرابه :

- سيدى... لا أدري كيف أعرب عما فى نفسى ، ولست أزمع
انى اخترت وقتا مناسبا ! ولكننى لا أستطيع ان أقاوم ما يدفعنى
الى قول كلمة أخيرة وهى اننى أرجو أن تبارك يوما رغبتى
الصادقة فى طلب يد الانسة بهية !

واتسعت عينا الرجل دهشة وبدا أنه كان يتوقع كل شىء الا
هذا ، ولعله اراد أن يتكلم ولكن ارتج عليه . أما حسين فكان قد
عبر قمة ازمته فقال مستردا بعض هدوئه :

- لا تحسبن أن ما يدفعنى الى هذا الرجاء هو ما أشعر به
حيال تصرف أخى من خجل ، أو ما عسى أن تتصوره عطفًا على
حال الانسة . كلا ، واقسم على هذا . انها رغبة قائمة بذاتها ،
منبعثه أولا وآخرًا من تقديرى لكرميتكم ولكم .
وواصل فريد افندى دهشته الصامتة على حين استمد

حسين من انطلاق لسانه وصمت الرجل شجاعة وحرارة
فاستطرد قائلا :

— شيء واحد يخرجني في هذا المسعى كله وهو ما أشعر به
من أننى غير كفاء لها .

فخرج الرجل عن صمته لأول مرة متمتما :
— لا تقل من شأنك يا حسين افندى ، أنت عندى بمنزلة
الابن ..

فقال حسين وقد تورد وجهه :

— شكرا ...

وتفكر الرجل قليلا كالحائر ثم قال :

— لا يسعنى ألا شكرك على رغبتك هذه ، ويسرنى — علم
الله — أن تتحقق ولكنك تدرك طبعاً أن وقت التحدث بشأنها لم
يثن بعد ؟! ...

فقال حسين بحماس :

— هذا طبيعى جداً يا سيدى ، وبوسعى أن أمد .. أعنى أن
انتظر حتى يجرى الوقت المناسب ...
وانتهى الحديث عند هذا الحد ...

٨١

وعاد الى مصر الجديدة غارقاً في أفكاره فلم يكدر شيئاً من
الطريق ، ولكنه استعرض صفحة مطوية طويلة من حياته كما
فعل فى مشرب الشاي قبل أن يتجه الى بيت فريد افندى .
وكان على حيرته يشعر بسرور وأمل لم يشعر بمثلهما طيلة حياته .
لقد أحب الفتاة فيما مضى ولكن حبه مات قبل أن يترعرع
ويزدهر ، ولم يبق منها فى قلبه الحكيم الوافى إلا المثال الذى يحلم
به للزوجة الصالحة ، وأنه يذكر أنه تألم كثيراً وصبر كثيراً ، فتعلم

أنه بشيء من الحكمة يمكن أن يعثر في دنيا الألم على مسرات عالية،
وخرج من التجربة ساكن القلب بسام الثغر ، وكان يقول لنفسه
متعزياً أن مواجهة سوء الحظ بالصبر والتسامح . سرور ينبغي
أن يعد من حسن الحظ .. وهكذا تعزى ونسى من زمن طويل .
ولما أن تفتح له باب الأمل المغلق على حين غفلة نسي أنه كاد ينسى
وأزهر الحب في قلبه كأن تأثرته لم تهدأ لحظة واحدة من الزمان .
وانطلق في سرور لا تشوبه شائبة حتى بلغ البيت . ووجد الجميع
في انتظاره فما أن وقعت أعينهم عليه حتى صاحوا به :
— ماذا لقيت ؟!

ورأى أن يهد للخبر العجيب الذى يحمله بأن يهول من خطر
الأمور فقال وهو يهز رأسه أسفا :
— وجدتهم على حال من التأثير انزويت لها خجلا وخزيا ،
ولاول مرة في حياتى رأيت فريد افندى الرجل الوديع ثائرا
غاضبا كاسرا ...
وسأله الأم بحسرة :

— خبرنى عما حصل كله . ألم تقابلك أم بهية ؟
— كلا ، قابلنى الرجل وحده وقبل أن أفتح فمى بكلمة انهال
علينا تائيبا وتقريبا ..
وأعاد عليهم كلام الرجل — فيما عدا الكلمات القارصة —
مضيفا عليها من عنده ألوانا من التأثير والحزن ليستثير الهم ويستدر
عطفهم حتى ملأهم الوجوم والحجل ، الا نفيسة فقد قالت :
— ما كان ينبغي أن تلقاه الليلة . وعلى أية حال فالخطأ الأول
ينصب على من يقبل تلميذا صغيرا كخطيب لابنته فضلا عن أن
يكون هو الساعى بحيله الى عقد الخطبة . ولا أجد حسنين
مستحقا للوم فقد كان تلميذا كما قلت لا يعرف ما يضره مما
ينفعه ، فلما أن بلغ طور الرجولة تبين أن الفتاة لا تصلح زوجة له
فماذا عليه اذا تركها ؟!

وصمم حسين على أن يشق طريقه الى هدفه فقال بهدوء ،
مخاطبا أخته :

— تكلمى عن الفتاة برفق من فضلك فقد تصبح خطيبة أخيك .
الآخر ! .

وحملت فيه الأعين بدهشة : وندت عن نفيسة آهة سريعة ،
وتساءل حسنين :

— ماذا تقول ؟

فقال حسين وهو يتغلب على ارتباكها بقوة ارادته :

— يجوز أن تصبح خطيبة لى ..

— لك أنت !

— لى أنا ..

وهتفت نفيسة :

— كلام لا يدخل المخ !

— ولكنه الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .

وسأله الأم وهى تتفرس فى وجهه :

— هل خطبتها حقا ؟

فقال الشاب خافضا عينيه :

— نعم ، قلت له انه يسرنى اذا وافق على ان اطلب اليه يد .

الفتاة ..

فسأله حسنين بقلق :

— أفعلت هذا رغبة فى اصلاح الأمور ؟

فتردد حسين قليلا ثم قال :

— لا يخلو الامر من هذه الرغبة ، بيد اننى اكن للفتاة تقديرا

كبيرا ، وأعتقد انه اذا لم يكن بد من الزواج فالأفضل أن يكون من

فتاة مثلها ..

فتساءلت نفيسة فى لهجة ساخرة :

— ومن قال انه لا بد من الزواج ؟!

وتداخلت الأم متسائلة :

- وماذا قال لك فريد افندى ؟

فاجابت نفيسة بالنيابة عنه قائلة :

- قال على العين والراس طبعاً ..

وأجاب حسين دون أن يعبأ بها :

- شكر لى طلبى ولكنه اعتذر بأنه لا يستطيع أن يخاطب

الفتاة الآن بهذا الشأن وطلب الى ان امهله الى حين ..

وعاد حسنين يسأل باهتمام :

- أكنت تضرر هذه النية حين غادرتنا ؟

فأجاب حسين بفطنة :

- كلا ..

فقال الآخر باشفاق :

- اخاف ان تستبين بعد حين انك غير راغب فى الزواج حقاً !

فقالت نفيسة متنهدة :

- ربنا يسمع منك ...

فصاحت بها امها غاضبة :

- نفيسة !

اما حسين فقال مجيباً اخاه :

- انى احب بطبعى الحياة المستقرة ..

فقال حسنين بارتياح :

- ليس احب الى من سعادتك وسعادتها ..

وصمت قليلاً ثم استدرك قائلاً بصوت منخفض :

- ولى أنا ايضاً آمالى ، كأن أتزوج من كريمة أحمد بك يسرى .

اتظنه يا أخى أملاً أخرق ؟!

فقال حسين مبتسماً :

- لم لا ؟ .. انك كفاء لها ..

وهتفت نفيسة ضاحكة فى شىء من الاضطراب :

- لنا الله ، أردنا أن نسترد واحدا والغالب أننا سنخسر
 الاثنين ، وهذه أصابة عين حامية ..
 وتمت الأم بهدوء :
 - على بركة الله ، انى مطمئنة الى أن ابنائى لن ينسونى ..
 فقالت لها نفيسة :
 - ما أجهلك بالزواج وأسراره ، سلىنى أنا عنه .
 ضحك حسنين قائلا :
 - أمنا أعرف بنا منك ..
 وساد الصمت فراح حسنين يتساءل فى نفسه وهو يسترق
 النظر الى أخيه : ترى اكانت خطبته بنت ساعتها حقا ؟!

٨٢

« ربما كان الانتظار حكمة ، ولكن ماذا يجدى الانتظار اذا طار
 الطائر ؟! » هكذا تساءل حسنين فيما يشبه الغضب ، وبعد
 انقضاء قرابة شهر لم ين فيه عن التفكير والتدبر ساعة واحدة .
 قالوا له - خاصة حسين - انه ينبغى أن ينتظر حتى يكون ثروة
 صغيرة ثم يتقدم لطلب يد الفتاة ، وليكن رأيهم صوابا ، ولكن
 من يضمن له أن تنتظره الفتاة حتى تتكون هذه الثروة ؟. ومما
 شجعه على نبذ هذا الراى « الحكيم » أن احمد بك يسرى على
 علو مقامه قريب اليه بحكم العلاقات القديمة ، فطمع فى أن يوسع
 له صدره . أما اذا أفلتت من يده الفرصة السعيدة فليس لديه
 الا أن ينتظر أعواما طويلا قبل أن تفتح له الأبواب أسرة كهذه .
 الا يمكن أن يطلب يد الفتاة ثم يستمهل البك حتى يستكمل
 استعداداه ؟. يمكن بلا ريب ، واذا لم يمكن فان احتمال الرفض
 لا يجب أن يقعه عن المسعى ، انه أجرا من أن يقعه شىء عن غاية ،
 ثم انه لا يطيق هذه الفضيلة التى يدعونها بالصبر . الآن ، ودون

خوف أو تردد ، وليكن ما يكون . كان الشاب يدير هذه الأفكار في رأسه وهو يقترب من فيللا أحمد بك يسرى بشارع طاهر . صمم وشرع في التنفيذ بلا مبالاة . هذه هى الحياة التى يتلهف عليها بكل قوة نفسه . وليس ثمة ما يزعجه فقد اختفى حسن وصارت نفيسة آنسة محترمة والماضى فى طور الاحتضار ، وما يريد الا الحياة النظيفة السعيدة لنفسه وذويه . وكان قد اخذ زينته وتبدى فى منظر حسن يجمع الى رشاقة الشباب فحولة الرجولة . وما ان انتهى الى الفيلا حتى ادخل الى السلامك فجلس ينتظر بقلب خافق ونفسه قلقة ، « أليس عجيبا ان اتقدم لطلب يد فتاة هذه فيللتها وانا لا أملك الا ما تبقى من مرتبى !. وهناك قضية الوقف الوهمية التى حدثت البك عنها ولكن هيهات ان تغنى عنى شيئا . لماذا لم يكن لأمى وقف ؟ ولكن هذه مسألة اخرى ، فلو كنا من أصحاب الوقف لكان الماضى غير الماضى والحاضر غير الحاضر . ليكن ما يكون ، لن أراجع ، ومهما يكن من امر فان يقطع رأسى ، اذا ربحت ربحت الدنيا جميعا واذا خسرت لم أخسر شيئا يذكر . انى آسف يا بنى ، سلام عليكم يا سعادة البيك ، هذا أقطع ما يتوقع . انى كفاء لها بغير جدال . ما عسى ان تريد مما ليس لدى ؟ المال ؟ عندها المال بالقنطار . ما أحمقكم يا أهل هذا البيت اذا رفضتم يدى . فى هذا الموضع رايتها أول مرة على دراجتها ، ساق تستأهل ثقلها ذهبيا وفخذ سبحان الخالق . مسكينة نفيسة . ترى أين حسن الآن ؟ ليته يفر الى بلد غريب فيختفى الى الأبد . لا تكاد ذكره المزعجة تفارقنى فمتى أوتاح من الماضى كله . لن أراجع . فى هذا الموضع كادت تهوى بها الدراجة . أقدام البك ؟. » وأنصت فى اهتمام ثم نهض قائما فى احترام حين رأى البك قادما نحوه وسلم فى اجلال والآخر يقول :

— اهلا بحضرة الضابط . كيف حالك ؟

وأجابه الشاب وهو يبذل أقصى جهده للسيطرة على انتباهه
وارادته :

— شكرا لك يا سعادة البك .

وتساءل البك ضاحكا بلهجة ذات معنى :

— ألا يزال اخوك فى طنطا !

ورحب حسنين بأى حديث يطيل له مهلة الاستعداد فقال
باهتمام ظاهرى :

— بلى يا سيدى :

وكانا قد اطمأنا الى مجلسيهما فقال البك :

— ليس فى الامكان نقله هذه العطلة ولكنى أخذت وعدا

صادقا بنقله فى العطلة القادمة ..

وكان حسنين يعلم بهذا ولكنه قال بامتنان :

— هذه مآثرة جديدة تضاف الى مآثرك السابقة .

وساد صمت ، وشعر الشاب بأنه يقتحم لحظة رهيبة من
حياته ، وانه لم يعد وراءه ثمة مجال لتردد أو تراجع ، فألقى بعزمه
قائلا بصوت لم يخل من اضطراب فى نبراته :

— الواقع انى قصدتك يا بك فى شأن يخصنى انا ..

فرفع اليه الرجل عينيه متسائلا :

— خير ان شاء الله ؟ ..

فاعتدل الشاب فى جلسته كأنه يستمد من اعتداله قوة وقال :

— انى استشفع بسعادتك لغاية بعيدة اراها فوق مطمحى .

فتساءل البك مبتسما وهو يدلل بأصابعه شاربه الغليظ

المصبوغ :

— أتريد أن ترقى لواء ؟

فضحك الشاب ضحكة عصبية سرعان ما غاضت من اساريره

وقال بصوت منخفض :

— أعز من هذا . انى طامح الى شرف مصاهرتك ..

وحل اهتمام مفاجيء محل النظرة الباسمة ، وخيل اليه
الرجل استحوذت عليه دهشة رغم ما يتظاهر به من الرزانة
وضبط النفس ، ولكن أية دهشة يا ترى ؟ دهشة المفاجأة
الانزعاج ؟ ودق قلبه بقوة وشعر شعورا عميقا بخطورة اللحظة
التي يكابدها . أما الرجل فقال بعد صمت وتفكير :

— لا يسعنى الا ان اشكر لك حسن ظنك ..

وتأثر للقول الرقيق تأثرا لم يخل من ألم غامض وقال بتوكيد
— أرجو الا اكون قد جاوزت حدى ..

فقال البك مبتسما :

— حاشا لله . انى اكرر الشكر بيد أننى أؤجل الجواب حتى

اشاور أصحاب الشأن .

فارتاح حسنين لهذه المهلة التى رحب بها ترحيب المحارب

المخرج بهدنة آمنة وقال :

— هذا طبيعى يا سعادة البك ولكنى أرجو حقا الا اكون قد

جاوزت حدى .

فابتسم البك قائلا :

— لا تعد على مسمى هذا القول .

ونفض الشاب مستأذنا فى الانصراف ثم غادر الفيلا . واستعد

فى الطريق كل كلمة قيلت وما صاحبها من حركات واشارات

ولمحات ، وحاول أن يستشف ما وراءها من معان ومقاصد ، ومما

انه كان يؤول كل شىء بخيال جرىء طموح متفائل الا انه وجده

انقباضا وقلقا ، وفى النهاية قال لنفسه وهو يهز كتفيه استهائلا

« اذا ربحت الدنيا جميعا واذا خسرت لم اخسر شيئا

يذكر » .

لم يفكر حسين في معاودة زيارة فريد افندى حتى أوفت اجازته على نهايتها . كأنما أراد أن يمد للرجل في مهلة تفكيره حتى يستخلص منه رأيا قاطعا . ولم يكن يكف في أثناء ذلك عن مشاورة والدته ، ولم تبد المرأة اعتراضا ولكنها نصحته أن يؤجل زواجه عاما حتى يستكمل استعداده . ومن عجب انها لم تفلح في إسداء مثل هذه النصيحة للشاب الآخر المتعجل ولكن حسين نفسه لم يكن ليوافق أخاه على تعجله الذي وصفه « بالتهور » ولم يخف عليه أنه إذا وفق حسنين الى هذه الزيجة الخيالية ، وتم زواجه هو بعد عام ، فستجد أمه وأخته نفسيهما وحيدتين بلا عائل ، ولهذا طمأن والدته الى أنه مصمم على أن يضم زوجه الى البيت في كنف معيشة واحدة . واطمأن قلبه وفكره فمضى الى بيت فريد افندى ، واستقبله الرجل بترحاب انعش آماله ، ومع أنه لم يكن للزيارة الا معنى واحد لا يخفى على احد الا أنه خاطب الرجل قائلا في شيء من الارتباك :

— جئت استودعكم الله قبل عودتي الى طنطا غدا ..

فابتسم فريد افندى ابتسامته الرقيقة وقال :

— مع سلامة الله ، وان شاء الله نسمع قريبا عن نقلك الى القاهرة ...

فقال حسين برجاء :

— أرجو أن يتم هذا في العطلة القادمة ..

وسأول نفسه ترى هل يفتح «الموضوع» أو ينتظر حتى يتكلم الرجل ؟! . لقد شاور أمه في الأمر كأنه أصبح حقيقة مفروغا منها ، ومع هذا فمن يعلم بما دار في نفوس أهل هذا البيت ؟!

وساوره قلق ، اخذ يتزايد كلما طال انتظاره للكلمة التى يود سماعها ، حتى جاءت الست أم بهية فنهض لاستقبالها فى ادب وشد على يدها فى حرارة ، وتفاعل بمقدمها خيرا . وقد قالت له وهما يجلسان :

— انى سعيدة برؤيتك يا بنى ، كيف حال والدتك ؟
فقال حسين بحرارة :

— بخير يا سيدتى . وهى تقرئك السلام ..

ثم نظر فريد افندى الى زوجه وقال لها :

— حسين افندى جاء يودعنا لانه مسافر غدا وأظن من المناسب أن نخبره بما قرأ الراى عليه (ثم محولا رأسه الى الشاب) بخصوص ما حدثتنى عنه يا حسين افندى يسرنى أن أقول لك « اننا » موافقون .

وتتبع فؤاده كلام الرجل فى خفقان متواصل ، استحال الما خالصا عند بعض المقاطع ، ثم انتهى بوثبة فرح فقال بصوت متهدج :

— شكرا لك يا سيدى ألف شكر ، انى سعيد حقا ..

فابتسم الرجل وقال مخاطبا زوجه :

— وسينقل الى القاهرة فى العطلة القادمة ...

فضحكت المرأة قائلة :

— خبر سار ، نحن نود بطبيعة الحال « أن تكونوا » على

مقربة منا ...

فتورد وجه الشاب وقال بصوت وشى بسروره :

— سيتحقق هذا باذن الله ...

ثم قال فريد افندى :

— ولكن يحسن بنا أن ننتظر فترة معقولة قبل اعلان الخطبة.

ثم ضحك ضحكة لم تخل من الارتباك واستطرد قائلا :

— حتى ينقضى وقت مناسب بين الخطبتين ...

فخفض حسين عينيه وهو يتمتم :

— انى رهن اشارتكم .

وقام فريد افندى وغادر الحجرة ، وغاب دقائق ، ثم عاد تتبعه بهية . ومع ان حسين حدس الأمر إلا انه وقع من نفسه موقع المفاجأة البكر فنهض باذلا مكنون قوته لتمالك نفسه . ثم مد لها يده فى صمت ، فتلاقت يداهما ، وشعر بيدها على يده ناعمة الملمس رقيقة الموقع ، باردة المس ، فاهتز صدره ودر رقة وشكرا . وشعر بأنه ينبغى ان يقول كلمة ، والى عليه هذا الشعور ، ولكنه وجد رأسه فراغا ، ولم يسعفه الموقف بالتفكير فجلس دون أن ينبس بكلمة . وسرعان ما تناسى مشاعر الأسف المنبعثة من خرسه فى موجة السرور والرضا التى غمرت حواسه جميعا فنزلت عليه سكينه لطيفة أشبه بالشفاء الذى يعقب نوبة ألم . ما أجملها ! كيف يعنى بعض الناس عن هذه المزايا المكتملة ؟! انها الوداعة والفضيلة اللتان ترويان الحنان الظامىء الى حياة البيت السعيد . لا تثير استفزازا من أى نوع كان ولكنها تبث سلاما وطمأنينة . لماذا جاء أبوها ؟ ليس لهذا إلا معنى سعيد واحد ، قال اننا موافقون ثم جاء ببقية « اننا » شاهدا ملموسا . بوده لو يسعه أن يستخبر أفكارها هل أفادت من الصدمة ؟ هل برىء الفؤاد ؟ أبدأت حقا تستشعر ميلا اليه ؟ . ولم يتركه الوالدان لتأملاته فعاودا حديثهما الذى بدأ الآن تافها متطفلا . الا يمكن أن تحدث معجزة فيفادرا الحجرة ؟ وقد التقت عيناه بعينيها مرة فتاه فى صفاء وزرقة لحظة بهيجة . عنده ما يقوله ولديها ما يقال بلا ريب . ومهما يكن من الأمر فالأيام آتية ، وسيفصح عما فى ضميره ، عن كل كبيرة وصغيرة . وفى أويقات ما بين الحديث كان يتجمع فى احساس رقيق سعيد أقنعه بأن فى الدنيا سرورا خليقا بأن يكفر عن جميع أكارها .

سرور يقطر صفاء . ليدم طويلا ، لتدم هذه الجلسة ، هذه الحال ، هذا المنظر ، هذا الاحساس ، ليدم عمرا . ليشمل الحياة جميعا .

وتواصل الحديث ولكنها لم تشترك فيه اللهم الا باجاءة أو غمغمة ، حتى وجب الذهاب فنهض مستأذنا ، وسلم عليها ، وغادر الشقة وهو يشعر لأول مرة بأنه مقبل من حياته على وقت حصاد ...

٨٤

وسافر حسين ، وانقضت أيام من فترة الانتظار التي دعاها حسنين بمدة « تحت الاختبار » . والتي عاناها في تجلّد اضطرارى والأمل واليأس يتجاذبان . وقد أسف على سفر أخيه لأنه كان يفضل بلا شك أن يتلقى رد أحمد بك يسرى وهو غير بعيد عن مشورته : كان في الحقيقة يأنس الى مشاورته وان غلب عليه الاستبداد برأيه والاندفاع وراءه ؛ على أن أقدم حسين على الشروع في الزواج كان قد ترك في صدره راحة لأنه كان في أعماقه متعبا لسبقه الى استكمال حياته بالزواج والآخر منزو تحت الأعباء كانه محروم من الانتفاع بحياته . ولا يعنى هذا أنه لم يكن مشغولا بمستقبل أسرته فالحق انه كان يرجو من وراء زيجته النفيسة خيرا كبيرا لنفسه ولأسرته على السواء ، هكذا سوى متاعبه الداخلية بهذا المنطق ليفرغ للملاقة حظه بقلب مطمئن . وانه لعل تلك الحال اذ دعاه أحد الأصدقاء من زملائه الى موافاته الى كازينو لونا ببارك بمصر الجديدة ، وكان هذا الصديق - ويدعى على البرديسى - أقرب زملائه مودة الى قلبه ، نشأت صداقتهما وتوثقت بالكلية ، ثم حافظت على حرارتها رغم تعيينه هو بسلاح الفرسان والتحاق الآخر بالطيران ، ومضى الى مواعده فوجده في انتظاره ، وجلسا معا في حديقة الكازينو ، ثم طلب الصديق قدحين

من الجمعة . وادرك حسنين من اللحظة الأولى ان صاحبه قد دعاه
لأمر ، لأنه على غير عادته - وبالرغم من مرحه الظاهر - بدأ
جادا متفكرا ، وما لبث أن سألته :

- أتذكر الملازم أحمد رأفت ؟

فقال حسنين بعدم اكتراث :

- طبعا ، انه من دفعتنا ، وأظنه ضابطا بالطوبجية ، أليس
كذلك ؟..

فأوما الصديق دلالة على الموافقة وقال بضيق ومرارة :

- سمعته بالأمس يتحدث عنك في جمع من الاخوان بما
أغضبني وساءنى ..

فحملق حسنين في وجهه بدهشة . كان يتوقع أى شئ
الا هذا . وتساءل في استنكار :

- ماذا قال ؟

فقال على البرديسى بوجوم :

- كنا ، أنا وبعض الأصدقاء ، نلعب الورق في بيته بالمعادي .
- وبعد ؟

- لا اذكر المناسبة التي اثارت الحديث . كنا سكارى . ولكنى
سمعته يخوض في أمور تمسك . خبرنى أولا هل سمعت حقا
الى طلب يد كريمة رجل يدعى أحمد بك يسرى ؟!

وفجر الاسم زلزالا في صدر الشاب فدق قلبه دقة عنيفة ،
وذكر لتوه ان أحمد رأفت هذا على صلة وثيقة ببعض اقارب
أحمد بك يسرى . وبذل جهدا صادقا ليتمالك اعصابه ، ثم قال
باقتضاب وهو يكابد شعورا غليظا بالتشاؤم والخوف :

- ربما ...

- اتعلم ان أحمد رأفت صديق لهذه الأسرة ؟

- هذا جائز ، ولكن خبرنى ماذا قال ؟

فصمت البرديسي كالمتردد حيناً ثم تمت بصوت منخفض
والحرج باد في أساريه :

— فهمت من حديثه أن الأسرة لم توافق . يؤسفني أن
أبلغك هذا ..

وشعر بالخبر يضغطه كحمل ثقيل فتضاءل تحته وأحس
بانهيار في كرامته ورجولته . ثم فار غضبه حتى أوشك أن
يستسلم لنيرانه ولكنه ثار على الاستسلام في اللحظة الأخيرة ،
وأبى إلا أن يتظاهر بعدم الاكتراث ، بل نددت عنه ضحكة وتساءل :
— أهذا ما أساءك يا صديقي ؟

فقال الصديق بوجوم وقلق :

— هذا أمر عادي ، يحدث كل يوم ، ولكنه ذكر في غير لياقة
الأسباب التي تبرر عدم موافقة الأسرة ، ومع أنها أسباب تافهة
لا يمكن أن تحط من قدر انسان إلا أنه ساءني جداً أن يرددها
في جمع حافل من السكارى ..

كان يشعر دائماً بأن مطرقة ثقيلة من ماضيه معلقة فوق
رأسه تهدده في كل حين ، وهامى قد أهوت على يافوخه ونشرته
هشيماً . ليس الأمر بحاجة الى ايضاح أو سؤال ، ولكن أمن
الممكن حقاً أن يتجاهل كل شيء ؟! ورفع بصره الى وجه صديقه
الواجم وسأله بلهجة آلية :

— خبرني عما قال ؟

فعبس الشاب في ضيق وتبرم ثم استطرد :

— أنه حقيق بالاهمال ولكن من الانصاف أن تعلم بما يقال
عنك ولست في حاجة لأن أقول لك اني غضبت لك غضبة صادقة
أجملت السنة الهاذين ..

اذن اتخذوا منه مادة لهذيانهم ! وأي مادة ! كان ينبغي أن
يفكر في هذا كله يوم أقدم على تلك الخطبة المشئومة . وابتسم
الي صديقه ابتسامة باهتة وقال :

- لا يخالجنى شك فى شهادتك . انى اقدر اخلاصك حق قدره .
ولكن أرجو ان تعيد على مسمى كل كلمة قيلت . كلمة كلمة .
وبدا الشاب متأففا ، واكتفى بأن يقول فى امتعاض شديد :
— قال كلاما كثيرا عن اخ لك . . حتى قلت له محتدا انى
اعرف قاطع طريق فى بلدتنا اخوه وزير فى القاهرة !
فامتقع وجه حسنين ، وتأذى للدفاع صاحبه كأنه يسمع
التهمة نفسها ، بيد انه ضحك فى يأس وقال :
— العادة أن عين الرضا لا ترى الا الوزير أما عين الغضب .
ما علينا ، وماذا أيضا ؟
فقال الشاب فى تهرب :
— وكلام سخي من هذا القبيل . .
ولكن حسنين هتف به فى ضيق غلبه على أمره فجأة :
— أرجوك ، أرجوك ، لا تخف عنى شيئا . .
فقال الشاب عابسا من التخرج :
— أكره الخوض فى الحرمات .
— أختى ؟ !
— قال انها كانت تعمل لترتقى . . ؟
— وقلت له غاضبا ان العمل الشريف لا يعيب احدا وان
الفقر ليس جريمة .
فهر حسنين رأسه فى حرارة وردد قول صاحبه فى سخرية
أليمة :
— . . ان الفقر ليس جريمة ! . . بديع ! . . وماذا قال أيضا ؟ .
— لا شيء . .
— حسبه ! اخ قاطع طريق واخت خ . . عامله ، هه ؟
ويريد بعد هذا أن يتزوج من كريمة بك قد الدنيا !
قال البرديسى :

— اعتقد ان حسن الاختيار قد اخطاك في التقدم لمثل هذه
الأسرة العيابة .

فابتسم حسنين ابتسامة مريضة وتمتم :
— صدقت ..

ثم راح يقول لنفسه « انى غائص فى الطين حتى قمة رأسى .
ليس لهذه الحال من علاج الا أن أدق عنق هذا الأحمد رأفت .
ولكن هل يغير هذا من الواقع شيئاً ؟ ، كلا ، انه دفاع غير مجد
بيد انه لا يجوز أن تغيب عنى حقيقة هامة وهى أن اللكمة
القوية تستطيع أن تنتزع الاحترام انتزاعاً وتفرضه فرضاً .
انى قادر على هذا والحمد لله افلا تنقصنى الشجاعة أو القوة .
كان حسن أحقرنا شأننا ولكنه كان على ذلك أعظمنا احتراماً .
هذا درس ينتفع به » . ثم سمع صديقه يقول فى عزاء :

— لا تكثرث اكثر مما ينبغى .

فقال وهو يهز منكبيه متظاهراً بالاستهانة :

— نصحة معقولة . ليس فى أسرتنا ما يشين . كنا أغنياء
فى يوم ما ثم دهمتنا أيام شداد فلاقيناها بشجاعة حتى تغلبنا
عليها . ليس فى هذا ما يشين ..

— بل فيه من دواعى الفخار ما فيه .

فضرب الأرض فجأة بقدمه وقال مستعر العينين من الغضب :
— ولكنى أعرف كيف أؤدب من تحدثه نفسه باهانتى ..
— هذا حق لا شك فيه ..

وساد صمت مرهق بالتعب والألم فلم يجد البرديسى خيراً
من أن يطلب قدحين آخرين من الجعة ، ثم تمتم مبتسماً :
— ستجد اذا شئت من هى خير منها ..

فقال حسنين باستهانة :

— أوه ، البنات فى البلد أكثر من الهواء وأرخص من التراب !
وعل من الجعة فى ظمأ ، وشغل الصديق بقدحه أيضاً فعاد

الصمت . « آه لو كان فى وسع الانسان أن يخلق حياته من جديد . فيولد فى أسرة جديدة ، وينشئ ماضيا جديدا . ولكن ما بالى أعذب نفسى بالأمانى الكاذبة . هذا أنا ، وهذه حياتى ، ولن أسمح بأن أتخطم . لم تنته المعركة بعد ! » .

٨٥

ولما غادر الكازينو مودعا من صديقه كانت الصدمة والجمعة تكادان أن تذهبا بعقله . وكان ينبغي أن ينفس عن صدره قبل كل شيء ومهما كلفه الأمر بيد أنه استسخف فكرة مواجهة الضابط أحمد رأفت وانغراه شعوره المنطوى على التحدى والغضب بما هو أجل وأخطر . « ان غضبى على هذا الشاب المغرور غير عادل . لقد سمع قولا بذيئا فردده . ليس لى عليه حق ولا أستطيع الزعم بأننا كنا أصدقاء . اذا سنحت فرصة للتحرش به فى المستقبل فلن أدعها تفلت بسلام ، ولكن لندع تأديبه حتى سنوح هذه الفرصة . هدفى الحقيقى هو البك نفسه ذو الشارب المصبوغ . سأقول له ان أقل ما يستحقه رجل تقدم لطلب كريمتك هو ان تحافظ على كرامته خصوصا اذا كان ابن صديق قديم . اذا تنصل من التهمة قذفته بالدليل القاطع وقلت له ان الفقر ليس بعيب بخلاف التشنيع على الناس فهو عيب حقير . اذا غضب ولا بد أن يغضب كما يحتم مركزه الكبير فلن أقتصد فى اظهار غضبى حتى أفرغ بخار صدرى المكتوم . » . وبهذا الشعور المتفجر وما ينبثق حوله من اشعاعات الجمعة القى بنفسه فى أول ترام صادفه فحملة الى ميدان المحطة ، ثم استقل الترام الى شارع طاهر ، وعندما تراءت له فيلا أحمد بك يسرى تشاقلت قدماء كأنه يمهل نفسه لمعاودة التفكير . وترددت فى أعماقه هواتف

تهيب به الى التراجع ولكنها ذابت في تيار الحمى المستعر في رأسه فدفع الى الفيلا دفعا حتى وجد نفسه حيال البواب الذي وقف له احتراما . وشق طريقه الى الداخل دون استئذان وهو يشعر بغربة سلوكه وسخافته ولكن دون أن ينشئ . كانت الشمس قد مالت نحو الأفق فلاحت شجيرات الورد والشيخ كالناعسة في ظل المغيب ، وارتسمت على أرض المشى الوسيط آثار عجلات السيارة في هيئة خطين عريضين منحنيين ، فاتجه نحو السلامك تشي نظرة الحيرة والتردد التي تنتاب تصميمه من حين الى حين بأنه لم يقتنع كل الاقتناع بوجاهة البواعث التي تدفعه الى هذا التحدى . ومع هذا ارتقى السلم بسرعة غير متوقعة ، وما كاد يبلغ القرائدا حتى وقف متسمرا تحت صدمة دهشة مفاجئة لم تدر له بخاطر في هذيانه الطويل المتصل . رأى الفتاة - نفسها - جالسة على كرسى كبير وقد رفعت رأسها عن كتاب أو نحوه وتطلعت الى القادم بعينين متسائلتين . وثبتت عيناه عليها في جمود ذاهل وقد صدع صدره من الأعماق احساس بالخزي أذابه ذوبانا . ثم ادرك انه حيال موقف لو استسلم فيه لضعفه لباء بخزي جديد فاق ما تعرض له من ألوان الإهانة ، فاستمد قوة جديدة من خوفه مصمما على الخروج من ورطته بكرامة واستهانة . وأفاده التصميم فتمالك نفسه ، وحنى رأسه باحترام وقال مبتسما في لطف :

- مساء الخير يا آنسة . معذرة عن ازعاجي غير المقصود لك . هل أستطيع أن أقابل البك ؟

ف قالت برق - وكان يسمع صوتها لأول مرة - دون أن يعثورها أدنى ارتباك :

- والذى معتكف اليوم لوعكة خفيفة .

وحنى رأسه مرة أخرى ، ولعله وجد ارتياحا الى هذا الخلاص الذى جاء من حيث لا ينتظر ، وقال وهو يهم بالذهاب :

— أستودعك الله ..

ودار على عقبه وسار خطوة ، خطوة أخرى . ثم توقف في تصميم مباغت . اختفى منطق السلام وحل محله غضب واستهتار وتلبسته الحال الغريبة التي دفعته من مصر الجديدة الى شبرا .
ودار حول نفسه مرة أخرى وواجه الفتاة في جراءة غير مبال بنظرتها المترفعة المتسائلة ثم قال بصوت أعلى مما يستدعى الموقف :

— معذرة ، يعز على أن أودع هذا البيت الوداع الأخير دون أن أعرب عن أفكاري ..
فظلت على تساؤلها الصامت دون أن تنبس بكلمة فاستطرد متسائلا :

— أظن بلغك أنني طلبت يدك ؟

فقالت وهي تفض بصرها :

— لم تجر العادة بأن يحدثني أحد من زوار أبي .

فقال فيما يشبه الدهشة :

— ظننتها عادة غير مستنكرة في الأوساط الراقية !

— ليس في جميع الأحوال .

فتمادى في الاستهانة قائلا :

— اسمح لي أن أتكلم رغم هذا ، أنني قصدت البك لحادثته

في الأمر نفسه لأنه نما الى أن طلبى عد وقاحة لا تفتقر ..

فقالت دون أن ترفع بصرها :

— يحسن بك أن تؤجل حديثك لحين لقاء البك ..

فقال وعيناه لا تتحولان عن وجهها :

— ولكن ما أسعدنى به الحظ من لقائك — وانت صاحبة

الشأن الأول — يحتم على أن أتكلم ، يهمنى أن أعرف رأيك ،

هل يعد طلبى وقاحة حقا ؟

فقالت بما ينم عن الضجر :

— ارجو ان تؤجل حديثك لحينه ..
ومع ان ضجرها كان شيئاً منتظراً الا انه آلمه وأحنقه فقال :
— ان الذى يسمى الى يد فتاة يتقدم عادة بخير ما فيه ولكن
يحدث احيانا لسوء الحظ الا يروا الا شر ما فيه ، كبعض مساوىء
تتعلق بأسرته مثلاً ..

فنهضت قائمة ، عابسة . وهى تقول :
— لا مفر من الذهاب .
واتجهت نحو مدخل البهو فلاحقها بصوت مرتفع قائلاً :
— كنت أود ان أسمع رأيك ، ولكن حسبى هذا ، انى
آسف ، وارجو ان ترفعى تحياتى الى البك ..
ودار على عقبه مسرعاً وهبط السلم ثم سار نحو الباب .
ومرت بخاطره مناظر متباعدة فى سرعة وتدفق . كموقفه مع بهية
فى بيتهم الجديد ، وحديث البرديسى فى الكازينو . وهذا الحديث
القريب « لست عاشقاً خائباً والحمد لله . كنت على وشك أن
أكونه ولكن الله سلم . بيد اننى رجل خائب وهذا أفظع .
أحب ان أفكر طويلاً فى هذه الأمور المعقدة . انى أشعر بمرض
من نوع جديد ، أين الداء ؟ أين الخطأ ؟ أين العلاج ؟ » .
ولما خلاص الى الطريق كان مقتنعاً بأنه ارتكب سخافة
لا معنى لها ...

٨٦

قالت الام مبتسمة وان نمت نظرة عينيها عن أسى :
— من عجب انك ترمى بنفسك فى أمور خطيرة دون ان تأخذ
العدة لها . هبهم وافقوا على الزواج فماذا كنت تفعل ؟ ألم
تفكر فى هذا ؟ ألم نحدرك جميعاً من عواقبه ؟

كان قد مضى على حديث صاحبه البرديسى حوالى عشرة أيام ومع هذا لم تغب هذه المسألة عن أذهانهم ، وكانوا كلما جمعتهم جلسة فى الشرفة المطلة على الطريق فى أوقات العصارى ولاح فى وجهه الشرود أو التفكير انبرت الأم للحديث ترجو أن تبلغ به موضع التعزى من قلبه وانضمت اليها نفيسة مازجة الجد بالمزاح .
وقال حسنين فى ضجر :

— لا يبدو لى الغد خيراً من اليوم ..
فقالت نفيسة :

— كلام فارغ ..

وصدقت الأم على كلامها قائلة :

— وستبدى لك الأيام انه كلام فارغ ، وستتزوج من خير

منها . . .

وتساءل فى نفسه لماذا يبدو المتشائم الوحيد فى هذه الأسرة ؟ أهى أسرة بلهاء أم هو الأبله ؟ اليس الدور الذى يلعبه الشيطان فى هذه الدنيا أخطر من أدوار الملائكة مجتمعين ؟ بلى ، فلماذا لا يرونه كذلك !. ولقد أرسل الى حسين كتابا بآخر أنباء زواجه فماذا كان جوابه ؟ لم يكذ يزيده شيئاً عما تقول أمه أو اخته !. أماتوا وهم أحياء ؟ ألم تعد تستهويهم الحياة الرفيعة الشريفة ؟!

وقطع عليه أفكاره جرس الباب الخارجى الذى رن رنيناً متواصلاً ، ثم صوت الخادم وهى تصيح بحالة مزعجة بعد أن فتحت الباب « سيدى .. ستى » فهرع الى الصالة مستطلعاً تتبعه أمه واخته فرأى عند باب الشقة المفتوح رجلين غريبين يسندان ثالثاً بينهما ، جريحاً فيما يبدو من عصابة قدرة تطوق رأسه وتنز دماً ، وقد مال عنقه الى كتف أحد الرجلين . واقترب حسنين من القادمين مبهوراً منزعجاً لا يدرك شيئاً ولا يفهم شيئاً حتى صار على قيد خطوات منهم وعيناه لا تتحولان عما انحسرت عنه العصابة من وجه الجريح . بشرة شاحبة تشوبها زرقة تشير

من الأعماق ذكرى الموت ، وتعلوها فوضى مخيفة من شعر نابت
وآثار التهاب ، ولكن العينين المغمضتين رمشتا في اعياء فلاحتا
خلال اهدايهما نظرة واهنة غير غريبة سرعان ما انتقلت حركتها
الضعيفة الى ذاكرته وانفجرت بها كالقنبلة . وقبل أن يتحرك
لسانه جاء صوت أمه من الخلف مؤكدا ما انفجر في رأسه هاتفا
في نبرات يمزقها الخوف والاشفاق :

- حسن .. هذا حسن ..

فصاح حسنين مرددا قول أمه في ذهول :

- حسن ..

وهنا قال الرجل الذى يسند عنقه بكتفه ويشترك مع الآخر
في حمله :

- يجب أن نليمه فى الحال ..

وتقدم الشاب فى ذهول منهم وانحنى فوق قدمى أخيه وبسط
ذراعيه تحت ساقيه ورفعهما فى رفق وساروا معا متعاونين فى
حملة الى حجرة نومه ، وأناموه على الفراش الوحيد فى البيت ،
ثم أسرع الرجلان بمغادرة الحجرة يتبعهما حسنين على حين
هرعت الأم ونفيسة نحو الفراش فى جزع لا يوصف . وفى الصالة
أشار الرجل الذى تكلم أول مرة - وكان يرتدى جلبابا وطاقية -
الى الآخر - الذى يتزيا بزي الأفندية - وقال :

- لا مؤاخذه ، هذا سائق التاكسى .

فأدرك حسنين أنه يلمح الى أجرة التاكسى فسار معهما
حتى السيارة وأعطى الرجل النقود وصرفه مستبقيا الآخر ،
ثم سأله فى اضطراب وجزع :

- ماذا حدث ؟

فقال الرجل :

- سى حسن أخى وصديقى ، ولعلك تعلم أنه كان هاربا من
وجه البوليس فانتهاز بعض أعدائه هذه الفرصة وتربصوا له فى

بعض الأماكن التي يقطعها مستخفيا وانقضوا عليه غدرا وسلبوه ماله ولاذوا بالفرار ، وقد تحامل المسكين على نفسه حتى بلغ مسكني ورجاني أن أذهب به إلى أهله فأخذنا التاكسي إلى عطفة نصر الله حيث أخبرنا الجيران أنكم انتقلتم إلى هذا البيت فجئنا من تونا .

وكان حسنين يصفى إلى الرجل في شبه ذهول ، ومع أن احساسات شتى تعاورت قلبه إلا أن احساس الخوف والقلق غلبها جميعا ، ولما انتهى الرجل من حكايته غمغم الشاب .
- شكرا لك يا سيدى على مروءتك ، هلا تفضلت بالبقاء ساعة حتى يستريح ..

ولكن الرجل رفع يده إلى رأسه شاكرا وقال :
- انى ذاهب فى الحال ، ولى كلمة قبل الذهاب وهى انه يجب الاسراع الى علاج الجرح الخطير ولكن حذار من استدعاء الاسعاف أو حمله الى القصر والا أدى الأمر الى التحقيق ثم الى البوليس .. !
وحياه الرجل ومضى الى حال سبيله ، فعاد الشاب الى الحجرة كمن يشق سبيله فى ظلمة حالكة والأرض تميد به . ووجد أخاه كما تركه راقدا وكأنه اطمأن الى الجو الجديد فأسلم الى غيبوبة تامة ، وانكبت عليه المراتان فى جزع باد ، ولما أحستا بالقادم تطلعتا اليه بنظرة استغاثة . ورنأ الى الراقد طويلا ثم تساءل بصوت غريب :
- ألم يتكلم ؟

فقالت الأم وهى تزدرد ريقها الجاف :
- غمغم كلمات لاتغنى شيئا ثم راح فى غيبوبة . اغشنا بدكتور .
ولكن الجريح حرك يده بجهد ، وبدا كأنه يستطيع أن يغالب غيبوبته عند الضرورة فقال بصوت باهت ضعيف تجرد من فحولته المهدودة :

- لا دكتور .. الدكتور .. يبلغ .. البوليس .
والقى عليه نظرة متفحصة فرأى العصابة المخضبة بالدم تخفى

رأسه وجبهته وجانبا من صفحتي وجهه فلا تبدو الا عيناه
المثقلتان بالاعياء والذبول وذقنه النابتة الشعر ، وقد فغر فما
تردد فيه انفاس ثقيلة محشرجة ، على حين تمزق رباط رقبته
وجيب الجاكتة وانتشرت خيوط الأزرار ، وراحت يمناه تنقبض
وتنبسط . ويثن بين آونة وأخرى . وقف حسنين حيال هذا
المنظر ذاهلا فتناسى مخاوفه وتركز شعوره في احساس عميق
بالآلم والاشفاق . نسي برهة كل شيء الا انه حيال أخيه الجريح ،
وانه ينبغي اتقاذه بأي ثمن . ثم جعلت تطفو من أعماقه مشاعر
خوف وقلق طالما طاردته في الأيام الأخيرة في هيئة نذر تتهدد
سمعته ومستقبله ، فانقبض قلبه ، وداخله ألم جارح لهذه
المشاعر ذاتها من ناحية ، ولتأنيب الضمير على احساسه بها في
مثل هذا الموقف من ناحية أخرى . وكأنه فزع الى الهرب من
باطنه بالكلام فقال مخاطبا الجريح برقة :

— دعنى احضر طبيبا . حياتك أهم من أى شيء آخر .

وقالت الأم ونفيسة برجاء معا :

— نعم يا حسن ، دعنا نحضر الطبيب .

ولكنه رفع جفنيه الثقيلتين وقال بنبراته المضغوطة المتعبة :

— كلا . لا تخافوا . هذه ضربة تافهة ..

ثم حاول ان يأخذ نفسا عميقا واستراح لحظة ، ثم استدرك
قائلا مغمض العينين :

— غدروا بى . الويل لهم . ان كان لى عمر فالويل لهم .

ولكن لا تستدعوا طبيبا . الطبيب يبلغ البوليس ..

فقال حسنين وكان لا يزال فريسة للنزاع الناشب من باطنه :

— لا بد من احضار طبيب . وليس عسيرا ان نقنعه بتكتم الخبر .

وتوسلت اليه الام قائلة :

— ارحمنى يا حسن واقبل هذا ..

فنفخ الرجل مغمغما في ضجر :

— ارحموني أنتم ودعوني في سلام ... أف .

وجعلت الأم تردد بصرها بينه وبين حسنين ولكن الشاب كان من العناء في بلوى . برح الخفاء وتبين حقيقة مشاعره ، فليس تألمه لأخيه بشيء يذكر الى جانب الخوف الذي يلقي عليه ظلا ثقيلا من شبحة الجاثم . « قضى علينا ، قلبى لا يكذبنى على الأقل في الشر ، قضى علينا في مصر الجديدة كما قضى علينا في شبرا وسيطاردنا البوليس جميعا كالمجرمين . أكاد أرى بعينى رأسى المحموم الضابط وهو يفتش الحجرات ويلقى القبض على المجرم الهارب . هل سدت منافذ الحياة ؟! . اتقول انه أخى ؟ أجل انه أخى ، ولكنها حياتى التى تتحطم تحت قدميه في طريقه الوعرة . أف ، لشد ماضاق صدرى ! . ثم سمع أمه وهى تهتف به فى يأس :

— أغثنى يا حسنين ! .. ألا ترى انه يموت بين أيدينا !

« كلا لن يموت ، أما أنا فانى أموت موتا بطيئا قاسيا . ان كرامتى تحتضر . وهبه مات حيث هو الآن فسيأتى طبيب للكشف عليه ثم يلحق به البوليس والنيابة ولن يكون لهم سبيل على الجثة ولكن ستفوق النتانة من البيت فى هيئة فضيحة رائعة ! » ثم حانت منه التفاتة الى أمه وكانت تردد بين الراقد وبينه نظرة حائرة زائغة فزعة ، ومع أنها كانت مطبقة الفم الا أنه سمع لنظرتها تلك صرخة مدوية تمزق نياط القلب . وعجب لنفسه فقد حقد عليها بادىء الأمر ثم خيل اليه أن ذكريات غامضة سريعة تطرق قلبه فى لمح البصر فتخاذل وضعف وعاد يركز بصره فى العصابة الملوثة بالدم ، واسترد قوة تفكيره فخطر له خاطر باهر تتم على أثره بلا وعى « كيف نسيت هذا ؟! » ثم قال مخاطبا أمه فى عجلة : — سأحضر طبيبا صديقا من مستشفى الجيش ، انتظري قليلا فلن أغيب طويلا .

وهرع الى بدلته فلبسها متعجلا وغادر البيت لا يلوى على

شئ ...

وقف حسنين مستنداً الى حافة النافذة يراقب الطبيب وهو مكب على عمله الدقيق وقد غادرت الأم والأخت الحجره ولبثتا وراء الباب المغلق يكاد يسمع تردد انفاسهما . كان عابسا شديداً التأثر . وتولاه الفرع . ثم اخذ يهدأ رويداً ، ويغيب في أعماق نفسه . وكان قد أخبر الطبيب لدى مقابلته أن اخاه أصيب بجرح في رأسه عقب معركة مع أحد افراد الأسرة ورجاه ان يسعفه مبدئياً له رغبته الحارة في تكتم الخبر حتى لا تخدش كرامة الأسرة بفضيحة عامة ! ومضى الطبيب معه في تحفظ ، ولما أجرى الكشف الابتدائي على رأس الجريح قال :

— كسر عميق ، الى ما استنزف من دم غزير . لا أدري ماوجه الحكمة في عدم ابلاغ البوليس ؟!

فقال حسنين بتوسل :

— فلنتحاش هذا بأى ثمن !

فقال الطبيب وهو يتهيا للعمل :

— الظاهر أنك لا تدرك خطورة الأمر !.. وعلى أى فلنؤجل

هذا الى حينه !

وتركه طوال العملية الجراحية غير مستقر ولا مطمئن ، بل قضى حديثه الأخير على نوازع عطف كانت تتحرك في أعماقه . كان في ذهابه الى المستشفى وعودته بالطبيب مجال حسن هيا له جوا طيبا تنمو فيه احساسات العطف وتركو فنزعت به الذكريات الى الأيام الخوالي التي كان حسن فيها المرفه الوحيد عن بأسائهم ، واليد المبسوطة التي تجود فتحقق لهم الآمال . ولكن سرعان ما استثار القلق الخوف فتحجر قلبه ونضب معين العطف ولم

يعد يرى في الرجل الجريح الا نذير الشر الذي يتهدد سمعته
ومستقبله . ها هو يرقد في غيبوبة شاملة لا يشعر بالأسلحة
الدقيقة التي تعبت بلحمه وعظمه ، وهكذا كانت حياته دائما جرحا
عميقا يتلى سواء بالآمه ، اما هو فلم يفق من غيبوبته قط . او
لم يشأ ان يفيق منها . ألم يضرع اليه بالدموع ان يغير حياته ؟
بلى ، وكان جزاؤه السخرية الأليمة ، فلو انه مات في أرض بعيدة!
ثم ثبت عينيه على الوجه الذي أخذ يختفى تحت الأربطة
فسرت في جسده رعدة ، وامتلأ بأسا وانقباضا وأخيرا سمع
الطبيب يخاطبه قائلا :

- انتهيت من الممكن عمله الآن ، هلم معى الى الخارج . .
وانتظر حتى غسل الرجل يديه وارتدى جاكته ثم سار بين
يديه الى حجرة الاستقبال ولم يجلس الرجل وبدأ متفكرا ، ثم
قال بهدوء غير منتظر :

- لا أظن الحال خطيرة جدا ولكنه سيحتاج الى علاج طويل .
يا له من اعتداء وحشى ، لماذا لا تبلغ البوليس ؟
فقال حسنين بجزع وان رده قول الطبيب الى بعض رشاده :
- انى أتفادى من الفضيحة ، ومهما يكن من امر فنحن أسرة
واحدة ! . . .

فهر الطبيب رأسه فيما يشبه التذمر ثم قال بشيء من الحزم :
- سأعود لرؤيته صباحا فاذا وجدته على ما يرام فيها والا
فسأجدنى مضطرا للتبليغ .
وساوره القلق فقال برجاء وكأنه يخاطب نفسه :
- أرجو ألا يحدث هذا .

ثم خاطب الطبيب قائلا :
- انى أشكر لك ما تجشمت من جهد وتعب .
واتجه الرجل الى الخارج فوصله الى الباب الخارجى وهو يشد

على يده بامتنان ، ولم يشأ الطبيب أن يذهب قبل أن يكرر على مسمعه قائلا في توكيد :

— سأعود صباحا ..

ووقف يتابعه بناظريه وهو يستقل سيارته حتى انطلقت به مزمجرة في طريقها فتنهد كأنه يزيج ثقلا لا يترشح ثم عاد الى الحجرة ينقل خطواته في كآبة ، وما كاد يلج الباب حتى هزعت اليه أمه وسألته في لهفة وجزع :

— ماذا قال الطبيب ؟

وكره لهفتها وجزعها من أعماق صدره ولكنه لم يجد بدا من أن يقول في هدوء :

— انه مطمئن الى الحالة وسيعود صباحا . كيف حاله الآن ؟
فقالت نفيسة :

— لم يفق بعد .

وارتمى على الكرسي الوحيد بالحجرة وأغمض عينيه « أنا الجريح حقا . انه ينام نوما عميقا في غيبوبة سعيدة فمن لى بمثل هذه الغيبوبة . لا اظن الحال خطيرة جدا ، هكذا يقول الطبيب الغافل . كلا انها خطيرة جدا ، وابلاله أخطر من موته . اذا ساءت الحال أبلغ الخبر الى البوليس ، واذا تحسنت جثم على صدرى حتى يبلغ أعداؤه البوليس عنه ، فالفضيحة آتية لا ريب فيها .. أين المهرب من هذه الآلام جميعا . انى أمقت هذا الجريح وأمقت نفسى وأمقت الحياة جميعا . أما من حياة غير هذه الحياة ومخلوقات غير هذه المخلوقات ؟ .. » والظاهر أن افكاره انعكست على صفحة وجهه فتقبضت أساريره في امتعاض وألم ، ولاحت من أمه التفاتة اليه فاشتد بها التأثير وقالت له برقة :

— هون عليك ، أخوك بخير ، والله حافظه وحافظنا ..

وفتح عينيه في دهشة ، ورمقها بنظرة غريبة دون أن ينبس بكلمة ...

وجاء الطبيب في صباح اليوم الثانى ثم غادر البيت معلنا
اطمئنانه ، وبذلك نجا حسنين من الخطر القريب الداهم ليفرغ
لقلق متصل وعذاب بطيء وأوهام لا تفارقه ليلا ولا نهارا .
وانقضت أيام والأسرة فى هدوء نسبي ، ومضى الرجل الجريح يفيق
ويسترد حيويته شيئا فشيئا ، وبعودته الى الحياة ساورتها أفكار
قديمة لم تلبث عدواها أن سرت الى النفوس المحيطة به . وقد
ابتسم فى بادئ الأمر ابتسامة حزينة يشوبها تسليم لم تألفه
طبيعته وقال كالمعتذر :

— اتعبتكم كثيرا ، والظاهر أن الله لم يخلقنى الا للتعب ..
فليسأخنى الله !

والتمعت فيما حوله بسمات المجاملة والتودد فلم ينخدع بها ،
أو لم ينخدع بها جميعا ، فمالت عيناه نحو حسنين وقال :
— لا شك فى أنك غاضب ولعلك تود أن تذكرنى بمواعظك
السالفة !...

فغمغم الشاب قائلا :

— لا أود الا سلامتك ...

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة ، ثم ما عثم أن تجهم وجهه ،
وتكألت عليه الأفكار ، فقال فى لهجة مضطربة غير التى تكلم بها
أول الأمر :

— سلبونى نقودى ، الويل لهم ، كنت عازما على الهرب ،
ولا بد من الهرب .

وتحسس رأسه بيده وأغمض عينيه ، ثم تمتم وكأنه يحدث
نفسه :

— ماذا فعل الله بسناء؟.. هل يكفون عنها؟.. لن تستسلم
لعدو من أعدائي ، ولكنها لن تستطيع الهرب معي ، فات الوقت
وفقدنا نفودنا ...

وانصت حسنين صامتا ، جافلا من ملاقة هذا الهذيان بغير
الصمت ، واختلس من أمه وشقيقته نظرة فوجدهما تتبادلان
نظرة حائرة ثم عاد حسن يقول في نبراته المضطربة :

— يجب أن اختفى . ان الصديق الذي حملنى الى هنا رجل
مخلص ولكنه أجهل من أن يحفظ سرا ، وليس أحب اليه من أن
يروى قصة مروءته لرفيقتة ، فتنقلها هذه لجارتها ، حتى تبلغ
أحدا ممن يتربصون بى ، فلا ندرى الا والبوليس يقتحم علينا
البيت .

وتنهذ حسنين فى يأس ، وحانت منه التفاتة صوب أمه فالتقت
عيناهما لحظة قصيرة قبل أن تغض بصرها ، وامتلا حنقا فخاطبها
فى سره ... لماذا أتيت بنا الى الدنيا؟... لماذا اقترفت هذا
الجرم الشنيع؟.. ثم سمع أخاه يهتف بعنف :

— يجب أن اختفى . سأغادر البيت حالا أقدر على المشى ،
وربما غادرت القطر كله ...

واستروح حسنين نسمة باردة كالأمل لأول مرة مذ جاء
الرجل محمولا كالقضاء والقدر . « هل يمكن أن يحدث هذا قبل أن
تقع الواقعة!.. هل يختفى حقا فلا تقع عليه عين ولا يعرف له
أثر؟!.. فليتقدم حيث هو ، يجب أن أحيى حياة مطمئنة ! »
ثم مر يوم ويوم ويوم حتى غدا جو البيت على كآبته معهودا
مألوفاً ، فلامس حسن الشفاء أو كاد وأخذ يفكر جديا فى مغادرة
البيت ثم فى الهرب من الوطن كله ويرسم لذلك الخطط فى صمت
وتفكير متواصل ، ولم تعد نفيسة تلزم نفسها القبوع فى البيت
فعادت الى زيارتها التى لم تكن تنقطع يوما : وكذلك عاود حسنين
حياته العادية ما بين عمله وبيته والنادى ولكن رأسه لم يتوقف

من التفكير في أخيه والخطر الذي يتهدد سمعتهم بسبب اقامته
بنهم - وقد دار حديث بينه وبين أمه مرة حول هذه النقطة
الحساسة فقال لها بعد اشفاق وتردد :

- اذا كان البوليس لم يهتد الى محل اقامته حتى الآن
بمعجزة من الله لا يمكن أن تستمر طويلا ...

ونظرت اليه المرأة نظرة غريبة احتار في تفسيرها بادىء الامر.
هي عتاب صامت ، أم تسليم بالقضاء من العجز عن ملاقاته ، أم
استنكار يداريه الخوف من الافصاح ، كل أولئك بدا راجحا حينما
ولا أن برح الخفاء فهتكته دمعة ترقرت في محجريها في بطاء كالحياء
في تردد هو العذاب ، هنالك ملأه الانزعاج لأنه لم يكذ يذكر أن
أى أمه باكية على كثرة المحن والملمات ، وتراجع فيما يشبه الفرار
صور من حزمها وعزمها تنثال على مخيلته في دهشة وألم ، فكأنه
شهد احتضار أسد هصور . على أنه حين خلا الى نفسه تناسى
لام الآخرين وانفرد بآلامه هو ومخاوفه ، فاشتد به الاستياء
الحق ، ولعن نفسه وأمه معا ...

وفي عصر اليوم التالي مباشرة أرادت هذه المخاوف أن تخطو
خطوة جديدة . كان يجلس وأمه وأخوه على الفراش يتجاذبون
الحديث ، وكانت نفيسة في الخارج . ورن جرس الباب فجأة
ذهبت الخادم لتفتح ، ثم عادت في ارتباك ظاهر وقالت للشباب :
- سيدى ، عسكرى بوليس يرغب في مقابلتك ...

تناثرت نفوسهم كالشظايا : فوثب حسنين قائماً وهو يحدق في وجه الخادم ، ورمى حسن بقدمه من على الفراش الى ارض الحجرة وهو ينظر الى النافذة في عبوس متمتما « الهرب ! » ، على حين رددت الأم بينهما عينين زائفتين وكان حلقها من الجفاف بحيث لم يسمح لكلمة بالخروج . وجمد حسنين في مكانه في دقيقة . ثم استسحف جموده فهز منكبيه في يأس وغادر الحجرة الى الباب الخارجى حيث يوجد الشرطى واقفا وتبادلا تحية آلية ثم سأله الشاب في استسلام :

— أفندم ؟!

فقال الرجل بصوت أجش :

— هل حضرتك الضابط حسنين كامل على ؟

— نعم ...

— حضرة ضابط نقطة السكاكىنى يرغب فى مقابلتك فى الحال .

ونظر حسنين فيما وراء الرجل حتى الطريق فلم ير غيره ممن كان يتوقع رؤيتهم ، وداخله شىء من الطمأنينة ، ولكنه تساءل فى حيرة :

— ماذا يريد حضرته ؟

— امرنى ان أبلغك رغبته دون ان يزيد ...

وتردد الشاب قليلا ثم استطرد ريشما يرتدى ملبسه وعاد الى الحجرة ، ووجد أخاه وراء بابها يتصنت فما ان رآه حتى سأله فى لهفة « هل جاءوا ؟ » ، وكررت الأم السؤال فى صوت مريض ، فأعاد على مسمعيها ما دار بينه وبين الشرطى وهو يرتدى ملبسه ، وما كاد ينتهى حتى قال حسن :

— لعل الضابط من معارفك فأراد أن ينبهك قبل أن يكبس البيت . هذا واضح . اصغ الى : اذا سألك عنى فقل له انك لم ترنى منذ أعوام . لا تتردد ولا تخش عاقبة الكذب فلن يقفوا لى على اثر . سأختفى عقب ذهابك مباشرة فقلها ولا تخف وربنا معكم ..

فتساءل حسنين وهو يخفى عنه عينيه حتى لا يقرأ فيهما ما تنفس فى أعماقه من أمل جديد :

— وهل لديك من القوة ما يعينك على الهرب ؟

فقال حسن وهو يجذب بدلته من على المشجب :

— انى على خير عافية .. مع سلامة الله .

وغادر حسنين الشقة ومضى فى صحبة الشرطى ، وكان أول ما بدا له أن يسأله عن اسم الضابط لعله يكون حقا من معارفه ولكن الشرطى ذكر له اسما غريبا لم يسمع به من قبل فعاودته الحيرة . وبدا له الأمر شديد التعقيد . بيد أن عزم حسن على الاختفاء بث فى نفسه طمأنينة لا حد لها . وبلغا نقطة البوليس قبل المغرب بقليل ، وقاده الشرطى الى حجرة الضابط ثم أدى التحية قائلا :

— حضرة الملازم حسنين كامل على .

كان الضابط جالسا الى مكتبه ، وعلى بعد ذراع من المكتب وقف رجلان وامرأة من أهل البلد تلوح فى وجوههم آثار معركة حديثة العهد ، ولكن الرجل نهض لاستقبال حسنين ومد له يده وهو يقول « اهلا وسهلا » ثم امر الشرطى باخلاء الحجرة واغلاق الباب . وطلب الى الشاب أن يجلس على كرسي أمام المكتب فجلس وهو يقول لنفسه « ترى ما معنى هذا كله ؟ .. ترحاب ومجاملة ثم ماذا ؟! » ..

وخرج الضابط من مجلسه ووقف فى مواجهته مستندا بينماه الى حافة المكتب ، وجعل يتفحصه بنظرة غريبة تلوح فيها حيرة

من لا يدرى كيف يبدأ حديثه أو من يجد فى ذلك قدرا من الصعوبة لا يخفى . وشعر بفترة السكوت على قصرها غليظة لا تحتمل ، واشتد به احساس كربه استحوذ عليه منذ اللحظة التى وطأت قدماه فيها أرض نقطة البوليس . احساس بالرهبة والقلق والضيق « ضابط مهذب يتخرج من القاء التهمة فى وجهى . هذا غريب فى ذاته ، تكلم وأرحنى فطالما تراءى لخيالى كابوس هذه اللحظة . انى أعلم سلفا ما تريد قوله . تكلم . . »
وتفد صبره فقال :

— دعانى الشرطى لمقابلة حضرتك ؟

فقال الضابط :

— انى آسف لازعاجك . كنت أود أن القاك فى ظرف خير من هذا ، ولكنك ادرى بما يتطلبه الواجب أحيانا .
وزفر حسنين آخر نسمة من أمل ضعيف فى السلامة وقال فى وجوم :

— انى اشكر لك كرم اخلاقك . وها أنا مصغ اليك . .

فقال الضابط باهتمام ورقة معا :

— أرجو أن تتلقى ما سأقول بشجاعة ، وأن تسلك سلوكا جديرا بضابط يقدر القانون . .

فقال الشاب وهو يعانى ما يشبه الهزال والخور :

— هذا طبيعى جدا .

فعض الضابط على أسنانه كما بدا من تقبض صدغيه ثم قال باقتضاب :

— الأمر يتعلق بأختك . .

ورفع حسنين حاجبيه فى استنكار ثم قال :

— تعنى أختى ؟

— الست أختك ، ولكن معذرة أحب أن أسألك أولا هل لك

أخت تدعى نفيسة ؟

فقال حسنين في ذهول :

- نعم . هل وقع لها حادث ؟

فعض الرجل طرفه وهو يقول :

- يؤسفنى أن أخبرك بأنها ضبطت فى بيت بالسكاكينى ..

وفزع حسنين واقفا ، متصاب الجسم ، مصفر الوجه
محملا فى وجه محدثه ، وهو يلهث قائلا :

- ماذا تقول ؟

فربت الرجل على كتفه متأثرا وقال :

- ادع كل قوة فى نفسك كى تضبط اعصابك . الموقف

يستلزم الحكمة لا الغضب . أرجو أن تساعدنى على القيام
بواجبى ولا تجعلنى أندم على ما اتخذت من اجراءات راعيت
فيها المحافظة على كرامتك قبل كل شئ .

انصت اليه وهو لا يزال يحملق فى وجهه ، تمتلىء عيناه
بوجهه تارة فلا يرى سواه ، ويغيب عنهما اخرى فيسمع
الصوت ولا يرى شيئا ، وثالثة لا يرى الا شفتين تنطبقان
وتنفرجان فينشال من بينهما كلام هو الفزع واليأس والغرابة ،
وبين هذا وذاك ترمش عيناه فى حركة عصبية فتلتقطان منظرا
غريبا هنا وهناك ، بندقية مثبتة فى جدار أو صفا من البنادق
أو محبرة ، وربما امتلا أنفه برائحة دخان محبوس أو رائحة
جلود غريبة ، ثم ينحل وعيه ويتراجع فجأة الى ذكرى بعيدة
لا صلة لها بالحاضر فيلوح لذاكرته منظر عطفة نصر الله وهو
صبى يلعب حسين البلى « ضبطت فى بيت ! أى بيت ؟! . ان
أحدنا فاقد العقل ولا شك ولكن من هو ؟ . ينبغى أن أتحقق من
أنى عاقل أولا .. » وتنهد فى وهن ، ثم سأله فى استسلام :
- ماذا تقول يا سيدى ؟

- يوجد فى هذا الحى بيت تستأجره ست رومية وتؤجر

حجراته بالساعة للعشاق . كبسنا البيت عصر اليوم فوجدنا

الست .. وجدناها مع شاب ، واعتقلناها طبعاً وشرعت فى اتخاذ
الاجراءات القاسية التى تعرفها فاضطرت تحت تأثير الخوف
ان تعترف لى بأنها شقيقة ضابط على أمل ان أطلق سراحها ..
- أختى أنا ؟ .. أنت متأكد ؟ .. دعنى أراها ..

- اضبط نفسك ، أرجوك ، لو كنت متأكداً من أنها أختك
لأطلقت سراحها . ولكنى خفت ان يكون اعترافها خدعة ، قد
عرضت المسألة على المأمور فوافق على وقف الاجراءات على
شرط التأكد من صدق قولها ..

ومن عجب انه لم يعد يداخله أدنى شك فى حقيقة الواقعة
فسرعان ما آمن بها قلبه المتشائم ، ووجد فى فظاعتها ترجيعاً
لأصدقاء خوف قديم طالما ناولش قلبه وعذبه . أجل لم تخلق
هذه الواقعة الا لحظه ولأسرته ، انه يعلم هذا علماً لا يتطرق
اليه الشك . أهذه هى نهاية المطاف ؟! ثم غلبه ذهول شعر معه
بأنه أثر من آثار ماضٍ منطو انقطعت صلته بالحاضر فضلاً عن
المستقبل ، كان ، هذا هو ، ولكنه لا يكون ولن يكون . ثم انبعثت
منه لهفة على النهاية فقال بصوت ميت :

- أين هى ؟ .. دعنى أراها من فضلك ..

فأشار الضابط الى باب مغلق وقال :

- تركناها فى هذه الحجرة لأنه اغمى عليها حين علمت بانى
أرسلت فى طلبك بدل أن أطلق سراحها . اسلك سلوك رجل يحترم
القانون واذكر أنى مسئول عن الأرواح . انك رجل محترم ومهذب
فعالج الأمر بالحكمة . لا يصح ان يعلم احد ممن فى النقطة شيئاً
ولكن هذا يتوقف على سلوكك أنت ، تذكر هذا جيداً ...
فكرر قوله بنفس الصوت الميت :

- دعنى أراها من فضلك ..

ومضى الضابط الى الباب المغلق متثاقلاً وفتحته ، واقترب
حسنيين منه كمن يمشى فى حلم ، وألقى بنظره من فوق كتفه كمن

ينظر ليتعرف على جثة في المشرحة ، فرأى لصق الجدار المواجه
للباب أريكة ارتمت عليها فتاة قد ألقت برأسها الى الحائط ،
عينها نصف مفتوحتين ولكنهما مظلمتان لا تريان شيئاً ميتة
أو مغمى عليها أو لعلها في ذهول الافاقة الأول ، وقد التصقت
بجبهتها شعيرات مبتلة وعلت بشرتها صفرة الموت . لكنها
نفيسة دون غيرها . « قلبى لا يكذبنى فى المصائب أبداً لو كانت
ميتة لادعيت انى لا أعرفها بلا تردد » ولم تبد حراكا كأنها
لم تحس للقادمين وجودا ، أو أنها لم تستطع أن تبدى حراكا .
ونظر الضابط صوبه متسائلاً ولكن عينيه لم تتحولا عنها ، جمد
بصره وتحجر وغشيه ذهول وجد فيه مهرباً مؤقتاً مما كان ومما
سيكون وخيم عليهم سكون الموت ، وانقضت فترة طويلة
أو قصيرة - ثم شق الصمت صوت باطنى يصرخ فى اذنه
« انتهى .. » ، وتخيلت لعينيه صورة أمه كما رآها منذ
ساعة واقفة بينه وبين حسن فى حيرة يائسة والرجل يتوثب
للفرار . ود تلك اللحظة لو يقتحم تجارب الكفر والقسوة والموت .
« ماذا ينتظر الضابط أن أفعل ؟ .. ماذا ينبغى أن أفعل ؟ رباه
كيف أغادر هذا المكان ؟! » .. ثم سمع الرجل يقول :

- لقد قدمت ما عندى من واجب نحوك فهات ما عندك من
حكمة . . .

فسأله بدوره وهو يتحامى عينيه :

- أين الآخر ؟!

وأدرك الضابط ما يعنيه فقال بلهجة لا تخلو من حزم :

- طبقت عليه الاجراءات وأطلق سراحه ..

فغمغم قائلاً :

- لنترك هذا المكان شاكرين ..

في الخارج لفحه هواء بارد وكان الظلام قد خيم فابتعد عن نقطة البوليس في خطوات ثقيلة تتبعه هي على بعد ذراع منكسة الوجه . سارا مع قضبان الترام ولم يكن يدري أين ينتهي به المسير لانه لم يسبق له المجيء لهذا الحى ، ومع ان الليل كان في اوله الا ان الطريق بدا مقفرا ، وتساءل في نفسه ترى أين ينتهى الطريق ؟.. ثم بدا له تساؤله آية في الغرابة ، فلم يكن المهم ان يعرف أين ينتهى الطريق ولكن الجدير بالمعرفة حقا ان يعلم ما هو صانع « بها » . كان يحسب انه سيبدأ بالتنفيذ توا بعد خروجه من النقطة . وكانت هي تتوقع هذا ، ولكن أقدامهما تقدمت بهما دون أن يفعل شيئا ، وكان يشعر بوجودها وراءه في ضيق لا يحتمل ، ويسمع وقع قدميها كالرصاص في ظهره ، ويمحو أول فأول آية رغبة في أن ينظر الى الخلف ، ومع انه بدا في صمته - ذلك الصمت الهائل الذى وقف حائلا بينهما - وكأنه يفكر تفكيرا متواصلا الا انه في الحقيقة كان افارغ الرأس . كان فارغ الرأس بحال مزعجة ، لم يردّها ارادة ، ولكنها فرضت عليه قسرا وبثت في نفسه احساسا بالقلق ، احساس من يتلف على السيطرة على ارادته سيطرة غاشمة فلا يجد الى ذلك سبيلا . واصطدمت قدمه بحجر صغير اعترض سبيله فانطلقت في صدره شرارة حنق . وكأنها جذبت اليها افكاره الهاربة في الظلام ، وسرعان ما وجد نفسه يتساءل في صمت أيخفقها ؟.. أيحطم رأسها بحذائه ؟.. لا بد لصدره من متنفس . وظل الصمت الجهنمي سائدا . وبينما كان يجمع عزمه لرحلة هذا

الصمت تطوعت هي - وهو ما عجب له - لرحلته . فسمعها
تغمغم في نبرات مرتعشة متهدجة قائلة :
- لقد أجزمت . انى أعلم هذا .. ولن أسألك غفرا
لست جديرة به .

هل حقا واتتها قواها على الكلام !.. يا للشيطان !.. وأحدث
صوتها - على ضعفه - زوبعة من الهياج في صدره ، زوبعة عمياء
طاغية صبت الغضب في أطرافه صبا فتوقف عن السير والتفت
نحوها في سرعة غريبة وارتفع ذراعه في الهواء وهوى على وجهها
كالقذيفة فتراجعت مترنحة دون أن تنبسر ثم سقطت على ظهرها
واصطدم مؤخر رأسها بالأرض . لم تنبس بكلمة ولا ند عنها أى
صوت ، ولكنها جلست على الأرض بسرعة ثم لمت نفسها ووقفت
وأخذت في التراجع حتى ارتكنت الى جدار بيت . واقترب منها
فتراءى لعينيها تصميمه رغم الظلمة التي تظل وجهه فلوحت له
بيدها كأنها تسأله أن يقف ثم اندفعت قائلة في عجلة وتوسل :
- قف ، لا تفعل ، لست أخاف على نفسى ولكنى أخاف
عليك ، لا أريد أن يمسك سوء بسببى ..

وزادته رقة كلامها هياجا على هياج فصاح بها بصوت الخوار :
- لا تريد أن يمسنى سوء بسببك ؟!.. يا عاهرة لقد
صبيت سوء على صبا ..
فأعادت بتوسل حار :

- ولكنى لا أطيق أن يسيئوا اليك ولو كان السبب هلاكى ..
- هذا مكر حقير لن ينفعك فى انقاذ حياتك الحقيرة ، هيهات ،
لن ينالنى سوء بقتلك ..
فهمت في حرارة :

- لا ينبغي أن يمسك عقاب وان هان ، ثم بماذا تجيب اذا
سئلت عما دفعك الى قتلى ؟!.. دعنى أقم أنا بهذه المهمة فلا يكدر
مكدر ولا يدرى أحد ..

فتساءل فيما يشبه الذهول :

— تقتلين نفسك ؟!

فقالت وهي تلهث :

— نعم ..

شعر فجأة — وقبل ان يتمالك نفسه — بأن حملا ثقيلا
ترحزح عن عاتقه وهوى بعيدا . كان مدفوعا بغضب مستعر
واحساس معذب بالواجب ولكن العواقب — كذبوع الفضيحة
والعقاب — ما فتئت تتخايل لعينيه ، فالآن بعد هذا الحكم الذى
قضت به على نفسها يسعه أن يسترد أنفاسه وان يستبين
بصيصا من النور فى هذه الظلمة الخائقة . وغمغم متسائلا وهو
لا يزال مستغرقا فى أفكاره :

— كيف ؟

فقالت وهي تزدد ريقها :

— بأى وسيلة كانت .

فتفكر قليلا متجهم الوجه ثم قال وهو يرمقها بقسوة :

— النيل ..

فقالت بهدوء :

— ليكن ..

فنفخ حنقا وضيقا ثم تراجع فى تشاقل وهو يغمغم « هلمى »
ففادرت الجدار وتقدمت فى خطو ثقيل ، ثم دار حول نفسه
وواصل السير فتبعته كما كانا . أحس هذه المرة شيئا من
الطمأنينة ولكن غضبه فقد عنصرا كأن يعتز به وهو لا يدري ،
فقد شعورا بالكرامة كان يلازمه وهو مصمم على قتلها بنفسه ،
فاستحال من شخص يندفع وراء الكرامة الى آخر ينشد السلامة .
وغص حينما يقهر خائق ، ولكنه لم يكن من القوة بحيث يعدل به
عما تراءى له من سبيل النجاة ، ولم يكن من الضعف بحيث
يتركه فى سلام ، ونفس عن صدره قائلا فى خشونة :

- كيف فعلت هذا؟! أنت؟!.. من كان يتصور هذا !
فتنهدت قائلة فى استسلام اليأس :
— أمر ربنا ..
فصاح مزمجرا :
— بل أمر الشيطان .
فقلت بنفس الصوت المتنهد :
— نعم ...
فتردد لحظة ثم تساءل :
— من هو ؟
فسرت فى جسدها رعدة وقالت بذل :
— لا تعذب نفسك ولا تعذبنى ، سينتهى كل شىء فى لحظات .
— أكان يعرفنى ؟
فقلت بعجلة وتوكيد :
— كلا ..
فتردد مرة أخرى وقد تضاعف عذابه ثم تساءل :
— أول مرة ؟!
فعاودتها الرعدة بيد أنها قالت بتوكيد أيضا :
— نعم ..
فضرب الأرض بقدمه وصاح بها :
— كيف استسلمت للغواية ؟
فغمغمت فى عذاب صامت :
— أمر الشيطان .
— أنت الشيطان .. لقد قضيت علينا ..
فهتفت فى رجاء :
— كلا .. كلا .. سينتهى كل شىء الآن ولن يدري أحد ..
— أتعنين ما تقولين ؟
— طبعاً ..

— واذا ساورك خوف !

— كلا . ان ما ورائى فى الحياة أقطع من الموت ..

— وعادا الى الصمت وكلاهما يشعر بجهد ونصب ، ومضى يمد البصر مع قضبان الترام فى حيرة ، ثم سألها بلهجة ساخرة :
— الى أين نحن ذاهبان . فلعلك ادرى بهذا الحى منى ؟

ولم تجب . ولكن تقبضت اساريرها من الألم . ثم لاح لهما ميدان الظاهر فترأت لعينيهما آثار الحياة والعمران وترامت لأذنيهما اصوات الأحياء ، وجعل ينظر فى قلق حتى ثبتت عيناه على صف من التاكسيات فمضى الى مقدمها وفتح لها الباب فدخلت ثم دخل ورائها . وفكر قليلا والسائق ينتظر أوامره ، ثم قال له بصوت منخفض :

— جسر الزمالك من فضلك ..

٩١

انطلقت السيارة بسرعة الى شارع فاروق فى طريقها الى العتبة ثم الى امبابة .

كانا يجلسان كغريبين ، أما هو فقد ألقى ببصره الى الطريق خلال النافذة موليا اياها نصف ظهره وأما هى فقد خفضت رأسها وغابت فى ذهول عميق . لم يكن فى رأسها شىء ، أو شىء ذو بال ، كأنه السكون الذى يعقب عاصفة هوجاء أو جمود الموت بعد نزع أليم . وقد بلغ بها الهياج ذروة الجنون قبل أن تسقط مغمى عليها وبعودتها الى الوعى تكالبت عليها الأفكار المفرعة ، واستعرضت عيناها شريط حياتها فى رعب جهنمى حتى أثقلت الهموم رأسها فانحنى على صدرها كما ينحنى رأس من سدت فى وجهه منافذ الحياة تحت جدار منهار . وبعد ما كان من

الإنهيار الكامل وظهور حسنين . وما كان بينهما فى الطريق ، شعرت بأن كل شىء قد انتهى ، وأخلى الهول مكانه من رأسها ، تاركا وراءه فراغا صامتا ، فلم يعد به شىء ، أو شىء ذو بال إلا أن تكون ذكرى بعيدة من ذكريات الصبا أو منظر مما ينعكس على عينيها من أرض السيارة . بيد أنها كانت تكابد تجربة جديدة لا عهد لها بها من قبل . إذ هانت عليها الحياة حقا ، بالفعل لا بالقول ، هانت الهوان الذى يجعل من الموت نجاة . أجل طالما تدمرت فيما مضى من حياتها وسخطت ، حتى تمت الموت أحيانا ، ولكنها لم تسع إليه مع ذلك لأنه كان ثمة أمل فى الحياة يدب متواريا فى أعماقها ، الآن تقطعت بها عن الدنيا الأسباب ، واقتلعت الجذور التى تشدها للبقاء . ووجدت مع هذا اليأس العميق راحة زحزحت عن كاهلها الأعباء . فلم تعد تفكر فى شىء ذى بال ، ورمقت الموت الذى تنهب الأرض إليه باستسلام كأنه التخدير . وقد دارت السيارة حول منعطف وهى منطلقة فى سرعتها فارتجت الفتاة فى مجلسها وتنبهت الى ماحولها فيما يشبه الفرع ، ومع أنها ظلت منكسة الرأس إلا أنها أحست بوجوده الى جانبها وتراءى شبحه الجاثم عن يمينها للحظها فى غموض فتقبض قلبها الما وخزيا « ترى فيم يفكر ؟ .. إلا يجد غير البغض والغضب ؟ متى يمسى كل شىء وقد انقضى ؟ .. هذه هى النهاية الوحيدة . ترى هل تحدثس أسمى الحقيقة ؟ .. لا داعى للتفكير . انى ميتة » .

ولبت حسنين مضطربا متوتر الأعصاب يتجاذبه الغضب واليأس والرغبة . « كيف تنتهى هذه المحنة ؟ ، وكيف أخرج منها ؟ .. أيمكن حقا أن يسدل عليها الستار دون أن تفوح منها رائحة حرية بأن تجعل من هذا العناء كله عبثا لا طائل تحته ؟ انى أختلق . أن الماضى لا ينمحي ولكنه يسابق مستقبلى . لماذا لا نعيش بلا مبالاة ؟ . قضى الأمر ولا داعى للتفكير فى هذا . لا داعى للتفكير مطلقا . ما أشد عذابى ، كيف اتغلب على هذه التعاسة

كلها !. مهلا ، انى اسوقها الى الموت . وهى تعلم أنها تساق الى الموت ، ترى هل تواتيها القدرة ؟. لا شك أنها تفكر الآن تفكيرا متواصلا ، ولكن فيم تفكر ؟. لا ينبغي أن أفكر فيها . الموت خير نهاية لها . لا يمكن أن تلتقى عينانا فهو فوق ما أحتمل وفوق ما تحتمل هى . الأمر يتعلق بأختك ، آه قاتل الله هذا الضابط ، يوسفنى ان أخبرك أنها ضبطت فى بيت بالسكاكينى ، من يتصور هذا !. وليس الموت بنهاية ولكنه بداية لتعاسة أخرى تنتظرنى فى البيت . حتى متى أواصل هذا التفكير ؟ أية مدخنة هذه ؟ لعله مصنع ، نحن نقرب من جسر أبى العلاء ، هذه المدخنة تنفث دخانا أسود كثيفا ، لو تحترق أفكارى وتذوب فى أنفاسى لزفرت أقدر منه . لا أريد أن يمسك سوء بسببى ، صدقت ، يجب أن تهلكى وحدك . متى يطوى الطريق ! » .

وعبرت السيارة جسر أبى العلاء فاندفعت الى داخلها موجات غامرة من هواء بارد رطب مشبع بأريج النيل فاستقبله الشاب بترحاب من يصلى نارا حامية على حين سرت فى أطرافها رعدة بثت فى حناياها خوفا غامضا ، ودام لحظات ثم ارتدت بعده لحالها الأولى من الاستسلام والجمود واليأس . وضاعفت السيارة من سرعتها حتى شارفت جسر أمبابة فخفت قوة اندفاعها رويدا ، ثم التفت السائق نحو حسنين متسائلا فقال له هذا بصوت منخفض « قف » ، ودفع له حسابه وغادر السيارة فغادرتها ايضا من الباب الآخر ، وما لبث التاكسى ان عاد من حيث أتى فوجدا نفسيهما وحيدين على كثب من مدخل الجسر . وكانت المصابيح المقامة على جانبى الجسر تشع نورا قويا أحال ظلمته نورا ، بينا أطبق الظلام على ضفاف النيل بطول امتداده شمالا وجنوبا - رغم المصابيح المتباعدة الخافتة - فبدت الأشجار المتراسة على جانبيه كأشباح عمالقة ، وكان المكان مقفرا الا من مار مسرع هنا أو هناك وقد تناوحت الفصون بأنين ريح باردة

كلما كف هبوبها تعالى هسيس النبات كالهيمس . لازما موقفهما
في جمود كالذهول ، ثم استرق اليها نظرة فرآها مقوسة الظهر
قليلا منكسة الرأس غير أن منظرها لم يلق من صدره إلا قلبا
متحجرا ونفسا خنق الهم فيه كل رحمة . وثار حنقه على
جموده فجأة فقال بغلظة :

— أنت مستعدة ؟

فغمغمت بصوت غريب لا عهد له به :

— نعم .

ونفذ الجواب على بساطته الى اعماقه فلم يعد يطبق موقفه ،
وتزحزح عنه في خطو ثقيل . وقبل أن يبتعد عنها ذراعين سمعها
تقول بتوسل :

— لا تذكر اساءتى ..

فند عنه صوت غليظ وهو يوسع خطاه كالهارب قائلا :

— فليرحمنا الله جميعا ..

تركها وحدها حينال الجسر ، وهدف الى الطوار الممتد الى يمين
الجسر على شاطئ النيل ، ثم جد في السير . حدثته نفسه
بالهرب ولكن قوة غشوم جعلت تجذبه الى الوراء ، وخارت
مقاومته عند شجرة صفصاف ضخمة الجذع على بعد ثلاثين مترا
من مبدا الطوار فتوارى وراءها في اعياء وارسل الطرف نحو
الجسر . ولاح له الجسر كتلة صماء متوهجة بأنوار المصابيح تمسك
من طرفيها بالشاطئين في عناد وتصميم كأنه وحش يفرز أنيابه في
فريسته . وعند رأس الجسر ، وعلى الجانب المواجه له ، رآها
تتحرك في خطو ثقيل خافضة الرأس ، يعلوها جمود غريب كأنها
تمشي في سبات . رآها في وضوح تام تحت الأضواء المشرقة فثبتت
عيناه على جانب وجهها المنعكس وهي تقطع الأرض قدما قدما
حتى بلغت المنتصف فتوقفت عن السير ، ورفعت رأسها ،
وأجالته فيما حولها ، ثم استدارت نحو السور وألقت ببصرها

الى الماء المصطخب الجارى . وجعل يكتنم انفاسه ويزدرد فى تشنج ريقه الجاف وهو يترقب ، ولكن ظهر فى تلك اللحظة عند الطرف الآخر من الجسر رجلان ومضيا يقطعان الجسر فى سرعة وهما يتحدثان . ثم لاح الترام القادم من امبابه وهو يتعطف نحو الجسر ممزقا الصمت بعجيجه ، فاسترد الشاب انفاسه ولكن الى حين قليل ، وسرعان ما ركبه القلق والضيق . وكان قلبه يخفق بعنف حتى خيل اليه من شدة وقع النبض فى اذنيه أن العالم الخارجى يسمع دقات قلبه . ثم مرت به لحظات فتوهم أنه يشهد منظرا غريبا عنه لا شأن له به ، ولكنها كانت لحظات ثم انقضت وغلبته الرهبة على ما فى نفسه جميعا فلم يعد يستشعر حقدا ولا غضبا ، ثم اعتكرت الأفكار فى رأسه فى ثوران فشعر فى حيرته بأنه يروم حل مسألة معقدة غامضة . ولكن لا قدرة له على حلها أو ليس لديه فسحة من الوقت للتفكير فيها ، فهو منها فى حيرة أى حيرة . وفى اثناء ذلك كان الرجلان قد عبرا الجسر ، وسبقهما الترام الى الطريق ، وما زالت الفتاة تحملق فى الماء . ونظر هنا وهناك فلم ير اثرا لانسان . وتجمعت نفسه فى لحظة ترقب مليئة بالفزع والرعب . رآها تعطف رأسها يمينا ثم شمالا . وبغته ، وفى حركة سريعة يأسه تسورت السور . وزلزل قلبه وهو يتابع حركاتها وجحظت عيناه ، لا يمكن . . . ليس هذا . . . أما هى فألقت بنفسها ، أو تركت نفسها تهوى . وقد انطلقت من حنجرتها صرخة طويلة كالعواء ثمثل لعيني المبتلى بسماعها وجه الموت ، فجأوبها بصرخة فزع ولكنها ضاعت فى صرختها . شعر وهى ترمى بنفسها أن بوسعه أن يجد للمسألة المعقدة التى تحيره حلا ، ولم يكن الحل فيما فعلت بنفسها ، كان يمكن أن تكون نهاية أخرى ، وكأنما حاول أن يستدرك الخطأ بصرخته ولكنها ضاعت ، ثم صك مسمعيه اصطدامها بالماء فندت عنه صرخة أخرى . .

وثب الى منحدر الشاطئ وعيناه تحمقان فى المكان الذى
 أبتلعها تحت الجسر ، ثم جمد فى موقفه لا يدري ماذا يفعل أو لا
 يدرك ماذا يريد . وظل على جموده يكاد يحجراه أن يلفظا عينيه
 من شدة الحملة . وتوقع مرات أن تطفو على ظهر الماء ثم أدرك
 أن النيل المندفع الى ما تحت الجسر لا بد أن يكون قد جرفها
 معه فلمعها تتخبط فى جوف الجسر أو تفوص فيما يليه من النهر .
 ومر بخاطره أن ينزع سترته ويقذف بنفسه وراءها لعله ينتشلها
 ولكنه لم يحرك ساكنا ، ووجد لهذه الخاطرة ما يشبه السخرية
 المريرة فازداد جمودا وشعر بأنه لم يعد لعقله من سيطرة عليه .
 وما يدري الا وصوت من وراء يسأله باهتمام محسوس :
 - اسمعت صرخة ؟

فالتفت الى وراء افراى شرطيا تنم حركاته على الاهتمام
 فقال له فى ذهول :

- نعم ، لعله غريق ...

وجعل الجندى يحدق فى الظلام فوق النهر ثم حث خطاه
 نحو الجسر . واعاده الجندى الى شىء من وعيه فتراجع الى موقفه
 الاول ولم يعد فى طاقته أن يضبط نفسه فاندفع عدوا صوب
 الجسر ثم عبره الى سوره المطل على الناحية الأخرى من النهر
 وألقى ببصره الى التيار المتدفق . وما لبث أن رأى آثار للحادثة
 لا تخطئها العين ، رأى قاربا يشق الماء فى سرعة قادمة من الشاطئ
 الأيسر نحو وسط النهر ، وسمع أصوات استغاثة وصراخا آتية
 من الشاطئ البعيد . وكان سطح النهر فيما يلى الجسر مضاء بما
 ينعكس عليه من أنوار المصابيح فتصفحته عيناه هنا وهناك ،

ولكنه لم يعثر على ضالته . ثم تبعت عيناه القارب الذى أخذ يقترب من الوسط شاقا سبيله فى الرقعة المضاءة ، ثم اندفع مع التيار حتى خرج عنها الى الظلام . ووجد نفسه يتساءل « ترى هل يفوز القارب فى سباق الموت هذا ؟ » . ولم يستتب حقيقة مشاعره ، او لعله هرب من باطنه بتركيز حواسه فى القارب فتابعه حتى رآه يتوقف عن التجديف ثم رأى شخصا يقفز منه الى الماء ، على حين تعالت أصوات الباقيين بالقارب . هذه هى اللحظة الفاصلة ، وتتابع خفقان قلبه حتى جف حلقه ، وحاول عبثا أن يرى شيئا خلال الظلمة التى لفت القارب أو ان يميز كلمة معبرة فى هدير الأصوات المختلفة ، ثم كل منه البصر فلم يعد يرى شيئا وكأنه عمى . وأخذ يتنبه - دون التفات - الى تجمهر خلق كثيرين حوله ، ثم سمع أحدهم يقول :

- القارب يعود الى الشاطئء فلعله انتشل الغريق ..

وتمشت فى اوصاله رجفة وتساءل « ترى أنجت أم هلكت ؟ .. . اذهب أم أفر ؟! » ولكنه تحول عن موقفه وسار فى اتجاه الشاطئء الذى يقصده القارب مدفوعا برغبة لا تقاوم فى تعذيب نفسه الى اقصى حد ، ولم يعد السير ليسعف جزعه فأطلق ساقيه للريح وعيناه تسبقانه الى بقعة من الشاطئء تجمهر عندها كثيرون . وبلغها والقارب يرسو الى الشاطئء فدنا من المتجمهرين بساقين متخاذلتين واندس بينهم وأطرافه ترتجف على رغمه ثملقى بعينين متحجرتين الى القارب الذى اكتنفه ستار خفيف من الظلمة . وكان يقف غير بعيد منه ضابط النقطة المواجهة للشاطئء ونفر من الشرطة . ثم بدت أشباح الرجال وهى تنتقل من القارب الى الشاطئء حاملة بينها الغريق فصاح بعض المتجمهرين :

- هل نجا من الفرق ؟

وأرھف السمع ليتلقى الجواب ولكن لم ينبس أحدهم بكلمة

ومضوا يرتقون منحدر الشاطئ في شيء من الجهد والأعين محدقة بهم حتى ميزت حقيقة الحمل فصاح بعضهم في ارتياح :
- انها امرأة يا ولداه !

وتساءل آخر :

- كيف غرقت ؟

فصاح غلام :

- رمت بنفسها من فوق الجسر فرأتها زوج النوتى واستصرخت زوجها لاتقاذها ...

وجعل حسنين يتبعهم ناظريه في طائف من الغرابة والذهول فلم يدر كيف يصدق أن هذه هى اخته وأن أحدا لا يعلم بهذه الحقيقة وأنه لا يفعل شيئا إلا أن يقف بينهم كالغريب المستطلع . وبلغ الرجال طوار الطريق وسرعان ما نشطوا الى عملية الاسعاف ليفرغوا مافى جوفها من ماء . وقد أمر الضابط العساكر بتشتيت المتجمهرين ولكن أحدا منهم لم يتعرض لحسنيين فلبث بمكانه جامدا لا يطرف لا تتحول عيناه عن الجسم المقوس الذى تعبت به أيدي الرجال الغليظة . وانتبه الضابط اليه فاقترب منه وحياه بايماة من رأسه وسأله :

- اشهدت الحادث !

فخرج الشاب عن ذهوله فى انزعاج ولكنه أجاب بعجلة :
- كلا ...

وأنام الرجل الفتاة على الأرض وجثا أحدهم الى جانبها ثم جس نبضها والصق أذنه بصدرها فوق القلب ، ثم رفع رأسه قائلا :

- صعد السر الالهى الى بارئه ، لا حول ولا قوة الا بالله ...
وعاود الشاب احساسه بالغرابة ، وغلبه الاحساس على ما عداه ، فلم يشعر لا بحزن ولا بارتياح ، ولم يتحرك فكره لا الى الأمام ولا الى الوراء ، وكأنه لم يطق هذا الفراغ المخيف فركز

انتباهه في الجثة الراقدة غير بعيد من قدميه . جرى بصره عليها وقد تبشر شعرها وتلصقت خصلات منه بخدها وجبينها ، وران على الوجه جمود صامت لا يبشر بيقظة وعلته زرقة مروعة ، وخيل اليه انه يرى اخا ديد دقيقة حول الفم الفاجر والعينين كأنها تقلصات العذاب الذي كان آخر عهده بالدنيا ، اما الفستان المشبع بالماء فقد لزق بالجسد وتلوثت أهدابه بتراب الأرض فتطينت . وبدت قدم ما تزال ممسكة بفردة حذائها والأخرى في جوربها . ورجع بصره الى وجهها فجاش صدره وامتلأ فراغه باضطراب وثوران « لماذا اضطرب هكذا ؟ ألم اقتنع حقا بأن هذه هي خير نهاية ! ألم اسقها الى الموت بنفسى ؟ ينبغي أن تطمئن نفسى . بيد اننى أتساءل عما داخلها من شعور وهى تهوى الى الماء ، وكيف تلقى جسمها النحيل صدمة الماء الغليظ ، وماذا دار بذهنها وهى تتخبط بين أمواجه ، واى جهد وجدت والطمى يكتم انفاسها ، واى عذاب ذاقت ورغبة الحياة تشب بها الى سطحه فيشدها باطنه الى الأعماق . ان محاولة الغريق اليائسة للنجاة أشبه بأحلام الشقى بالسعادة ، كلتاها أمنية ضائعة . أتراها ترانى الآن من عالمها الآخر ؟ أراضية هى أم غاضبة أم ساخرة ؟! ماذا ترى فى موقفى هذا ؟. لماذا وقع هذا كله ؟ » . وذكر بفتة أمه فحجبت صورتها الجثة عن عينيه ، وهز رأسه كأنما ليطردها عن مخيلته ، وصمم بقوة على أن يتحامى التفكير فيها ، وعاد بانتباهه المحموم الى الجثة . وعلى رغمه وجد نفسه يتذكر أياذى الفتاة عليه ، ما كانت تكن له من حب وما جادت به من كرم ، فما كان يخطر لها ببال أن تكون نهايتها على يديه . وشعر بأعياء وقنوط وتساءل فى جزع « لماذا هذا كله ؟! » . وأغمض عينيه لأنه لم يعد يطبق النظر اليها . كان رأسه محموما ، وغيض الهم كل رغبة فى الحياة فى قلبه ، وانقلب وجه الدنيا فى عينيه كهذا الوجه الأزرق الناطق بالعدم ، وقال لنفسه وهو يتنهد من الأعماق

« رباه ، لقد قضى على » . وسمع عند ذاك صوت الضابط وهو يأمر الشهود بالذهاب معه الى النقطة ، ثم رأى الجثة تحمل وراى القوم يمشون بها الى الجهة الأخرى من الطريق فأتبعهم طرفه حتى حال الظلام بينه وبينهم . وفى أقل من دقيقتين وجد نفسه وحيدا يكتنفه حفيف الأشجار التى تكاد تطبق أغصانها الغليظة الملتوية على البقعة كلها . وتراجع فى تراخ وترنح حتى اسند ظهره الى جذع شجرة وراح فيما يشبه السبات وكأنه يتردى فى هاوية معتمة ليس بها بارقة أمل . « قضى على . كنا جميعا فريسة للشقاء فما كان ينبغى لأحدنا ان يعين الشقاء على أخيه . ماذا فعلت ؟! انه اليأس الذى فعل ، ولكنى قضيت عليها بالعقاب الصارم . أى حق اتخذت لنفسى !. أحق انى الثائر لشرف اسرتنا ؟! انى شر الأسرة جميعا . حقيقة يعرفها الجميع ، واذا كانت الدنيا قبيحة فنفسى أقبح ما فيها . ما وجدت فى نفسى يوما الا تمنيات الدمار لمن حولى فكيف أبحث لنفسى أن اكون قاضيا وأنا رأس المجرمين !. لقد قضى على . » واللقى نظرة على ما حوله فى حيرة وخوف « أين اذهب ؟ أيمكن أن أمرق من هذه المحنة كما مرقت من غيرها من قبل ؟! . لشد ما تهزأ بى الأمانى . لا تبال ، حسن . . ولكن هل يسعك هذا ؟! . احمل نفسك بشرها وانشد النسيان ثم السعادة ، هاها . انى أصبت بنفسى بلا رحمة . طالما أحببت أن احو الماضى ، ولكن الماضى التهم الحاضر ، ولم يكن الماضى المخيف الا نفسى . لماذا لا أواصل الحياة بهذه الأعباء ؟ لا أستطيع . كان ينبغى أن أحب الحياة الى النهاية ، ومهما يكن من أمر ، ولكن فى طبيعتنا خطأ جوهرى لا أدريه . لقد قضى عليه . . . » .

واستوى واقفا اما لانه ضاق بمسنده واما لانه وجد حافزا جديدا ، وابتعد عن الشجرة وهو يلقي نظرة الوداع على نقطة البوليس ، ثم اتجه صوب الجسر . سار فى خطو ثقيل خافض

س ما في شعوره الا السأم والنزوع الى الهرب . « لا أريد
لك سوء بسببي . أمر ربنا . أمر الشيطان . النيل . ليكن
ا ساورك خوف . كلا ، ان ما ورائي في الحياة أقطع من الموت
ك مستعدة ؟ لماذا تغيب الملازم حسنين ، ألم يرسل خطا
ذار ؟ . رايت صاحب هذا الوجه عقب انتشار الجثة وسألا
شاهد الحادثة وكان مذهولا . « وبلغ الموضع نفسه من الجسد
تفق السور والقي ببصره الى الماء تتدافع أمواجه في هي
سطخاب . وأخلى رأسه من الفكر . « اذا أردت هلم .
رخ . فلاكن شجاعا ولو مرة واحدة . ليرحمنا الله . . »

مؤلفات الأ. ب. ب. محفوظ

الطبعة الأولى

١٩٣٢	(مترجم عن الانجليزية)	مصر القديمة
١٩٣٨	مجموعة أقاصيص	عمس الجنون
١٩٣٩	قصة تاريخية	بث الأقدار
١٩٤٣	» »	رادوبيس
١٩٤٤	» »	كفاح طيبة
١٩٤٥	» »	لقاهرة الجديدة
١٩٤٦	» »	خان الخليلي
١٩٤٧	» »	رقاق المدق
١٩٤٨	» »	السراب
١٩٤٩	» »	بداية ونهاية
١٩٥٦	» »	بين القصرين
١٩٥٧	» »	قصر الشوق
١٩٥٧	» »	السكرية
١٩٦١	» »	الللص والكلاب
١٩٦٢	» »	السان والحريف
١٩٦٣	قصص قصيرة	دنيا الله
١٩٦٤	رواية	الطريق
١٩٦٥	» »	بيت سيء السمعة
١٩٦٥	» »	قصص قصيرة
١٩٦٥	» »	رواية
١٩٦٦	» »	ثلاثة فوق النيل
١٩٦٦	» »	ميرامار

